الإيمان

تأليف

شيخ الإسلام ابن تيمية

تحقيق

عصام الدين الصبابطي

دار الحديث

القاهرة

الإيمان

الطبعة الثانية

١٤١٨هـ = ١٩٩٧م

دار الحديث

طبع . نشر . توزيع

١٤٠ شارع جوهر القائد أمام جامعة الأزهر

تليفون : ٥٩١٨٧١٩ - ٥٩١٩٦٩٧ - ٥١١٣٠٣٦ فاكس : ٥٩١٩٦٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـديـم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده ، ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

أما بعد

فهذا كتاب « الإيمان » لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تناول فيه بالبيان معنى الإيمان ، فجلَّى مسائله وحلَّ مشاكله ، وفكَّ معضلاته ، وشرح أقضياته ، وتعرَّض لكلام أهل الأهواء والبدع فكشف زيفه وأظهر عوراه ، ونصر مذهب أهل السنة والجماعة بدليل الكتاب والسنة فكان موفقًا منصورًا فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرًا ، وبارك الله فى « دار الحديث » وأصحابها لاهتمامهم بهذا الكتاب وإعادة نشره فى طبعة جديدة جيدة .

والله هو الموفق والهادى إلى صراطه المستقيم .

عصام الدين الصبابطى

فصل

التفريق بين الإسلام والإيمان :

فنقول : قد فرق النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث جبريل عليه السلام بين مسمى الإسلام ، ومسمى الإيمان ، ومسمى الإحسان فقال : « الإسلام أن تشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا » .

وقال : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره »[1] والفرق مذكور فى حديث عمر الذى انفرد به مسلم ، وفى حديث أبى هريرة الذى اتفق البخارى ومسلم عليه ، وكلاهما فيه أن جبريل جاءه فى صورة إنسان أعرابى فسأله ، وفى حديث عمر أنه جاء فى صورة أعرابى ، وكذلك فسر الإسلام فى حديث ابن عمر المشهور قال : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان »[2] .

وحديث جبريل يبين أن الإسلام المبنى على خمس هو الإسلام نفسه ، ليس المبنى غير المبنى عليه ، بل جعل النبى صلى الله عليه وسلم الدين ثلاث درجات ، أعلاها الإحسان ، وأوسطها الإيمان ، ويليه الإسلام ، فكل محسن مؤمن ، وكل مؤمن مسلم ، وليس كل مؤمن محسناً ، ولا كل مسلم مؤمناً كما سيأتى ببيانه إن شاء الله فى سائر الأحاديث كالحديث الذى رواه حماد بن زيد عن أيوب عن

---

(١) (حديث جبريل عليه السلام فى الإسلام والإيمان والإحسان أخرجه مسلم فى صحيحه (جـ١ - إيمان /١) ، وأبو داود (جـ٤ / ٤٦٩٥) ، والترمذى (جـ٥ / ٢٦١٠) ، وابن ماجه (جـ١ / ٦٣) .

(٢) (حديث بنى الإسلام على خمس حديث متفق على صحته أخرجه البخارى (جـ١ /٨ - فتح البارى) ، ومسلم (جـ١ - إيمان / ١٩) ، والترمذى (جـ٥ / ٢٦٠٩) ، والنسائى (جـ٨ ص١٠٨) .

أبى قلابة عن رجل من أهل الشام عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم[1] قال له : « أسلم تسلم » قال : وما الإسلام ؟ قال : « أن تسلم قلبك لله وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك » قال : فأى الإسلام أفضل ؟ قال : « الإيمان » قال : وما الإيمان ؟ قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت » قال : فأى الإيمان أفضل ؟ قال : « الهجرة » قال : وما الهجرة ؟ قال : « أن تهجر السوء » قال فأى الهجرة أفضل ؟ قال : « الجهاد » قال : وما الجهاد ؟ قال : « أن تجاهد أو تقاتل الكفار إذا لقيتهم ولا تغلل[2] ولا تجبن » .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عملان هما أفضل الأعمال إلا من عمل بمثلهما – قالها ثلاثًا – : حجة مبرورة أو عمرة » [رواه أحمد ومحمد بن نصر المروزى] .

ولهذا نذكر هذه المراتب الأربعة فنقول : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم ، والمهاجر من هجر السيئات ، والمجاهد من جاهد نفسه لله) وهذا مروى عن النبى صلى الله عليه وسلم من حديث عبد الله بن عمر وفضالة بن عبيد وغيرهما بإسناد جيد وهو فى السنن ، وبعضه فى الصحيحين[3] .

وقد ثبت عنه من غير وجه : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » ومعلوم أن من كان مأمونًا على الدماء والأموال كان المسلمون يسلمون من لسانه ويده ، ولولا سلامتهم منه لما

---

(١) (أحرجه البيهقى فى « شعب الإيمان » كما فى « كنز العمال » (حـ١ / ٣٠٥) عن أبى قلابة عن رجل من أهل الشام عن أبيه وفى إسناده جهالة ، ورواه أحمد فى مسنده (جـ٤ ص١١٤) من طريق أيوب عن أبى قلابة عن عمرو بن عبسة رضى الله عنه ، ولم أقف على أحد ذكر سماع أبى قلابة من عمرو بن عسة على ان له روايات عن غير عمرو بن عبسة من الصحابة قيل إنه لم يسمع منهم فالله تعالى أعلم .

(٢) (لا تغلّل) : والغُلُول بضم العين واللام هو الخيانة فى المغنم والسرقة من الغنيمة قبل القسمة ، وكل من خان فى شيء خُفْية فقد غلَّ .

(٣) (انظر فتح البارى (جـ١ / ١٠) ، وصحيح مسلم (جـ١ – إيمان / ٦٤ ، ٦٥) ، وسنن أبى داود (جـ٣ / ٢٤٨١) ، والترمذى (جـ٥ / ٢٦٢٧) ، والنسائى (جـ٨ ص١٠٥) ، والدارمى (رقائق /٤ ، ٨) ، وأحمد (جـ٢ ص١٦٣) .

ائتمنوه ، وكذلك فى حديث عبيد بن عمير عن عمرو بن عبسة .

معنى المؤمن والمسلم والمهاجر :

وفى حديث عبد الله بن عبيد بن عمير أيضًا عن أبيه عن جده أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الإسلام ؟ قال : « إطعام الطعام وطيب الكلام » قيل : فما الإيمان ؟ قال : « السماحة والصبر » قيل : فمن أفضل المسلمين إسلامًا ؟ قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » قيل : فمن أفضل المؤمنين إيمانًا ؟ قال : « أحسنهم خلقًا » قيل : فما أفضل الهجرة ؟ قال : « من هجر ما حرم الله عليه » ، قيل : أى الصلاة أفضل ؟ قال : « طول القنوت » قيل : أى الصدقة أفضل ؟ قال : « جهد مقل » ، قيل : أى الجهاد أفضل ؟ قال : « أن تجاهد بمالك ونفسك فيعقر جوادك ويراق دمك » قيل : أى الساعات أفضل ؟ قال : « جوف الليل الغابر »[1] .

ومعلوم أن هذا كله مراتب بعضها فوق بعض ، وإلا فالمهاجر لابد أن يكون مؤمنًا ، وكذلك المجاهد ، ولهذا قال : « الإيمان السماحة والصبر » وقال فى الإسلام : « إطعام الطعام وطيب الكلام » والأول مستلزم للثانى ، فإن من كان خلقه السماحة فعل هذا بخلاف الأول ، فإن الإنسان قد يفعل ذلك تخلقًا ولا يكون فى خلقه سماحة وصبر ، وكذلك قال : أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده ، وقال : أفضل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا . . ومعلوم أن هذا يتضمن الأول ، فمن كان حسن الخلق فعل ذلك .

رأى الحسن البصرى :

قيل للحسن البصرى ما حسن الخلق ؟ قال بذل الندى ، وكف الأذى ، وطلاقة الوجه . فكف الأذى جزء من حسن الخلق ، وستأتي الأحاديث

---

(١) (انظر مسند أحمد (حـ٤ ص٣٨٥) .

(جوف الليل الغابر) : الغابر : الباقى والمراد ، ثلث الليل الآخر .

الصحيحة بأنه جعل الأعمال الظاهرة من الإيمان كقوله : « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إلـٰه إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق »[1] وقوله لوفد عبد القيس : « آمركم بالإيمان بالله وحده ، أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ شهادة أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له ، وإقام الصلاة ؛ وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم »[2] .

ومعلوم أنه لم يرد أن هذه الأعمال تكون إيمانًا بالله بدون إيمان القلب لما قد أخبر فى غير موضع أنه لابد من إيمان القلب ، فعلم أن هذه مع إيمان القلب هو الإيمان ، وفى المسند عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الإسلام علانية والإيمان فى القلب »[3] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهى القلب »[4] فمن صلح قلبه صلح جسده قطعًا بخلاف العكس .

وقال سفيان بن عيينة : كان العلماء فيما مضى يكتب بعضهم إلى بعض بهؤلاء الكلمات : من أصلح سريرته أصلح الله علانيته ، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس ، ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه [رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الإخلاص] .

فعلم أن القلب إذا صلح بالإيمان صلح الجسد بالإسلام وهو من الإيمان ، يدل

---

(١) (حديث صحيح رواه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه ، وهو للبخارى أيضًا ولكن بلفظ : « بضع وستون شعبة » ، وللترمذى بلفظ : « أربعة وستون بابًا » جميعًا من حديث أبى هريرة .

(٢) (حديث وفد عبد القيس مخرج فى الصحيحين والمسند فى كتب السنن .

(٣) (الحديث أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه كما فى كنز العمال (جـ١ / ١٩) . وأخرجه أحمد فى المسند ، والنسائى فى سننه وأبو يعلى فى مسنده كما فى الكنز أيضًا (جـ١ / ٤٤) وأشار إليه مصنفه بالتصحيح ، لكن الألبانى ضعفه ، انظر ضعيف الجامع الصغير ، وتخريجه على شرح الطحاوية (ص ٣٩٠) . (جـ٢ / ٢٢٨٠) .

(٤) (أخرجه أحمد (جـ٤ ص٢٧٠ ، ٢٧٤) ، وهو مخرج أيضًا فى الصحيحين وفى غيرهما .

ذلك على أنه قال فى حديث جبريل : « هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم » فجعل الدين هو الإسلام والإيمان والإحسان ، فتبيَّن أن ديننا يجمع الثلاثة ، لكن هو درجات ثلاث : مسلم ثم مؤمن ثم محسن ، كما قال تعالى :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُم ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ومنهُم سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [سورة فاطر ، الآية : ٣٢] . والمقتصد والسابق كلاهما يدخلان الجنة بلا عقوبة بخلاف الظالم لنفسه ، وهكذا من أتى بالإسلام الظاهر مع تصديق القلب ، ولكن لم يقم بما يجب عليه من الإيمان الباطن فإنه معرَّض للوعيد ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله .

وأما الإحسان فهو أعم من جهة نفسه ، وأخص من جهة أصحابه من الإيمان ، والإيمان أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أصحابه من الإسلام . فالإحسان يدخل فيه الإيمان ، والإيمان يدخل فيه الإسلام والمحسنون أخص من المؤمنين ، والمؤمنون أخص من المسلمين ، وهذا كما يقال فى الرسالة والنبوة ، فالنبوة داخلة فى الرسالة ، والرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها ، فكل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولًا ؛ فالأنبياء أعم والنبوة نفسها جزء من الرسالة . فالرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف النبوة فإنها لا تتناول الرسالة .

والنبى ﷺ فسر الإسلام والإيمان بما أجاب به كما يجاب عن المحدود بالحد إذا قيل : ما كذا ؟ قيل كذا وكذا ، كما فى الحديث الصحيح لمَّا قيل : ما الغيبة ؟ قال : « ذكرك أخاك بما يكره »(١) وفى الحديث الآخر :(٥) « الكبر بطر الحق وغمط الناس »(٢) وبطر الحق جحده ودفعه ، وغمط الناس احتقارهم وازدراؤهم . وسنذكر إن شاء الله تعالى سبب تنوع أجوبته وأنها كلها حق .

---

(١) (أخرجه مسلم (جـ٤ – بر / ٧٠) ، والترمذى (جـ٤ / ١٩٣٤) ، وأحمد (جـ٢ ص٣٨٤) عن أبى هريرة .

(٢) (صحيح أخرجه مسلم (جـ١ – إيمان / ١٤٧) عن ابن مسعود .

ولكن المقصود أن قوله : « بنى الإسلام على خمس » كقوله : الإسلام هو الخمس ، كما ذكر فى حديث جبريل ، فإن الأمر المركب من أجزاء تكون الهيئة الاجتماعية فيه مبنية على تلك الأجزاء ومركبة منها ، فالإسلام مبنى على هذه الأركان ، وسنبيِّن إن شاء الله اختصاص هذه الخمس بكونها هى الإسلام وعليها بُنى الإسلام ، ولم خصصت بذلك دون غيرها من الواجبات ؟

وقد فسر الإيمان فى حديث وفد عبد القيس بما فسر به الإسلام هنا ، لكنه لم يذكر فيه الحج وهو متفق عليه ، فقال : « آمركم بالإيمان بالله وحده ، هل تدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : شهادة أن لا إلٰه إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم أو خمسًا من المغنم » .

وقد روى فى بعض طرقه : « الإيمان بالله وشهادة أن لا إلٰه إلا الله » لكن الأول أشهر ، وفى رواية أبى سعيد : « آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع : اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا » وقد فسر فى حديث شعب الإيمان بهذا وبغيره ، فقال : « الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة ، أفضلها قول لا إلٰه إلا الله وأدناه إماطة الأذى[1] عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان » .

وثبت عنه من وجوه متعددة أنه قال : « الحياء شعبة من الإيمان »[2] من حديث ابن عمر وابن مسعود وعمران بن حصين ، وقال أيضًا : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين »[3] ، وقال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[4] ، وقال : « والله لا

---

(١) (إماطة الأذى عن الطريق) : أى إزالته وإبعاده عنه .

وانظر هامش (١) ص ٩ .

(٢) (حديث متفق على صحته أخرجه البخارى كما فى فتح البارى (جـ١ / ٩) عن أبى هريرة ، (جـ١ / ٢٤) عن ابن عمر ، ومسلم (جـ١ – إيمان / ٥٩) عن ابن عمر كما أخرجه أصحاب السنن الأربعة وغيرهم

(٣) (صحيح أخرجه البخارى جـ١ / ١٥) ، ومسلم (جـ١ – إيمان / ٦٩ ، ٧٠) ، والنسائى (جـ٨ ص١١٥) ، وابن ماحه (جـ١ / ٦٧) جميعًا من حديت أنس .

(٤) (حديث متفق على صحته أخرجه أحمد والشيخان وغيرهم ؛ انظر فتح البارى (حـ١ / ١٣) ، وصحيح مسلم (جـ١ – إيمان / ٧١) ، والترمذى (جـ٤ / ٢٥١٥) ، والنسائى (جـ٨ ص١١٥) ، وأحمد (حـ٣ ص١٧٦) ، والدارمى (استئذان / ٥) ، وابن ماجه (حـ١ / ٦٦) .

يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن » قيل : من يا رسول الله ؟ قال : « الذى لا يأمن جاره بوائقه »[1] ، وقال : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »[2] ، وقال : « ما بعث الله من نبيٍّ إلَّا كان فى أمته قوم يهتدون بهديه ويستنون بسنَّته ، ثم إنه يخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبَّة خردل »[3] وهذا من أفراد مسلم .

وكذلك فى أفراد مسلم قوله : « والذى نفسى بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا ، أَوَ لا أدلُّكم على شىء إن فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم »[4] .

وقال فى الحديث المتفق عليه من رواية أبى هريرة ، ورواه البخارى من حديث ابن عباس ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب النهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن »[5] .

---

(١) (صحيح أخرجه البخارى (جـ١٠ / ٦٠١٦ - فتح البارى) ، ومسلم (جـ١ - إيمان / ٧٣) ، والترمذى (جـ٤ / ٢٥٢٠) ، وأحمد (جـ٢ ص٢٨٨) .

(بوائقه) : البوائق جمع بائقة وهى الداهية والشرّ .

(٢) (أخرجه مسلم (جـ١ - إيمان / ٧٨) ، والترمذى (جـ٤ / ٢١٧٢) ، والنسائى (جـ١ ص١١١ ، ١١٢) ، وأحمد (جـ٣ ص٢٠) .

(٣) (أخرجه مسلم (جـ١ - إيمان / ٨٠) من حديث ابن مسعود وهو من أفراد مسلم كما قال الإمام ابن تيمية رحمه الله انظر صحيح مسلم بتخريجنا ط « دار الحديث » .

(٤) أخرجه مسلم (جـ١ - إيمان / ٩٣ ، ٩٤) من طريق الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة مرفوعًا به ، وقد وهم الإمام ابن تيمية رحمه الله إذ عدَّه من أفراد مسلم فقد أخرجه أبو داود فى سننه (جـ٤ / ٥١٩٣) ، وابن ماجه (جـ١ / ٦٨) كلاهما من طريق الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة به نحوه ، كما أخرجه الترمذى (جـ٤ / ٢٥١٠) بنحوه جزءًا من حديث من رواية الزبير بن العوام ، وقيل عن مولى الزبير .

(٥) (حديث صحيح أخرجه البخارى (جـ١٠ / ٥٥٧٨ - فتح البارى) ، ومسلم (جـ١ - إيمان / ١٠٠) ، وابن ماجه (جـ٢ / ٣٩٣٦) ، والدارمى (أضاحى / ٢٣) ، وأحمد (جـ٢ ص٣٨٦) جميعًا من حديث أبى هريرة .

اقتران الإيمان بالإسلام والعمل :

فيقال اسم الإيمان تارة يذكر مفردًا غير مقرون باسم الإسلام ولا باسم العمل الصالح ولا غيرهما ، وتارة يذكر مقرونًا إما بالإسلام كقوله فى حديث جبريل : ما الإسلام وما الإيمان . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [سورة الأحزاب ، الآية : ٣٥] . وقوله عزّ وجلّ : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٤] . وقوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة الذاريات ، آيتا : ٣٥ ، ٣٦] . وكذلك ذكر الإيمان مع العمل الصالح ؛ وذلك فى مواضع من القرآن كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾[سورة البقرة ، الآية : ٢٧٧] .

وإمَّا مقرونًا بالذين أوتوا العلم كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ ﴾ [سورة الروم ، الآية : ٥٦] ، وقوله : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [سورة المجادلة ، الآية : ١١] ، وحيث ذكر الذين آمنوا فقد دخل فيهم الذين أوتوا العلم ، فإنهم خيارهم ، قال تعالى : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٧] . وقال : ﴿ لَّـٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١٦٢] .

ويذكر أيضًا لفظ المؤمنين مقرونًا بالذين هادوا والنصارى والصابئين ، ثم يقول : ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٦٢] . فالمؤمنون فى ابتداء الخطاب غير الثلاثة ، والإيمان الآخر عمَّهم كما عمهم فى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَـٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ [سورة البينة ، الآية : ٧] ، وسنبسط هذا إن شاء الله تعالى .

الأعمال مع نفى الإيمان :

فالمقصود هذا العموم والخصوص بالنسبة إلى ما فى الباطن والظاهر من الإيمان ، وأما العموم بالنسبة إلى الملل فتلك مسألة أخرى ، فلما ذكر الإيمان مع

الإسلام ، جعل الإسلام هو الأعمال الظاهرة : الشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج ، وجعل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وهكذا فى الحديث الذى رواه أحمد عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الإسلام علانية والإيمان فى القلب »[1] .

وإذا ذكر اسم الإيمان مجرَّدًا دخل فيه الإسلام والأعمال الصالحة ، كقوله فى حديث الشعب : « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق »[2] وكذلك سائر الأحاديث التى يجعل فيها أعمال البر من الإيمان .

ثم إن نفى الإيمان عند عدمها دل على أنها واجبة ، وإن ذكر فضل إيمان صاحبها ولم ينف إيمانه دل على أنها مستحبة . فإن الله ورسوله لا ينفى اسم مسمى أمر أمَرَ الله به ورسوله إلا إذا ترك بعض واجباته ، كقوله : « لا صلاة إلا بأم القرآن »[3] وقوله : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له »[4] ونحو ذلك .

فأما إذا كان الفعل مستحبًّا فى العبادة لم ينفها الانتفاء المستحب ، فإن هذا لو جاز لجاز أن ينفى عن جمهور المؤمنين اسم الإيمان والصلاة والزكاة والحج ، لأنه ما من عمل إلا وغيره أفضل منه ، وليس أحد يفعل أفعال البر مثل ما فعلها النبى صلى الله عليه وسلم ، بل ولا أبو بكر ولا عمر ، فلو كان من لم يأت بكمالها المستحب يجوز نفيها عنه ، لجاز أن ينفى عن جمهور المسلمين من الأولين والآخرين ، وهذا لا يقوله عاقل .

---

(١) (سبق تخريجه انظر الهامش رقم (٣) ص ٩ .

(٢) (انظر هامش رقم (١) ص ٧ ، ورقم (١ ، ٢)ص ١١ .

(٣) (انظر كنز العمال (جـ٧ / ١٩٦٩٥ - ١٩٦٩٧) .

(٤) (انظر كنز العمال (جـ٣ / ٥٥٠٠ - ٥٥٠٣) .

وصحيح الجامع الصغير للألبانى (جـ٦ / ٧٠٥٦) .

فمن قال إن النفى هو الكمال ، فإن أراد أنه نفى الكمال الذى يذم تاركه ويتعرض للعقوبة فقد صدق ، وإن أراد أنه نفى الكمال المستحب ، فهذا لم يقع قط فى كلام الله ورسوله ، ولا يجوز أن يقع ، فإن من فعل الواجب كما وجب عليه ، ولم ينتقص من واجبه شيئًا ، لم يجز أن يقال ما فعلته لا حقيقة ولا مجازًا ، فإذا قال للأعرابى المسيء فى صلاته : « ارجع فصلِّ فإنك لم تصلِّ » ، وقال لمن صلَّى خلف الصف وقد أمره بالإعادة : « لا صلاة لفذ خلف الصف » كان لترك واجب ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِم وأَنْفُسِهِم فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُولَـٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٥] . يبين أن الجهاد واجب ، وترك الارتياب واجب ، والجهاد وإن كان فرضًا على الكفاية ، فجميع المؤمنين يخاطبون به ابتداء فعليهم كلهم اعتقاد وجوبه والعزم على فعله إذا تعين . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : من مات ولم يغز ولم يحدِّث نفسه بغزو مات على شعبة نفاق » رواه مسلم . فأخبر أنه من لم يهم به كان على شعبة نفاق .

المؤمن الحق :

وأيضا فالجهاد جنس تحته أنواع متعددة[1] ، ولابد أن يجب على المؤمن نوع من أنواعه ، وكذلك قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُم وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُم إِيمَانًا وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ ومِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ * أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٢ - ٤] . هذا كله واجب ، فإن التوكل على الله واجب من أعظم الواجبات كما أن الإخلاص لله واجب ، وحب الله ورسوله واجب وقد أمر الله بالتوكل فى غير آية أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة ، ونهى عن التوكل على غير الله ، قال تعالى : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [سورة

---

(١) من أنواع الجهاد بذل النفس أو المال فى سبيل الله ، أو بكلمة حق تقال عند سلطان جائر ، أو بمقاومة أهواء النفس وشهواتها وتربيتها وتقويمها على الطاعات وفعل الخيرات .

هود ، الآية : ١٢٣] . وقال تعالى : ﴿ اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وعَلَى اللهِ فَلْيَتَوكَّلِ الْمُؤْمِنونَ ﴾ [سورة التغابن ، الآية : ١٣] . وقال تعالى : ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُم وَإِنْ يَخْذُلْكُم فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُم مِّنْ بَعْدِه وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٦٠] . وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى يا قَومِ إِنْ كُنتُم آمَنْتُم بِاللهِ فَعَلَيهِ توَكَّلُوا إِن كُنتُم مُسْلِمِينَ ﴾ [سورة يونس ، الآية : ٨٤] .

وأما قوله : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُم وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيهِمْ آياتُهُ زادَتْهُم إيمانًا ﴾ فيقال : من أحوال القلب وأعماله ما يكون من لوازم الإيمان الثابتة فيه ، بحيث إذا كان الإنسان مؤمناً لزم ذلك بغير قصد منه ولا تعمد له ، وإذا لم يوجد دلَّ على أن الإيمان الواجب لم يحصل فى القلب ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَومًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ ورَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوْا آبَاءَهُم أَوْ أَبْنَاءَهُم أَوْ إِخْوَانَهُم أَوْعَشِيرَتَهُم أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [سورة المجادلة ، الآية : ٢٢] . فأخبر أنك لا تجد مؤمناً يواد المحادِّين لله ورسوله ، فإن نفس الإيمان ينافى موادته كما ينفى أحد الضدَّين الآخر ، فإذا وجد الإيمان انتفى ضده وهو موالاة أعداء اللَّه ، فإذا كان الرجل يوالى أعداء الله بقلبه كان ذلك دليلا على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب .

ومِثْله قوله تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّونَ الَّذِينَ كَفَرُوْا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُم أَنْفُسُهُم أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيهِمْ وَفِى العَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ والنَّبِىِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيهِ مَا اتَّخَذُوهُم أَوْلِيَاءَ وَلٰكِنَّ كَثِيْرًا مِنْهُم فَاسِقُونَ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٨٠ ، ٨١] . فذكر جملة شرطية تقتضى أنه إذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف « لو » التى تقتضى مع الشرط انتفاء المشروط فقال : ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بَاللَّهِ والنَّبِىِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ فدلَّ على أن الإيمان المذكور ينفى اتخاذهم أولياء ويضاده ، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب ، ودل ذلك على أن من

اتخذهم أولياء ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان وما أنزل إليه .

ومثله قوله تعالى : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٥١] . فإنه أخبر فى تلك الآيات أن متولِّيهم لا يكون مؤمنًا ، وأخبر هنا أن متولِّيهم هو منهم ، فالقرآن يصدق بعضه بعضًا . قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ [سورة الزمر ، الآية : ٢٣] . وكذلك قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ [سورة النور ، الآية : ٦٢] . دليل على أن الذهاب المذكور بدون استئذانه لا يجوز ، وأنه يجب ألا يذهب حتى يستأذن ، فمن ذهب ولم يستأذن كان قد ترك بعض ما يجب من الإيمان ، فلهذا نفى عنه الإيمان ، فإن حرف « إنما » يدل على إثبات المذكور ونفى غيره .

ومن الأصوليين من يقول : إن « إن » للإثبات و « ما » للنفى فإذا جمع بينهما دلَّت على النفى والإثبات ، وليس كذلك عند أهل العربية ومن يتكلم فى ذلك بعلم ، فإن « ما » هذه هى الكافة التى تدخل على إن وأخواتها فتكفها عن العمل ، لأنها إنما تعمل إذا اختصت بالجمل الاسمية فتغير معناها وعملها جميعًا بانضمام ما إليها وكذلك كأنما وغيرها .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِم وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة النور ، الآيات : ٤٧ – ٥١] .

فإن قيل : إذا كان المؤمن حقًا هو الفاعل للواجبات التارك للمحرمات فقد قال : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [سورة الأنفال : ٤] ولم يذكر إلا خمسة أشياء ، وكذلك قال في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٥] . وكذلك قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [سورة النور ، الآية : ٦٢] .

قيل : عن هذا جوابان :

أحدهما : أن يكون ما ذكر مستلزمًا لما ترك ، فإنه ذكر وجل قلوبهم إذا ذكر الله ، وزيادة إيمانهم إذا تليت آياته مع التوكل عليه وإقام الصلاة على الوجه المأمور به باطنًا وظاهرًا ، وكذلك الإنفاق من المال والمنافع ، فكان هذا مستلزمًا الباقي ؛ فإن وجل القلب عند ذكر الله يقتضي خشيته والخوف منه ، وقد فسروا وجلت بفرقت وفي قراءة ابن مسعود : « إذا ذكر الله فرقت قلوبهم » وهذا صحيح ، فإن الوجل في اللغة هو الخوف ، يقال : حمرة الخجل وصفرة الوجل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [سورة المؤمنون ، الآية : ٦٠] . قالت عائشة : يا رسول الله هو الرجل يزني ويسرق ويخاف أن يعاقب ؟ قال : « لا يا بنت الصديق ، هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه » .

وقال السدي في قوله تعالى : ﴿ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٢] . هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية فينزع عنه ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [سورة النازعات ، الآية : ٤٠] . وقوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [سورة الرحمن ، الآية : ٤٦] . قال مجاهد وغيره من المفسرين هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه بين يدي الله فيتركها خوفًا من الله .

الثاني : وإذا كان وجل القلب من ذكره يتضمن خشيته ومخافته فذلك يدعو

صاحبه إلى فعل المأمور وترك المحظور . قال سهل بن عبد الله : ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى ، ولا طريق إليه أقرب من الافتقار ، وأصل كل خير فى الدنيا والآخرة الخوف من الله ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الغَضَبُ أَخَذَ االأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَّرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِم يَرْهَبُون ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ١٥٤] . فأخبر أن الهدى والرحمة للذين يرهبون الله .

قال مجاهد وإبراهيم : هو الرجل يريد أن يذنب الذنب فيذكر مقام الله فيدع الذنب ، رواه ابن أبى الدنيا عن أبى الجعد عن شعبة عن منصور عنهما فى قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتان ﴾ وهؤلاء هم أهل الفلاح المذكورون فى قوله تعالى : ﴿ أُولٰئِكَ عَلى هُدًى مِنْ رَّبِّهِمْ وأُولئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٥] . وهم المؤمنون وهم المتقون المذكورون فى قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ * ذٰلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى للمتَّقينَ ﴾ [سورة البقرة ، آيتا : ١ ، ٢] . كما قال فى آية البر : ﴿ أُولٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وأُولٰئِكَ هُمُ المتَّقُون ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٧٧] . وهؤلاء هم المتبعون للكتاب كما فى قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ ولَا يشْقَى ﴾ [سورة طه ، الآية : ١٢٣] . وإذا لم يضل فهو متبع مهتد ، وإذا لم يشق فهو مرحوم ، وهؤلاء هم أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، فتبين أن أهل رهبة الله يكونون متقين لله مستحقين لجنته بلا عذاب ، وهؤلاء هم الذين أتوا بالإيمان الواجب .

ومما يدل على هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّما يخْشَى اللّهَ مِن عِبَادِهِ العُلماءُ ﴾ [سورة فاطر ، الآية : ٢٨] . والمعنى أنه لا يخشاه إلا عالم ، فقد أخبر الله أن كل من خشى الله فهو عالم ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ أَمَّن هُوَ قانِتٌ آنَاءَ اللَّيل ساجِدًا وقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ ويرْجُو رَحْمةَ رَبِّه قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لَا يعْلَمُون ﴾ [سورة الزمر ، الآية : ٩] . والخشية أبدًا متضمنة للرجاء ، ولولا ذلك لكانت قنوطًا ، كما أن الرجاء يستلزم الخوف ولولا ذلك لكان أمنًا ، فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل

العلم الذين مدحهم الله .

وقد روى عن أبى حيان التيمى أنه قال : العلماء ثلاثة ، فعالم بالله ليس عالمًا بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس عالمًا بالله ، وعالم بالله عالم بأمر الله ، فالعالم بالله هو الذى يخافه ، والعالم بأمر الله هو الذى يعلم أمره ونهيه ، وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « والله إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بحدوده »[1] وإذا كان أهل الخشية هم العلماء الممدوحون فى الكتاب والسنة لم يكونوا مستحقين للذم ، وذلك لا يكون إلا مع فعل الواجبات ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِم رَبُّهُم لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * ولَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرضَ مِنْ بَعْدهمْ ذَٰلِكَ لمَنْ خافَ مقَامِي ونَخافَ وَعِيد ﴾ [سورة إبراهيم ، الآية : ١٣ ، ١٤] . وقوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَان ﴾ فوعد بنصر الدنيا وبثواب الآخرة لأهل الخوف ، وذلك إنما يكون لأنهم أدوا الواجب ، فدل على أن الخوف يستلزم فعل الواجب ، ولهذا يقال للفاجر لا يخاف الله ، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّما التَّوبةُ عَلَى اللَّهِ للَّذِينَ يَعمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١٧] . .

قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد عن هذه الآية فقالوا لى : كل من عصى الله فهو جاهل ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب ؛ وكذلك قال سائر المفسرين . قال مجاهد : كل عاص فهو جاهل حين معصيته ، وقال الحسن وقتادة وعطاء والسدى وغيرهم : إنما سموا جهالًا لمعاصيهم لا أنهم غير مميزين ، وقال الزجاج : ليس معنى الآية أنهم يجهلون أنه سوء ، لأن المسلم لو أتى ما يجهله كان كمن لم يواقع سوءًا ، وإنما يحتمل أمرين :

أحدهما : أنهم عملوه وهم يجهلون المكروه فيه .

والثانى : أنهم أقدموا على بصيرة وعلم بأن عاقبته مكروهة وآثروا العاجل على

---

(١) حديث صحيح متفق عليه أخرجه البخارى (جـ٩ / ٥٠٦٣) عن أنس ، ومسلم (جـ٢ – صيام / ٧٩) ، عن عائشة ، وأبو داود (جـ٢ / ٢٣٨٩) ، ومالك فى الموطأ (جـ١ – صيام /٩) ، وأحمد فى المسند (جـ٦ ص ١٥٦) ثلاثتهم أيضًا عن عائشة رضى الله عنها .

الآجل ، فسموا جهالًا لإيثارهم القليل على الراحة الكثيرة والراحة الدائمة .

فقد جعل الزجاج الجهل إما عدم العلم بعاقبة الفعل وإما فساد الإرادة ، وقد يقال هما متلازمان ؛ وهذا مبسوط فى الكلام مع الجهمية .

والمقصود هنا أن كل عاص لله فهو جاهل ، وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله ، وإنما يكون جاهلًا لنقص خوفه من الله ، إذ لو تم خوفه لم يعص ، ومنه قول ابن مسعود رضى الله عنه : كفى بخشية الله علمًا ، وكفى بالاغترار بالله جهلًا ، وذلك لأن تصور المخوف يوجب الهرب منه ، وتصور المحبوب يوجب طلبه فإذا لم يهرب من هذا ولم يطلب هذا دل على أنه لم يتصوره تصورًا تامًا ، ولكن قد يتصور الخبر عنه ؛ وتصور الخبر وتصديقه وحفظ حروفه غير تصور المخبر به ، وكذلك إذا لم يكن المتصور محبوبًا ولا مكروهًا ، فإن الإنسان يصدق بما هو مخوف على غيره ومحبوب لغيره ، ولا يورثه ذلك هرباً ولا طلباً ؛ وكذلك إذا أخبر بما هو محبوب له ومكروه ولم يكذب المخبر ، بل عرف صدقهم لكن قلبه مشغول بأمور أخرى عن تصور ما أخبر به فهذا لا يتحرك للهرب ولا للطلب .

العلم نوعان :

وفى الكلام المعروف عن الحسن البصرى ويروى مرسلًا عن النبى صلى الله « العلم علمان فعلم القلب وعلم على اللسان ، فعلم القلب هو العلم النافع ، وعلم اللسان حجة الله علي عباده »[1] .

وقد أخرجا فى الصحيحين عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى

---

(١) سنن الدارمي مقدمة / ٣٤ .

لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها »[1] .

وهذا المنافق الذى يقرأ القرآن يحفظه ويتصور معانيه وقد يصدق أنه كلام الله ، وأن الرسول حق ولا يكون مؤمنًا ، كما أن اليهود يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وليسوا مؤمنين ، وكذلك إبليس وفرعون وغيرهما لكن من كان كذلك لم يكن حصل له العلم التام والمعرفة التامة ، فإن ذلك يستلزم العمل بموجبه لا محالة ، ولهذا صار يقال لمن لم يعمل بعلمه إنه جاهل كما تقدم .

وكذلك لفظ العقل وإن كان هو فى الأصل مصدر عقل يعقل عقلًا ، وكثير من النظار جعله من جنس العلوم فلابد أن يعتبر مع ذلك أنه علم بموجبه ، فلا يسمى عاقلًا إلا من عرف الخير فطلبه ، والشر فتركه ، ولهذا قال أصحاب النار : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فى أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [سورة الملك ، الآية : ١٠] . وقال : ﴿ تَحْسَبُهم جَميعًا وقلُوبُهم شتَّى ذٰلِكَ بأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الحشر ، الآية : ١٤] . ومتى فعل ما يعلم أنه يضره فمثل هذا ما له عقل ، فكما أن الخوف من الله يستلزم العلم به ، فالعلم به يستلزم خشيته ، وخشيته تستلزم طاعته ، فالخائف من الله ممتثل لأوامره مجتنب لنواهيه ، وهذا هو الذى قصدنا بيانه أولًا ، ويدل على ذلك أيضًا قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * ويَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى * الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَى ﴾ [سورة الأعلى ، الآيات : ٩ — ١٢] . .

فأخبر أن من يخشاه يتذكر والتذكر هنا مستلزم لعبادته ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى يُرِيكُم آياتِهِ ويُنَزِّلُ لَكُمْ منَ السَّمَاءِ رِزْقًا وما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾ [سورة غافر ، الآية : ١٣] . وقال : ﴿ تَبْصِيرةً وذِكْرى لِكُلِّ عبْدٍ مُنيبٍ ﴾

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد وأصحاب الكتب الستة وغيرهم . انظر فتح البارى (جـ٩ / ٥٠٢٠) ، وصحيح مسلم (جـ١ – مسافرين / ٢٤٣) ، وسنن أبى داود (جـ٤ / ٤٨٣٠) ، والترمذى (جـ٥ / ٢٨٦٥) ، والنسائى (جـ١ /٨ ص١٢٥) ، وابن ماجه (جـ / ٢١٤). والدارمي (فضائل القرآن / ٨) ، وأحمد (جـ٤ ص٣٩٧) .

[سورة ق ، الآية : ٨] . ولهذا قالوا فى قوله : ﴿ سَيَذَّكَّر مَنْ يخْشَى ﴾ سيتعظ بالقرآن من يخشى الله . وفى قوله : ﴿ وما يتَذَكَّر إِلَّا مَنْ يُنيبُ ﴾ إنما يَتَّعِظُ من يرجع إلى الطاعة ، وهذا لأن التذكر العام يستلزم العمل بما نذكره ، فإن تذكر محبوبًا طلبه ، وإن تذكر مرهوبًا هرب منه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ سَواءٌ عَلَيْهم أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرهم لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٦] وقال سبحانه : ﴿ إِنَّما تُنْذِرُ مَن اتَّبعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَـٰنَ بِالغَيْبِ ﴾ [سورة يس ، الآية : ١١] . فنفى الإنذار عن غير هؤلاء مع قوله : ﴿ سَواءٌ عَلَيْهِم أَأَنْذَرْتَهُم أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُم لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فأثبت لهم الإنذار من وجه ونفاه عنهم من وجه ، فإن الإنذار هو الإعلام بالخوف فالإنذار مثل التعليم والتخويف ، فمن علمته فتعلم فقد تم تعليمه ، وآخر يقول علمته فلم يتعلم ، وكذلك من خوفته فخاف فهذا هو الذى تم تخويفه ، وأما من خوف فما خاف فلم يتم تخويفه ، وكذلك من هديته فاهتدي تم هداه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ هُدًى للمتَّقِينَ ﴾ ومن هديته فلم يهتد كما قال : ﴿ وأَمَّا ثَمُودُ فَهَديْناهُم فاسْتحبُّوا العَمَى عَلَى الهُدى ﴾ [سورة فصلت ، الآية : ١٧] . فلم يتم هداه كما تقول قطعته فانقطع وقطعته فما انقطع .

فالمؤثر التام يستلزم أثره ، فمتى لم يحصل أثره لم يكن تامًّا ، والفعل إذا صادف محلًا قابلًا تم وإلا لم يتم ، والعلم بالمحبوب يورث طلبه ، والعلم بالمكروه يورث تركه ، ولهذا يسمى هذا العلم الداعى ، ويقال الداعى مع القدرة يستلزم وجود المقدور ، وهو العلم بالمطلوب المستلزم لإرادة المعلوم المراد ، وهذا كله مع صحة الفطرة وسلامتها وأما مع فسادها فقد يُحِسُّ الإنسان باللذيذ فلا يجد له لذة بل يؤلمه ، وكذلك يلتذ بالمؤلم لفساد الفطرة ، والفساد يتناول القوة العلمية والقوة العملية جميعًا ، كالممرور الذى يجد العسل مرًّا ، فإنه فسد نفس إحساسه حتى كان يحس به على خلاف ما هو عليه للمرة التى مازجته ، وكذلك من فسد باطنه ، قال تعالى : ﴿ وما يُشْعِركُم أَنَّها إِذَا جاءَتْ لا يؤْمِنُونَ * ونُقلِّب أَفْئِدَتَهم وأَبْصارَهُم كما لَمْ يؤْمِنُوا به أَوَّل مرَّةٍ ونَذَرُهُم فى طُغْيَانِهم يَعْمَهُون ﴾ [سورة الأنعام ، آيتا : ١٠٩ ، ١١٠] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهم ﴾ [سورة الصف ، الآية :

٥] . وقال : ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل طَبَعَ اللهُ عَلَيهم بِكُفْرِهِم ﴾ [سورة النساء ، آية : ١٥٥] وقال في الآية الأخرى : ﴿ قُلُوبُنَا غُلفٌ بَل لَعَنَهُم اللَّهُ بِكُفْرِهِم ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٨٨] . والغلف جمع أغلف وهو ذو الغلاف الذى فى غلاف مثل الأَقْلَفِ ، كأنهم جعلوا المانع خلقة أى خلقت القلوب عليها أغطية ، فقال تعالى : ﴿ بَلْ لَعَنهم اللَّهُ بكُفْرِهِم ﴾ وطبع الله عليها بكفرهم ﴿ فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٤٦] . وقال تعالى : ﴿ ومِنْهُم مَنْ يَسْتَمعُ إليْكَ حتَّى إذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدكَ قالُوا للَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مَاذا قالَ آنفًا أُولٰئكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهم واتَّبعُوا أهْواءَهُم ﴾ [سورة محمد ، الآية : ١٦] . .

وكذلك قالوا : ﴿ يا شُعَيبُ ما نَفْقَهُ كَثيرًا ممَّا تقُولُ ﴾ [سورة هود ، الآية : ٩١] . وقال : ﴿ ولَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهم خَيْرًا لأَسْمَعَهُم ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٢٣] . أى لأفهمهم ما سمعوه ثم قال : ولو أفهمهم مع هذه الحال التى هم عليها لتولوا وهم معرضون ، فقد فسدت فطرتهم فلم يفهموا ، ولو فهموا لم يعلموا ، فنفى عنهم صحة القوة العلمية وصحة القوة العملية وقال : ﴿ أَمْ تَحْسبُ أَنَّ أكْثَرهُم يسْمَعُون أوْ يعْقِلُون إنْ هُم إلَّا كَالْأَنْعَامِ بَل هُم أَضَلُّ سَبِيلا ﴾ [سورة الفرقان ، الآية : ٤٤] . وقال : ﴿ ولَقَد ذَرأنا لجَهنَّم كَثيرًا مِنَ الجنِّ والإنْسِ لَهُم قُلُوبٌ لا يفْقَهُون بِها ولَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرونَ بِها ولَهمُ آذانٌ لا يَسْمعُونَ بِها أولٰئكَ كالأنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولٰئِكَ هُمُ الغافِلُون ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ١٧٩] . وقال : ﴿ ومَثَل الَّذينَ كَفرُوا كمثَل الَّذى ينْعِقُ بما لا يسْمَع إلَّا دُعاءً ونِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُم لا يعْقِلون ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٧١] . وقال عن المنافقين : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُم لا يرْجِعُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٨] .

ومن الناس من يقول لما لم ينتفعوا بالسمع والبصر والنطق : جعلوا صمًا بكمًا عميًا ، أو لما أعرضوا عن السمع والبصر صاروا كالصم العمى ، وليس كذلك ، بل نفس قلوبهم عميت وصمت وبكمت كما قال الله تعالى : ﴿ فإنَّها لا تعْمَى الأبْصارُ ولٰكِن تعْمَى القُلُوب الَّتِى فى الصُّدُور ﴾ [سورة الحج ، الآية :

٤٦] . والقلب هو الملك والأعضاء جنوده ، وإذا صلح صلح سائر الجسد ، وإذا فسد فسد سائر الجسد ، فيبقى يسمع بالبدن الصوت كما تسمع البهائم ، والمعنى لا تفقهه ، وإن فقه بعض الفقه لم يفقه فقهًا تامًا ، فإن الفقه التام يستلزم تأثيره فى القلب محبة المحبوب ، وبغض المكروه ، فمتى لم يحصل هذا لم يكن التصور التام حاصلًا فجاز نفيه ، لأن ما لم يتم ينفى ، كقوله للذى أساء فى صلاته : صل فإنك لم تصل ، ونفى الإيمان حيث نفى من هذا الباب .

وقد جمع الله بين وصفهم بوجل القلب إذا ذكر ، وبزيادة الإيمان إذا سمعوا آياته . قال الضحاك : زادتهم يقينًا ، وقال الربيع بن أنس : خشية وعن ابن عباس : تصديقًا ، وهكذا قد ذكر الله هذين الأصلين فى مواضع قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُم لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَاب مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُم وَكَثِيرٌ مِنهُم فَاسِقُونَ ﴾ [سورة الحديد ، الآية : ١٦] . .

والخشوع يتضمن معنيين :

أحدهما : التواضع والذل .

والثانى : السكون والطمأنينة ، وذلك مستلزم للين القلب المنافى للقسوة ، فخشوع القلب يتضمن عبوديته لله وطمأنيته أيضاً ، ولهذا كان الخشوع فى الصلاة يتضمن هذا وهذا التواضع والسكون .

وعن ابن عباس فى قوله : ﴿ الَّذِينَ هُم فِي صَلَاتِهِم خَاشِعُون ﴾ [سورة المؤمنون ، الآية : ٢] . قال : مخبتون أذلاء ، وعن الحسن وقتادة : خائفون ، وعن مقاتل : متواضعون ، وعن علىّ : الخشوع فى القلب وأن يلين للمرء المسلم كنفك ، ولا تلتفت يمينًا ولا شمالًا ، وقال مجاهد : غضّ البصر وخفض الجناح . وكان الرجل من العلماء إذا قام إلى الصلاة هاب الرحمن أن يشذ بصره أو أن يحدث نفسه بشيء من أمر الدنيا .

وعن عمرو بن دينار : ليس الخشوع الركوع والسجود ، ولكنه السكون وحسن الهيئة فى الصلاة . وعن ابن سيرين وغيره : كان النبى صلى الله عليه وسلم

وأصحابه ينظرون بأبصارهم فى الصلاة إلى السماء ، وينظرون يمينًا وشمالًا حتى نزلت هذه الآية : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [سورة المؤمنون ، الآيتان : ١ ، ٢] ، فجعلوا بعد ذلك وجوههم حيث يسجدون وما رؤى أحد منهم بعد ذلك ينظر إلا إلى الأرض ، وعن عطاء : هو ألا تعبث بشىء من جسدك وأنت فى الصلاة ، أبصر النبىُّ صلى الله عليه وسلم رجلًا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه »(١) .

خشوع القلب والجسد :

وخشوع الجسد تبعٌ لخشوع القلب إذا لم يكن الرجل مرائيًا يظهر ما ليس فى قلبه ، كما روى : تعوذوا بالله من خشوع النفاق وهو أن يرى الجسد خاشعًا والقلب خاليًا لاهيًا ، فهو سبحانه استبطأ المؤمنين بقوله : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَما نَزَلَ مِنَ الحَقِّ ﴾ [سورة الحديد ، الآية : ١٦] . فدعاهم إلى خشوع القلب لذكره وما نزل من كتابه ، ونهاهم أن يكونوا كالذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وهؤلاء الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا .

وكذلك قال فى الآية الأخرى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ منهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَونَ رَبَّهُم ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهم وَقُلُوبُهُم إِلَى ذِكْرِ الله ﴾ [سورة الزمر ، الآية : ٢٣] . والذين يخشون ربهم هم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم .

فإن قيل : فخشوع القلب لذكر الله وما نزل من الحق واجب .

---

(١) هو فى كنز العمال (جـ٣ / ٥٨٩١) معزوًا للحكيم الترمذى عن أبى هريرة وقال الألبانى فى ضعيف الجامع الصغير (٤٨٢٤) : موضوع ، وانظر الأحاديث الضعيفة (١١٠) ، وإرواء الغليل (٣٧٢) .

قيل : نعم ، لكن الناس فيه على قسمين : مقتصد وسابق ، فالسابقون يختصون بالمستحبات ، والمقتصدون الأبرار هم عموم المؤمنين المستحقّين للجنة ، ومن لم يكن من هؤلاء ، ولا هؤلاء فهو ظالم لنفسه . وفى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم : « اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع ودعاء لا يسمع » .

وقد ذم الله قسوة القلوب المنافية للخشوع فى غير موضع فقال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعدِ ذَلِكَ فَهِىَ كَالحِجَارَةِ أَو أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٧٤] . قال الزجاج : قست فى اللغة غلظت ويبست وعست ، فقسوة القلب ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه ، والقاسى والعاسى الشديد الصلابة ، وقال ابن قتيبة : قست وعست وعتت أى يبست ، وقوة القلب المحمودة غير قسوته المذمومة ، فإنه ينبغى أن يكون قويًا من غير عنف وليِّنًا من غير ضعف ، وفى الأثر : القلوب آنية الله فى أرضه فأحبها إلى الله أصلبها وأرقها وأصفاها ، وهذا كاليد فإنها قوية ليِّنة بخلاف ما يحسو من العقب فإنه يابس لا لين فيه وإن كان فيه قوة ، وهو سبحانه ذكر وجل القلب من ذكره ثم ذكر زيادة الإيمان عند تلاوة كتابه علمًا وعملًا .

ثم لابد من التوكل على الله فيما لا يقدر عليه ، ومن طاعته فيما يقدر عليه ، وأصل ذلك الصلاة والزكاة ، فمن قام بهذه الخمس كما أمر لزم أن يأتى بسائر الواجبات ، بل الصلاة نفسها إذا فعلها كما أمر فهى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، كما روى عن ابن مسعود وابن عباس : إن فى الصلاة منهى ومزجرًا عن معاصى الله ، فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدا ، وقوله : « لم يزدد إلا بعدًا » إذا كان ما ترك من الواجب منها أعظم مما فعله أبعده ترك الواجب الأكثر من الله ، أكثر مما قربه فعل الواجب الأقل ، وهذا كما فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تلك صلاة المنافق ، يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى شيطان قام فنقر أربعًا لا يذكر الله فيها إلا قليلا »(١) وقد قال تعالى : ﴿ إنَّ المُنَافِقِينَ

---

(١) صحيح أخرجه مسلم (جـ١ - مساجد / ١٩٥) ، والترمذى (جـ١ / ١٦٠) ، والنسائى (جـ١ ص٢٥٤) من حديث أنس رضى الله عنه .

يُخَادِعونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُم وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ ولَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١٤٢] .

وفى السنن عن عمار عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن العبد لينصرف من صلاته ، و لم يكتب له منها إلا نصفها إلا ثلثها حتى قال إلا عشرها » وعن ابن عباس قال : « ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها » وهذا وإن لم يؤمر بإعادة الصلاة عند أكثر العلماء ، لكن يؤمر بأن يأتى من التطوعات بما يجبر نقص فرضه ، ومعلوم أن من حافظ على الصلوات بخشوعها الباطن وأعمالها الظاهرة ، وكان يخشى الله الخشية التى أمره بها ، فإنه يأتى بالواجبات ، ولا يأتى كبيرة ، ومن أتى الكبائرمثل الزنى أو السرقة أو شرب الخمر وغير ذلك ، فلابد أن ذهب ما فى قلبه من تلك الخشية والخشوع والنور ، وإن بقى أصل التصديق فى قلبه ، وهذا من الإيمان الذى ينزع منه عند فعل الكبيرة كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » فإن المتقين كما وصفهم الله بقوله : ﴿ إِنَّ الذِينَ اتَّقَوا إِذا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فإِذَا هُمْ مُبْصِرون ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٢٠١] . فإذا طاف بقلوبهم طيف من الشيطان تذكروا فيبصرون .

قال سعيد بن جبير : هو الرجل يغضب الغضبة فيذكر الله فيكظم الغيظ ، وقال ليث عن مجاهد : هو الرجل يهم بالذنب فيذكر الله فيدعه ، والشهوة والغضب مبدأ السيئات ، فإذا أبصر رجع ثم قال : ﴿ وَإِخْوَانهُم يَمُدُّونَهُم فِي الغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُون ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٢٠٢] . أى وإخوان الشياطين تمدهم الشياطين فى الغى ثم لا يقصرون . قال ابن عباس : لا الإنس تقصر عن السيئات ، ولا الشياطين تمسك عنهم ، فإذا لم يبصر بقى قلبه فى غمر ، والشيطان يمده من غيه ، وإن كان التصديق فى قلبه لم يكذب ، فذلك النور والإبصار وتلك الخشية والخوف يخرج من قلبه ، وهذا كما أن الإنسان يغمض عينيه فلا يرى ، وإن لم يكن أعمى ، فكذلك القلب بما يغشاه من رين القلوب

لا يبصر الحق وإن لم يكن أعمى كعمى الكافر .

وهكذا جاء فى الآثار . قال أحمد بن حنبل فى كتاب الإيمان : حدَّثنا يحيى عن أشعث عن الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ينزع منه الإيمان فإن تاب أعيد إليه »[1] وقال : حدثنا يحيى عن عوف قال : قال الحسن : يجانبه الإيمان ما دام كذلك ، فإن راجع راجعه الإيمان . وقال أحمد : حدثنا معاوية عن أبى إسحاق عن الأوزاعى قال : وقد قلت للزهرى حين ذكر هذا الحديث : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » فإنهم يقولون فإن لم يكن مؤمنًا فما هو ؟ قال فأنكر ذلك وكره مسألته هذه . وقال أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مبدى ، عن سفيان ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد ، عن ابن عباس أنه قال لغلمانه : من أراد منكم الباءة زوَّجناه ، لا يزنى منكم زان إلا نزع الله منه نور الإيمان ، فإن شاء أن يردَّه ردَّه وإن شاء أن يمنعه منعه . وقال أبو داود السجستانى : حدثنا عبد الوهاب بن نجدة حدثنا بقية بن الوليد حدثنا صفوان بن عمرو عن عبد الله بن ربيعة الحضرمى أنه أخبره عن أبى هريرة أنه كان يقول : « إنما الإيمان كثوب أحدكم يلبسه مرة ويقلعه أخرى » ، وكذلك رواه بإسناده عن عمر ، وروى عن الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلًا ، وفى حديث عن أبى هريرة مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا زنى الزانى خرج منه الإيمان فكان كالظلَّة ، فإذا انقطع رجع إليه الإيمان »[2]وهذا إن شاء الله يبسط فى موضع آخر .

فصل

الاختلاف فى بعض الأحاديث :

وقد جاءت أحاديث تنازع الناس فى صحتها مثل قوله : « لا صلاة إلا بوضوء ، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه »[3] .

---

(١) انظر فتح البارى (جـ٥ / ٢٤٧٥) .

(٢) أبو داود (جـ٤ / ٤٦٩٠) ، والترمذى (جـ٥ / ٢٦٢٥) . والحاكم فى المستدرك وصححه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (٦٠٠) .

(٣) أخرجه أبو داود (جـ١ / ١٠١) ، والترمذى (جـ١ / ٢٥) ، وابن ماجه (جـ١ / ٣٩٨ ، ٣٩٩) ، والمسند (جـ٢ ص٤١٨) ، (جـ٤ ص٧٠) ، وحسنه الألبانى .

فأما الأول : فهو كقوله : « لا صلاة إلا بطهور » .

وهذا متفق عليه بين المسلمين ، فإن الطهور واجب فى الصلاة لانتفاء واجب فيها ، وأما ذكر اسم الله تعالى على الوضوء ففى وجوبه نزاع ، وأكثر العلماء لا يوجبونه ، وهو مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى ، وهو إحدى الروايتين عن أحمد اختارهما الخرقى وأبو محمد وغيرهما .

والثانى : يجب ، وهو قول طائفة من أهل العلم ، وهو الرواية الأخرى عن أحمد اختارها أبو بكر عبد العزيز ، والقاضى أبو يعلى ، وأصحابه وكذلك قوله : « لا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد »[1] رواه الدارقطنى ، فمن الناس من يضعه مرفوعًا ويقول : هو من كلام علىّ رضى الله عنه ، ومنهم من يثبته كعبد الحق ، وكذلك قوله : « لا صيام لمن لا يبيِّت الصيام من الليل »[2] قد رواه أهل السنن ، وقيل إن رفعه يصح ، وإنما يصح موقوفًا على ابن عمر أو حفصة ، فليس لأحد أن يثبت لفظًا عن الرسول مع أنه أريد به نفى الكمال المستحب . فإن صحَّت هذه الألفاظ دلَّت قطعًا على وجوب هذه الأمور ، فإن لم تصح فلا ينتقض بها أصل مستقر من الكتاب والسنة ، وليس لأحد أن يحمل كلام الله ورسوله على وفاق مذهبه إن لم يتبين من كلام الله ورسوله على وفاق مذهبه إن لم يتبين من كلام الله ورسوله ما يدل على مراد الله ورسوله ، وإلا فأقوال العلماء تابعة لقول الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ليس قول الله ورسوله تابعًا لأقوالهم .

فإذا كان فى وجوب شىء نزاع بين العلماء ولفظ الشارع قد اطرد لم يجز

---

(١) أخرجه الدارقطنى عن جابر وعن أبى هريرة كما فى كنز العمال (جـ٧ / ٢٠٧٣٧) ، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع الصغير (٦٣١١) وفى غيره بهذا العزو .

(٢) صححه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (٦٤١٠ ، ٦٤١١ ، ٦٤١٤) بألفاظ مختلفة عن حفصة وعن عائشة .

أن ينقض الأصل المعروف من كلام الله ورسوله بقول فيه نزاع بين العلماء ، ولكن من الناس من لا يعرف مذاهب أهل العلم ، وقد نشأ على قول لا يعرف غيره فيظنه إجماعًا ، كمن يظن أنه إذا ترك الإنسان الجماعة وصلَّى وحده برئت ذمَّته إجماعًا ، وليس الأمر كذلك بل للعلماء قولان معروفان فى إجزاء هذه الصلاة ، وفى مذهب أحمد فيها قولان ، فطائفة من قدماء أصحابه حكاه عنه القاضى أبو يعلى فى شرح المذهب ومن متأخريهم كابن عقيل وغيره يقولون : من صلَّى المكتوبة وحده من غير عذر يسوغ له ذلك فهو كمن صلَّى الظهر يوم الجمعة ، فإن أمكنه أن يؤديها فى جماعة بعد ذلك فعليه ذلك وإلا باء بإثمه كما يبوء تارك الجمعة بإثمه ، والتوبة معروضة . وهذا قول غير واحد من أهل العلم ، وأكثر الآثار المروية عن السلف من الصحابة والتابعين تدل على هذا .

وقد احتجُّوا بما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من سمع النداء ثم لم يجب من غير عذر فلا صلاة له »[1] وأجابوا عن حديث الفضيل بأنه فى المعذور الذى تباح له الصلاة وحده ، كما ثبت عنه أنه قال : صلاة الرجل قاعدًا على النِّصف من صلاة القائم ، وصلاة المضطجع على النِّصف من صلاة القاعد . والمراد به المعذور كما فى الحديث أنه خرج وقد أصابهم وعك وهم يصلُّون قعودًا ، فقال ذلك . ولم يجوِّز أحد من السلف صلاة التطوع مضطجعًا من غير عذر ، ولا يعرف أن أحدًا من السلف فعل ذلك ، وجوازه وجه فى مذهب الشافعى وأحمد لا يعرف لصاحبه سلف صدق ، مع أن هذه المسألة مما تعم به البلوى ، فلو كان يجوز لكل مسلم أن يصلِّى التطوع على جنبه وهو صحيح لا مرض به ، كما يجوز أن يصلِّى التطوع قاعدًا وعلى الراحلة لكان هذا مما بيَّنه الرسول صلى الله عليه وسلم لأمَّته وكان الصحابة تعلم ذلك ، ثم مع قوة الداعى إلى الخير لابد أن يفعل ذلك بعضهم ، فلما لم يفعله أحد منهم دل على أنه لم يكن مشروعًا

---

(١) أخرجه أبو داود (جـ١ / ٥٥١) ، وابن ماجه (جـ١ / ٧٩٣) وصححه الألبانى فى صحيحيهما من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .

عندهم ، وهذا مبسوط فى موضعه .

والمقصود هنا أنه ينبغى للمسلم أن يقدر قدر كلام الله ورسوله ، بل ليس لأحد أن يحمل كلام أحد من الناس إلا على ما عرف أنه أراده لا على ما يحتمله ذلك اللفظ فى كلام كل أحد ، فإن كثيرًا من الناس يتأوّل النصوص المخالفة لقوله يسلك مسلك من يجعل التأويل كأنه ذكر ما يحتمله اللفظ ، وقصده به دفع ذلك المحتج عليه بذلك ، وهذا النص خطأ بل جميع ما قاله الله ورسوله يجب الإيمان به ، فليس لنا أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض ، وليس الاعتناء بمراده فى أحد النّصّين دون الآخر بأولى من العكس ، فإذا كان النص الذى وافقه يعتقد أنه اتبع فيه مراد الرسول ، فكذلك النص الآخر الذى تأوّله فيكون أصل مقصوده معرفة ما أراده الرسول بكلامه ؛ وهذا هو المقصود بكل ما يجوز من تفسير وتأويل عند من يكون اصطلاحه تغاير معناهما ، وأما من يجعلهما بمعنى واحد كما هو الغالب على اصطلاح المفسّرين فالتأويل عندهم هو التفسير ، وأما التأويل فى كلام الله ورسوله فله معنى ثالث غير معناه فى اصطلاح المفسّرين وغيرهما فى اصطلاح متأخرى الفقهاء والأصوليين كما قد بسط فى موضعه .

والمقصود هنا أن كل ما نفاه الله ورسوله من مسمى أسماء الأمور الواجبة كاسم الإيمان والإسلام والدين والصلاة والصيام والطهارة والحج وغير ذلك ، فإنما يكون لترك واجب فى ذلك المسمى ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٦٥] . فلما نفى الإيمان حتى توجد هذه الغاية دل على أن هذه الغاية فرض على الناس ، فمن تركها كان من أهل الوعيد ، لم يكن قد أتى بالإيمان الواجب الذى وعد أهله بدخول الجنة بلا عذاب ، فإن الله إنما وعد بذلك من فعل ما أمر به .

وأما من فعل بعض الواجبات وترك بعضها ، فهو معرض للوعيد ، ومعلوم باتفاق المسلمين أنه يجب تحكيم الرسول فى كل ما شجر بين الناس فى دينهم

ودنياهم ، فى أصول دينهم وفروعه ، وعليهم كلهم إذا حكم بشىء ألا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما حكم ويسلموا له تسليمًا ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ [سورة النساء ، آيتا : ٦٠ ، ٦١] . وقوله : ﴿ إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ وقد أنزل الكتاب والحكمة وهى السنَّة ، قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُم وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِنَ الكِتَابِ والحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٣١] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَم وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١١٣] . والدعاء إلى ما أنزل يستلزم الدعاء إلى الرسول ، والدعاء إلى الرسول يستلزم الدعاء إلى ما أنزل الله ، وهذا مثل طاعة الله والرسول فإنهما متلازمان فمن يطع الرسول فقد أطاع الله ومن أطاع الله فقد أطاع الرسول .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى وَيَتَّبِع غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١١٥] . فإنهما متلازمان ، فكل من شاق الرسول من بعد ما تبيَّن له الهدى ، فقد اتبع غير سبيل المؤمنين وكل من اتبع غير سبيل المؤمنين فقد شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، فإن كان يظن أنه متَّبع سبيل المؤمنين وهو يخطىء ، فهو بمنزلة من ظن أنه متَّبع للرسول وهو مخطىء.

وهذه الآية تدل على أن إجماع المؤمنين حجَّة من جهة أن مخالفتهم مستلزمة لمخالفة الرسول ، وأن كل ما أجمعوا عليه فلابد أن يكون فيه نص عن الرسول ، فكل مسألة يقطع فيها بالإجماع وبانتفاء المنازع من المؤمنين ، فإنها مما بيَّن الله فيه الهدى ، ومخالف مثل هذا الإجماع يكفر كما يكفر مخالف النص البيِّن ، وأما إذا كان يظن الإجماع ولا يقطع به ، فهنا قد لا يقطع أيضًا بأنها مما تبيَّن فيه

الهدى من جهة الرسول ، ومخالف مثل هذا الإجماع قد لا يكفر ، بل قد يكون ظن الإجماع خطأ ، والصواب فى هذا القول ، وهذا هو فصل الخطاب فيما يكفر به من مخالفة الإجماع وما لا يكفر .

والإجماع هل هو قطعى الدلالة أو ظنى الدلالة ؟ فإن من الناس من يطلق الإثبات بهذا أو هذا ، ومنهم من يطلق النفى لهذا ولهذا ، والصواب التفصيل بين ما يقطع به من الإجماع ، ويعلم يقينًا أنه ليس فيه منازع من المؤمنين أصلًا ، فهذا يجب القطع بأنه حق ، وهذا لابد أن يكون مما بين فيه الرسول الهدى كما قد بسط هذا فى موضع آخر .

ومن جهة أنه إذا وصف الواجب بصفات متلازمة ، دل على أن كل صفة من تلك الصفات متى ظهرت وجب اتباعها ، وهذا مثل الصراط المستقيم الذى أمرنا الله بسؤال هدايته ، فإنه قد وصف بأنه الإسلام ، ووصف بأنه اتباع القرآن ، ووصف بأنه طاعة الله ورسوله ، ووصف بأنه طريق العبودية ، ومعلوم أن كل اسم من هذه الأسماء يجب اتباع مسماه ، ومسماها كلها واحد وإن تنوعت صفاته ، فأى صفة ظهرت وجب اتباع مدلولها ، فإنه مدلول الأخرى . وكذلك أسماء الله تعالى وأسماء كتابه وأسماء رسوله هى مثل أسماء دينه .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ولَا تَفَرَّقُوا ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٠٣] . حبل الله هو دين الإسلام ، وقيل القرآن ، وقيل عهده ، وقيل طاعته وأمره ، وقيل الجماعة المسلمون ، وكل هذا حق .

وكذلك إذا قلنا الكتاب والسنة والإجماع ، فمدلول الثلاث واحد ، فإن كل ما فى الكتاب فالرسول موافق له ، والأمة مجمعة عليه من حيث الجملة ، فليس فى المؤمنين إلا من يوجب اتباع الكتاب ، وكذلك كل ما سنه الرسول صلى الله عليه وسلم ، فالقرآن يأمر باتباعه فيه ؛ والمؤمنون مجمعون على ذلك ، وكذلك كل ما أجمع عليه المسلمون ، فإنه لا يكون إلا حقًّا موافقًا لما فى الكتاب والسنة ، لكن المسلمون يتلقون دينهم كله عن الرسول ، وأما الرسول فينزل عليه وحى

هو القران ، ووحى اخر هو الحكمة كما قال صلى الله عليه وسلم : « آلا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه » .

حب الأنصار :

وقال حسان بن عطية : كان جبريل ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم بالسنة فيعلمه إياها كما يعلمه القرآن ، فليس كل ما جاءت به السنة يجب أن يكون مفسرًا فى القرآن ، بخلاف ما يقوله أهل الإجماع ، فإنه لابد أن يدل عليه الكتاب والسنة ، فإن الرسول هو الواسطة بينهم وبين الله فى أمره ونهيه ، وتحليله وتحريمه . والمقصود ذكر الإيمان .

ومن هذا الباب قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر »[1]وقوله : « آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار »[2]فإن من علم ما قامت به الأنصار من نصر الله ورسوله من أول الأمر ، وكان محبًّا لله ولرسوله أحبهم قطعًا ، فيكون حبه لهم علامة الإيمان الذى فى قلبه ، ومن أبغضهم لم يكن فى قلبه الإيمان الذى أوجبه الله عليه .

وكذلك من لم يكن فى قلبه بغض ما يبغضه الله ورسوله من المنكر الذى حرمه من الكفر والفسوق والعصيان ، لم يكن فى قلبه الإيمان الذى يوجبه الله عليه ، فإن من لم يكن مبغضًا لشىء من المحرمات أصلًا لم يكن منه إيمان أصلًا ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى ، وكذلك من لا يحب لأخيه المؤمن ما يحبه لنفسه لم يكن معه ما أوجب الله عليه من الإيمان ، فحيث نفى الله الإيمان عن شخص فلا يكون إلا لنقص ما يجب عليه من الإيمان ، ويكون من المعرضين للوعيد ،

---

(١) صّحيح أخرجه مسلم (جـ١ – إيمان / ١٣٠) عن أبى هريرة ، والترمذى (جـ٥ / ٣٩٠٦) عن ابن عباس ، وأحمد (جـ١ ص٣٠٩) عن ابن عباس ، (جـ٣ ص٩٣) عن أبى سعيد

(٢) حديث صحيح متفق عليه أخرجه البخارى (جـ٧ / ٣٧٨٤) ، ومسلم (جـ١ – إيمان / ١٢٨) ، والنسائى (جـ٨ ص ١١٦) ، وأحمد (جـ٣ ص١٣) جميعهم من حديث أنس رضى الله عنه .

ليس من المستحقين للوعد المطلق .

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « من غشنا فليس منا ، ومن حمل علينا السلاح فليس منا »(١) كله من هذا الباب لا يقوله إلا لمن ترك ما أوجب الله عليه ، أو فعل ما حرمه الله ورسوله ، فيكون قد ترك من الإيمان المفروض عليه ما ينفى عنه الاسم لأجله ، فلا يكون من المؤمنين المستحقين للوعد ، السالمين من الوعيد .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ ويقُولُون آمنَّا باللَّهِ وبِالرَّسُولِ وأطَعْنا ثُمَّ يتولَّى فَرِيقٌ منْهُم من بعْدِ ذلكَ ومَا أُولـٰئِكَ بالمُؤْمِنينَ * وإذا دُعُوا إلَى اللَّهِ ورَسُولِهِ ليحْكُم بَيْنَهُمْ إذا فَرِيقٌ منْهُم مُعْرِضونَ * وإنْ يكُن لَهُم الحَقُّ يأْتُوا إلَيْهِ مذْعِنِين * أفِي قلُوبِهم مَرضٌ أم ارْتَابُوا أمْ يخَافُونَ أنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِم ورسُولُه بلْ أُولـٰئِكَ هُم الظَّالمونَ * إنَّما كانَ قَوْلَ المُؤْمِنينَ إذَا دُعُوا إلَى اللَّهِ وَرَسُولِه ليَحْكُم بَيْنَهُمْ أنْ يقُولُوا سَمِعْنَا وأطَعْنَا وأُولـٰئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ ﴾ [سورة النور ، الآيات : ٤٧ - ٥١] . فهذا حكم اسم الإيمان إذا أطلق فى كلام الله ورسوله ؛ فإنه يتناول فعل الواجبات ، وترك المحرمات ، ومن نفى الله ورسوله عنه الإيمان فلابد أن يكون قد ترك واجبًا أو فعل محرمًا ، فلا يدخل فى الاسم الذى يستحق أهله الوعد ، دون الوعيد ، بل يكون من أهل الوعيد .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ حَبَّبَ إلَيْكُم الإيمانَ وزَيَّنَهُ فى قُلُوبكُم وكَرَّهَ إلَيْكُم الكُفْرَ والفُسُوقَ والعِصْيَانَ أُولـٰئِكَ هُم الرَّاشِدُونَ ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ٧] . .

قال محمد بن نصر المروزى : لما كانت المعاصى بعضها كفر وبعضها ليس

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم (حـ١ - إيمان / ١٦٤) ، وأبو داود (جـ٣ /٣٤٥٢) مختصرًا ، والترمذى (جـ٣ / ١٣١٥) ، وابن ماحه (جـ٢ / ٢٢٢٤) ، والدارمى (بيوع / ١٠) ، وأحمد (جـ٢ ص٥٠) باختصار أيضًا .

بكفر فرق بينها فجعلها ثلاثة أنواع : نوع منها كفر ، ونوع منها فسوق وليس بكفر ؛ ونوع عصيان وليس بكفر ولا فسوق ، وأخبر أنه كرهها كلها إلى المؤمنين . ولما كانت الطاعات كلها داخلة فى الإيمان وليس فيها شىء خارج عنه لم يفرق بينها فيقول : حبب إليكم الإيمان والفرائض وسائر الطاعات ، بل أجمل ذلك فقال : ﴿ حبَّبَ إلَيْكم الإيمانَ ﴾ فدخل فى ذلك جميع الطاعات ، لأنه قد حبب إلى المؤمنين الصلاة والزكاة وسائر الطاعات حب تدين ، لأن الله أخبر أنه حبب ذلك إليهم ، وزينه فى قلوبهم كقوله : ﴿ حَبَّبَ إلَيْكُم الإيمَانَ ﴾ ويكرهون جميع المعاصى : الكفر منها والفسوق ؛ وسائر المعاصى كراهة تدين ، لأن الله أخبر أنه كرَّه ذلك إليهم ، ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن »[1] لأن الله حبب إلى المؤمنين الحسنات وكره إليهم السيئات .

قلت : وتكريه جميع المعاصى إليهم يستلزم حب جميع الطاعات ، لأن ترك الطاعات معصية ، ولأنه لا يترك المعاصى كلها إن لم يتلبس بضدها ، فيكون محبًّا لضدها وهو الطاعة ، إذ القلب لابد له من إرادة ، فإذا كان يكره الشر كله فلابد أن يريد الخير . والمباح بالنية الحسنة يكون خيرًا وبالنية السيئة يكون شرًّا ، ولا يكون فعل اختيارى إلا بإرادة ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « أحب الأسماء إلى الله عبد الله و عبد الرحمن ، وأصدق الأسماء الحارث وهمام ، وأقبحها حرب ومرة »[2] .

فأصدق الأسماء الحارث وهمام ، لأن كل إنسان همام حارث ، والحارث الكاسب العامل ، والهمام الكثير الهم ، وهو مبدأ الإرادة وهو حيوان ، وكل حيوان حساس متحرك بالإرادة ، فإذا فعل شيئًا من المباحات فلابد له من غاية ينتهى إليها قصده ، وكل مقصود إما أن يقصد لنفسه ، وإما أن يقصد لغيره ،

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير عن أبى موسى كما فى كنز العمال وصححه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (٦١٧٠) .

(٢) أخرجه البخارى (جـ١٠ / ٦١٨٦) ، ومسلم (حـ٣ – آداب / ٢) ، والترمذى (جـ٤ / ٢٨٣٣ ، ٢٨٣٤) (، وابن ماجه (جـ٢ / ٣٧٢٨) ، والدارمى (استئذان /٢٠) ، وأحمد (جـ٢ ص٢٤) .

فإن كان منتهى مقصوده ومراده عبادة الله وحده لا شريك له وهو إلٰهه الذى يعبده لا يعبد شيئًا سواه ، وهو أحب إليه من كل ما سواه ، فإن إرادته تنتهى إلى إرادته وجه الله ، فيثاب على مباحاته التى يقصد الاستعانة بها على الطاعة كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نفقة الرجل على أهله يحتسبها صدقة »(1) وفى الصحيحين عنه أنه قال لسعد بن أبى وقاص لما مرض بمكة وعاده ، قال : « إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة ترفعها إلى فِى امرأتك »(2) وقال معاذ بن جبل لأبى موسى : إنى احتسب نومتى كما أحتسب قومتى . وفى الأثر : نوم العالم تسبيح .

وإن كان أصل مقصوده عبادة غير الله لم تكن الطيبات مباحة له ، فإن الله إنما أباحها للمؤمنين من عباده ، بل الكفار وأهل الجرائم والذنوب وأهل الشهوات يحاسبون يوم القيامة على نعم الله التى تنعموا بها فلم يشكروه ولم يعبدوه بها ، ويقال لهم : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فى حَيَاتِكُم الدُّنْيا واسْتَمْتَعْتُم بها فالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الهُونِ بمَا كُنْتُم تَسْتكبِرُونَ فى الأَرْضِ بغَيْرِ الحقِّ وبِما كُنْتُم تَفْسُقُونَ ﴾ [سورة الأحقاف ، الآية : ٢٠] . وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ [سورة التكاثر ، الآية : ٨] أى ، عن شكره والكافر لم يشكر على النعم التى أنعم الله عليه بها فيعاقبه على ذلك ، والله إنما أباحها للمؤمنين ، وأمرهم معها بالشكر كما قال تعالى : ﴿ كلُوا مِنْ طَيِّبات مَا رَزَقْنَاكُم واشْكُرُوا لِلَّهِ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٧٢] .

التمايز بين خطاب المؤمن والكافر :

وفى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله ليرضى

---

(١) أخرجه البخارى فى « الإيمان » ، وفى « النفقات » ، ومسلم فى « الزكاة » وهو عند غيرهما أيضًا .

(٢) أخرجه البخارى فى « الوصايا » ، و« مناقب الأنصار » ، و« المغازى » ، و« النفقات » ، والفرائض » ، ومسلم فى « الوصية » والحديث أيضًا عند الترمذى وأحمد وأبى داود .

عن العبد أن ياكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها لله »[1] وفى سنن ابن ماجه وغيره : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر »[2] .

وكذلك قال للرسل : ﴿ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ [سورة المؤمنون ، الآية : ٥١] . وقال تعالى : ﴿ أُحِلَّت لَكُم بَهِيمَةَ الأَنْعَامِ إِلَّا ما يُتْلَى عَلَيْكُم غَيْر مُحِلِّى الصَّيْدِ وأَنْتُم حُرُمٌ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ١] . وقال الخليلُ : ﴿ وارْزُق أَهْلَهُ مِنَ الثَّمراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٢٦] . قال الله تعالى : ﴿ ومَن كَفَرَ فأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثم أَضْطَرهُ إلى عذاب النَّار وبِئْسَ المَصِير ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٢٦] فالخليل إنما دعا بالطيبات للمؤمنين خاصة ؛ والله إنما أباح بهيمة الأنعام لمن حرم ما حرمه الله من الصيد وهو محرم ، والمؤمنون أمرهم أن يأكلوا من الطيبات ويشكروه ، ولهذا ميز سبحانه وتعالى بين خطاب الناس مطلقًا وخطاب المؤمنين فقال : ﴿ يأيُّها النَّاسُ كلُوا ممَّا فِى الأَرْضِ حَلالًا طيِّبًا ولا تتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشّيطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبينٌ * إنَّما يأمُرُكم بالسُّوءِ والفَحْشَاءِ وأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ * وإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبع ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَ لَوْ كانَ آباؤهُم لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا ولا يَهْتَدُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآيات : ١٦٨ - ١٧٠] . فإنما أذن للناس أن يأكلوا مما فى الأرض بشرطين : أن يكون طيبًا وأن يكون حلالًا ، ثم قال : ﴿ يأيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا كُلُوا مِنْ طيِّبات ما رزَقْناكُم واشْكُرُوا لِلَّهِ إنْ كُنْتُم إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إنَّما حرَّمَ عليْكُم الميتَةَ والدَّمَ ولحْمَ الخِنْزِيرِ وما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله ﴾ [سورة البقرة ، آيتا : ١٧٢ ، ١٧٣] . فأذن للمؤمنين فى الأكل

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الذكر باب استحباب حمد الله كما أخرجه الترمذى النسائى وأحمد من حديث أنس .

(٢) أخرجه ابن ماجه (جـ١ / ١٧٦٤) عن أبى هريرة ، (جـ١ / ١٧٦٥) عن سِنان ابن سنَّة الأسلمى وصححهما الألبانى والحديث بنحوه من رواية أحمد والترمذى وأبى داود والحاكم وانظر كنز العمال (٦٤٢٥ ، ٦٤٢٦) .

من الطيبات ولم يشترط الحل ، وأخبر أنه لم يحرم عليهم إلا ما ذكره ، فما سواه لم يكن محرمًا على المؤمنين ، ومع هذا فلم يكن أحله بخطابه ، بل كان عفوًا كما فى الحديث عن سلمان موقوفًا ومرفوعًا : « الحلال ما أحله الله فى كتابه والحرام ما حرمه الله فى كتابه وما سكت عنه فهو مما عفى عنه »[1] .

وفى حديث أبى ثعلبة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحدَّ حدودًا فلا تعتدوها ، وحرم حرمات فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها »[2] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ١٤٥] . نفى التحريم عن غير المذكور ، فيكون الباقى مسكوتًا عن تحريمه عفوًا والتحليل إنما يكون بخطاب ، ولهذا قال فى سورة المائدة التى أنزلت بعد هذا : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٤ - ٥] . ففى ذلك اليوم أحل لهم الطيبات ، وقبل هذا لم يكن محرمًا عليهم إلا ما استثناه .

وقد حرم النبى صلى الله عليه وسلم كل ذى ناب من السباع ، وكل ذى مخلب من الطير ، ولم يكن هذا نسخًا للكتاب ، لأن الكتاب لم يحل ذلك ولكن سكت عن تحريمه ، فكان تحريمه ابتداء شرع ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث المروى من طرق من حديث أبى رافع وأبى ثعلبة وأبى هريرة وغيرهم : « لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : بيننا وبينكم هذا القرآن فما وجدنا فيه من حلال أحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه »[3] وفى لفظ :

---

(١) انظر الترمذي (جـ٤/ ١٧٢٦) . وابن ماجه (جـ٢/ ٣٣٦٧) كلاهما عن سلمان الفارسى ، وحسنه الألبانى .

(٢) أخرجه الطبرانى فى « الكبير » وأبو نعيم فى « الحلية » ، والبيهقى فى « السنن » عن أبى ثعلبة الخشنى وبنحوه الطبرانى فى « الأوسط » عن أبى الدرداء كما فى كنز العمال (جـ١ / ٩٨٠ ، ٩٨١) .

(٣) أخرجه أحمد (جـ٦ ص٨) ، وأبو داود (جـ٤/٤٦٠٥) ، والترمذى (جـ٥/٢٦٦٣) ، =

« ألا وإنه مثل القرآن أو أكثر ، ألا وأنى حرمت كل ذى ناب من السباع » فبين أنه أنزل عليه وحى آخر وهو الحكمة غير الكتاب ، وأن الله حرم عليه فى هذا الوحى ما أخبر بتحريمه ، ولم يكن ذلك نسخًا للكتاب ، فإن الكتاب لم يحل هذه قط ، إنما أحل الطيبات وهذه ليست من الطيبات وقال : ﴿ يأيُّها الذين آمنُوا كلُوا مِنْ طيِّباتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٧٢] . فلم تدخل هذه الآية فى العموم ، لكنه لم يكن حرمها فكانت معفوًّا عن تحريمها لا مأذونًا فى أكلها ، وأما الكفار فلم يأذن الله لهم فى أكل شيء ولا أحل لهم شيء يأكلونه بل قال : ﴿ يأيُّها الناسُ كلُوا ممَّا فى الأرْضِ حلالًا طيِّبًا ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٦٨] . فشرط فيما يأكلونه أن يكون حلالًا وهو المأذون فيه من جهة الله ورسوله ، والله لم يأذن فى الأكل إلا للمؤمن به ، فلم يأذن لهم فى أكل شيءٍ إلا إذا آمنوا ، ولهذا لم تكن أموالهم مملوكة لهم ملكًا شرعيًّا ، لأن الملك الشرعى هو القدرة على التصرف الذى أباحه الشارع صلى الله عليه وسلم ، والشارع لم يبح لهم تصرفًا فى الأموال إلا بشرط الإيمان ، فكانت أموالهم على الإباحة ، فإذا قهر طائفة منهم قهرًا يستحلونه فى دينهم وأخذوها منهم صار هؤلاء فيها كما كان أولئك ، والمسلمون إذا استولوا عليها فغنموها ملكوها شرعًا لأن الله أباح لهم الغنائم ولم يبحها لغيرهم وتجوز لهم أن يعاملوا الكفار فيما أخذه بعضهم من بعض بالقهر الذى يستحلونه فى دينهم ، ويجوز أن يشترى من بعضهم ما سباه من غيره ، لأن هذا بمنزلة استيلائه على المباحات .

ولهذا سمى الله ما عاد من أموالهم إلى المسلمين فيئًا لأن الله أفاءه إلى مستحقه ، أى رده إلى المؤمنين به الذين يعبدونه ويستعينون برزقه على عبادته ، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ، وإنما خلق الرزق لهم ليستعينوا به على عبادته ولفظ الفيء قد يتناول الغنيمة كقول النبى صلى الله عليه وسلم فى غنائم حنين : « ليس لى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم »[1] لكنه لما قال تعالى : ﴿ ومَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِه منْهُم فَما أَوْجَفْتُم عليْهِ مِنْ خَيْلٍ ولا

= وابن ماجه (جـ١ / ١٣) . والدارمى (مقدمة / ٤٩) من حديث أبى رافع ، وصححه الألبانى .

(١) الموطأ (جـ٢ – جهاد / ٢٢) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، والمسند (جـ٥ ص٣١٦) من حديث عبادة بن الصامت .

رِكَابٍ ﴾ [سورة الحشر ، الآية : ٦] . صار لفظ الفيء إذا أطلق فى عرف الفقهاء فهو ما أخذ من مال الكفار بغير إيجاف خيل ولا ركاب ، والإيجاف نوع من التحريك .

وأما إذا فعل المؤمن ما أبيح له قاصدًا للعدول عن الحرام إلى الحلال لحاجته إليه ، فإنه يثاب على ذلك كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « وفى بضع أحدكم صدقة »[1] قالوا : يا رسول الله يأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : « أرأيتم إن وضعها فى حرام كان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر » وهذا كقوله فى حديث ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته »[2] رواه أحمد وابن خزيمة فى صحيحه وغيرهما ، فأخبر أن الله يحب إتيان رخصه كما يكره فعل معصيته ، وبعض الفقهاء يرويه كما يحب أن تؤتى عزائمه ، وليس هذا لفظ الحديث ، وذلك لأن الرخص أباحها الله لحاجة العباد إليها ، والمؤمنون يستعينون بها على عبادته ، فهو يحب الأخذ بها لأن الكريم يحب قبول إحسانه كما قال فى حديث القصر : « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته »[3] ولأنه بها تتم عبادته وطاعته . وأما ما لا يحتاج إليه الإنسان من قول وعمل ، بل يفعله عبثًا فهذا عليه لا له كما فى الحديث : « كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر وذكر الله »[4] .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كان يؤمن بالله

---

(١) صحيح أخرجه مسلم (جـ٢ - زكاة / ٥٣) ، وأبو داود (جـ٢ / ١٢٨٥) ، وأحمد (جـ٥ ص١٦٧) عن أبى ذر .

(٢) انظر المسند (جـ٢ ص١٠٨) .

(٣) حديث قصر الصلاة حديث صحيح أخرجه مسلم (جـ١ - مسافرين / ٤) ، وأبو داود (جـ٢ / ١١٩٩) ، والترمذى (جـ٥ / ٣٠٣٤) ، وابن ماجه (جـ١ / ١٠٦٥) ، وأحمد (جـ١ ص٢٥) ، والدارمى (صلاة / ١٧٩) عن عمر بن الخطاب .

(٤) الترمذى (جـ٤ / ٢٤١٢) ، وابن ماجه (جـ٢ / ٣٩٧٤) عن أم حبيبة رضى الله عنها ، وضعفه الألبانى .

واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت »[1] فأمر المؤمن بأحد أمرين : إما قول الخير أو الصمات . ولهذا كان قول الخير خيرًا من السكوت عنه ، والسكوت عن الشر خيرًا من قوله . ولهذا قال تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [سورة ق ، الآية : ١٨] .

وقد اختلف هل يكتب جميع أقواله ؟ فقال مجاهد وغيره يكتبان كل شيء حتى أنينه فى مرضه . وقال عكرمة لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه أو يؤزر . والقرآن يدل على أنهما يكتبان الجميع ، فإنه قال : ﴿ مَا يَلفِظُ مِنْ قَولٍ ﴾ نكره فى الشرط مؤكدة بحرف (من) فهذا يعم كل قوله . وأيضًا فكونه يؤجر على قول معين أو يؤزر يحتاج إلى أن يعرف الكاتب ما أمر به وما نهى عنه ؛ فلابد فى إثبات معرفة الكاتب به إلى نقل ، وأيضًا فهو مأمور إما بقول الخير وإما بالصمات ، فإذا عدل عما أمر به من الصمات إلى فضول القول الذى ليس بخير كان هذا عليه فإنه يكون مكروهًا ، والمكروه ينقصه ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » ، فإذا خاض فيما لا يعنيه نقص من حسن إسلامه ، فكان هذا عليه ، إذ ليس من شرط ما هو عليه أن يكون عذاب جهنم ، وغضب الله بل نقص قدره ودرجته عليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَها ما كَسَبَت وعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٨٦] . فما يعمل أحد إلا عليه وله ، فإن كان مما أمر به كان له وإلا كان عليه ؛ ولو أنه ينقص قدره ، والنفس طبعها الحركة لا تسكن قط ، لكن قد عفا الله عما حدث به المؤمنون أنفسهم ما لم يتكلموا به ، فإذا عملوا به دخل فى الأمر والنهى ، فإذا كان الله قد كره إلى المؤمنين جميع المعاصى ، وهو قد حبب إليهم الإيمان الذى يقتضى جميع الطاعات إذا لم يعارضه ضد باتفاق الناس ، فإن المرجئة لا تنازع فى أن الإيمان الذى فى القلب يدعو إلى فعل الطاعة ويقتضى

---

(١) أخرجه الترمذى (جـ٤ / ٢٣١٧) ، وابن ماجه (جـ٢ / ٣٩٧٦) عن أبى هريرة وانظر الموطأ (جـ٢ – حسن الخلق /٣) ، والمسند (جـ١ ص٢٠١) وصححه الألبانى .

ذلك ، والطاعة من ثمراته ونتائجه ، لكنها تتنازع هل يستلزم الطاعة ، فإنه وإن كان يدعو إلى الطاعة فله معارض من النفس والشيطان ، فإذا كان قد كره إلى المؤمنين المعارض كان المقتضى للطاعة سالمًا عن هذا المعارض .

وأيضًا فإذا كرهوا جميع السيئات لم يبق إلا حسنات أو مباحات ، والمباحات لم تبح إلا لأهل الإيمان الذين يستعينون بها على الطاعات ، وإلا فالله لم يبح قط لأحد شيئًا أن يستعين به على كفر ولا فسوق ولا عصيان ، ولهذا لعن النبى صلى الله عليه وسلم عاصر الخمر ومعتصرها ، كما لعن شاربها ، والعاصر يعصر عنبًا يصير عصيرًا يمكن أن ينتفع به فى المباح ، لكن لما علم أن قصد العاصر أن يجعلها خمرًا لم يكن له أن يعينه بما جنسه مباح على معصية الله ، بل لعنه النبى صلى الله عليه وسلم على ذلك ، لأن الله لم يبح إعانة العاصى على معصيته ولا أباح له ما يستعين به فى المعصية فلا يكون مباحًا لهم إلا إذا استعانوا بها على الطاعات ، فيلزم من انتفاء السيئات أنهم لا يفعلون إلا الحسنات ، ولهذا كان من ترك المعاصى كلها فلابد أن يشتغل بطاعة الله . وفى الحديث الصحيح : « كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها »(1) فالمؤمن لابد أن يحب الحسنات ، ولابد أن يبغض السيئات ، ولابد أن يسره فعل الحسنة ، ويسوءه فعل السيئة ، ومتى قدر أنه فى بعض الأمور ليس كذلك كان ناقص الإيمان .

والمؤمن قد تصدر منه السيئة فيتوب منها أو يأتى بحسنات تمحوها ، أو يبتلى ببلاء يكفرها عنه ، ولكن لابد أن يكون كارهًا لها ، فإن الله أخبر أنه حبَّب إلى المؤمنين الإيمان ، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، فمن لم يكره الثلاثة لم يكن منهم . ولكن محمد بن نصر يقول : الفاسق يكرهها تدينًا . فيقال : إن أريد بذلك أنه يعتقد أن دينه حرمها وهو يحب دينه . وهذه من جملته فهو يكرها ، وإن كان يحب دينه مجملًا وليس فى قلبه كراهة لها كان قد عدم من

---

(1) (حديث صحيح أخرجه مسلم (جـ١ – طهارة / ١) ، والترمذى (حـ٥ / ٣٥١٧) ، وابن ماجه (جـ١ / ٢٨٠) والدارمى (وضوء / ٢) ، وأحمد (جـ٥ ص٣٤٢) عن أبى مالك الأشعرى .

الإيمان بقدر ذلك كما فى الحديث الصحيح : « من رأى منكم منكرًا فليغيِّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »[1] .

وفى الحديث الآخر الذى فى الصحيح أيضًا – صحيح مسلم : « فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان مثقال حبَّة من خردل[2] .

فعلم أن القلب إذا لم يكن فيه كراهة ما يكرهه الله لم يكن فيه من الإيمان الذى يستحق به الثواب ، وقوله : « من الإيمان » أى من هذا الإيمان وهو الإيمان المطلق أى ليس وراء هذه الثلاث ما هو من الإيمان ولا قدر حبة من خردل ، والمعنى : هذا آخر حدود الإيمان ، ما بقى بعد هذا من الإيمان شىء ، ليس مراده أنه من لم يفعل ذلك لم يبق معه من الإيمان شىء ، بل لفظ الحديث إنما يدل على المعنى الأول .

النفاق والكفر :

ومن هذا الباب لفظ الكفر والنفاق ، فالكفر إذا ذكر مفردًا فى وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون كقوله : ﴿ وَمَنْ يَكْفُر بالإيمان فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وهُوَ فى الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٥] . وقوله : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الأَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [سورة النساء : ١٣٦] وقوله : ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الأَشْقَى * الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [سورة الليل ، الآياتان : ١٥ ، ١٦] . وقوله : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِىَ فِيهَا فَوجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَىءٍ إنْ أَنْتُمْ إلَّا فِى ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ [سورة الملك ، آيتا : ٨ ، ٩] . وقوله : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ

---

(١) (حديث صحيح أخرجه مسلم فى الإيمان ، والترمذي فى أبواب الفتن وغيرهما .

(٢) (أخرجه مسلم أيضًا (جـ١ – إيمان / ٨٠) عن ابن مسعود .

يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيكُمْ آيَاتِ رَبِّكُم وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُم هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ العَذَابِ عَلَى الكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّم خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [سورة الزمر ، الآيتان : ٧١ ، ٧٢] . وقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّب بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِين ﴾ [سورة العنكبوت ، الآية : ٦٨] . وقوله : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذٰلِكَ اليَوْمَ تُنْسَى * وكَذٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ [سورة طه ، الآيات : ١٢٤ – ١٢٧] . وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ والمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَـٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّة ﴾ [سورة البينة ، الآية : ٦] .

وأمثال هذه النصوص كثير فى القرآن ، فهذه كلها يدخل فيها المنافقون الذين هم فى الباطن كفّار ليس معهم من الإيمان شىء كما يدخل فيها الكفار المظهرون للكفر ، بل المنافقون فى الدرك الأسفل من النار ، كما أخبر الله بذلك فى كتابه .

ثم قد يقرن الكفر بالنفاق فى مواضع ، ففى أول البقرة ذكر أربع آيات فى صفة المؤمنين ، وآيتين فى صفة الكافرين ، وبضع عشرة آية فى صفة المنافقين فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ والكَافِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيْعًا ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١٤٠] . وقال : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُم قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُم فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ . . . إلى قوله : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُم فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِىَ مَولَاكُمْ وَبِئْسَ المَصِيْرُ ﴾ [سورة الحديد ، الآيات : ١٣ – ١٥] . وقال : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِىّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ واغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ٧٣] . فى سورتين ، وقال : ﴿ أَلَمْ

تَرَ إلى الذِينَ نَافقوا يَقولونَ لإِخْوَانِهِمْ الَذِينَ كَفَرُوا ﴾ [سورة الحشر ، الآية : ١١] الآية .

وكذلك لفظ المشركين قد يقرن بأهل الكتاب فقط وقد يقرن بالملل الخمس كما فى قوله تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَادُوا والصَّابِئِينَ والنَّصَارَى والمَجُوسَ والَّذِينَ أَشْرَكُوا ، إنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ إنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سورة الحج ، الآية : ١٧] . والأول كقوله : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ والمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيهُمُ البَيِّنَة ﴾ [سورة البينة ، الآية : ١] . وقوله : ﴿ إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ ﴾ [سورة البينة ، الآية : ٦] . وقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيين أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيكَ البَلَاغُ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٢٠] . وليس أحد بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم إلا من الذين أوتوا الكتاب والأميين ، وكل أمة لم تكن من الذين أوتوا الكتاب فهم من الأميين ، كالأميين من العرب ومن الخزر والصقالبة والهند والسودان وغيرهم من الأمم الذين لا كتاب لهم ، فهؤلاء كلهم أميون ، والرسول مبعوث إليهم كما بعث إلى الأميين من العرب .

وقوله : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ وهو إنما يخاطب الموجودين فى زمانه بعد النسخ والتبديل ، فدلَّ على أن من دان بدين اليهود والنصارى فهو من الذين أوتوا الكتاب ، لا يختص هذا اللفظ بمن كانوا متمسكين به قبل النسخ والتبديل ، ولا فرق بين أولادهم وأولاد غيرهم ، فإن أولادهم إذا كانوا بعد النسخ والتبديل ممن أوتوا الكتاب فكذلك غيرهم إذا كان كلهم كفارًا ، وقد جعلهم الذين أوتوا الكتاب بقوله : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ وهو لا يخاطب بذلك إلا من بلغته رسالته لا من مات ، فدل ذلك على أن قوله : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٥] . يتناول هؤلاء كلهم كما هو مذهب الجمهور من السلف والخلف ، وهو مذهب مالك

وأبي حنيفة وهو المنصوص عن أحمد فى عامة أجوبته ، لم يختلف كلامه إلا فى نصارى بنى تغلب ، وآخر الروايتين عنه أنهم تباح نساؤهم وذبائحهم كما هو قول جمهور الصحابه .

وقوله فى الرواية الأخرى : لا تباح ، متابعة لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه لم يكن لأجل النسب ، بل لكونهم لم يدخلوا فى دين أهل الكتاب إلا فيما يشتهونه من شرب الخمر ونحوه ، ولكن بعض التابعين ظن أن ذلك لأجل النسب كما نقل عن عطاء ، وقال به الشافعي ومن وافقه من أصحاب أحمد ، وفرَّعوا على ذلك فروعًا كمن كان أحد أبويه كتابيًّا والآخر ليس بكتابىّ ونحو ذلك حتى لا يوجد فى طائفة من كتب أصحاب أحمد إلا هذا القول وهو خطأ على مذهبه مخالف لنصوصه ، ولم يعلق الحكم بالنسب فى مثل هذا ألبتة كما قد بسط فى موضعه .

ولفظ المشركين يذكر مفردًا فى مثل قوله : ﴿ وَلَا تَنْكِحوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٢١] . وهل يتناول أهل الكتاب ؟ فيه قولان مشهوران للسلف والخلف ، والذين قالوا بأنها تعم ، منهم من قال هى محكمة كابن عمر والجمهور الذين يبيحون نكاح الكتابيات كما ذكره الله فى آية المائدة وهى متأخرة عن هذه ، ومنهم من يقول : نسخ منها تحريم نكاح الكتابيات ، ومنهم من يقول : بل هو مخصوص لم يرد باللفظ العام . وقد أنزل الله تعالى بعد صلح الحديبية قوله : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ [سورة الممتحنة ، الآية : ١٠] . .

وهذا قد يقال إنما هى إنما نهى عن التمسك بالعصمة من كان متزوجًا بكافرة ولم يكونوا حينئذ متزوجين إلا بمشركة وثنية ، فلم يدخل فى ذلك الكتابيات .

فصل

لفظ الصالح والشهيد :

وكذلك لفظ الصالح والشهيد والصديق يذكر مفردًا فيتناول النبيين قال تعالى فى حق الخليل : ﴿ وآتَيْناهُ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِى الآخِرَةِ لَمِنَ

الصَّالِحِين ﴾ [سورة النحل ، الآية : ١٢٢] . وقال : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِى الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالحين ﴾ [سورة العنكبوت ، الآية : ٢٧] . وقال الخليل : ﴿ رَبِّ هَبْ لى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بالصَّالِحِين ﴾ [سورة الشعراء ، الآية : ٨٣] . وقال يوسف : ﴿ تَوَفَّنى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِين ﴾ [سورة يوسف ، الآية : ١٠١] . وقال سليمان : ﴿ وأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِين ﴾ [سورة النمل ، الآية : ١٩] . وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح المتفق على صحته لما كانوا يقولون فى آخر صلاتهم : السلام على الله قبل عباده السلام على فلان ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم : « إن الله هو السلام فإذا قعد أحدكم فى الصلاة فليقل التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبىّ ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فإذا قالها أصابت كل عبد صالح لله فى السماء والأرض » الحديث[1] . وقد يذكر الصالح مع غيره كقوله تعالى : ﴿ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِين ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٦٩] . قال الزجاج وغيره : الصالح القائم بحقوق الله وحقوق عباده . ولفظ الصالح خلاف الفاسد ، فإذا أطلق فهو الذى صلح جميع أمره فلم يكن فيه شىء من الفساد فاستوت سريرته وعلانيته ، وأقواله وأعماله على ما يرضى ربه . وهذا يتناول النبيين ومن دونهم . ولفظ الصدِّيق قد جعل هنا معطوفًا على النبيين ، وقد وصف به النبيين فى مثل قوله : ﴿ وَاذْكُرْ فِى الكِتَابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كَان صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ [سورة مريم ، الآية : ٤١] ؛ ﴿ واذْكُرْ فِى الكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَان صِديقًا نَبِيًّا ﴾ [سورة مريم ، الآية : ٥٦] .

وكذلك الشهيد قد جعل هنا قرين الصديق والصالح وقد قال : ﴿ وَجِىءَ

---

(١) (صحيح متفق عليه أخرجه البخارى (جـ١١ / ٦٣٢٨) ، ومسلم (جـ١ – صلاة / ٥٥) ، وأبو داود (جـ١ / ٩٦٨) ، والنسائى (جـ٢ ص٢٤٠) ، وابن ماجه (جـ٢ / ٨٩٩) ، وأحمد (جـ١ ص٤١٣) عن ابن مسعود .

بالنَّبيِّينَ والشُّهدَاءِ وقُضِىَ بَيْنَهُم بالحق ﴾ [سورة الزمر ، الآية : ٦٩] .
ولما قيدت الشهادة على الناس وصفت به الأمة كلها فى قوله تعالى : وكَذَٰلِكَ جعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٤٣] . فهذه شهادة مقيَّدة بالشهادة على الناس كالشهادة المذكورة فى قوله : ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ [سورة النور ، الآية : ١٣] . وقوله : ﴿ واسْتَشْهِدُوا شَهِيدَينِ مِن رِجَالِكُمْ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٨٢] . وليست هذه الشهادة المطلقة فى الآيتين ذلك كقوله : ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٤٠] . .

فصل

المعصية المطلقة هى الفسق والكفر :

وكذلك لفظ المعصية والفسوق والكفر ، فإذا أطلقت المعصية لله ورسوله دخل فيه الكفر والفسوق كقوله : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [سورة الجن ، الآية : ٢٣] . وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بأَياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوا رُسُلَهُ واتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [سورة هود ، الآية : ٥٩] . وأطلق معصيته للرسل بأنهم عصوا هودا معصية تكذيب لجنس الرسل ، فكانت المعصية لجنس الرسل كمعصية من قال : ﴿ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَىْءٍ ﴾ [سورة الملك ، الآية : ٩] . ومعصية من كذَّب وتولَّى ، قال تعالى : ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الأَشْقَى * الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [سورة الليل ، الآيات : ١٥ ، ١٦] . أى كذَّب بالخبر وتولَّى عن طاعة الأمر ، وإنما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا . وكذلك قال فى فرعون : ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴾ [سورة النازعات ، الآية : ٢١] . وقال عن جنس الكافر : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى * وَلَـٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [سورة القيامة : آيتا : ٣١ – ٣٢] .

فالتكذيب للخبر والتولّى عن الأمر ، وإنما الإيمان تصديق الرسل فيما أخبروا وطاعتهم فيما أمروا ، ومنه قوله : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَى فِرْعَوْن الرَّسُولَ ﴾ [سورة المزمل ، الآيات : ١٥ ، ١٦] .

ولفظ التولّى بمعنى التولّى عن الطاعة مذكور فى مواضع من القرآن كقوله : ﴿ سَتُدعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [سورة الفتح ، الآية : ١٦] . وذمُّه فى غير موضع من القرآن من تولى ، دليل على وجوب طاعة الله ورسوله ، وأن الأمر المطلق يقتضى وجوب الطاعة وذم التولى عن الطاعة كما علّق الذم بمطلق المعصية فى مثل قوله : ﴿ فَعَصَى فِرْعَوْن الرَسُولَ ﴾ وقد قيل إن التأبيد لم يذكر فى القرآن إلا فى وعيد الكفار ولهذا قال : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيماً ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٩٣] . وقال فيمن يجوز فى المواريث : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نارًا خَالِدًا فِيها ولَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١٤] . فهنا قيَّد المعصية بتعدِّى حدوده ، فلم يذكرها مطلقة ، وقال : ﴿ وعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ [سورة طه ، الآية : ١٢١] . فهى معصية خاصة ، وقال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتمْ فِى الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ ما تُحِبُّونَ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٥٢] . فأخبر عن معصية واقعة معينة ، وهى معصية الرُّماة للنبىّ صلى الله عليه وسلم حيث أمرهم بلزوم ثغرهم ، وإن رأوا المسلمين قد انتصروا ، فعصى من عصى منهم هذا الأمر ، وجعل أميرهم يأمرهم لما رأوا الكفار منهزمين ، وأقبل من أقبل منهم على المغانم ، وكذلك قوله : ﴿ وكَرَّهَ إِلَيْكُم الكُفْرَ والفُسُوقَ والعِصْيَانَ ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ٧] . جعل ذلك ثلاث مراتب ، وقد قال : ﴿ ولَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ [سورة الممتحنة ، الآية : ١٢] . فقيَّد المعصية ، ولهذا فسِّرت بالنياحة .

قال ابن عباس : روى ذلك مرفوعًا ، وكذلك قال زيد بن أسلم : لا تدعنّ ويلًا ، ولا تخدشن وجهًا ، ولا تنشرن شعرًا ، ولا تشققن ثوبًا . وقد قال بعضهم : هو جميع ما يأمرهم به الرسول من شرائع الإسلام وأدلّته كما قاله أبو سليمان الدمشقّى ، ولفظ الآية عام أنهن لا يعصينه فى معروف ، ومعصيته لا تكون إلا فى معروف فإنه لا يأمر بمنكر ، لكن هذا كما قيل فيه دلالة على أن طاعة ولىّ الأمر إنما تلزم فى المعروف كما ثبت فى الصحيح عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنما الطاعة فى المعروف »[1]ونظير هذا قوله : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّه وللرَّسُولِ إذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُم ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٢٤] . وهو لا يدعو إلا إلى ذلك ، والتقييد هنا لا مفهوم له ، فإنه لا يقع دعاء لغير ذلك ولا أمر بغير معروف ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ ولَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ [سورة النور ، الآية : ٣٣] . فإنهن إذا لم يردن امتنع الإكراه ، ولكن فى هذا بيان الوصف المناسب للحكم ومنه قوله تعالى : ﴿ ومَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إلـٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إنَّهُ لَا يُفْلِحُ الكافِرُونَ ﴾ [سورة المؤمنون ، الآية : ١١٧] . وقوله : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّين بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٦١] . فالتقييد فى جميع هذا للبيان والإيضاح لا لإخراج وصف آخر ، ولهذا يقول من يقول من النحاة : الصفات فى المعارف للتوضيح لا للتخصيص ، وفى النكرات للتخصيص ، يعنى فى المعارف التى لا تحتاج إلى تخصيص كقوله : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ [سورة الأعلى ، الآيات : ١ ، ٢] . وقوله : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الأُمِّىَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُم فِى التَّورَاةِ والإِنْجِيل ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ١٥٧] . وقوله : ﴿ الحمدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ * الرَّحْمـٰن الرَّحِيم ﴾

---

(١) (أخرجه البخارى (حـ١٣ / ٧١٤٥) ، ومسلم (جـ٣ – إمارة / ٣٩ ، ٤٠) ، وأبو داود (جـ٣ / ٢٦٢٥) ، والنسائى (جـ٧ ص١٦٠) ، وأحمد (جـ١ ص٨٢) كلهم من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه .

[سورة الفاتحة ، الآيات : ١ ، ٢] . والصفات فى النكرات إذا تميَّزت تكون للتوضيح أيضًا ، ومع هذا فقد عطف المعصية على الكفر والفسوق فى قوله : ﴿ وكَرَّهَ إِلَيْكُم الكُفْرَ والفُسُوقَ والعِصْيَانَ ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ٧] . ومعلوم أن الفاسق عاص أيضًا .

فصل

ظلم النفس المطلق يشمل الذنوب :

ومن هذا الباب ظلم النفس فإنه إذا أطلق تناول جميع الذنوب ؛ فإنها ظلم العبد نفسه قال تعالى : ﴿ ذٰلِكَ مِن أَنْبَاءِ القُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * ومَا ظَلَمْنَاهُمْ ولٰكِن ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُم الَّتى يَدعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَىءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ومَا زَادُوهُم غَيْرَ تَتبِيبٍ ﴾ [سورة هود ، الآيات : ١٠٠ ، ١٠١] . وقال تعالى : ﴿ وإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُم العِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُم ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٥٤] . وقال فى قتل النفس : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسَى فَاغْفِرْ لِى ﴾ [سورة القصص ، الآية : ١٦] . وقالت بلقيس : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للَّهِ ربِّ العَالَمِينَ ﴾ [سورة النمل ، الآية : ٤٤] . وقال آدم عليه السلام : ﴿ ربَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وإِنْ لَمْ تَغْفِر لَنَا وتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٢٣] . ثم قد يقرن ببعض الذنوب كقوله تعالى : ﴿ والَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَو ظَلَمُوا أَنْفُسَهم ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٣٥] . وقوله : ﴿ وَمَنْ يَعْمَل سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١١٠] .

وأما لفظ الظلم المطلق فيدخل فيه الكفر وسائر الذنوب قال تعالى : ﴿ أُحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُم ومَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ

فَاهْدُوهُم إِلَى صِرَاطِ الجَحِيمِ * وَقِفُوهُم إِنَّهُم مَسْئُولُونَ ﴾ [سورة الصافات ، الآيات : ٢٢ - ٢٤] . وقال عمر بن الخطاب : وأزواجهم ونظراءهم . وهذا ثابت عن عمر ، وروى ذلك عنه مرفوعًا وكذلك قال ابن عباس : وأشباههم ، وكذلك قال قتادة والكلبى : كل من عمل بمثل عملهم ، فأهل الخمر مع أهل الخمر ، وأهل الزنى مع أهل الزنى . وعن الضحاك ومقاتل : قرناءهم من الشياطين كل كافر معه شيطانه فى سلسلة وهذا كقوله : ﴿ وإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَت ﴾ [سورة التكوير ، الآية : ٧] . قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الفاجر مع الفاجر ، والصالح مع الصالح ، قال ابن عباس ، وذلك حين يكون الناس أزواجًا ثلاثة ، وقال الحسن وقتادة : ألحق كل امرئ بشيعته ، اليهودى مع اليهود ، والنصرانى مع النصارى ، وقال الربيع بن خيثم : يحشر المرء مع صاحب عمله وهذا كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم لما قيل له : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، قال : « المرء مع من أحب » وقال : « الأرواح جنود مجنَّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » وقال : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » .

وزوج الشئ نظيره ، وسمى « الصنف » زوجًا لتشابه أفراده كقوله : ﴿ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [سورة الشعراء ، الآية : ٧] . وقال : ﴿ ومِن كُلِّ شَيءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة الذاريات ، الآية : ٤٦] . قال غير واحد من المفسرين ، صنفين ونوعين مختلفين : السماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والبر والفاجر ، والسهل والجبل ، والشتاء والصيف ، والجن والإنس ، والكفر والإيمان ، والسعادة والشقاوة والحق والباطل ، والذكر والأنثى ، والنور والظلمة ، والحلو والمر ؛ وأشباه ذلك ، لعلَّكم تذكَّرون فتعلمون أن خالق الأزواج واحد ، وليس المراد أنه يحشر معهم زوجاتهم مطلقًا ، فإن المرأة الصالحة قد يكون زوجها فاجرًا ، بل كافرأ كامرأة فرعون ، وكذلك الرجل الصالح قد تكون امرأته فاجرة ، بل كافرة كامرأة نوح ولوط ، لكن إن كانت المرأة على دين زوجها دخلت فى عموم الأزواج ، ولهذا قال

الحسن البصرى : وأزواجهم المشركات .

فلا ريب أن هذه الآية تناولت الكفار كما دل عليه سياق الآية ، وقد تقدم كلام المفسرين أنه يدخل فيها الزناة مع الزناة ، وأهل الخمر مع أهل الخمر ، وكذلك الأثر المروى : « إذا كان يوم القيامة قيل أين الظَّلَمة وأعوانهم ، أو قال أشباههم ، فيجمعون فى توابيت من نار ثم يقذف بهم فى النار » وقد قال غير واحد من السلف : أعوان الظلمة من أعانهم ولو أنه ناولهم دواة أو برى لهم قلمًا ، ومنهم من كان يقول : بل من يغسل ثيابهم من أعوانهم ، وأعوانهم هم من أزواجهم المذكورين فى الآية ، فإن المعين على البر والتقوى من أهل ذاك ، والمعين على الإثم والعدوان من أهل ذاك قال تعالى : ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا ومَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنهَا ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٨٥] . والشافع الذى يعين غيره فيصير معه شفيعًا بعد أن كان وترًا ، ولهذا فسرت الشفاعة الحسنة بإعانة المؤمنين على الجهاد ، والشفاعة السيئة بإعانة الكفار على قتال المؤمنين كما ذكر ابن جرير وأبو سليمان ، وفسرت الشفاعة الحسنة بشفاعة الإنسان للإنسان ليجتلب له نفعًا أو يخلصه من بلاء ، كما قال الحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد ، فالشفاعة الحسنة إعانته على خير يحبه الله ورسوله ، مع نفع من يستحق النفع ودفع الضُّر عمن يستحق دفع الضرر عنه ، والشفاعة السيئة إعانته على ما يكرهه الله ورسوله كالشفاعة التى فيها ظلم الإنسان أو منع الإحسان الذى يستحقه ، وفسرت الشفاعة الحسنة بالدعاء للمؤمنين ، والسيئة بالدعاء عليهم ، وفسرت الشفاعة الحسنة بالإصلاح بين اثنين ؛ وكل هذا صحيح ، فالشافع زوج المشفوع له ، إذ المشفوع عنده من الخلق إما أن يعينه على بر وتقوى ؛ وإما أن يعينه على إثم وعدوان ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أتاه طالب حاجة قال لأصحابه : « اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ما يشاء » .

وتمام الكلام يبين أن الآية وإن تناولت الظالم الذى ظلم بكفره فهى أيضًا متناولة ما دون ذلك وإن قيل فيها : ﴿ ومَا يَعْبُدُونَ ﴾ فقد ثبت فى الصحيح

عن النبّى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش » وثبت عنه فى الصحيح أنه قال : « ما من صاحب كنز إلا جعل له كنزه يوم القيامة شجاعًا أقرع يأخذ بلهزمتيه يقول : أنا مالك أنا كنزك » ، وفى رواية : « إلَّا مثِّل له يوم القيامة شجاعًا أقرع يفر منه وهو يتبعه حتى يطوقه فى عنقه » وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ﴿ سَيُطَوَّقونَ ما بَخِلُوا به يوم القيامة ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٨٠] . وفى حديث آخر : « مثل له يوم القيامة شجاعًا أقرع يتبع صاحبه حيث ما ذهب وهو يفر منه ، هذا مالك الذى كنت تبخل به فإذا رأى أنه لابد له منه أدخل يده فى فيه فيقضمها كما يقضم الفحل »(١). وفى رواية : « فلا يزال يتبعه فيلقمه يده فيقضمها ثم يلقمه سائر جسده » وقد قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ والَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَومَ يُحْمَى علَيْها فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُم وجُنُوبُهُم وظُهُورُهُم هذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُم تَكْنِزُونَ ﴾ [سورة التوبة ، الآيات : ٣٤ - ٣٥] .

وقد ثبت فى الصحيح وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من صاحب كنز لا يؤدى زكاته إلا أحمى عليها فى نار جهنم فيجعل صفائح فيكوى بها جبينه وجنباه ، حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدُّون ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار »(٢) .

وفى حديث أبى ذر : « بشِّر الكانزين برضف يحمى عليها فى نار جهنم فتوضع على حلمة ثدى أحدهم حتى يخرج من نغض كتفيه ويوضع على نغض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثدييه يتزلزل وتكوى الجباه والجنوب والظهور حتى يلتقى

---

(١) صحيح أيضًا أخرجه البخارى (جـ١٠ - ٦١٦٨) ، ومسلم جـ ٤ - بر / ١٦٥) والترمذى حـ ٤ / ٢٣٨٥ ، و(أحمد جـ ١/ ٣٩٢) .

(٢) (أخرجه مسلم (جـ٢ - زكاة / ٢٦) ، وأبو داود (جـ٢ / ١٦٥٨) ، وأحمد (جـ٢ / ٢٦٢) عن أبى هريرة .

الحر فى أجوافهم »[1] ، وهذا كما فى القرآن ويدل على أنه بعد دخول النار فيكون هذا لمن دخل النار ممن فعل به ذلك أولًا فى الموقف ، فهذا الظالم لما منع الزكاة يحشر مع أشباهه وماله الذى صار عبدًا له من دون الله فيعذب به ، وإن لم يكن هذا من أهل الشرك الأكبر الذين يخلّدون فى النار ، ولهذا قال فى آخر الحديث : « ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » فهذا بعد تعذيبه خمسين ألف سنة مما تعدُّون ثم يدخل الجنة .

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل »[2]قال ابن عباس وأصحابه : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق ، وكذلك قال أهل السنة كأحمد بن حنبل وغيره ، كما سنذكره إن شاء الله ، وقد قال الله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُم أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ والمَسِيحَ ابنَ مَرْيَمَ ومَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إلـٰهًا واحِدًا لا إلـٰهَ إِلَّا هُو سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ٣١] . وفى حديث عدىّ بن حاتم ، وهو حديث حسن طويل رواه أحمد والترمذى وغيرهما ، وكان قد قدم على النبى صلى الله عليه وسلم وهو نصرانى فسمعه يقرأ هذه الآية قال فقلت له : إنا لسنا نعبدهم . قال : « أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه ؟ » قال فقلتَ : بلى ، قال : « فتلك عبادتهم »[3]وكذلك قال أبو البخترى : أما إنهم لم يصلوا لهم ولو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم ، ولكن أمروهم فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله فأطاعوهم فكانت تلك الربوبية .

وقال الربيع بن أنس قلت لأبى العالية كيف كانت تلك الربوبية فى بنى

---

(١) (متفق عليه أخرجه البخارى (جـ٣ / ١٤٠٧) ، ومسلم (جـ٢ - زكاة / ٣٤) .

(٢) (المسند (جـ٤ ٤٠٣) عن أبى موسى الأشعرى وله شواهد وصححه الألبانى انظر صحيح الجامع الصغير (٣٦٢٤ ، ٣٦٢٥) .

(٣) (الترمذى (جـ٥ / ٣٠٩٥) عن عدى بن حاتم وهو حديث حسن كما قال وانظر تفسير ابن كثير للآية .

إسرائيل ؟ قال كانت الربوبية انهم وجدوا فى كتاب الله ما أمروا به ونهوا عنه ، فقالوا : لن نسبق أحبارنا بشيء فما أمرونا به ائتمرنا به وما نهونا عنه انتهينا لقولهم فاستنصحوا الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، فقد بيَّن النبى صلى الله عليه وسلم أن عبادتهم إياهم كانت فى تحليل الحرام وتحريم الحلال ، لا أنهم صلوا لهم وصاموا لهم ودعوهم من دون الله ، فهذه عبادة للرجال وتلك عبادة للأموال ، قد بينها النبى صلى الله عليه وسلم وقد ذكر الله تعالى أن ذلك شرك بقوله : ﴿ لا إلٰه إلَّا هُو سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فهذا من الظلم الذى يدخل فى قوله : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله ﴾ [سورة الصافات ، الآية : ٢٢] . فإن هؤلاء الذين أمروهم بهذا هم جميعًا معذبون ، وقال : ﴿ إِنَّكُم وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّم أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [سورة الأنبياء ، الآية : ٩٨] . وإنما يخرج من هذا من عبد مع كراهته لأن يعبد ويطاع فى معصية الله ، فهم الذين سبقت لهم الحسنى كالمسيح والعزير وغيرهما ، فأولئك عنها مبعدون .

وأما من رضى بأن يعبد ويطاع فى معصية الله ، فهو مستحق للوعيد ، ولو لم يأمر بذلك ، فكيف إذا أمر ، وكذلك من أمر غيره بأن يعبد غير الله ، وهذا من أزواجهم ، فإن أزواجهم قد يكونون رؤساء لهم وقد يكونون أتباعًا ، وهم أزواج وأشباه لتشابههم فى الدين ، وسياق الآية يدل على ذلك فإنه قال : ﴿ أُحْشُرُوا الذِينَ ظَلَمُوا وأَزْوَاجَهُم وما كانوا يعبُدُون * مِنْ دُونِ اللَّهِ فاهْدُوهُم إلَى صِرَاطِ الجَحِيمِ ﴾ قال ابن عباس : دلوهم ، وقال الضحاك مثله ، وقال ابن كيسان قدموهم ، والمعنى قودوهم كما يقود الهادى لمن يهديه ، ولهذا تسمى الأعناق الهوادى ، لأنها تقود سائر البدن ، ويسمى أوائل الوحش الهوادى ﴿ وَقِفُوهُمْ إنَّهُم مَسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ تَنَاصَرُونَ ﴾ [سورة الصافات ، الآيات : ٢٤ ، ٢٥] . أى كما كنتم تناصرون فى الدنيا على الباطل : ﴿ بَلْ هُم اليَومَ مُسْتَسْلِمُون * وأَقْبَلَ بعْضُهُم عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ * قالُوا إنَّكُمْ كُنْتُم تَأْتُونَنا عَنِ اليَمينِ * قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * ومَا

كانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُم قَوْمًا طاغِينَ * فَحقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ ربِّنا إنَّا لَذَائِقُونَ * فأَغْوَيْنَاكُم إنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فإنَّهُم يَوْمَئِذٍ فِى العَذَابِ مشْتَرِكُونَ * إنَّا كَذٰلِكَ نفْعَلُ بالمجْرِمِينَ * إنَّهُمْ كانُوا إذَا قِيلَ لَهُم لا إلٰه إلَّا اللَّهُ يسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَإنَّا لَتارِكُوا آلِهتِنا لِشَاعِرٍ مَجْنونٍ ﴾ [سورة الصافات ، الآيات : ٢٦ – ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ قالَ ادْخُلُوا فى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الجنِّ والإنْسِ فى النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حتَّى إذا ادَّاركُوا فِيها جَمِيعًا قالَتْ أُخْراهُم لأُولاهُمْ ربَّنا هٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فآتِهمْ عَذَابًا ضِعْفًا من النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ولٰكِن لا تعْلَمُون * وقالَتْ أُولاهُم لأُخْرَاهُم فَما كانَ لَكُم علَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا العذَابَ بِمَا كُنْتُم تَكْسِبُونَ ﴾ [سورة الأعرف ، الآيتان : ٣٨ – ٣٩] . وقال تعالى : ﴿ وإذْ يتَحاجُّونَ فى النَّارِ فيقُولُ الضُّعفاءُ للَّذِينَ استَكْبَرُوا إنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهلْ أَنْتُم مغْنُون عنَّا نَصيبًا من النَّار * قالَ الَّذينَ استَكْبَرُوا إنَّا كُلٌّ فِيها إنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العِبَادِ ﴾ [سورة غافر ، الآيتان : ٤٧ ، ٤٨] . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إذِ الظَّالِمُونَ موْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهم يرْجعُ بعْضُهُم إلَى بَعْضٍ القَوْلَ يقُولُ الَّذِينَ استُضْعِفُوا للَّذينَ استَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُم لكُنَّا مؤْمِنينَ * قالَ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا للَّذينَ استُضْعِفُوا أَنحْنُ صَدَدْناكُم عَنِ الهُدَى بَعْد إذْ جاءَكُم بلْ كُنْتُم مُّجْرمينَ * وقالَ الَّذينَ استُضعفُوا للَّذينَ استكبرُوا بلْ مَكر الَّيلِ والنَّهارِ إذْ تأْمرونَنَا أنْ نكْفُرَ باللَّهِ ونَجْعَلَ لَهُ أَنْدادًا وأسرُّوا النَّدامةَ لمَّا رَأَوُا العَذابَ وجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِى أعْناقِ الَّذينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَونَ إلَّا ما كانُوا يعْمَلُون ﴾ [سورة سبأ ، الآيات : ٣١ – ٣٣] .

وقوله فى سياق الآية : ﴿ إنَّهُم كانُوا إذَا قِيلَ لَهُم لا إلٰهَ إلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [سورة الصافات ، الآية : ٣٥] . ولا ريب أنها تتناول الشركين الأصغر والأكبر ، وتتناول أيضًا من استكبر عما أمره الله به من طاعته ، فإن ذلك من تحقيق قول لا إلـه إلا الله ، فإن الإله هو المستحق للعبادة . فكل

ما يعبد به الله فهو من تمام تأله العباد له ، فمن استكبر عن بعض عبادته سامعًا مطيعًا فى ذلك لغيره لم يحقق قول لا إلٰه إلا الله فى هذا المقام .

وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا حيث أطاعوهم فى تحليل ما حرم الله ، وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين :

أحدهما :

أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل ، فيعتقدون تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله اتباعًا لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل ، فهذا كفر ، وقد جعله الله ورسوله شركًا ، وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم ، فكان من اتبع غيره فى خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين ، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله مشركًا مثل هؤلاء .

الثانى :

أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال ، وتحليل الحرام ثابتًا لكنهم أطاعوهم فى معصية الله ، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصى التى يعتقد أنها معاص ، فهولاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب كما قد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنما الطاعة فى المعروف »[1] وقال : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية »[2] وقال : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق »[3]« ومن أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه » .

ثم ذلك المحرم للحلال والمحلل للحرام إن كان مجتهدًا قصده اتباع الرسول لكن خفي عليه الحق فى نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع ؛ فهذا لا يؤاخذه الله

---

(١) (أخرجه البخارى (جـ١٣ / ١٧٤٥) ، ومسلم جـ٣ - إمارة / ٣٩ ، ٤٠) ، وأبو داود (جـ٣ / ٢٦٢٥) ، والنسائى (جـ٧ ص١٦٠) ، وأحمد (جـ١ ص٨٢) عن علي .

(٢) (أخرجه مسلم (حـ٣ - إمارة / ٣٨) عن ابن عمر .

(٣) (أحمد جـ٥ ص٦٦) عن عمران بن حصين .

بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذى أطاع به ربه ؛ ولكن من علم أن هذا أخطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول ، فهذا له نصيب من هذا الشرك الذى ذمه الله لا سيما إن تبع فى ذلك هواه ونصره باللسان واليد مع علمه ، بأنه مخالف للرسول ، فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه ، ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز تقليد أحد فى خلافه ، وإنما تنازعوا فى جواز التقليد للقادر على الاستدلال وإن كان عاجزًا عن إظهار الحق الذى يعلمه ، فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصارى ، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤاخذه بما عجز عنه ، وهؤلاء كالنجاشى وغيره ، وقد أنزل الله فى هؤلاء آيات من كتابه كقوله تعالى : ﴿ وإنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ لمن يُؤْمِنُ بِاللهِ وما أُنزلَ إلَيْكُم وما أُنزلَ إلَيْهِم ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٩٩] . وقوله : ﴿ ومِنْ قَوْم مُوسَى أُمَّةٌ يهْدُونَ بالحَقِّ وبِه يعْدِلون ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ١٥٩] . : ﴿ وإذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إلى الرَّسُولِ تَرى أعْيُنَهُم تَفِيضُ منَ الدَّمْعِ ممَّا عَرفُوا مِنَ الحَقِّ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٨٣] .

وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزًا عن معرفة الحق على التفصيل ، وقد فعل ما يقدر عليه مثله من الاجتهاد فى التقليد ، فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ كما فى القبلة ، وأما إن قلد شخصا دون نظيره بمجرد هواه ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق ، فهذا من أهل الجاهلية ، وإن كان متبوعه مصيبًا لم يكن عمله صالحًا ، وإن كان متبوعه مخطئًا كان آثما كمن قال فى القرآن برأيه ، فإن أصاب فقد أخطأ ، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار ، وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذى تقدم فيه الوعيد ، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ، فإن ذلك لما أحب المال حبًّا منعه عن عبادة الله وطاعته صار عبدًا له ، وكذلك هؤلاء فيكون فيه شرك أصغر ولهم من الوعيد بحسب ذلك ؛ وفى الحديث : « إن يسير الرياء شرك » وهذا مبسوط عند النصوص التى فيها إطلاق الكفر والشرك على كثير من الذنوب .

والمقصود هنا أن الظلم المطلق يتناول الكفر ولكن لا يختص بالكفر بل يتناول

ما دونه أيضًا وكل بحسبه كلفظ الذنب والخطيئة والمعصية ، فإن هذا يتناول الكفر والفسوق والعصيان كما فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ، قلت : يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله ندًا وهو خلقك » قلت : ثم أى ؟ قال : « ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تزنى بحليلة جارك »[1] فأنزل الله تعالى : ﴿ والَّذينَ لا يدْعُونَ مَعَ اللهِ إلٰهًا آخرَ ولا يقْتلُون النَّفْس التى حَرَّم اللَّهُ إلَّا بالحَقِّ ولا يزْنُونَ ومَنْ يَفْعل ذلٰكَ يلْقَ أثامًا * يُضَاعَف لَهُ العَذَابُ يوْمَ القِيامةِ ويخْلُدْ فِيه مُهانًا * إلَّا مَنْ تابَ وآمَنَ وعَمِل عَمَلًا صالحًا فأُولٰئِكَ يبدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهم حَسَناتٍ وكانَ اللَّهُ غَفُورًا رحيمًا * ومَنْ تابَ وعَمِل صالحًا فإنَّهُ يتوبُ إلَى اللَّهِ متَابًا ﴾ [سورة الفرقان ، الآية : ٦٨ – ٧١] .

فهذا الوعيد بتمامه على الثلاثة ، ولكل عمل قسط منه ، فلو أشرك ولم يقتل ولم يزن كان عذابه دون ذلك ، ولو زنى وقتل ولم يشرك كان له من هذا العذاب نصيب كما فى قوله : ﴿ ومَنْ يَقْتُل مؤمنًا متعمِّدًا فجزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالدًا فِيها وغَضِبَ اللَّهُ عليْهِ ولعنَهُ وأعدَّ لَهُ عذابًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٩٣] . ولم يذكر « أبدًا » وقد قيل إن لفظ التأبيد لم يجئ إلا مع الكفر ، وقال الله تعالى : ﴿ ويَوْمَ يَعَضُّ الظَّالمُ عَلَى يَدَيْهِ يقُولُ يا لَيْتِنِى اتَّخذْتُ معَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يا وَيْلَتى لَيتِنى لَمْ أتَّخِذْ فُلانًا خَليلًا * لقد أضلَّنِى عَنِ الذِّكْر بعْدَ إذْ جاءَنِى وكانَ الشَّيْطانُ للإِنْسانِ خَذُولًا ﴾ [سورة الفرقان ، الآية : ٢٧ – ٢٩] . .

فلا ريب أن هذا يتناول الكافر الذى لم يؤمن بالرسول ، وسبب نزول الآية كان فى ذلك ، فإن الظلم المطلق يتناول ذلك ويتناول ما دونه بحسبه ، فمن خالَّ

---

(١) (أخرجه البخارى (جـ٨ / ٤٤٧٧) ، ومسلم (جـ١ – إيمان / ١٤١) ، وأبو داود (جـ٢ / ٢٣١٠) ، والترمذى (جـ٥ / ٣١٨٣) ، والنسائى (جـ٧ ص٩٠) ، وأحمد (جـ١ ص٣٨٠) عن ابن مسعود .

مخلوقًا فى خلاف أمرالله ورسوله كان له من هذا الوعيد نصيب ، كما قال تعالى : ﴿ الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بعْضُهم لبعضٍ عَدُوٌّ إلَّا المتقين ﴾ [سورة الزخرف ، الآية : ٦٧] . وقال تعالى : ﴿ إذْ تبرَّأ الَّذينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذينَ اتَّبعُوا وَرَأَوُا العَذابَ وتَقَطَّعتْ بِهِمُ الأَسْبابُ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٦٦] . قال الفضيل بن عياض حدثنا الليث عن مجاهد : هى المودات التى كانت بينهم لغير الله ، فإن المخالة تحاب وتوادد ، ولهذا قال : « المرء على دين خليله » فإن المتحابين يحب أحدهم ما يحب الآخر بحسب الحب فإذا اتبع أحدهما صاحبه على محبته ما يبغضه الله ورسوله نقص من دينهم بحسب ذلك إلى أن ينتهى إلى الشرك الأكبر ، قال تعالى : ﴿ ومِنَ النَّاسِ مَنْ يتَّخذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهم كحبِّ اللَّهِ والَّذينَ آمنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٦٥] .

والذين قدموا محبة المال الذى كنزوه ، والمخلوق الذى اتبعوه ، على محبة الله ورسوله كان فيهم من الظلم والشرك بحسب ذلك ، فلهذا ألزمهم محبوبهم كما فى الحديث يقول الله تعالى : « أليس عدلا منى أن أولى كل رجل منكم ما كان يتولاه فى الدنيا ؟ » وقد ثبت فى الصحيح يقول : « ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ، من كان يعبد الشمس الشمس ، ومن كان يعبد القمر القمر ، ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت ويمثل للنصارى المسيح ولليهود عزير ، فيتبع كل قوم ما كانوا يعبدون ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها » كما سيأتى هذا إن شاء الله ، فهؤلاء أهل الشرك الأكبر .

وأما عبيد المال الذى كنزوه ، وعبيد الرجال الذين أطاعوهم فى معاصى الله فأولئك يعذبون عذابا دون عذاب أولئك المشركين ، إما فى عرصات القيامة ، وإما فى جهنم ، ومن أحب شيئًا دون الله عذب به . وقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا أَنْفِقُوا ممَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبلِ أنْ يأْتِى يومٌ لا بَيْعٌ فيهِ ولا خُلَّةٌ ولا شفَاعَةٌ والكافِرُونَ هُم الظَّالمُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٥٤] . فالكفر المطلق هو الظلم المطلق ، ولهذا لا شفيع لأهله يوم القيامة كما نفى الشفاعة فى هذه الآية وفى قوله : ﴿ وَأَنْذِرْهُم يَوْمَ الأَزِفَةِ إِذِ القُلُوبُ

لَدَى الحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِن حَمِيم وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ * يَعْلَمُ خَائِنَةِ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ ﴾ [غافر ، الآيتان : ١٨ ، ١٩] وقال : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ والغَاوُونَ * وجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُم فِيهَا يَخْتَصِمُون * تَاللَّهِ إن كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُبِين * إِذْ نُسَوِّيكم بِرَبِ العَالَمين * وما أَضَلَّنَا إِلَّا المجْرِمُونَ * فَما لنَا مِنْ شَافِعِين * ولا صَدِيقٍ حَمِيم * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الشعراء ، الآيات : ٩٤ - ١٠٢] . وقوله : ﴿ نُسَوِّيكُم ﴾ لم يريدوا به أنهم جعلوهم مساوين لله من كل وجه ، فإن هذا لم يقله أحد من بنى آدم ، ولا نقل عن قوم قط من الكفار أنهم قالوا إن هذا العالم له خالقان متماثلان ، حتى المجوس القائلين بالأصلين النور والظلمة ، متفقون على أن النور خير يستحق أن يعبد ويحمد ، وأن الظلمة شريرة تستحق أن تذم وتلعن ، واختلفوا هل الظلمة محدثة أو قديمة ؟ على قولين ، وبكل حال لم يجعلوها مثل النور من كل وجه . وكذلك مشركو العرب كانوا متفقين على أن أربابهم لم تشارك الله فى خلق السموات والأرض ، بل كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض وما بينهما كما أخبر الله عنهم بذلك فى غير آية كقوله تعالى : ﴿ ولَئِن سأَلْتَهُم مَن خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ وسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فأنَّى يُؤْفَكُونَ * اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيقْدِرُ لَهُ إنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم * ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً فأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الحمدُ للَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُم لا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة العنكبوت ، الآية : ٦١ - ٦٣] . وقال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهنَّ العزيزُ العَلِيمُ * الَّذِى جَعَلَ لَكُم الأَرْضَ مَهْدًا وجَعَلَ لَكُم فِيها سُبُلًا لَعَلَّكُم تَهْتَدُون * والَّذِى نَزَّل مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فأَنْشَرْنَا بِهِ بلْدَةً ميْتًا كَذٰلِكَ تُخْرَجُونَ * والَّذِى خَلَقَ الأَزْواجَ كُلَّهَا وجَعَلَ لَكُم مِنَ الفُلْكِ والأَنْعَامِ ما تَرْكَبُونَ * لتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِه ثُمَّ تَذكُروا نِعمةَ ربِّكُم إذا اسْتَوَيْتُم عَلَيْهِ وتقُولُوا سُبحانَ الَّذِى سخَّر لَنَا هٰذَا وما كُنَّا لَهُ مُقْرِنينَ *

وإنَّا إلَى رَبِّنا لمنْقَلِبُون ﴾ [سورة الزخرف ، الآية : ٩ - ١٤] .

وهذه الصفات من كلام الله تعالى ليست من تمام جَوابهم ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ ومَنْ فِيها إنْ كُنْتُم تَعْلَمُون * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُل أفَلَا تَذَكَّرونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ السَّبْعِ ورَبُّ العَرْشِ العَظِيم * سَيَقُولُون لِلَّهِ ﴾ [سورة المؤمنون ، الآية : ٨٤ - ٨٧] . . وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَاءَيْتَكُمْ إنْ آتَاكُم عَذَابُ اللَّهِ أوْ أتَتْكُم السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إنْ كُنْتُم صادِقِين * بلْ إيَّاهُ تدْعونَ فَيكْشِفُ ما تَدْعُونَ إليْهِ إنْ شَاءَ وتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ ﴾ [سورة الأنعام ، الآيات : ٤٠ ، ٤١] . وكذلك قوله : ﴿ ءآللهُ خَيْرٌ أمَّا يُشْرِكُونَ * أمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأرْضَ وأنْزَلَ لَكُم مِنَ السَّمَاءِ ماءً فأنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أنْ تُنْبتُوا شَجَرَهَا ءإلٰهٌ معَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قومٌ يعْدِلُونَ * أمَّنْ جَعَل الأرْضَ قَرارًا وجَعَلَ خِلَالَها أنْهَارًا وجَعَل لَها رَواسِيَ وجَعَلَ بيْنَ البَحْريْن حاجِزًا ءإلٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ [سورة النمل ، الآيات : ٥٩ - ٦١] . أى أإلٰه مع الله فعل هذا ؟ وهذا استفهام إنكار وهم مقرون بأنه لم يفعل هذا إلٰه آخر مع الله .

ومن قال من المفسرين إن المراد هل مع الله إلٰه آخر فقد غلط ، فإنهم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى كما قال تعالى : ﴿ أئِنَّكُم لَتَشْهَدُونَ أنَّ مَعَ اللَّهِ آلهةً أُخرَى قلْ لَا أشْهَد ﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ١٩] . وقال تعالى : ﴿ فَما أغْنَتْ عَنْهُم آلهتُهُم الَّتى يدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَىْءٍ ﴾ [سورة هود ، الآية : ١٠١] . وقال تعالى عنهم : ﴿ أَجَعَلَ الآلهةَ إلٰهًا وَاحِدًا إنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [سورة ص ، الآية : ٥] . وكانوا معترفين بأن آلهتهم لم تشارك الله فى خلق السموات والأرض ، ولا خلق شيء ، بل كانوا يتخذونهم شفعاء ووسائط كما قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُم ولا يَنْفَعُهم ويقُولُونَ هٰؤُلَاءِ شُفعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [سورة يونس ، الآية : ١٨] . وقال عن صاحب يس : ﴿ ومالِى لا أعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنى وإليْهِ

تُرْجَعُونَ * ءأَتَّخذُ مِنْ دُونِه آلهةً إنْ يُرِدْنِ الرَّحْمـٰن بضرٍّ لا تُغْنِ عنِّى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ولا يُنْقِذُون ﴾ [سورة يس ، الآيات : ٢٢ ، ٢٣] . وقال تعالى : ﴿ وأنْذِر بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أنْ يُحْشرُوا إلَى رَبِّهم لَيسَ لَهُمْ مِنْ دُونِه ولِىٌّ ولا شَفِيعٌ ﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ٥١] . وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمـٰوَاتِ والأرْضَ وما بيْنَهُما فى سِتَّةِ أيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى العَرْشِ ما لَكُم مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِىٍّ ولا شَفِيعٍ أفلَا تَتَذَكَّرونَ ﴾ [سورة السجدة ، الآية : ٤] . وقال : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يمِلكُونَ مِثْقالَ ذرَّةٍ فى السَّمـٰوَاتِ ولا فِى الأرْضِ وما لَهُم فِيهما مِنْ شِرْكٍ وما لَهُ مِنْهُم مِنْ ظَهِير * ولا تَنْفَعُ الشفَاعَةُ عِنْدَهُ إلَّا لمَنْ أذِنَ لَهُ ﴾ [سورة سبأ ، الآيات : ٢٢ ، ٢٣] . فنفى عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط من الملك أو يكون عونًا لله ، ولم يبق إلا الشفاعة ، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب ، كما قال تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلَّا بإذْنِهِ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٥٥] . وقال تعالى عن الملائكة : ﴿ ولا يشْفَعُونَ إلَّا لمنِ ارْتَضَى ﴾ [سورة الأنبياء ، الآية : ٢٨] . وقال : ﴿ وكَمْ مِنْ مَلَكٍ فى السَّمـٰوَاتِ لا تُغْنِى شَفَاعَتُهُم شَيْئًا إلَّا مِنْ بَعْدِ أنْ يأذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ ويَرْضَى ﴾ [سورة النجم ، الآية : ٢٦] .

فهذه الشفاعة التى يظنها المشركون هى منتفية يوم القيامة كما نفاه القرآن ، وأما ما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم أنه يكون فأخبر أنه يأتى فيسجد لربه ويحمده ، لا يبدأ بالشفاعة أولًا ، فإذا سجد وحمد ربه بمحامد يفتحها عليه يقال له : أى محمد ارفع رأسك ، وقل تسمع وسل تعط ، واشفع تشفع ، فيقول : أى رب أمتى ؛ فيحد له حدًّا فيدخلهم الجنة ، وكذلك فى الثانية ، وكذلك فى الثالثة ، قال أبو هريرة : من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : « من قال لا إلـٰه إلا الله خالصًا من قلبه »[1] فتلك الشفاعة هى لأهل الإخلاص بإذن

(١) (أخرجه البخارى (جـ١ / ٩٩) ، وأحمد (جـ٢ ص٣٧٣) عن أبى هريرة .

الله ، ليست لمن أشرك بالله ، ولا تكون إلا بإذن الله ، وحقيقتهم أن الله هو الذى يتفضل على أهل الإخلاص والتوحيد ، فيغفر لهم بواسطة دعاء الشافع الذى أذن له أن يشفع ليكرمه بذلك ، وينال المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون صلى الله عليه وسلم ، كما كان فى الدنيا يستسقى لهم ويدعو لهم ، وتلك شفاعة منه لهم ، فكان الله يجيب دعاءة وشفاعته .

وإذا كان كذلك فالظلم ثلاثة أنواع : فالظلم الذى هو شرك لا شفاعة فيه ، وظلم الناس بعضهم بعضًا لابد فيه من إعطاء المظلوم حقه لا يسقط حق المظلوم لا بشفاعة ولا غيرها ، ولكن قد يعطى المظلوم من الظالم كما قد يغفر للظالم نفسه بالشفاعة ، فالظالم المطلق ماله من شفيع مطاع ، وأما الموحد فلم يكن ظالمًا مطلقًا بل هو موحد مع ظلمه لنفسه ، وهذا إنما نفعه فى الحقيقة إخلاصه لله ، فبه صار من أهل الشفاعة ، ومقصود القرآن بنفى الشفاعة نفى الشرك ، وهو أن أحدًا لا يعبد إلا الله ولا يدعو غيره ولا يسأل غيره ، ولا يتوكل على غيره لا فى شفاعة ولا غيرها ، فليس له أن يتوكل على أحد فى أن يرزقه ، وإن كان الله يأتيه برزقه بأسباب ، كذلك ليس له أن يتوكل على غير الله فى أن يغفر له ويرحمه فى الاخرة ، وإن كان الله يغفر له ويرحمه بأسباب من شفاعة وغيرها . فالشفاعة التى نفاها القرآن مطلقًا كان فيها شرك ، وتلك منتفية مطلقًا ، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه فى مواضع ، وتلك قد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص ، فهى من التوحيد ومستحقها أهل التوحيد .

وأما الظلم المقيد فقد يختص بظلم الإنسان نفسه ، وظلم الناس بعضهم بعضًا كقول آدم عليه السلام وحواء : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٢٣] . وقول موسى : ﴿ ربِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ [سورة النمل ، الآية : ٤٤] . وقوله تعالى : ﴿ والَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِم ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٣٥] . لكن قول آدم وموسى إخبار عن واقع لا عموم فيه ، وذلك قد عرف ولله الحمد أنه ليس كفرًا .

وأما قوله : ﴿ والَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم ﴾ فهو نكرة فى سياق الشرط يعم كل ما فيه ظلم الإنسان نفسه ، وهو إذا أشرك ثم تاب ، تاب الله عليه ، وقد تقدم أن ظلم الإنسان لنفسه يدخل فيه كل ذنب كبير أو صغير مع الإطلاق ، وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِيْنَ اصْطَفَيْنَا مِن عِبَادِنَا فَمِنْهُم ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ومنهُم مُقْتَصِدٌ ومنهم سَابِقٌ بالخَيراتِ ﴾ [سورة فاطر ، الآية : ٣٢] . فهذا ظالم لنفسه مقرون بغيره فلا يدخل فيه الشرك الأكبر . وفى الصحيحين عن ابن مسعود أنه لما أنزلت هذه الآية : ﴿ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ٨٢] . شق ذلك على أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وقال أيُّنا لم يظلم نفسه ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنما هو الشرك ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة لقمان ، الآية : ١٣] . والذين شق عليهم ظنوا أن الظلم المشروط هو ظلم العبد نفسه وأنه لا يكون الأمن والاهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه ، فشق ذلك عليهم ، فبين النبى صلى الله عليه وسلم لهم ما دلهم على أن الشرك ظلم فى كتاب الله تعالى ، وحينئذ فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم ؛ ومن لم يلبس إيمانه به كان من أهل الأمن والاهتداء كما كان من أهل الاصطفاء فى قوله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ إلى قوله : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ [سورة فاطر ، الآية : ٣٢ ، ٣٣] . وهذا لا ينفى أن يؤاخذ أحدهم بظلم نفسه إذا لم يتب كما قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهْ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه ﴾ [سورة الزلزلة ، الآية : ٧ ، ٨] . وقال تعالى : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١٢٣] .

وقد سأل أبو بكر النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : يا رسول الله وأينا لم يعمل سوءًا ؟ فقال : « يا أبا بكر ألست تنصب ، ألست تحزن ، ألست تصيبك اللأواء فذلك مما تجزون منه »[1] فبيّن أن المؤمن الذى إذا تاب دخل الجنة قد يجزى بسيئاته فى الدنيا بالمصائب التى تصيبه كما فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح تقومها تارة وتميلها

(١) (المسند (جـ١ ص١١) عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

أخرى ، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة »[1] وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كُفِّر بها من خطاياه »[2] وفي حديث سعد بن أبي وقاص قلت : يا رسول الله أي الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ؛ وإن كان في دينه رقة خفف عنه ، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة »[3] رواه أحمد والترمذي وغيرهما ، وقال : المرض حطة يحط الخطايا عن صاحبه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها . والأحاديث في هذا الباب كثيرة .

فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة كان له الأمن التام والاهتداء التام ، ومن لم يسلم من ظلمه نفسه كان له الأمن والاهتداء مطلقًا بمعنى أنه لابد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك في الآية الأخرى ، وقد هداه إلى الصراط المستقيم الذي تكون عاقبته فيه إلى الجنة ، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه نفسه .

وليس مراد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « إنما هو الشرك » أي من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام ، فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف لم يحصل لهم الأمن التام ، ولا الاهتداء التام الذي يكونون به مهتدين إلى الصراط المستقيم ، صراط

---

(١) (أخرجه البخاري في « المرضى » ، و« التوحيد » ، ومسلم في « المنافقين » وانظر المسند (جـ٢ ص٥٢٣) ، (جـ٣ ص٤٥٤) .

(٢) (أخرجه البخاري (جـ١٠ / ٥٦٤١ ، ٥٦٤٢) ، ومسلم (جـ٤ - بر / ٥٢) ، والترمذي (حـ٣ / ٩٦٦) ، وأحمد (جـ٢ ص٣٣٥) .

(٣) (أخرجه أحمد (جـ١ ص١٧٢) ، والدارمي (رقائق / ٦٧) ، وابن ماجه (جـ٢ / ٤٠٢٣) عن سعد بن أبي وقاص والحديث صححه الألباني .

الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، من غير عذاب يحصل لهم ، بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط ، ومعهم أصل نعمة الله عليهم ، ولابد لهم من دخول الجنة ، وقول النبى صلى الله عليه وسلم : « إنما هو الشرك » إن أراد به الشرك الأكبر فمقصوده أنه لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة ، وهو مهتد إلى ذلك ، وإن كان مراده جنس الشرك فيقال ظلم العبد نفسه كبخله لحب المال ببعض الواجب هو شرك أصغر ، وحبه ما يبغضه الله حتى يكون يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر ، ونحو ذلك ، فهذا صاحبه فاته من الأمن والاهتداء بحسبه ، ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب فى هذا الظلم بهذا الاعتبار .

فصل

الصلاح والفساد :

ومن هذا الباب لفظ الصلاح والفساد ، فإذا أطلق الصلاح تناول جميع الخير ، وكذلك الفساد يتناول جميع الشر ، كما تقدم فى اسم الصالح ، وكذلك اسم المصلح والمفسد ، قال تعالى فى قصة موسى : ﴿ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إن تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِى الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [سورة القصص ، الآية : ١٩] ، ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ١٤٢] . وقال تعالى : ﴿ وإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ قالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآيات : ١١ ، ١٢] . والضمير عائد على المنافقين فى قوله : ﴿ ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وبِالْيَوْمِ الآخِرِ وما هم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٨] . وهذا مطلق يتناول من كان على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ومن سيكون بعدهم ، ولهذا قال سلمان الفارسى : إنه عنى بهذه الآية قوم لم يكونوا خلقوا حين نزولها .

وكذا قال السدى عن أشياخه : الفساد الكفر والمعاصى ، وعن مجاهد ترك امتثال الأوامر واجتناب النواهى ، والقولان معناهما واحد ؛ وعن ابن عباس : الكفر . وهذا معنى قول من قال : النفاق الذى صافوا به الكفار وأطلعوهم على أسرار المؤمنين . وعن أبى العالية ومقاتل : العمل بالمعاصى ، وهذا أيضًا عام كالأولين .

وقولهم : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ فُسِّر بإنكار ما قرفوا به ، أى إنا إنما نفعل ما أمرنا به الرسول ، وفسر بأن الذى نفعله صلاح ونقصد به الصلاح ، وكلا القولين يروى عن ابن عباس وكلاهما حق ، فإنهم يقولون هذا وهذا ، يقولون الأول لمن لم يطلع على بواطنهم ، ويقولون الثانى لأنفسهم ولمن اطلع على بواطنهم ، لكن الثانى يتناول الأول ، فإن من جملة أفعالهم إسرار خلاف ما يظهرون وهم يرون هذا صلاحًا ، قال مجاهد : أرادوا أن مصافاة الكفار صلاح لا فساد . وعن السدى : أن فِعلنا هذا هو الصلاح ، وتصديق محمد فساد ، وقيل : أرادوا أن هذا صلاح فى الدنيا ، فإن الدولة إن كانت للنبى صلى الله عليه وسلم فقد آمنوا بمتابعته ، وإن كانت للكفار فقد أمنوهم بمصافاتهم ولأجل القولين قيل فى قوله : ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ولَـٰكِن لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٢] . أى لا يشعرون أن ما فعلوه فساد لا صلاح ، وقيل لا يشعرون أن الله يطلع نبيه على فسادهم ، والقول الأول يتناول الثانى ، فهو المراد كما يدل عليه لفظ الآية ؛ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ وَلِيِّىَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الكِتَابَ وهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ١٩٦] . وقال : ﴿ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة يونس ، الآية : ٨١] . وقول يوسف : ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَالِحِينَ ﴾ [سورة يوسف ، الآية : ١٠١] .

وقد يقرن أحدهما بما هو أخص منه كقوله : ﴿ وإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِى الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ واللَّهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٠٥] . قيل بالكفر ، وقيل بالظلم ؛ وكلاهما

صحيح ، وقال تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ ولَا فَسَادًا ﴾ [سورة القصص ، الآية : ٨٣] . وقد تقدم قوله تعالى : ﴿ إنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُم وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُم إنَّهُ كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ ﴾ [سورة القصص ، الآية : ٤] . وقال تعالى : ﴿ مِن أَجْلِ ذٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نفسٍ أَو فَسَادٍ فِى الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٣٢] . وقتل النفس الأول من جملة الفساد ، لكن الحق فى القتل لولِّى المقتول ، وفى الردَّة والمحاربة والزنى — الحق فيها لعموم الناس ؛ ولهذا يقال هو حق الله ، ولهذا لا يعفى عن هذا كما يعفى عن الأول بأن فساده عام . قال تعالى : ﴿ إنَّما جَزَاءُ الَّذِيْنَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَو يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْديهم وَأَرْجُلُهُم مِن خِلافٍ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٣٣] . وقيل سبب نزول هذه الآية العرنيون الذين ارتدوا وقتلوا وأخذوا المال ، وقيل سببه ٨٣ ناس معاهدون نقضوا العهد وحاربوا ، وقيل المشركون ، فقد قرن بالمرتدين وناقضى العهد المحاربين ؛ وجمهور السلف والخلف على أنها تتناول قطَّاع الطريق من المسلمين والآية تتناول ذلك كله ولهذا كان من تاب قبل القدرة عليه من جميع هؤلاء فإنه يسقط عنه حد الله تعالى .

وقرن الصلاح والإصلاح بالإيمان فى مواضع كثيرة كقوله تعالى : ﴿ إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٧٧] . ﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ٤٨] . ومعلوم أن الإيمان أفضل الإصلاح وأفضل العمل الصالح كما جاء فى الحديث الصحيح أنه قيل : يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال : « إيمان بالله » وقال تعالى : ﴿ وإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وآمَنَ وعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهتَدَى ﴾ [سورة طه ، الآية : ٨٢] . وقال : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّة ﴾ [سورة مريم ، الآية : ٦٠] .

وقال : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ ﴾ [سورة الفرقان ، الآية : ٧٠] . وقال فى القذف : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٨٩] . وقال فى السارق : ﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٣٩] . وقال : ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١٦] . ولهذا شرط الفقهاء فى أحد قوليهم فى قبول شهادة القاذف أن يصلح ، وقدروا ذلك بسنة كما فعل عمر بصبيغ بن عسل لما أجله سنة ، وبذلك أخذ أحمد فى توبة الداعى إلى البدعة أنه يؤجل سنة كما أجل عمر صبيغ بن عسل .

فصل

دلالة الإيمان على الأعمال :

فإن قيل ما ذكر من تنوع دلالة اللفظ بالإطلاق والتقييد فى كلام الله ورسوله وكلام كل أحد بيِّن ظاهر لا يمكن دفعه ، لكن نقول دلالة لفظ الإيمان على الأعمال مجاز فقوله صلى الله عليه وسلم : « الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق »[1] مجاز ، وقوله : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله »[2] إلى آخره حقيقة ، وهذا عمدة المرجئة والجهمية والكرامية وكل من لم يدخل الأعمال فى اسم الإيمان . . ونحن نجيب بجوابين :

أحدهما : كلام عام فى لفظ الحقيقة والمجاز .

---

(١) (سبق تخريجه . انظر هامش (١) ص ٩ .

(٢) (سبق تخريجه . انظر هامش (١) ص ٦ .

والثانى : ما يختص بهذا الموضع ، فبتقدير أن يكون أحدهما مجازًا ما هو الحقيقة من ذلك من المجاز ؟ هل الحقيقة هو المطلق أو المقيد أو كلاهما حقيقة حتى يعرف أن لفظ الإيمان إذا أطلق على ماذا يحمل ؟ .

فيقال أولًا : تقسيم الدلالة على معانيها إلى حقيقة ومجاز وتقسيم دلالتها أو المعانى المدلول عليها إن استعمل لفظ الحقيقة والمجاز فى المدلول أو فى الدلالة ، فإن هذا كله قد يقع فى كلام المتأخرين ، ولكن المشهور أن الحقيقة والمجاز من عوارض الألفاظ ، وبكل حال فهذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة لم يتكلم به أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ، ولا أحد من الأئمة المشهورين فى العلم كمالك والثورى والأوزاعى وأبى حنيفة والشافعى ، بل لم يتكلم به أئمة اللغة والنحو كالخليل وسيبويه وأبى عمرو بن العلاء ونحوهم .

وأول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه ، ولكن لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة ، وإنما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية ، ولهذا قال من قال من الأصوليين كأبى الحسن البصرى وأمثاله إنه يعرف الحقيقة من المجاز بطرق منها نص أهل اللغة على ذلك بأن يقولوا هذا حقيقة وهذا مجاز ، فقد تكلم بلا علم فإنه ظن أن أهل اللغة قالوا هذا ، و لم يقل ذلك أحد من أهل اللغة ولا من سلف الأمة وعلمائها ، وإنما هذا اصطلاح حادث ، والغالب أنه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين ، فإنه لم يوجد هذا فى كلام أحد من أهل الفقة والأصول والتفسير والحديث ونحوهم من السلف ، وهذا الشافعى هو أول من جرد الكلام فى أصول الفقه لم يقسم هذا التقسيم ، ولا تكلم بلفظ الحقيقة والمجاز ، وكذلك محمد بن الحسن له فى المسائل المبنية على العربية كلام معروف فى الجامع الكبير وغيره و لم يتكلم بلفظ الحقيقة والمجاز ، وكذلك سائر الأئمة لم يوجد لفظ المجاز فى كلام أحد منهم إلا فى كلام أحمد بن حنبل ، فإنه قال فى كتاب الرد على الجهمية فى قوله : « إنا ونحن » ونحو ذلك فى القرآن هذا من مجاز اللغة ، يقول الرجل : إنا سنعطيك إنا سنفعل ؛ فذكر أن هذا من مجاز اللغة وبهذا احتج على مذهبه من أصحابه من قال إن فى القرآن

مجازًا كالقاضى أبى يعلى وابن عقيل وأبى الخطاب وغيرهم ، وآخرون من أصحابه منعوا أن يكون فى القرآن مجاز كأبى الحسن الجزرى وأبى عبد الله بن حامد وأبى الفضل التميمى بن أبى الحسن التميمى ، وكذلك منع أن يكون فى القرآن مجاز محمد بن خويز مندد وغيره من المالكية ، ومنع منه داود بن على وابنه أبو بكر ومنذر بن سعيد البلوطى وصنّف فيه مصنّفًا .

وحكى بعض الناس عن أحمد فى ذلك روايتين ، وأما سائر الأئمة فلم يقل أحد منهم ولا من قدماء أصحاب أحمد إن فى القرآن مجازًا لا مالك ولا الشافعى ولا أبو حنيفة ، فإن تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز إنما اشتهر فى المائة الرابعة وظهرت أوائله فى المائة الثالثة ، وما علمته موجودًا فى المائة الثانية اللهم إلا أن يكون فى أواخرها ، والذين أنكروا أن يكون أحمد أو غيره نطقوا بهذا التقسيم قالوا إن معنى قول أحمد : من مجاز اللغة أى مما يجوز فى اللغة أن يقول الواحد العظيم الذى له أعوان : نحن فعلنا كذا ونفعل كذا ، ونحو ذلك ، قالوا ولم يرد أحمد بذلك أن اللفظ استعمل فى غير ما وضع له .

وقد أنكر طائفة أن يكون فى اللغة مجاز لا فى القرآن ولا غيره كأبى إسحاق الإسفرائينى ، وقال المنازعون له : النزاع معه لفظى فإنه إذا سلم أن فى اللغة لفظًا مستعملًا فى غير ما وضع له لا يدل على معناه إلا بقرينة ، فهذا هو المجاز وإن لم تسمّه مجازًا ، فيقول من ينصره إن الذين قسموا اللفظ إلى حقيقة ومجاز قالوا الحقيقة هو اللفظ المستعمل فيما وضع له ، والمجاز هو اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له كلفظ الأسد والحمار إذا أريد بهما البهيمة ، أو أريد بهما الشجاع والبليد ، وهذا التقسيم والتحديد يستلزم أن يكون اللفظ قد وضع أولًا لمعنى ثم بعد ذلك قد يستعمل فى موضوعه ، وقد يستعمل فى غير موضوعه ، ولهذا كان المشهور عند أهل التقسيم أن كل مجاز فلابد له من حقيقة ، وليس لكل حقيقة مجاز ، فاعترض عليهم بعض متأخريهم وقال : اللفظ الموضوع قبل الاستعمال لا حقيقة ولا مجاز ، فإذا استعمل فى غير موضوعه فهو مجاز لا حقيقة له .

وهذا كله إنما يصح لو علم أن الألفاظ العربية وضعت أولًا لمعان ، ثم بعد

ذلك استعملت فيها ليكون لها وضع متقدم على الاستعمال وهذا إنما صح على قول من يجعل اللغات اصطلاحية فيدعى أن قومًا من العقلاء اجتمعوا واصطلحوا على أن يسموا هذا بكذا وهذا بكذا ، ويجعل هذا عامًّا فى جميع اللغات ، وهذا القول لا نعرف أحدًا من المسلمين قاله قبل أبى هاشم بن الجبائى ، فإنه وأبا الحسن الأشعرى وكلاهما قرأ عن أبى على الجبائى لكن الأشعرى رجع عن مذهب المعتزلة وخالفهم فى القدر والوعيد وفى الأسماء والأحكام ، وفى صفات الله تعالى ، وبيَّن من تناقضهم وفساد قولهم ما هو معروف عنه ، فتنازع الأشعرى وأبو هاشم فى مبدأ اللغات ، فقال أبو هاشم : هى اصطلاحية ، وقال الأشعرى : هى توقيفية ، ثم خاض الناس بعدهما فى هذه المسألة ، فقال آخرون : بعضها توقيفى وبعضها اصطلاحى ، وقال فريق رابع بالوقف .

والمقصود هنا أنه لا يمكن أحدًا ان ينقل عن العرب ، بل ولا عن أمة من الأمم أنه اجتمع جماعة فوضعوا جميع هذه الأسماء الموجودة فى اللغة ، ثم استعملوها بعد الوضع وإنما المعروف المنقول بالتواتر استعمال هذه الألفاظ فيما عنوه بها من المعانى ، فإن ادعى مدَّع أنه يعلم وضعًا يتقدم ذلك فهو مبطل ، فإن هذا لم ينقله أحد من الناس ، ولا يقال نحن نعلم ذلك بالدليل فإنه إن لم يكن اصطلاح متقدم لم يمكن الاستعمال ، قيل ليس الأمر كذلك ، بل نحن نجد أن الله يلهم الحيوان من الأصوات ما به يعرف بعضها مراد بعض ، وقد سمى ذلك منطقًا وقولًا فى قول سليمان :

﴿ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيرِ ﴾ [سورة النمل ، الآية : ١٦] . وفى قوله تعالى : ﴿ قَالَت نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُم ﴾ [سورة النمل ، الآية : ١٨] . وفى قوله : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرِ ﴾ [سورة سبأ ، الآية : ١٠] . وكذلك الآدميون ، فالمولود إذا ظهر منه التمييز سمع أبويه ، أو من يربيه ينطق باللفظ ويشير إلى المعنى ، فصار يفهم أن ذلك اللفظ يستعمل فى ذلك المعنى ، أى أراد المتكلم به ذلك المعنى ، ثم هذا يسمع لفظًا بعد لفظ حتى يعرف لغة القوم الذين نشأ بينهم من غير أن يكونوا قد اصطلحوا معه على وضع متقدم

بل ولا أوقفوه على معانى الأسماء ، وإن كان أحيانًا قد يسأل عن مسمى بعض الأشياء فيوقف عليها كما يترجم للرجل اللغة التى لا يعرفها فيوقف على معانى ألفاظها ، وإن باشر أهلها مدة علم ذلك بلا توقف من أحدهم .

نعم قد يضع الناس الاسم لما يحدث مما لم يكن من قبلهم يعرفه فيسميه اسمًا ، إما منقولًا وإما مرتجلًا ، وقد يكون المسمى واحدًا لم يصطلح مع غيره وقد يستوون فيما يسمونه ، وكذلك قد يحدث للرجل آلة من صناعة أو يصنف كتابًا أو يبنى مدينة ونحو ذلك فيسميه باسم ، لأنه ليس من الأجناس المعروفة حتى يكون له اسم فى اللغة العامة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ الرَّحْمَـٰنُ * عَلَّمَ القُرآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ البَيَانَ ﴾ [سورة الرحمن ، الآيات : ١ – ٤] . وقال : ﴿ وَقَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَىءٍ ﴾ [سورة فصلت ، الآية : ٢١] . وقال : ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى * والَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [سورة الأعلى ، الآيات : ٢ ، ٣] . فهو سبحانه يلهم الإنسان المنطق كما يلهم غيره ، وهو سبحانه إذا كان قد علَّم آدم الأسماء كلها وعرض المسميات على الملائكة كما أخبر بذلك فى كتابه ، فنحن نعلم أنه لم يعلِّم آدم جميع اللغات التى يتكلم بها جميع الناس إلى يوم القيامة ، وأن تلك اللغات اتصلت إلى أولاده فلا يتكلمون إلا بها ، فإن دعوى هذا كذب ظاهر ، فإن آدم عليه السلام إنما ينقل عنه غيره ، وقد أغرق الله عام الطوفان جميع ذريته إلا من فى السفينة ، وأهل السفينة انقطعت ذريتهم إلا أولاد نوح ، ولم يكونوا يتكلمون بجميع ما تكلمت به الأمم بعدهم ، فإن اللغة الواحدة كالفارسية والعربية والرومية والتركية فيها من الاختلاف والأنواع ما لا يحصيه إلا الله ؛ والعرب أنفسهم لكل قوم لغات لا يفهمها غيرهم ، فكيف يتصور أن ينقل هذا جميعه عن أولئك الذين كانوا فى السفينة ، وأولئك جميعهم لم يكن لهم نسل ، وإنما النسل لنوح وجميع الناس من أولاده وهم ثلاثة : سام وحام ويافث كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُم البَاقِينَ ﴾ [سورة الصافات ، الآية : ٧٧] . فلم يجعل باقيًا إلا ذريته ، وكما روى ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم أن أولاده ثلاثة ، رواه أحمد وغيره

ومعلوم أن الثلاثة لا يمكن أن ينطقوا بهذا كله ويمتنع نقل ذلك عنهم ، فإن الذين يعرفون هذه اللغة لا يعرفون هذه ، وإذا كان الناقل ثلاثة فهم قد علَّموا أولادهم ، ولو كان كذلك لاتصلت ، ونحن نجد بنى الأب الواحد يتكلم كل قبيلة منهم بلغة لا تعرفها الأخرى والأب الواحد لا يقال إنه علَّم أحد ابنيه لغة وابنه الآخر لغة فإن الأب قد لا يكون له إلا ابنان واللغات فى أولاده أضعاف ذلك .

والذى أجرى الله عليه عادة بنى آدم أنهم إنما يعلمون أولادهم لغتهم التى يخاطبونهم بها أو يخاطبهم بها غيرهم ، فأما لغات لم يخلق الله من يتكلم بها فلا يعلمونها أولادهم ، وأيضًا فإنه يوجد بنو آدم يتكلمون بألفاظ ما سمعوها قط من غيرهم ، والعلماء من المفسرين وغيرهم لهم فى الأسماء التى علمها آدم قولان معروفان عن السلف .

أحدهما : أنه إذا علمه أسماء من يعقل واحتجوا بقوله : ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُم عَلَى المَلائِكَةِ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٣١] . قالوا وهذا الضمير لا يكون إلا لمن يعقل وما لا يعقل يقال فيها ﴿ عرضها ﴾ ولهذا قال أبو العالية : علمه أسماء الملائكة لأنه لم يكن حينئذ من يعقل إلا الملائكة ولا كان إبليس قد انفصل عن الملائكة ولا كان له ذرية ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : علمه أسماء ذريته وهذا يناسب الحديث الذى رواه الترمذى وصححه عن النبى صلى الله عليه وسلم « أن آدم سأل ربه أن يريه صور الأنبياء من ذريته فرآهم فرأى فيهم وبيصًا من نور ، فقال : يارب من هذا ؟ قال ابنك داود »(١) ، فيكون قد أراه صورة ذريته أو بعضهم وأسماءهم وهذه أسماء أعلام لا أجناس .

والثانى : أن الله علمه أسماء كل شىء وهذا قول الأكثرين كابن عباس وأصحابه ، قال ابن عباس : علمه حتى الفسوة والفسية والقصعة والقصعية ،

---

(١) (أخرجه أحمد والطيالسى والبيهقى والترمذى والحاكم والطبرانى بنحوه وهو صحيح بمجموع طرقه وشواهده ، انظر كتابنا « جامع الأحاديث القدسية / ٨٩٢ ، ٨٩٣ ، ٨٩٤) طبع دار الريان للتراث .

أراد أسماء الأعراض والأعيان مكبرها ومصغرها : والدليل على ذلك ما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى حديث الشفاعة : « إن الناس يقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وعلمك أسماء كل شيء » وأيضًا قوله : ﴿ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [سورة : البقرة ، الآية : ٣١] لفظ عام مؤكد فلا يجوز تخصيصه بالدعوى وقوله : ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلَائِكَةِ ﴾ لأنه اجتمع من يعقل ومن لا يعقل فغلب من يعقل كما قال : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ من يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ [سورة النور ، الآية : ٤٥] قال عكرمة : علمه أسماء الأجناس دون أنواعها كقولك : إنسان وجن وملك وطائر ، وقال مقاتل وابن السائب وابن قتيبة : علمه أسماء ما خلق فى الأرض من الدواب والهوام والطير .

ومما يدل على أن هذه اللغات ليست متلقاة عن آدم أن أكثر اللغات ناقصة عن اللغة العربية ، ليس عندهم أسماء خاصة للأولاد والبيوت والأصوات وغير ذلك مما يضاف إلى الحيوان ، بل إنما يستعملون فى ذلك الإضافة ، فلو كان آدم عليه السلام علمه الجميع لعلمها متناسبة وأيضًا فكل أمة ليس لها كتاب ليس فى لغتها أيام الأسبوع ، وإنما يوجد فى لغتها اسم اليوم والشهر والسنة ، لأن ذلك عرف بالحس والعقل ، فوضعت له الأمم الأسماء لأن التعبير يتبع التصور ، وأما الأسبوع فلم يعرف أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، إلا بإخبار الأنبياء الذين شرع لهم أن يجتمعوا فى الأسبوع يومًا يعبدون الله فيه ويحفظون به الأسبوع الأول الذى بدأ الله فيه خلق هذا العالم ، ففى لغة العرب والعبرانيين ، من تلقى عنهم أيام الأسبوع بخلاف الترك ونحوهم فإنه ليس فى لغتهم أيام الأسبوع ، لأنهم لم يعرفوا ذلك فلم يعبروا عنه ، فعلم أن الله ألهم النوع الإنسانى أن يعبر عما يريده ويتصوره بلفظه ، وأن أول من علم ذلك أبوهم آدم ؛ وهم علموا كما علم ، وإن اختلفت اللغات ، وقد أوحى الله إلى موسى بالعبرانية وإلى محمد بالعربية والجميع كلام الله ، وقد بين الله

من ذلك ما أراد من خلقه وأمره ، وإن كانت هذه اللغة ليست الأخرى ، من أن العبرانية من أقرب اللغات إلى العربية حتى إنها أقرب إليها من لغة بعض العجم إلى بعض .

فبالجملة نحن ليس غرضنا إقامة الدليل على عدم ذلك ، بل يكفينا أن يقال هذا غير معلوم وجوده ، بل الإلهام كاف فى النطق باللغات من غير مواضعة متقدمة ، وإذا سمى هذا توفيقًا فليسم توفيقًا ، وحينئذ فمن ادعى وضعًا متقدمًا على استعمال جميع الأجناس فقد قال ما لا علم له به ، وإنما المعلوم بلا ريب هو الاستعمال ، ثم هؤلاء يقولون تتميز الحقيقة من المجاز بالاكتفاء باللفظ ، فإذا دل اللفظ بمجرده فهو حقيقة ، وإذا لم يدل إلا مع القرينة فهو مجاز ، وهذا أمر متعلق باستعمال اللفظ فى المعنى لا بوضع متقدم .

ثم يقال ثانيًا : هذا التقسيم لا حقيقة له ، وليس من فرق بينهما حد صحيح يميز به بين هذا وهذا ، فعلم أن هذا التقسيم باطل ، وهو تقسيم لمن لم يتصور ما يقول بل يتكلم بلا علم ، فهم مبتدعة فى الشرع ، مخالفون للعقل وذلك أنهم قالوا : الحقيقة اللفظ المستعمل فيما وضع له ، والمجاز المستعمل فى غير ما وضع له ، احتاجوا إلى إثبات الوضع السابق على الاستعمال وهذا يتعذر .

ثم هم يقسمون الحقيقة إلى لغوية وعرفية ، وأكثرهم يقسمها إلى ثلاث : لغوية وشرعية وعرفية ، فالحقيقة العرفية هى ما صار اللفظ دالًا فيها على المعنى بالعرف لا باللغة ، وذلك المعنى يكون تارة أعم من اللغوى ، وتارة أخص وتارة يكون مباينًا له ، ولكن بينهما علاقة استعمل لأجلها .

فالأول : مثل لفظ الرقبة والرأس ونحوهما ، كان يستعمل فى العضو المخصوص ثم صار يستعمل فى جميع البدن .

والثانى : مثل الدابة ونحوها كان يستعمل فى كل ما دب ثم صار يستعمل فى عرف بعض الناس فى ذوات الأربع ، وفى عرف بعض الناس فى الفرس ، وفى عرف بعضهم فى الحمار .

والثالث : مثل لفظ الغائط والظعينة ، والرواية والمزادة ، فإن الغائط فى اللغة هو المكان المنخفض من الأرض ، فلما كانوا ينتابونه لقضاء حوائجهم سموا ما يخرج من الإنسان باسم محله . والظعينة اسم للدابة ثم سموا المرأة التى تركبها باسمها ، ونظائر ذلك .

والمقصود أن هذه الحقيقة العرفية لم تصر حقيقة لجماعة تواطئوا على نقلها ، ولكن تكلم بها بعض الناس وأراد منها ذلك المعنى العرفى ، ثم شاع الاستعمال فصارت حقيقة عرفية بهذا الاستعمال ، ولهذا زاد من زاد منهم فى حد الحقيقة فى اللغة التى بها التخاطب .

ثم هم يعلمون ويقولون إنه قد يغلب الاستعمال على بعض الألفاظ فيصير المعنى العرفى أشهر فيه ، ولا يدل عند الإطلاق إلا عليه . فتصير الحقيقة العرفية ناسخة للحقيقة اللغوية واللفظ مستعمل فى هذا الاستعمال الحادث العرفى وهو حقيقة من غير أن يكون لما استعمل فيه ذلك تقدم وضع ، فعلم أن تفسير الحقيقة بهذا لا يصح .

وإن قالوا : نعنى بما وضع له ما استعملت فيه أولًا . فيقال من أين يعلم أن هذه الألفاظ التى كانت العرب تتخاطب بها عند نزول القرآن وقبله ، لم تستعمل قبل ذلك فى معنى شىء آخر ، وإذا لم يعلموا هذا النفى فلا يعلم أنها حقيقة ، وهذا خلاف ما اتفقوا عليه ، وأيضًا فيلزم من هذا ألا يقطع بشىء من الألفاظ أنه حقيقة ، وهذا لا يقوله عاقل .

ثم هؤلاء الذين يقولون هذا نجد أحدهم يأتى إلى ألفاظ لم يعلم أنها استعملت إلا مقيدة فينطق بها مجردة عن جميع القيود ، ثم يدعى أن ذلك هو حقيقتها من غير أن يعلم أنها نطق بها مجردة ولا وضعت مجردة مثل أن يقول : حقيقة العين هو العضو المبصر ، ثم سميت به عين الشمس والعين النابعة وعين الذهب للمشابهة ، لكن أكثرهم يقولون إن هذا من باب المشترك لا من باب الحقيقة والمجاز ، فيمثل بغيره ، مثل لفظ الرأس يقولون هو حقيقة فى رأس الإنسان ،

ثم قالوا رأس الدرب لأوله ، ورأس العين لمنبعها ، ورأس القوم لسيدهم ، ورأس الأمر لأوله ، ورأس الشهر ورأس الحول ، وأمثال ذلك على طريق المجاز ، وهم لا يجدون قط أن لفظ الرأس استعمل مجردًا ، بل يجدون أنه استعمل بالقيود فى رأس الإنسان كقوله تعالى : ﴿ وامْسَحُوا بِرُءُسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إلى الكَعْبَيْن ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٦] ونحوه ، وهذا القيد يمنع أن يدخل فيه تلك المعانى ،

فإذا قيل رأس العين ورأس الدرب ورأس الناس ورأس الأمر ، فهذا المقيد غير ذاك المقيد ، ومجموع اللفظ الدال غير مجموع اللفظ الدال هناك لكن اشتركا فى بعض اللفظ كاشتراك كل الأسماء المعرفة فى لام التعريف ، ولو قدر أن الناطق باللغة نطق بلفظ رأس الإنسان أولا ، لأن الإنسان يتصور رأسه قبل غيره والتعبير أولا هو عما يتصوره أولا ، فالنطق بهذا المضاف أولا لا يمنع أن ينطق بمضاف إلى غيره ثانيًا ، ولا يكون هذا من المجاز كما فى سائر المضافات ، فإذا قيل ابن آدم أولا لم يكن قولنا ابن الفرس وابن الحمار مجازًا ، وكذلك إذا قيل بنت الإنسان لم يكن قولنا بنت الفرس مجازًا ، وكذلك إذا قيل رأس الإنسان أولا لم يكن قولنا رأس الفرس مجازًا ، وكذلك فى سائر المضافات إذا قيل يده أو رجله .

فإذا قيل : هو حقيقة فيما أضيف إلى الحيوان ، قيل ليس جعل هذا هو الحقيقة بأولى من أن يجعل ما أضيف إلى رأس الإنسان ، ثم قد يضاف إلى ما يتصوره أكثر الناس من الحيوانات الصغار التى لم تخطر ببال عامة الناطقين باللغة ، فإن قيل إنه حقيقة فى هذا فلماذا لا يكون حقيقة فى رأس الجبل والطريق والعين ، وكذلك سائر ما يضاف إلى الإنسان من أعضائه وأولاده ومساكنه يضاف مثله إلى غيره ، ويضاف ذلك إلى الجمادات ، فيقال رأس الجبل ورأس العين وخطم الجبل أى أنفه وفم الوادى وبطن الوادى وظهر الجبل ، وبطن الأرض وظهرها ، ويستعمل مع الألف وهو لفظ الظاهر والباطن فى أمور كثيرة والمعنى فى الجميع أن الظاهر لما ظهر فتبين ، والباطن لما بطن فخفى ، وسمى ظهر الإنسان ظهرًا لظهوره ، وبطن الإنسان بطنًا لبطونه ، فإذا قيل إن هذا حقيقة وذاك مجاز ، لم

يكن هذا أولى من العكس .

وأيضًا من الأسماء ما تكلم به أهل اللغة مفردًا كلفظ الإنسان ونحوه ، ثم قد يستعمل مقيدًا بالإضافة كقولهم إنسان العين وإبرة الذراع ونحوذلك ، وبتقدير أن يكون فى اللغة حقيقة ومجاز فقد ادعى بعضهم أن هذا من المجاز وهو غلط ، فإن المجاز هو اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له أولا ، وهذا لم يستعمل اللفظ بل ركب مع لفظ آخر فصار وضعًا آخر بالإضافة ، فلو استعمل مضافًا فى معنى ثم استعمل بتلك الإضافة فى غيره كان مجازًا ، بل إذا كان بعلبك وحضرموت ونحوهما مما يركب تركيب مزج بعد أن كان الأصل فيه الإضافة لا يقال إنه مجاز ، فما لم ينطق به إلا مضافًا أولى أن لا يكون مجازًا .

وأما من فرق بين الحقيقة والمجاز بأن الحقيقة ما يفيد المعنى مجردًا عن القرائن والمجاز ما لا يفيد ذلك المعنى إلا مع قرينه ، أو قال الحقيقة ما يفيد اللفظ المطلق ، والمجاز ما لا يفيد إلا مع التقييد أو قال الحقيقة هي المعنى الذى يسبق إلى الذهن عند الإطلاق ، والمجاز ما لا يسبق إلى الذهن أو قال المجاز ما صح نفيه ، والحقيقة ما لم يصح نفيها فإنه يقال : ما تعنى بالتجريد عن القرائن ، والاقتران بالقرائن . إن عنى بذلك القرائن اللفظية مثل كون الاسم يستعمل مقرونًا بالإضافة أو لام التعريف ، ويقيد بكونه فاعلا ومفعولا ومبتدأ وخبرًا ، فلا يوجد قط فى الكلام المؤلف اسم إلا مقيدًا ، وكذلك الفعل إن عنى بتقييده أنه لابد له من فاعل ، وقد يقيد بالمفعول به وظرفى الزمان والمكان والمفعول له ومعه والحال ، فالفعل لا يستعمل قط إلا مقيدًا . وأما الحرف فأبلغ فإن الحرف أتى به لمعنى فى غيره .

ففى الجملة لا يوجد قط فى كلام تام اسم ولا فعل ولا حرف إلا مقيدًا بقيود تزيل عنه الإطلاق ، فإن كانت القرينة ما يمنع الإطلاق عن كل قيد فليس فى الكلام الذى يتكلم به جميع الناس لفظ مطلق عن كل قيد ، سواء كانت الجملة إسمية أو فعلية ، ولهذا كان لفظ الكلام والكلمة فى لغة العرب ، بل فى لغة غيرهم لا تستعمل إلا فى المقيد ، وهو الجملة التامة اسمية كانت أو فعلية أو ندائية ،

إن قيل إنها قسم ثالث .

فأما مجرد الاسم أو الفعل أو الحرف الذى جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل فهذا لا يسمى فى كلام العرب قط كلمة ، وإنما تسميته هذا كلمة اصطلاح نحوى كما سموا بعض الألفاظ فعلا ، وقسموه إلى فعل ماض ومضارع وأمر ، والعرب لم تسم قط اللفظ فعلا بل النحاة اصطلحوا على هذا فسموا اللفظ باسم مدلولة ، فاللفظ الدال على حدوث فعل فى زمن ماض سموه فعلًا ماضيًا ، وكذلك سائرها ؛ وكذلك حيث وجد فى الكتاب والسنة بل فى كلام العرب نظمه ونثره لفظ كلمة فإنما يراد به المفيد التى تسميها النحاة جملة تامة كقوله تعالى : ﴿ ويُنْذرَ الَّذينَ قالُوا اتَّخذَ اللَّهُ وَلدًا * مَا لَهُم بهِ منْ عِلمٍ ولا لآبائِهِم كَبُرتْ كَلمةً تخْرجُ مِن أفْواهِهِم إنْ يقُولونَ إلَّا كَذِبًا ﴾ [سورة الكهف ، الآياتان ٤ — ٥] وقوله تعالى : ﴿ وجَعَل كَلِمَةَ الَّذِيْنَ كَفَروا السُّفْلَى وكَلِمة اللَّهِ هِيَ العُلْيا ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ٤٠] وقوله تعالى : ﴿ تعالَوْا إلى كلمةٍ سَواءٍ بيْننا وبيْنَكُم ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٦٤] وقوله : ﴿ وجعَلَها كَلمةً باقِيةً فِي عَقِبه ﴾ [سورة الزخرف ، الآية : ٢٨] وقوله : ﴿ وألْزمَهُم كَلمةَ التَّقْوى وكانُوا أَحَقَّ بها وأهْلَها ﴾ [سورة الفتح ، الآية : ٢٦] وقول النبى صلى الله عليه وسلم : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد » .

* ألا كل شىء ما خلا الله باطل *[1]

وقوله : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » وقوله : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به

---

(١) هذا حديث صحيح متفق عليه أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما .

ما بلغت يكتب الله بها سخطه إلى يوم القيامة » وقوله : « لقد قلت بعدك أربع كلمات لو وزنت بما قلته منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله عدد خلقه سبحان الله زنة عرشه ؛ سبحان الله رضاء نفسه لوزنتهن ، سبحان الله مداد كلماته »(١) وإذا كان كل اسم وفعل وحرف يوجد فى الكلام فإنه مقيد لا مطلق لم يجز أن يقال اللفظ الحقيقة ما دل مع الإطلاق والتجرد عن كل قرينة تقارنه .

فإن قيل أريد بعض القرائن دون بعض . قيل له : اذكر الفصل بين القرينة التى يكون معها حقيقة ، والقرينة التى يكون معها مجاز ، ولن تجد إلى ذلك سبيلا تقديره على تقسيم صحيح معقول ، ومما يدل على ذلك أن الناس اختلفوا فى العام إذا خص هل يكون استعماله فيما بقى حقيقة أو مجازًا ، وكذلك لفظ الأمر إذا أريد به الندب هل يكون حقيقة أو مجازًا ، وفى ذلك قولان لأكثر الطوائف ، لأصحاب أحمد قولان ، ولأصحاب الشافعى قولان ، ولأصحاب مالك قولان .

ومن الناس من ظن أن هذا الخلاف يطرد فى التخصيص المتصل كالصفة والشرط والغاية والبدل ، وجعل يحكى فى ذلك أقوال من يفصل كما يوجد فى كلام طائفة من المصنفين فى أصول الفقه ، وهذا مما لم يعرف أن أحدًا قاله فجعل اللفظ العام المقيد فى الصفات والغايات والشروط مجازًا ، بل لما أطلق بعض المصنفين أن اللفظ العام إذا خص يصير مجازًا ظن هذا الناقل أنه عنى التخصيص المتصل ، وأولئك لم يكن فى اصطلاحهم عام مخصوص إلا إذا خص بمنفصل ، وأما المتصل فلا يسمون اللفظ عامًّا مخصوصًا ، فإنه لم يدل إلا متصلا والاتصال منعه العموم ، وهذا اصطلاح كثير من الأصوليين وهو الصواب ، لايقال لما قيد بالشرط والصفة ونحوهما إنه داخل فيما خص من العموم ، ولا فى العام المخصوص ، لكن يقيد فيقال تخصيص متصل وهذا المقيد لا يدخل فى التخصيص المطلق .

وبالجملة فيقال : إذاكان هذا مجازًا فيكون تقييد الفعل المطلق بالمفعول به

---

(١) (أخرجه أبو داود (جـ٢ / ١٥٠٣) ، وأحمد (جـ١ ص٢٥٨) عن ابن عباس .

وبظرف الزمان والمكان مجازًا . وكذلك كل ما قيد بقيد ، فيلزم أن يكون الكلام كله مجازًا فأين الحقيقة .

فإن قيل : يفرق بين القرائن المتصلة والمنفصلة فما كان مع القرينة المتصلة فهو حقيقة وما كان مع المنفصلة كان مجازًا . قيل تعنى بالمتصل ما كان فى اللفظ أو ما كان موجودًا حين الخطاب ، فإن عنيت الأول لزم أن يكون ما علم من حال المتكلم أو المستمع أولا قرينة منفصلة ، فما استعمل بلام التعريف لما يعرفانه كما يقول قال النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو عند المسلمين رسول الله ، أو قال الصديق ، وهو عندهم أبو بكر . وإذا قال الرجل لصاحبه اذهب إلى الأمير أو القاضى أو الولى . يريد ما يعرفانه ، أنه يكون مجازًا . وكذلك الضمير يعود إلى معلوم غير مذكور كقوله : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ [سورة القدر ، الآية : ١] وقوله : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالحِجَابِ ﴾ [سورة ص ، الآية : ٣٢] وأمثال ذلك أن يكون هذا مجازًا ، وهذا لا يقوله أحد ، وأيضا فإذا قال لشجاع : هذا الأسد فعل اليوم كذا ، ولبليد : هذا الحمار قال اليوم كذا ، أو لعالم أو جواد : هذا البحر جرى اليوم منه كذا ، أن يكون حقيقة لأن قوله هذا قرينة لفظية فلا يبقى قط مجازًا ، وإن قال المتصل أعم من ذلك وهو ما كان موجودًا حين الخطاب ، قيل له فهذا أشد عليك من الأول ، فإنَّ كل متكلم بالمجاز لابد أن يقترن به حال الخطاب ما يبين مراده وإلا لم يجز التكلم به .

فإن قيل : أنا أجوز تأخير البيان عن مورد الخطاب إلى وقت الحاجة ، قيل : أكثر الناس لا يجوزون أن يتكلم بلفظ يدل على معنى وهو لايريد ذلك المعنى إلا إذا بين ، وإنما يجوزون تأخير بيان ما لم يدل اللفظ عليه كالمجملات . ثم نقول إذا جوزت تأخير البيان فالبيان قد يحصل بجملة تامة وبأفعال من الرسول وبغير ذلك ، ولا يكون البيان المتأخر إلا مستقلا بنفسه ، لا يكون مما يجب اقترانه بغيره ، فإن جعلت هذا مجازًا لزم أن يكون ما يحتاج فى العمل إلى بيان مجازًا كقوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطهِّرهُم وتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ١٠٣] .

ثم يقال : هب أن هذا جائز عقلا لكن ليس واقعًا فى الشريعة أصلا وجميع ما يذكر من ذلك باطل كما قد بسط فى موضعه ، فإن الذين قالوا : الظاهر الذى لم يرد به ما يدل عليه ظاهره قد يؤخر بيانه احتجوا بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٦٧] وادعوا أنها كانت معينة ، وأخر بيان التعين ، وهذا خلاف ما استفاض عن السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان من أنهم أمروا ببقرة مطلقة فلو أخذوا بقرة من البقر فذبحوها أجزأ عنهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم ، والآية نكرة فى سياق الإثبات ، فهى مطلقة ، والقرآن يدل سياقه على أن الله ذمهم على السؤال بما هى ، ولو كان المأمور به معينًا لما كانوا ملومين ، ثم إن مثل هذا لم يقع قط فى أمر الله ورسوله أن يأمر عباده بشئ معين ويبهمه عليهم مرة بعد مرة ولا يذكره بصفات تختص به ابتداء .

واحتجوا بأن الله أخر بيان لفظ الصلاة والزكاة والحج وأن هذه ألفاظ لها معان فى اللغة بخلاف الشرع ، وهذا غلط ، فإن الله إنما أمرهم بالصلاة بعد أن عرفوا ما المأمور به وكذلك الصيام وكذلك الحج ، ولم يؤخر الله قط بيان شىء من هذه المأمورات ولبسط هذه المسألة موضع آخر .

وأما قول من يقول : إن الحقيقة ما يسبق إلى الذهن عند الإطلاق ، فمن أفسد الأقوال ، فإنه يقال إذا كان اللفظ لم ينطق به إلا مقيدًا فإنه يسبق إلى الذهن فى كل موضع منه ما دل عليه ذلك الموضع ، وأما إذا أطلق فهو لا يستعمل فى الكلام مطلقا قط فلم يبق له حال إطلاق محض حتى يقال : إن الذهن يسبق إليه أم لا . وأيضًا فأى ذهن ؟ فإن العربى الذى يفهم كلام العرب يسبق إلى ذهنه من اللفظ ما لا يسبق إلى ذهن النبطى الذى صار يستعمل الألفاظ فى غير معانيها ، ومن هنا غلط كثير من الناس فإنهم قد تعودوا ما اعتادوه ، وإما من خطاب عامتهم وإما من خطاب علمائهم باستعمال اللفظ فى معنى ، فإذا سمعوه فى القرآن والحديث ظنوا أنه مستعمل فى ذلك المعنى ، فيحملون كلام الله ورسوله على لغتهم النبطية وعادتهم الحادثة ، وهذا مما دخل به الغلط على طوائف ، بل

الواجب أن يعرف اللغة والعادة والعرف الذى نزل به القرآن والسنة ، وما كان الصحابة يفهمون من الرسول عند سماع تلك الألفاظ فبتلك اللغة والعادة والعرف خاطبهم الله ورسوله لا بما حدث بعد ذلك .

وأيضًا فقد بينا فى غير هذا الموضع أن الله ورسوله لم يدع شيئًا من القرآن والحديث إلا بين معناه للمخاطبين و لم يحوجهم إلى شىء آخر كما قد بسطنا القول فيه فى غير هذا الموضع ، فقد تبين أن ما يدعيه هؤلاء من اللفظ المطلق من جميع القيود ، لا يوجد إلا مقدرًا فى اللسان لا موجودًا فى الكلام المستعمل ، كما أن ما يدعيه المنطقيون من المعنى المطلق من جميع القيود لا يوجد إلا مقدرًا فى الذهن لا يوجد فى الخارج شىء موجود خارج عن كل قيد ، ولهذا كان ما يدعونه من تقسيم العلم إلى تصور وتصديق ، وأن التصور هو تصور المعنى الساذج الخالى عن كل قيد لا يوجد . وكذلك ما يدعونه من البسائط التى تتركب منها الأنواع وأنها أمور مطلقة عن كل قيد لا توجد ، وما يدعونه من أن واجب الوجود هو وجود مطلق عن كل أمر ثبوتى لا يوجد .

فهذه الصفات المطلقات عن جميع القيود ينبغى معرفتها لمن ينظر فى هذه العلوم ، فإنه بسبب ظن وجودها ضل طوائف فى العقليات والسمعيات ، بل إذا قال العلماء : (مطلق) إنما يعنون به مطلق عن ذلك القيد ، ومقيد بذلك القيد ، كما يقولون الرقبة مطلقة فى آية كفارة اليمين ومقيدة فى آية القتل . أى مطلقة عن قيد الإيمان وإلا فقد قيل : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ فقيدت بأنها رقبة واحدة وأنها موجودة وأنها تقبل التحرير ، والذين يقولون بالمطلق المحض يقولون : هو الذى لا يتصف بوحدة ولا كثرة ولا وجود ولا عدم ولا غير ذلك ، بل هو الحقيقة من حيث هى هى كما يذكره الرازى تلقيًا له عن ابن سينا وأمثاله من المتفلسفة ، وقد بسطنا الكلام فى هذا الإطلاق والتقييد والكليات والجزئيات فى موضع غير هذا ، وبينا من غلط هؤلاء فى ذلك ما ليس هذا موضعه . وإنما المقصود هنا الإطلاق اللفظى وهو أن يتكلم باللفظ مطلقا عن كل قيد وهذا لا وجود له ، وحينئذ فلا يتكلم أحد إلا بكلام مؤلف مقيد مرتبط بعضه ببعض ،

فتكون تلك القيود ممتنعة الإطلاق .

فتبين أنه ليس لمن فرق بين الحقيقة والمجاز فرق معقول يمكن به التمييز بين نوعين ، فعلم أن هذا التقسيم باطل ، وحينئذ فكل لفظ موجود فى كتاب الله ورسوله فإنه مقيد بما يبين معناه ، فليس فى شيء من ذلك مجاز ، بل كله حقيقة .

ولهذا لما ادعى كثير من المتأخرين أن فى القرآن مجازًا وذكروا ما يشهد لهم رد عليهم المنازعون جميع ما ذكروه ، فمن أشهر ما ذكروه قوله تعالى : ﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أن يَنْقَضَّ ﴾ [سورة الكهف ، الآية : ٧٧] قالوا والجدار ليس بحيوان ، والإرادة إنما تكون للحيوان ، فاستعمالها فى ميل الجدار مجاز ، فقيل لهم : لفظ الإرادة قد استعمل فى الميل الذى يكون معه شعور وهو ميل الحى ، وفى الميل الذى لا شعور فيه وهو ميل الجماد ، وهو من مشهور اللغة ، يقال هذا السقف يريد أن يقع ، وهذه الأرض تريد أن تحرث ، وهذا الزرع يريد أن يسقى ، وهذا الثمر يريد أن يقطف ، وهذا الثوب يريد أن يغسل ، وأمثال ذلك .

واللفظ إذا استعمل فى معنيين فصاعدًا فإما أن يحمل حقيقة فى أحدهما مجازًا فى الآخر ، أو حقيقة فيما يختص به كل منهما فيكون مشتركا اشتراكا لفظيًّا أو حقيقة فى القدر المشترك بينهما وهى الأسماء المتواطئة وهى الأسماء العامة كلها ، وعلى الأول يلزم المجاز ، وعلى الثانى يلزم الاشتراك ، وكلاهما خلاف الأصل ، فيجب أن يجعل من المتواطئة ، وبهذا يعرف عموم الأسماء العامة كلها ، وإلا فلو قال قائل : هو فى ميل الجماد حقيقة وفى ميل الحيوان مجاز لم يكن بين الدعويين فرق إلا كثرة الاستعمال فى ميل الحيوان لكن يستعمل مقيَّدًا بما يبين أنه أريد ميل الجماد ، والقدر المشترك بين مسميات الأسماء المتواطئة أمر كلِّى عام لا يوجد كليًّا عامًا إلا فى الذهن ، وهو مورد التقسيم بين الأنواع ، لكن ذلك المعنى العام الكلى كان أهل اللغة لا يحتاجون إلى التعبير عنه ، لأنهم إنما يحتاجون إلى ما يوجد فى الخارج وإلى ما يوجد فى القلوب وفى العادة وما لا يكون فى الخارج إلا مضافًا إلى غيره ولا يوجد فى الذهن مجردًا ، بخلاف لفظ الإنسان والفرس ، فإنه لما

كان يوجد فى الخارج غير مضاف تعودت الأذهان تصور مسمى الإنسان ومسمى الفرس بخلاف تصور مسمى الإرادة ، ومسمى العلم ومسمى القدرة ، و مسمى الوجود المطلق العام ، فإن هذا لا يوجد فى اللغة لفظ مطلق يدل عليه ، بل لا يوجد لفظ الإرادة إلا مقيدًا بالمريد ، ولا لفظ العلم إلا مقيدًا بالعالِم ، ولا لفظ القدرة إلا مقيدًا بالقادر ، بل هكذا سائر الأغراض ، لما لم توجد إلا فى محالها مقيدة بها لم يكن فى اللغة لفظ إلا كذلك .

فلا يوجد فى اللغة لفظ السواد والبياض والطول إلا مقيدًا بالأسود والأبيض والطويل والقصير ونحو ذلك لا مجردًا عن كل قيد ، وإنما يوجد مجردًا فى كلام المصنفين فى اللغة لأنهم فهموا من كلام أهل اللغة ما يريدون به من القدر المشترك ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الجُوعِ والخَوفِ ﴾ [سورة النحل ، الآية : ١١٢] فإن من الناس من يقول الذوق حقيقة فى الذوق بالفم ، واللباس بما يلبس على البدن ، وإنما استعير هذا لهذا وليس كذلك ، بل قال الخليل : الذوق فى لغة العرب هو وجود طعم الشيء والاستعمال يدل على ذلك ، قال تعالى : : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنَ العَذَابِ الأَدْنَى دُونَ العَذَابِ الأَكْبَرِ ﴾ [سورة السجدة ، الآية : ٢١] وقال : ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ [سورة الطلاق ، الآية : ٩] وقال : ﴿ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُم تَكْفُرونَ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٠٦] ، ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُر ﴾ [سورة القمر ، الآية : ٣٧] ، ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا المَوتَ إِلَّا المَوتَةَ الأُولَى ﴾ [سورة الدخان ، الآية : ٥٦] ، ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ [سورة النبأ ، الآية : ٢٤ ، ٢٥] وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا » وفى بعض الأدعية « أَذِقْنَا بَرْدَ عَفْوِكَ وحلاوة مغفرتك » .

فلفظ الذوق يستعمل فى كل ما يحس به ويجد ألمه أو لذته ، فدعوى المدعى اختصاص لفظ الذوق بما يكون بالفم تحكم منه ، لكن ذلك مقيد فيقال ذقت الطعام وذقت هذا الشراب ، فيكون معه من القيود ما يدل على أنه ذوق بالفم ،

وإذا كان الذوق مستعملا فيما يحسه الإنسان بباطنه أو بظاهره حتى الماء الحميم يقال ذاقه ، فالشوب إذا كان باردًا أو حارًّا يقال ذقت حره وبرده .

وأما لفظ اللباس فهو مستعمل فى كل ما يغشى الإنسان فيلتبس به ، قال تعالى ﴿ وجَعَلْنَا اللَّيلَ لِباسًا ﴾ [سورة النبأ ، الآية : ١٠] وقال : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذِلك خَيرٌ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٢٦] وقال : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لَبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٨٧] ومنه يقال لبس الحق بالباطل ، إذا خلطه به حتى غشاه فلم يتميز ، فالجوع الذى يشمل أَلمه جميع الجائع : نفسه وبدنه ، وكذلك الخوف الذى يلبس البدن ، لو قيل فأذاقها الله الجوع والخوف لم يدل ذلك على أنه شامل لجميع أجزاء الجائع ، بخلاف ما إذا قيل لباس الجوع والخوف ، ولو قال فألبسهم لم يكن فيه ما يدل على أنهم ذاقوا ما يؤلمهم إلا بالعقل من حيث إنه يعرف أن الجائع الخائف يألم ، بخلاف لفظ ذوق الجوع والخوف ، فإن هذا اللفظ يدل على الإحساس بالمؤلم ، وإذا أضيف إلى الملذ دل على الإحساس به كقوله صلى الله عليه وسلم : « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًّا ورسولا » .

فإن قيل : فلم لم يصف نعيم الجنة بالذوق ؟ قيل لأن الذوق يدل على جنس الإحساس ويقال ذاق الطعام لمن وجد طعمه وإن لم يأكله ، وأهل الجنة نعيمهم كامل تام لا يقتصر فيه على الذوق ، بل استعمل لفظ الذوق فى النفى كما قال عن أهل النار : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ [سورة النبأ ، الآية : ٢٤] أى لا يحصل لهم من ذلك ذوق ، وقال عن أهل الجنة : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا المَوْتَ إلَّا المَوْتَةَ الأُولَى ﴾[سورة الدخان ، الآية : ٥٦] .

وكذلك ما ادَّعوا أنه مجاز فى القرآن لفظ المكر والاستهزاء والسخرية المضاف إلى الله ، وزعموا أنه مسمى باسم ما يقابله على طريق المجاز ، وليس كذلك بل مسميات هذه الأسماء إذا فعلت بما لا يستحق العقوبة كانت ظلمًا له ، وأما إذا

فعلت بمن فعلها بالمجنى عليه عقوبة بمثل فعله كانت عدلًا كما قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾[سورة يوسف ، الآية : ٧٦] فكاد له كما كادت إخوته لما قال له أبوه : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ [سورة يوسف ، الآية : ٥] وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [سورة الطارق ، الآيتان : ١٥ ، ١٦] وقال تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا ومَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُون * فانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ ﴾ [سورة النمل ، الآية : ٥٠ ، ٥١] وقال : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ المُطَّوِّعِينَ منَ المُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ والَّذِينَ لَا يَجِدونَ إِلَّا جَهْدَهُم فَيَسْخَرُونَ مِنْهُم سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُم ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ٧٩] ولهذا كان الاستهزاء بهم فعلا يستحق هذا الاسم ، كما روى عن ابن عباس أنه يفتح لهم باب من الجنة وهم فى النار ، فيسرعون إليه فيغلق ثم يفتح لهم باب آخر فيسرعون إليه فيغلق فيضحك منه المؤمنون . قال تعالى : ﴿ فَاليَومَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الكُفَّارِ يَضْحَكُون * على الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [سورة المطففين ، الآيات : ٣٤ - ٣٦] .

وعن الحسن البصرى : إذا كان يوم القيامة خمدت النار لهم كما تخمد الإهالة فيمشون فتخسف بهم ، وعن مقاتل : إذا ضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، فيبقون فى الظلمة فيقال لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا ، وقال بعضهم : استهزاؤه استدراجه لهم ، وقيل إيقاع استهزائهم ورد خداعهم ومكرهم عليهم ، وقيل إنه يظهر لهم فى الدنيا خلاف ما أبطن فى الآخرة ، وقيل هو تجهيلهم وتخطئتهم فيما فعلوه ، وهذا كله حق وهو استهزاؤهم حقيقة .

ومن الأمثلة المشهورة لمن يثبت المجاز فى القرآن : ﴿ وَاسْأَلِ القَرْيَةَ ﴾ [سورة يوسف ، الآية : ٨٢] قالوا المراد به أهلها فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، فقيل لهم : لفظ القرية والمدينة والنهر والميزاب وأمثال هذه الأمور التى فيها الحال والمحل كلاهما داخل فى الاسم ، ثم قد يعود الحكم على الحال

وهو السكان ، وتارة على المحل وهو المكان ، وكذلك فى النهر يقال : حفرت النهر ، وهو المحل ، وجرى النهر وهو الماء ، ووضعت الميزاب وهو المحل ، وجرى الميزاب وهو الماء ، وكذلك القرية ، قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ﴾ [سورة النحل ، الآية : ١١٢] وقوله : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [سورة الأعراف ، الآيتان : ٤ ، ٥] وقال فى آية أخرى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٩٧] فجعل القرى هم السكان ، وقال : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [سورة محمد ، الآية : ١٣] وهم السكان ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَوعِدًا ﴾ [سورة الكهف ، الآية : ٥٩] وقال تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٥٩] فهذا المكان لا السكان ، لكن لابد أن يلحظ أنه كان مسكونًا ، فلا يسمى قرية إلا إذا كان وقد عمر للسكنى ، مأخوذ من القرى وهو الجمع ومنه قولهم قريت الماء فى الحوض إذا جمعته فيه .

ونظير ذلك لفظ الإنسان يتناول الجسد والروح ، ثم الأحكام تتناول هذا تارة وهذا تارة لتلازمهما ، فكذلك القرية إذا عذب أهلها خربت وإذا خربت كان عذابًا لأهلها ، فما يصيب أحدهما من الشر ينال الآخر كما ينال البدن والروح ما يصيب أحدهما ، فقوله : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ [سورة يوسف ، الآية : ٨٢] مثل قوله : ﴿ قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ﴾ فاللفظ هنا يراد به السكان من غير إضمار ولا حذف ، فهذا بتقدير أن يكون فى اللغة مجاز فلا مجاز فى القرآن بل تقسيم اللغة إلى حقيقة ومجاز تقسيم مبتدع محدث لم ينطق به السلف ، والخلف فيه على قولين ، وليس النزاع فيه لفظيًا ، بل يقال هذا التقسيم باطل لا يتميز هذا عن هذا ولهذا كان كل ما يذكرونه من الفروق يبين أنها فروق

باطلة ، وكلما ذكر بعضهم فرقا أبطله الثانى ، كما يدعى المنطقيون أن الصفات القائمة بالموصوفات تنقسم اللازمة لها إلى داخل فى ماهيتها الثابتة فى الخارج ، وإلى خارج عنها لازم للماهية ولازم خارج الوجود ، وذكروا ثلاثة فروق كلها باطلة ، لأن هذا التقسيم باطل لا حقيقة له ، بل ما يجعلونه داخلا يمكن جعله خارجا وبالعكس كما قد بسط فى موضعه .

وقولهم : اللفظ إن دل بلا قرينة فهو حقيقة وإن لم يدل إلا معها فهو مجاز ، قد تبين بطلانه ، وأنه ليس فى الألفاظ الدالة ما يدل مجردًا عن جميع القرائن ولا فيها ما يحتاج إلى جميع القرائن . وأشهر أمثلة المجاز لفظ الأسد والحمار والبحر ونحو ذلك مما يقولون إنه استعير للشجاع والبليد والجواد وهذه لا تستعمل إلا مؤلفة مركبة مقيدة بقيود لفظية كما تستعمل الحقيقة كقول أبى بكر الصديق عن أبى قتادة لما طلب غيره سلب القتيل : « لاها الله إذًا نعمد إلى أسد من أُسْد الله يقاتل عن الله ورسوله فنعطيك سلبه » فقوله نعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله ، وصف له بالقوة للجهاد فى سبيله ، وقد عينه تعينًا أزال اللبس ، وكذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إن خالدًا سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين »[1] وأمثال ذلك .

وإن قال القائل : القرائن اللفظية موضوعة ودلالتها على المعنى حقيقة لكن القرائن الحالية مجاز ، قيل اللفظ لا يستعمل قط إلا مقيدًا بقيود لفظية موضوعة والحال حال المتكلم والمستمع لابد من اعتباره فى جميع الكلام ، فإنه إذا عرف المتكلم فهم من معنى كلامه ما لا يفهم إذا لم يعرف ؛ لأنه بذلك يعرف عادته فى خطابه ، واللفظ إنما يدل إذا عرف لغة المتكلم الّتى بها يتكلم وهى عادته وعرفه التى يعتادها فى خطابه ودلالة اللفظ على المعنى دلالة قصدية إرادية اختيارية فالمتكلم يريد دلالة اللفظ على المعنى ؛ فإذا اعتاد أن يعبر باللفظ عن المعنى كانت تلك لغة ، ولهذا كل من له عناية بألفاظ الرسول ومراده بها عرف عادته فى خطابه ، وتبين له مراده ما لا يتبين لغيره .

---

(١) (انظر المسند (جـ١ ص٨) ضمن حديث طويل . (٢)

ولهذا ينبغى أن يقصد إذا ذكر لفظ من القرآن والحديث أن يذكر نظائر ذلك اللفظ ماذا عنى بها الله ورسوله ، فيعرف بذلك لغة القرآن والحديث وسنة الله ورسوله التى يخاطب بها عباده ، وهى العادة المعروفة من كلامه ، ثم إذا كان لذلك نظائر فى كلام غيره وكانت النظائر كثيرة عرف أن تلك العادة واللغة مشتركة عامة لا يختص بها هو صلى الله عليه وسلم ؛ بل هى لغة قومه ، ولا يجوز أن يحمل كلامه على عادات حدثت بعده فى الخطاب لم تكن معروفة فى خطابه وخطاب أصحابه كما يفعله كثير من الناس ، وقد لا يعرفون انتفاء ذلك فى زمانه ، ولهذا كان استعمال القياس فى اللغة وإن جاز فى الاستعمال فإنه لا يجوز فى الاستدلال ، فإنه قد يجوز للإنسان أن يستعمل اللفظ فى نظير المعنى الذى استعملوه فيه مع بيان ذلك على ما فيه من النزاع ، لكن لا يجوز أن يعمد إلى ألفاظ قد عرف استعمالها فى معانى فيحيلها إلى غير تلك المعانى ويقول : « إنهم أرادوا تلك بالقياس على تلك » بل هذا تبديل وتحريف ، فإذا قال : « الجار أحق بسقبه » فالجار هو الجار ليس هو الشريك ؛ فإن هذا لا يعرف فى لغتهم ، لكن ليس فى اللفظ ما يقتضى أنه يستحق الشفعة لكن يدل على أن البيع له أولى .

وأما الخمر فقد ثبت بالنصوص الكثيرة والنقول الصحيحة أنها كانت اسمًا لكل مسكر ، لم يسم النبيذ خمرًا بالقياس ، وكذلك النباش كانوا يسمونه سارقًا كما قالت عائشة : سارق موتانا كسارق أحيانا ، واللائط عندهم كان أغلظ من الزانى بالمرأة ، ولابد فى تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله من الألفاظ ، وكيف يفهم كلامه ، فمعرفة العربية التى خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه ، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعانى ، فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب ، فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنه دال عليه ، ولا يكون الأمر كذلك ، ويجعلون هذه الدلالة حقيقة وهذه مجازًا ، كما أخطأ المرجئة فى اسم الإيمان ، وجعلوا لفظ الإيمان حقيقة فى مجرد التصديق ، وتناوله للأعمال مجازًا .

فيقال : إن لم يصح التقسيم إلى حقيقة ومجاز فلا حاجة إلى هذا ، وإن صح

فهذا لا ينفعكم بل هو عليكم لا لكم ، لأن الحقيقة هى اللفظ الذى يدل بإطلاقه بلا قرينة والمجاز إنما يدل بقرينة ، وقد تبين أن لفظ الإيمان حيث أطلق فى الكتاب والسنة دخلت فيه الأعمال ؛ وإنما يدعى خروجها منه عند التقييد ، وهذا يدل على أن الحقيقة قوله : « الإيمان بضع وسبعون شعبة » .

وأما حديث جبريل فإن كان أراد بالإيمان ما ذكر مع الإسلام فهو كذلك ، وهذا هو الذى أراد النبي صلى الله عليه وسلم قطعًا ، كما أنه لما ذكر الإحسان أراد بالإحسان مع الإيمان والإسلام ؛ لم يرد أن الإحسان مجرد عن إيمان وإسلام ، ولو قدر أنه أريد بلفظ الإيمان مجرد التصديق فلم يقع ذلك إلا مع قرينة ، فيلزم أن يكون مجازًا ، وهذا معلوم بالضرورة لا يمكننا المنازعة فيه بعد تدبر القرآن والحديث بخلاف كون لفظ الإيمان فى اللغة مرادفًا للتصديق ودعوى أن الشارع لم يغيره ولم ينقله ، بل أراد ما كان يريده أهل اللغة بلا تخصيص ولا تقييد ، فإن هاتين المقدمتين لا يمكن الجزم بواحدة منهما ، فلا يعارض اليقين كيف وقد عرف فساد كل واحدة من المقدمتين ، وأنها من أفسد الكلام .

وأيضًا فإن لفظ الإيمان فى دلالته على الأعمال المأمور بها بدون لفظ الصلاة والصيام والزكاة والحج الشرعى ، سواء قيل إن الشارع نقله أو زاد الحكم دون الاسم ، أو زاد الاسم وتصرف فيه تصرف أهل العرف ، أو خاطب بالاسم مقيدًا لا مطلقًا .

فإن قيل : الصلاة والحج ونحوهما لو ترك بعضهما بطلت بخلاف الإيمان ، فإنه لا يبطل عند الصحابة وأهل السنة والجماعة بمجرد الذنب ؛ قيل إن أراد بالبطلان أنه لا تبرأ الذمة منها كلها ، فكذلك الإيمان الواجب إذا ترك منه شيئًا لم تبرأ الذمة منه كله ، وإن أريد به وجوب الإعادة فهذا ليس على الإطلاق ؛ فإن فى الحج واجبات إذا تركها لم يفسد بل تجبر بدم ، وكذلك فى الصلاة عند أكثر العلماء إذا تركها سهوًا أو مطلقًا وجبت الإعادة ، فإنما يجب إذا أمكنت الإعادة وإلا فما تعذرت إعادته يبقى مطالبًا به كالجمعة ونحوها ، وإن أريد بذلك

أنه لا يثاب على ما فعله ، فليس كذلك ، بل قد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث المسيء فى صلاته أنه إذا لم يتمها يثاب على ما فعل ولا يكون بمنزلة من لم يصل ، وفى عدة أحاديث أن الفرائض تكمل يوم القيامة من النوافل ، فإذا كانت الفرائض مجبورة بثواب النوافل دل على أنه يعتد له بما فعل منها ، فكذلك الإيمان إذا ترك منه شيئًا كان عليه فعله إن كان محرمًا تاب منه ، وإن كان واجبًا فعله ، فإذا لم يفعله لم تبرأ ذمته منه وأثيب على ما فعله كسائر العبادات ، وقد دلت النصوص على أنه يخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان .

وقد عدلت المرجئة فى هذا الأصل عن بيان الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان واعتمدوا على رأيهم وعلى ما تأولوه بفهمهم اللغة وهذه طريقة أهل البدع ولهذا كان الإمام أحمد يقول : أكثر ما يخطيء الناس من جهة التأويل والقياس ولهذا تجد المعتزلة والمرجئة والرافضة وغيرهم من أهل البدع يفسرون القرآن برأيهم ومعقولهم ، وما تأولوا من اللغة ولهذا تجدهم لا يعتمدون على أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، فلا يعتمدون لا على السنة ولا على إجماع السلف وآثارهم ، وإنما يعتمدون على العقل واللغة ، وتجدهم لا يعتمدون على كتب التفسير المأثورة والحديث وآثار السلف ، وإنما يعتمدون على كتب الأدب وكتب الكلام التى وضعتها رءوسهم ، وهذه طريقة الملاحدة أيضًا إنما يأخذون ما فى كتب الفلسفة وكتب الأدب واللغة ، وأما كتب القرآن والحديث والآثار فلا يلتفتون إليها . هؤلاء يعرضون عن نصوص الأنبياء إذ هى عندهم لا تفيد العلم ، وأولئك يتأولون القرآن برأيهم وفهمهم بلا آثار عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وقد ذكرنا كلام أحمد وغيره فى إنكار هذا وجعله طريقة أهل البدع .

وإذا تدبرت حججهم وجدت دعاوى لا يقوم عليها دليل ؛ والقاضى أبو بكر الباقلانى نصر قول جهم فى مسألة الإيمان متابعة لأبى الحسن الأشعرى ، وكذلك أكثر أصحابه فأما أبو العباس القلانسى وأبو على الثقفى وأبو عبد الله بن مجاهد

شيخ القاضى أبى بكر وصاحب أبى الحسن فإنهم نصروا مذاهب السلف ، وابن كلاب نفسه والحسين بن المفضل البجلى ونحوهما كانوا يقولون هو التصديق والقول جميعًا موافقة لمن قاله من فقهاء الكوفيين كحماد بن أبى سليمان ومن اتبعه مثل أبى حنيفة وغيره .

فصل

الاستثناء فى الإيمان :

وأبو الحسن الأشعرى نصر قول جهم فى الإيمان مع أنه نصر المشهور عن أهل السنة من أنه يستثنى فى الإيمان فيقول : أنا مؤمن إن شاء الله ، لأنه نصر مذهب أهل السنة فى أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة ولا يخلدون فى النار ، وتقبل فيهم الشفاعة ونحو ذلك ، وهو دائمًا ينصر فى المسألة التى اشتهر فيها النزاع بين أهل الحديث وغيرهم قول أهل الحديث ، لكنه لم يكن خبيرًا بمآخذهم فينصره على ما يراه هو من الأصول التى تلقاها عن غيرهم ، فيقع فى ذلك من التناقض ما ينكره هؤلاء وهؤلاء كما فعل فى مسألة الإيمان ونصر فيه قول جهم مع نصره للاستثناء ، ولهذا خالفه كثير من أصحابه فى الاستثناء كما سنذكر مأخذه فى ذلك ، واتبعه أكثر أصحابه على نصر قول جهم فى ذلك ، ومن لم يقف إلا على كتب الكلام ولم يعرف ما قاله السلف وأئمة السنة فى هذا الباب فيظن أن ما ذكروه هو قول أهل السنة ؛ وهو قول لم يقله أحد من أئمة السنة ، بل قد كفر أحمد بن حنبل ووكيع وغيرهما من قال بقول جهم فى الإيمان الذى نصره أبو الحسن ، وهو عندهم شر من قول المرجئة ، ولهذا صار من يعظم الشافعى من الزيدية والمعتزلة ونحوهم ويطعن فى كثير ممن ينتسب إليه يقولون : الشافعى لم يكن فيلسوفًا ولا مرجئًا ، وهؤلاء فلاسفة أشعرية مرجئة . وغرضهم ذم الإرجاء ، ونحن نذكر عمدتهم لكونه مشهورًا عند كثير من المتأخرين المنتسبين إلى السنة .

قال القاضى أبو بكر فى التمهيد : فإن قالوا فخبرونا ما الإيمان عندكم ؟ قيل :

الإيمان هو التصديق بالله وهو العلم والتصديق يوجد بالقلب ، فإن قال : فما الدليل على ما قلتم ؟ قيل : إجماع أهل اللغة قاطبة على أن الإيمان قبل نزول القرآن وبعثة النبى صلى الله عليه وسلم هو التصديق ، لا يعرفون فى اللغة إيمانًا غير ذلك ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾ [سورة يوسف ، الآية : ١٧] أى بمصدق لنا ، ومنه قولهم : فلان يؤمن بالشفاعة وفلان لا يؤمن بعذاب القبر ، أى لا يصدق بذلك ، فوجب أن الإيمان فى الشريعة هو الإيمان المعروف فى اللغة ، لأن الله ما غير اللسان العربى ولا قلبه ، ولو فعل ذلك لتواترت الأخبار بفعله وتوافرت دواعى الأمة على نقله ، ولغلب إظهاره على كتمانه ، وفى علمنا بأنه لم يفعل ذلك ، بل أقر أسماء الأشياء والتخاطب بأسره على ما كان دليل على أن الإيمان فى الشريعة هو الإيمان اللغوى ، ومما يبين ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ [سورة إبراهيم ، الآية : ٤] وقوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [سورة الزخرف ، الآية : ٣] فأخبر أنه أنزل القرآن بلغة العرب ؛ وسمى الأسماء بمسمياتهم ، ولا وجه للعدول بهذه الآيات عن ظواهرها بغير حجة لاسيما مع القول بالعموم ، وحصول التوقيف على أن القرآن قول نزل بلغتهم ، فدل على ما قلناه من أن الإيمان ما وصفناه دون ما سواه من سائر الطاعات من النوافل والمفرضات . هذا لفظه .

وهذا عمدة من نصر قول الجهمية فى مسألة الإيمان ، وللجمهور من أهل السنة وغيرهم عن هذا أجوبة :

أحدها : قول من ينازعه فى أن الإيمان فى اللغة مرادف للتصديق ويقول هو بمعنى الإقرار وغيره .

والثانى : قول من يقول وإن كان فى اللغة هو التصديق ، فالتصديق يكون بالقلب واالسان وسائر الجوارح كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « والفرج يصدق ذلك أو يكذبه »[1] .

---

(١) (البخارى (جـ١١ / ٦٣٤٣) ، ومسلم (جـ٤ - قدر / ٢٠ ، ٢١) ، وأبو داود (جـ٢ / ٢١٥٢) ، وأحمد (جـ٢ ص٢٧٦) .

والثالث : أن يقال ليس هو مطلق التصديق ، بل هو تصديق خاص مقيد بقيود اتصل اللفظ بها ، وليس هذا نقلا للفظ ولا تغييرًا له فإن الله لم يأمرنا بإيمان مطلق ، بل بإيمان خاص وصفه وبينه .

الرابع : أن يقال : وإن كان هو التصديق ، فالتصديق التام القائم بالقلب مستلزم لما وجب من أعمال القلب والجوارح ؛ فإن هذه لوازم الإيمان التام ؛ وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم ، ويقول : إن هذه اللوازم تدخل فى مسمى اللفظ تارة ، وتخرج عنه أخرى .

الخامس : قول من يقول إن اللفظ باق على معناه فى اللغة ولكن الشارع زاد فيه أحكامًا .

السادس : قول من يقول إن الشارع استعمله فى معناه المجازى فهو حقيقة شرعية ، مجاز لغوى .

السابع : قول من يقول إنه منقول .

فهذه عدة أقوال :

الأول : قول من ينازع أن معناه فى اللغة التصديق ، ويقول ليس هو التصديق بل بمعنى الإقرار وغيره ، قوله إجماع أهل اللغة قاطبة على أن الإيمان قبل نزول القرآن هو التصديق . فيقال له : من نقل هذا الإجماع ومن أين يعلم هذا الإجماع وفى أى كتاب ذكر هذا الإجماع ؟

الثانى : أن يقال أتعنى بأهل اللغة نقلتها كأبى عمرو والأصمعى والخليل ونحوهم ، أو المتكلمين بها ، فإن عنيت الأول فهؤلاء لا ينقلون كل ما كان قبل الإسلام بإسناد ، وإنما ينقلون ما سمعوه من العرب فى زمانهم ، وما سمعوه فى دواوين الشعر ، وكلام العرب وغير ذلك بالإسناد ، ولا نعلم فيما نقلوه لفظ الإيمان فضلا عن أن يكونوا أجمعوا عليه . وإن عنيت المتكلمين بهذا اللفظ قبل الإسلام فهؤلاء لم نشهدهم ولا نقل لنا أحد عنهم ذلك .

الثالث : أنه لا يعرف عن هؤلاء جميعهم أنهم قالوا الإيمان فى اللغة هو التصديق ؛ بل ولا عن بعضهم وإن قدر أنه قاله واحد أو اثنان فليس هذا إجماعًا .

الرابع : أن يقال هؤلاء لا ينقلون عن العرب أنهم قالوا معنى هذا اللفظ كذا وكذا ؛ وإنما ينقلون الكلام المسموع من العرب ، وأنه يفهم منه كذا وكذا ، وحينئذ فلو قدر أنهم نقلوا كلامًا عن العرب يفهم منه أن الإيمان هو التصديق ؛ لم يكن ذلك أبلغ من نقل المسلمين للقرآن عن النبى صلى الله عليه وسلم . وإذا كان مع ذلك قد يظن بعضهم أنه أريد به معنى ولم يرده ، فظن هؤلاء ذلك فيما ينقلونه عن العرب أولى .

الخامس : أنه لو قدر أنهم قالوا هذا فهم آحاد لا يثبت بنقلهم التواتر ، والتواتر من شرطه استواء الطرفين والواسطة ، وأين التواتر الموجود عن العرب قاطبة قبل نزول القرآن أنهم كانوا لا يعرفون للإيمان معنى غير التصديق .

فإن قيل : هذا يقدح فى العلم باللغة قبل نزول القرآن . قيل فليكن ، ونحن لا حاجة بنا مع بيان الرسول لما بعثه الله به من القرآن أن نعرف اللغة قبل نزول القرآن ، والقرآن نزل بلغة قريش والذين خوطبوا به كانوا عربًا ، وقد فهموا ما أريد به وهم الصحابة ، ثم الصحابة بلغوا لفظ القرآن ومعناه إلى التابعين حتى انتهى إلينا ، فلم يبق بنا حاجة إلى أن تتواتر عندنا تلك اللغة من غير طريق تواتر القرآن لكن لما تواتر القرآن لفظًا ، ومعنى وعرفنا أنه نزل بلغتهم ، عرفنا أنه كان فى لغتهم لفظ السماء والأرض والليل والنهار ، والشمس والقمر ؛ ونحو ذلك على ما هو معناها فى القرآن وإلا فلو كلفنا نقلًا متواترًا لآحاد هذه الألفاظ من غير القرآن لتعذر علينا ذلك فى جميع الألفاظ ، لاسيما إذا كان المطلوب أن جميع العرب كانت تريد باللفظ هذا المعنى ؛ فإن هذا يتعذر العلم به والعلم بمعانى القرآن ليس موقوفًا على شىء من ذلك ، بل الصحابة بلغوا معانى القرآن كما بلغوا لفظه ، ولو قدرنا أن قومًا سمعوا كلامًا عجميًا وترجموه لنا بلغتهم لم نحتج إلى معرفة اللغة التى خوطبوا بها .

السادس : أنه لم يذكر شاهدًا من كلام العرب على ما ادعاه عليهم ، وإنما استدل من غير القرآن بقول الناس فلان يؤمن بالشفاعة ، فلان يؤمن بالجنة والنار ، فلان يؤمن بعذاب القبر ، وفلان لا يؤمن بذلك ومعلوم أن هذا ليس من ألفاظ العرب قبل نزول القرآن ، بل هو مما تكلم الناس به بعد عصر الصحابة لما صار من الناس أهل البدع يكذبون بالشفاعة وعذاب القبر ، ومرادهم بذلك هو مرادهم بقوله فلان مؤمن يؤمن بالجنة والنار ، وفلان لا يؤمن بذلك ؛ والقائل لذلك وإن كان تصديق القلب داخلًا فى مراده ، فليس مراده ذلك وحده ، بل مراده التصديق بالقلب واللسان ، فإن مجرد تصديق القلب بدون اللسان لا يعلم حتى يخبر به عنه .

السابع : أن يقال : من قال ذلك فليس مراده التصديق بما يرجى ويخاف بدون خوف ولا رجاء ، بل يصدق بعذاب القبر ويخافه ، ويصدق بالشفاعة ويرجوها ؛ وإلا فلو صدق بأنه يعذب فى قبره ولم يكن فى قلبه خوف من ذلك أصلًا لم يسموه مؤمنًا به كما أنهم لا يسمون مؤمنًا بالجنة والنار إلا من رجا الجنة وخاف النار ، دون المعرض عن ذلك بالكلية مع علمه بأنه حق ، كما لا يسمون إبليس مؤمنًا بالله وإن كان مصدقًا بوجوده وربوبيته ، ولا يسمون فرعون مؤمنًا وإن كان عالمًا بأن الله بعث موسى ، وأنه هو الذى أنزل الآيات وقد استيقنت بها أنفسهم مع جحدهم لها بألسنتهم ، ولا يسمون اليهود مؤمنين بالقرآن والرسول وإن كانوا يعرفون أنه حق كما يعرفون أبناءهم ، فلا يوجد قطَ فى كلام العرب أن من علم وجود شيء مما يخاف ويرجى ويجب حبه وتعظيمه وهو مع ذلك لا يحبه ولا يعظمه ولا يخافه ولا يرجوه ، بل يجحد به ويكذب به بلسانه ؛ أنهم يقولون هو مؤمن به ، بل ولو عرفه بقلبه وكذب به بلسانه لم يقولوا هو مصدق به ، ولو صدق به مع العمل بخلاف مقتضاه لم يقولوا هو مؤمن به فلا يوجد فى كلام العرب شاهد واحد يدل على ما ادعوه وقوله : ﴿ وما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا ﴾ قد تكلمنا عليها فى غير هذا الموضع ، فإن هذا استدلال بالقرآن ، وليس فى الآية ما يدل على أن المصدق مرادف للمؤمن فإن صحة المعنى بأحد اللفظين

لا يدل على أنه مرادف للآخر كما بسطناه فى موضعه .

الثامن : قوله لا يعرفون فى اللغة إيمانًا غير ذلك ، من أين له هذا النفى الذى لا تمكن الإحاطة به ، بل هو قول بلا علم .

التاسع : قول من يقول : أصل الإيمان مأخوذ من الأمن كما ستأتى أقوالهم إن شاء الله ، وقد نقلوا فى اللغة الإيمان بغير هذا المعنى ، كما قاله الشيخ أبو البيان فى قول .

العاشر : أنه فرض أن الإيمان فى اللغة التصديق ، فمعلوم أن الإيمان ليس هو التصديق بكل شيء مخصوص ، وهو ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحينئذ فيكون الإيمان فى كلام الشارع أخص من الإيمان فى اللغة ، ومعلوم أن الخاص ينضم إليه قيود لا توجد فى جميع العلوم كالحيوان إذا أخذ بعض أنواعه وهو الإنسان كان فيه المعنى العام ، ومعنى اختص به ، وذلك المجموع ليس هو المعنى العام ، فالتصديق الذى هو الإيمان أدنى أحواله أن يكون نوعًا من التصديق العام . فلا يكون مطابقًا له فى العموم والخصوص من غير تغيير اللسان ولا قلبه ، بل يكون الإيمان فى كلام الشارع مؤلفًا من العام والخاص ، كالإنسان الموصوف بأنه حيوان وأنه ناطق .

الحادى عشر : أن القرآن ليس فيه ذكر إيمان مطلق غير مفسر ، بل لفظ الإيمان فيه إما مقيد وإما مطلق مفسر فالمقيد كقوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ بالغَيْبِ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٣] وقوله : ﴿ فَما آمَنَ لمُوسَى إلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ [سورة يونس ، الآية : ٨٣] والمطلق المفسر كقوله تعالى : ﴿ إنَّما المؤْمِنُون الَّذِينَ إذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبهم ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٢] ، وقوله : ﴿ إنَّمَا المؤْمِنُونَ الَّذِيْنَ آمنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يرْتَابُوا وجاهَدُوا بأَمْوَالِهِم وأَنْفُسِهم فى سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُم الصَّادِقُونَ ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٥] ونحو ذلك ، وقوله : ﴿ فَلَا وَربِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بيْنَهُم ثمَّ لَا يَجِدُوا فى أَنْفُسِهِم حَرَجًا

مِمَّا قَضَيْتَ ويُسلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٦٥] وأمثال هذه الآيات ، وكل إيمان مطلق فى القرآن فقد يبين فيه أنه لا يكون الرجل مؤمنًا إلا بالعمل مع التصديق ؛ فقد بين القرآن أن الإيمان لابد فيه من عمل مع التصديق ، كما ذكر مثل ذلك فى اسم الصلاة والزكاة والصيام والحج .

فإن قيل : تلك الأسماء باقية ولكن ضم إلى المسمى أعمالًا فى الحكم لا فى الاسم كما يقوله القاضى أبو يعلى وغيره ، قيل إن كان هذا صحيحًا قيل مثله فى الإيمان ؛ وقد أورد هذا السؤال لبعضهم ثم لم يجب عنه بجواب صحيح ، بل زعم أن القرآن لم يذكر فيه ذلك ، وليس كذلك ، بل القرآن والسنة مملوءان بما يدل على أن الرجل لا يثبت له حكم الإيمان إلا بالعمل مع التصديق ، وهذا فى القرآن أكثر بكثير من معنى الصلاة والزكاة ، فإن تلك إنما فسرتها السنة ، والإيمان بين معناه الكتاب والسنة وإجماع السلف .

الثانى عشر : أنه إذا قيل إن الشارع خاطب الناس بلغة العرب ، فإنما خاطبهم بلغتهم المعروفة ، وقد جرى عرفهم أن الاسم يكون مطلقًا وعامًّا ثم يدخل فيه قيد أخص من معناه كما يقولون اذهب إلى القاضى والوالى والأمير يريدون شخصًا معينًا يعرفونه دلت عليه اللام مع معرفتهم به . وهذا الاسم فى اللغة اسم جنس لا يدل على خصوص شخص وأمثال ذلك . فكذلك الإيمان والصلاة والزكاة ، إنما خاطبهم بهذه الأسماء بلام التعريف وقد عرفهم قبل ذلك أن المراد الإيمان الذى صفته كذا وكذا ، أو الدعاء الذى صفته كذا وكذا . فبتقدير أن يكون فى لغتهم التصديق فإنه قد يبين أنى لا أكتفى بتصديق القلب واللسان ، فضلًا عن تصديق القلب وحده . بل لابد أن يعمل بموجب ذلك التصديق كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّما المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ ورسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يرْتَابُوا ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٥] ، ﴿ إِنَّما المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهم ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٢] وفى قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تؤمنون حتى يكون كذا » . وفى قوله تعالى : ﴿ لا تَجِدُ قومًا يؤْمِنُونَ باللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَن حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَه ﴾ [سورة المجادلة ،

الآية : ٢٢] وفى قوله : ﴿ لَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ باللَّهِ والنَّبِىِّ وما أُنْزِلَ إِلَيْهِ ما اتَّخَذُوهُم أَوْلِيَاء ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٨١] ومثل هذا كثير فى الكتاب والسنة كقوله عليه السلام : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » وقوله : « لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » وأمثال ذلك .

فقد بين لهم أن التصديق الذى لا يكون الرجل مؤمنًا إلا به هو أن يكون تصديقًا على هذا الوجه . وهذا بين فى القرآن والسنة من غير تغيير للغة ولا نقل لها .

الثالث عشر : أن يقال : بل نقل وغير قوله : لو فعل لتواتر . قيل نعم . وقد تواتر أنه أراد بالصلاة والزكاة والصيام والحج معانيها المعروفة . وأراد بالإيمان ما بينه بكتابه وسنة رسوله من أن العبد لا يكون مؤمنًا إلا به كقوله : ﴿ إِنَّما المُؤْمِنُونَ ﴾ وهذا متواتر فى القرآن والسنن ، ومتواتر أيضًا أنه لم يكن يحكم لأحد بحكم الإيمان إلا أن يؤدى الفرائض . ومتواتر عنه أنه أخبر أنه من مات مؤمنًا دخل الجنة ولم يعذب ، وأن الفساق لا يستحقون ذلك . بل هُم معرضون للعذاب ، فقد تواتر عنه من معانى اسم الإيمان وأحكامه ما لم يتواتر عنه فى غيره ، فأى تواتر أبلغ من هذا ؟ وقد توافرت الدواعى على نقل ذلك وإظهاره ولله الحمد . ولا يقدر أحد أن ينقل عن النبى صلى الله عليه وسلم نقلًا يناقض هذا . لكن أخبر أنه يخرج منها من كان معه شيء من الإيمان ولم يقل إن المؤمن يدخلها . ولا قال إن الفساق مؤمنون ، لكن أدخلهم فى مسمى الإيمان فى مواضع كما أدخل المنافقين فى اسم الإيمان فى مواضع مع القيود . وأما الاسم المطلق الذى وعد أهله بالجنة فلم يدخل فيه هؤلاء ولا هؤلاء .

الرابع عشر : قوله : ولا وجه للعدول بالآيات التى تدل على أنه عربى عن ظاهرها . فيقال له : الآيات التى فسرت المؤمن وسلبت الإيمان عمن لم يعمل أصرح وأكثر من هذه الآيات . ثم إذا دلت أنه عربى فما ذكر لا يخرجه عن كونه عربيًّا . ولهذا لما خاطبهم بلفظ الصلاة والحج وغير ذلك لم يقولوا هذا ليس

بعربى . بل خاطبهم باسم المنافق ، وقد ذكر أهل اللغة أن هذا الاسم لم يكن يعرف فى الجاهلية ولم يقولوا إنه ليس بعربى ، لأن المنافق مشتق من (نفق) إذا خرج . فإذا كان اللفظ مشتقًا من لغتهم وقد تصرف فيه المتكلم به كما جرت عادتهم فى لغتهم لم يخرج ذلك عن كونه عربيًا .

الخامس عشر : أنه لو فرض أن هذه الألفاظ ليست عربية فليس تخصيص عموم هذه الألفاظ بأعظم من إخراج لفظ الإيمان ، عما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف ، فإن النصوص التى تنفى الإيمان عمن لا يحب الله ورسوله ولا يخاف الله ولا يتقيه . ولا يعمل شيئًا من الواجب . ولا يترك شيئًا من المحرم . كثيرة صريحة . فإذا قدر أنها عارضها آية كان تخصيص اللفظ القليل العام اولى من رد النصوص الكثيرة الصريحة .

السادس عشر : أن هؤلاء واقفة فى ألفاظ العموم لا يقولون بعمومها ، والسلف يقولون : الرسول وقفنا على معانى الإيمان وبينه لنا وعلمنا مراده منه بالاضطرار ، وعلمنا من مراده علمًا ضروريًا أن من قيل إنه صدق ولم يتكلم بلسانه بالإيمان مع قدرته على ذلك ، ولا صلَّى ولا صام ولا أحب الله ورسوله ولا خاف الله ، بل كان مبغضًا للرسول معاديًا له يقاتله ، أن هذا ليس بمؤمن ، كما علمنا أن الكفار من المشركين وأهل الكتاب الذين كانوا يعلمون أنه رسول الله وفعلوا ذلك معه كانوا عنده كفارًا لا مؤمنين ، فهذا معلوم عندنا بالاضطرار أكثر من علمنا بأن القرآن كله ليس فيه لفظ غير عربى ، فلو قدر التعارض لكان تقديم ذلك العلم الضرورى أولى .

فإن قالوا : من علم أن الرسول كفره علم انتفاء التصديق من قلبه .

قيل لهم : هذه مكابرة إن أرادوا أنهم كانوا شاكين مرتابين ، وأما إن عنى التصديق الذى لم يحصل معه عمل فهو ناقص كالمعدوم فهذا صحيح ، ثم إنما يثبت إذا ثبت أن الإيمان مجرد تصديق القلب وعلمه ، وذاك إنما يثبت بعد تسليم هذه المقدمات التى منها هذا ، فلا تثبت الدعوى بالدعوى مع كفر صاحبها ،

ثم يقال قد علمنا بالاضطرار أن اليهود وغيرهم كانوا يعرفون أن محمدًا رسول الله وكان يحكم بكفرهم فقد علمنا من دينه ضرورة أنه يكفر الشخص مع ثبوت التصديق بنبوته فى القلب إذا لم يعمل بهذا التصديق ، بحيث يحبه ويعظمه ويسلم لما جاء به .

ومما يعارضون به أن يقال هذا الذى ذكرتموه إن كان صحيحًا فهو أدل على قول المرجئة ، بل على قول الكرامية منه على قولكم ، وذلك أن الإيمان إذا كان هو التصديق كما ذكرتم فالتصديق نوع من أنواع الكلام ، فاستعمال لفظ الكلام والقول ونحو ذلك فى المعنى واللفظ ، بل فى اللفظ الدال على المعنى أكثر فى اللغة من استعماله فى المعنى المجرد عن اللفظ ، بل لا يوجد قط إطلاق اسم الكلام ولا نوعه كالخبر والتصديق والتكذيب والأمر والنهى على مجرد المعنى من غير شىء يقترن به من عبارة ولا إشارة ولا غيرهما ، وإنما يستعمل مقيدًا .

وإذا كان الله إنما أنزل القرآن بلغة العرب فهى لا تعرف التصديق والتكذيب وغيرهما من الأقوال إلا ما كان معنى ولفظًا أو لفظًا يدل على معنى ، ولهذا لم يجعل الله أحدًا مصدقًا للرسل بمجرد العلم والتصديق الذى فى قلوبهم حتى يصدقوهم بألسنتهم ؛ ولا يوجد فى كلام العرب أن يقال فلان صدق فلانًا أو كذبه إذا كان يعلم بقلبه أنه صادق أو كاذب ولم يتكلم بذلك ، كما لا يقال أمره أو نهاه إذا قام بقلبه طلب مجرد عما يقترن به من لفظ أو إشارة أو نحوهما ، ولما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شىء من كلام الناس »[1] وقال : « إن الله يحدث من أمره ما شاء وإن مما أحدث ألا تكلموا فى الصلاة »[2] اتفق العلماء على أنه إذا تكلم فى الصلاة عامدًا لغير

---

(١) (أخرجه مسلم (جـ١ - مساجد / ٣٣) ، وأبو داود (جـ١ / ٩٣٠) ، والنسائى (جـ٣ ص١٧) .

(٢) (أخرجه البخارى كما فى الفتح معلقًا (التوحيد / جـ١٣ ص٤٩٦) وأبو داود (جـ١ / ٩٢٤) ، والنسائى (جـ٣ ص١٩) .

مصلحتها بطلت صلاته ، واتفقوا كلهم على أن ما يقوم بالقلب من تصديق بأمور دنيوية وطلب لا يبطل الصلاة ، وإنما يبطلها التكلم بذلك ، فعلم اتفاق المسلمين على أن هذا ليس بكلام .

وأيضًا ففى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به »[1] ، فقد أخبر أن الله عفا عن حديث النفس إلى أن تتكلم ، ففرق بين حديث النفس وبين الكلام ، وأخبر أنه لا يؤخذ به حتى يتكلم به ؛ والمراد حتى ينطق اللسان باتفاق العلماء ، فعلم أن هذا هو الكلام فى اللغة لأن الشارع كما قرر إنما خاطبنا بلغة العرب . وأيضًا ففى السنن أن معاذًا قال له : يا رسول الله وإنا لمأخوذون بما نتكلم به ؟ فقال : « وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم »[2] ، فبين أن الكلام إنما هو ما يكون باللسان . وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد :

* ألا كل شيء ما خلا الله باطل *[3]

وفى الصحيحين عنه أنه قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »[4] وقد قال الله تعالى : ﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِم إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾

---

(١) (صحيح أخرجه أحمد والستة . انظر البخارى (جـ٥ / ٢٥٢٨ – فتح البارى) ، ومسلم (جـ١ – إيمان / ٢٠١ ، ٢٠٢) ، وأبو داود (جـ٢ / ٢٢٠٩) ، والترمذى (جـ٣ / ١١٨٣) ، والنسائى (جـ٦ ص١٥٦) ، وابن ماجه (جـ١ / ٢٠٤٠) ، وأحمد (جـ٢ ص٤٢٥) ، عن أبى هريرة .

(٢) (الترمذى (جـ٥ / ٢٦١٦) ، وأحمد (جـ٥ ص٢٣١) من حديث معاذ بن جبل .

(٣) (سبق تخريجه انظر الهامش برقم (١) ص ٨٤ .

(٤) (أخرجه البخارى (جـ١٣ / ٧٥٦٣) ، ومسلم (جـ٤ – ذكر / ٣١) ، والترمذى (جـ٥ / ٣٤٦٧) ، وابن ماجه (جـ٢ / ٣٨٠٦) عن أبى هريرة .

[سورة الكهف ، الآيات : ٤ ، ٥] وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن : سبحان الله والحمد لله ولا إلـه إلا الله والله أكبر »(١) رواه مسلم ، وقال تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُه ﴾ [سورة فاطر ، الآية : ١٠] ومثل هذا كثير .

وفى الجملة حيث ذكر الله فى كتابه عن أحد من الخلق من الأنبياء أو أتباعهم أو مكذبيهم أنهم قالوا ، ويقولون ، وذلك قولهم ، وأمثال ذلك فإنما يعنى به المعنى مع اللفظ وما تصرف منه من فعل ماض ومضارع وأمر ومصدر واسم فاعل من لفظ القول والكلام ونحوهما ، إنما يعرف فى القرآن والسنة وسائر كلام العرب إذا كان لفظ ومعنى ، وكذلك أنواعه كالتصديق والتكذيب والأمر والنهى وغير ذلك ، وهذا مما لا يمكن أحدًا جحده فإنه أكثر من أن يحصى ، ولم يكن فى مسمى الكلام نزاع بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وتابعيهم لا من أهل السنة ولا من أهل البدعة ، بل أول من عرف فى الإسلام أنه جعل مسمى الكلام المعنى فقط هو عبد الله بن سعيد بن كلاب ، وهو متأخر فى زمن محنة أحمد بن حنبل ، وقد أنكر ذلك عليه علماء السنة وعلماء البدعة ، فيمتنع أن يكون الكلام الذى هو أظهر صفات بنى آدم كما قال تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُم تَنْطِقُونَ ﴾ [سورة الذاريات ، الآية : ٢٣] ولفظه لا تحصى وجوهه كثرة لم يعرفه أحد من الصحابة والتابعين ، وتابعيهم حتى جاء من قال فيه قولا لم يسبقه إليه أحد من المسلمين ولا غيرهم .

فإن قالوا فقد قال الله تعالى : : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِم ﴾ [سورة المجادلة ، الآية : ٨] وقال : : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٢٠٥] ونحو ذلك ، قيل إن كان المراد أنهم قالوه

---

(١) (أخرجه البخارى تعليقًا (حـ١١ – كتاب الإيمان – باب / ١٩) ، ومسلم (جـ٣ – آداب / ١٢) ، وأحمد (جـ٥ ص١١) عن سمرة بن جندب .

بألسنتهم سرًّا فلا حجة فيه ، وهذا هو الذى ذكره المفسرون . قالوا كانوا يقولون : سام عليك فإذا خرجوا يقولون فى أنفسهم ، أى يقول بعضهم لبعض : لو كان نبيًّا عذبنا بقولنا له ما نقول ، وإن قدر أنه أريد بذلك أنهم قالوه فى قلوبهم ، فهذا قول مقيد بالنفس مثل قوله : ﴿ عما حدثت به أنفسها ﴾ ولهذا قالوا : لولا يؤاخذنا الله بما نقول فأطلقوا لفظ القول هنا ، والمراد به ما قالوه بألسنتهم لأنه النجوى والتحية كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ [سورة المجادلة ، الآية : ٨] مع أن الأول هو الذى عليه المفسرون وعليه تدل نظائره فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه »(١) ليس المراد أنه لا يتكلم به بلسانه بل المراد أنه ذكر الله بلسانه .

وكذلك قوله : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الجَهْرِ مِنَ القَوْلِ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٢٠٥] هو الذكر باللسان والذى يقيد بالنفس لفظ الحديث يقال حديث النفس ، ولم يوجد عنهم أنهم قالوا كلام النفس وقول النفس ، كما قالوا حديث النفس ؛ ولهذا يعبر بلفظ الحديث عن الأحلام التى ترى فى المنام كقول يعقوب عليه السلام : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تأويل الأحاديث ﴾ [سورة يوسف ، الآية : ٦] وقول يوسف : ﴿ وعَلَّمْتَنِي مِنْ تأويل الأحاديث ﴾ [سورة يوسف ، الآية : ١٠١] وتلك فى النفس لا تكون باللسان . فلفظ الحديث قد يقيد بما فى النفس بخلاف لفظ الكلام ؛ فإنه لم يعرف أنه أريد به ما فى النفس فقط .

وأما قوله : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

---

(١) (أخرجه البخارى (جـ١٣ / ٧٤٠٥) ، والترمذى (جـ٥ / ٣٦٠٣) ، وأحمد (جـ٢ ص٢٥١) .

[سورة الملك ، الآية : ١٣]

فالمراد به القول الذى تارة يسر به فلا يسمعه الإنسان وتارة يجهر به فيسمعونه كما يقال أسرَّ القراءة وجهر بها ، وصلاة السرّ وصلاة الجهر ، ولهذا لم يقل قولوه بألسنتكم أو بقلوبكم ، وما فى النفس لا يتصور الجهر به ، وإنما يجهر بما فى اللسان ، وقوله : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ من باب التنبيه يقول إنه يعلم ما فى الصدور ، فكيف لا يعلم القول ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [سورة طه ، الآية : ٧] فنبَّه بذلك على أنه يعلم الجهر ، ويدل على ذلك أنه قال : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [سورة الملك ، الآية : ١٣] فلو أراد بالقول ما فى النفس لكونه ذكر علمه بذات الصدور لم يكن قد ذكر علمه بالنوع الآخر وهو الجهر ، وإن قيل نبه ، قيل بل نبه على القسمين وقوله تعالى : ﴿ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٤١] قد ذكرها فى قوله : ﴿ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ [سورة مريم ، الآية : ١٠] وهناك لم يستثن شيئًا والقصة واحدة ، وهذا يدل على أن الاستثناء منقطع ، والمعنى آيتك ألا تكلم الناس لكن ترمز لهم رمزًا كنظائره فى القرآن قوله : ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِم ﴾ [سورة مريم ، الآية : ١١] هو الرمز ولو قدر أن الرمز استثناء متصل لكان قد دخل فى الكلام المقيد بالاستثناء كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَّرَاءِ حِجَابٍ اوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشاء ﴾ [سورة الشورى ، الآية : ٥١]

ولا يلزم من ذلك أن يدخل فى لفظ الكلام المطلق ؛ فليس فى لغة القوم أصلا ما يدل على أن ما فى النفس يتناوله لفظ الكلام والقول المطلق ؛ فضلا عن أن التصديق والتكذيب ، فعلم أن من لم يصدق بلسانه مع القدرة لا يسمى فى لغة القوم مؤمنًا ، كما اتفق على ذلك سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وقول عمر رضى الله عنه : زورت فى نفسى مقالة أردت أن أقولها . حجة عليهم . قال أبو عبيد : التزوير إصلاح الكلام وتهيئته ، قال وقال أبو زيد : المزور

من الكلام والمزوق واحد ، وهو المصلح الحسن ، وقال غيره : زورت فى نفسى مقالة أى هيأتها لأقولها . فلفظه يدل على أنه قدر فى نفسه ما يريد أن يقوله ولم يقله . فعلم أنه لا يكون قولا إلا إذا قيل باللسان ، وقبل ذلك لم يكن قولا لكن كان مقدرًا فى النفس يراد أن يقال كما يقدر الإنسان فى نفسه أنه يحج ، وأنه يصلى ، وأنه يسافر إلى غير ذلك ، فيكون لما يريده من القول والعمل صورة ذهنية مقدرة فى النفس ، ولكن لا يسمى قولا وعملا إلا إذا وجدت فى الخارج ، كما أنه لا يكون حاجًّا ومصليًا إلا إذا وجدت هذه الأفعال فى الخارج ، ولهذا كان ما يهم به المرء من الأقوال المحرمة والأفعال المحرمة لا تكتب عليه حتى يقوله ويفعله ، وما هم به من القول الحسن والعمل الحسن ، إنما يكتب له به حسنة واحدة فإذا صار قولا وفعلا كتب له به عشر حسنات إلى سبعمائة ، وعوقب عليه كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل »[1] وأما البيت الذى يحكى عن الأخطل أنه قال :

إن الكلامَ لفى الفؤادِ وإنما ... جعل اللسانُ على الفؤادِ دليلا

فمن الناس من أنكر أن يكون هذا من شعره وقالوا : إنهم فتشوا دواوينه فلم يجدوه ، وهذا يروى عن محمد بن الخشاب ، وقال بعضهم لفظه : إن البيان لفى الفؤاد ، ولو احتج محتج فى مسألة بحديث أخرجاه فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم لقالوا هذا خبر واحد ، ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول ، وهذا البيت لم يثبت نقله عن قائله بإسناد لا واحد ولا أكثر من واحد ، ولا تلقاه أهل العربية بالقبول فكيف يثبت به أدنى شيء من اللغة فضلا عن مسمى الكلام ، ثم يقال : مسمى الكلام والقول ونحوهما ليس هو مما يحتاج فيه إلى قول شاعر ، فإن هذا مما تكلم به الأولون والآخرون من أهل اللغة ، وعرفوا معناه فى لغتهم ، كما عرفوا مسمى الرأس واليد والرجل ، وأيضًا

---

(١) (سبق تخريجه هامش رقم (١) ص ١٠٨ .

فالناطقون باللغة يحتج باستعمالهم للألفاظ فى معانيها ، لأن ما يذكرونه من الحدود فإن أهل اللغة الناطقين لا يقول أحد منهم إن الرأس كذا ، واليد كذا ، والكلام كذا ، واللون كذا ، بل ينطقون بهذه الألفاظ دالة على معانيها فتعرف لغتهم من استعمالهم ، فعلم أن الأخطل لم يرد بهذا أن يذكر مسمى الكلام ، ولا أحد من الشعراء يقصد ذلك البتة ، وإنما أراد إن كان قال ذلك ما فسره به المفسرون للشعر ، أى أصل الكلام من الفؤاد وهو المعنى ، فإذا قال الإنسان بلسانه ما ليس فى قلبه فلا يثق به ، وهذا كالأقوال التى ذكرها الله عن المنافقين ، ذكر أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ؛ ولهذا قال :

لا يعجبنَّك من أثير خطبةً   حتى يكونَ مع الكلام أصيلا
إن الكلامَ لفى الفؤادِ وإنما   جُعِلَ اللسانُ على الفؤاد دليلا

نهاه أن يعجب قول الظاهر حتى يعلم ما فى قلبه من الأصل ، ولهذا قال : حتى يكون مع الكلام أصيلا . وقوله : مع الكلام ، دليل على أن اللفظ الظاهر قد سماه كلامًا ، وإن لم يعلم قيام معناه بقلب صاحبه ، وهذا حجة عليهم فقد اشتمل شعره على هذا وهذا ، بل قوله : مع الكلام ، مطلق ، وقوله : إن الكلام لفى الفؤاد ، أراد به أصله ومعناه المقصود به ، واللسان دليل على ذلك .

وبالجملة فمن احتاج إلى أن يعرف مسمى الكلام فى لغة العرب والفرس والروم والترك وسائر أجناس بنى آدم بقول شاعر ، فإنه من أبعد الناس عن معرفة طرق العلم ، ثم هو من المولدين ، وليس من الشعراء القدماء ، وهو نصرانى كافر مثلث ، واسمه الأخطل ، والخطل فساد فى الكلام ، وهو نصرانى والنصارى قد أخطئوا فى مسمى الكلام ، فجعلوا المسيح القائم بنفسه هو نفس كلمة الله .

فتبين أنه إن كان الإيمان فى اللغة هو التصديق ، والقرآن إن أراد به مجرد التصديق الذى هو قول و لم يسم العمل تصديقًا فليس الصواب إلا قول المرجئة إنه اللفظ والمعنى ، أو قول الكرامية إنه قول باللسان فقط ، فإن تسمية قول اللسان قولًا أشهر فى اللغة من تسمية معنى فى القلب قولًا ، كقوله تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [سورة الفتح ، الآية : ١١] وقوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٨] وأمثال ذلك بخلاف ما فى النفس ، فإنه إنما يسمى حديثًا ، والكرامية يقولون : المنافق مؤمن . وهو مخلَّد فى النار ، لأنه آمن ظاهرًا لا باطنًا ، وإنما يدخل الجنَّة من آمن ظاهرًا وباطنًا ، قالوا والدليل على شمول الإيمان له أنه يدخل فى الأحكام الدينية المتعلقة باسم الإيمان كقوله تعالى : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٩٢] ويخاطب فى الظاهر بالجمعة والطهارة وغير ذلك مما خوطب به الذين آمنوا .

وأما من صدَّق بقلبه و لم يتكلم بلسانه فإنه لا يعلق به شيء من أحكام الإيمان لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولا يدخل فى خطاب الله لعباده بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٠٤] فعلم أن قول الكرامية فى الإيمان وإن كان باطلا مبتدعًا لم يسبقهم إليه أحد ، فقول الجهمية أبطل منه ، وأولئك أقرب إلى الاستدلال باللغة والقرآن والعقل من الجهمية .

والكرامية توافق المرجئة والجهمية فى أن إيمان الناس كلهم سواء ، ولا يستثنون فى الإيمان ؛ بل يقولون هو مؤمن حقًّا لمن أظهر الإيمان ، وإذا كان منافقًا فهو مخلد فى النار عندهم ، فإنه إنما يدخل الجنة من آمن باطنًا وظاهرًا ، ومن حكى عنهم أنهم يقولون المنافق يدخل الجنة فقد كذب عليهم ، بل يقولون المنافق مؤمن لأن الإيمان هو القول الظاهر ، كما يسميه غيرهم مسلمًا إذ الإسلام الاستسلام الظاهر ، ولا ريب أن قول الجهمية أفسد من قولهم من وجوه متعددة شرعًا ولغة وعقلًا . وإذا قيل : قول الكرامية قول خارج عن إجماع المسلمين قيل وقول جهم فى الإيمان قول خارج عن إجماع المسلمين قبله ، بل السلف كفروا من يقول بقول جهم فى الإيمان .

وقد احتج الناس على فساد قول الكرامية بحجج صحيحة ، والحجج من جنسها على فساد قول الجهمية أكثر مثل قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ

آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَومِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٨] قالوا فقد نفى الله الإيمان عن المنافقين .

فنقول : هذا حق فإن المنافق ليس بمؤمن ، وقد ضلَّ من سماه مؤمنًا وكذلك من قام بقلبه علم وتصديق وهو يجحد الرسول ويعاديه كاليهود وغيرهم سمَّاهم الله كفَّارًا لم يسمهم مؤمنين قط ، ولا دخلوا فى شىء من أحكام الإيمان ، بخلاف المنافق فإنه يدخل فى أحكام الإيمان الظاهرة فى الدنيا ، بل قد نفى الله الإيمان عمن قال بلسانه وقلبه إذا لم يعمل كما قال تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ولَـٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٤] إلى قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُولَـٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٥] فنفى الإيمان عمن سوى هؤلاء وقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ومَا أُولَـٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة النور ، الآية : ٤٧] والتولى هو التولى عن الطاعة كما قال تعالى : ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَومٍ أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُم أَو يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُم اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [سورة الفتح ، الآية : ١٦] وقال تعالى : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى * ولَـٰكِن كَذَّبَ وتَوَلَّى ﴾ [سورة القيامة ، الآيتان : ٣١ ، ٣٢] فعلم أن التولى ليس هو التكذيب ، بل هو التولى عن الطاعة ، فإن الناس عليهم أن يصدقوا الرسول فيما أخبر ، ويطيعوه فيما أمر ، وضد التصديق التكذيب ، وضد الطاعة التولى ، فلهذا قال : ﴿ فَلَا صَدَّقَ ولَا صَلَّى * ولَـٰكِنْ كَذَّبَ وتَوَلَّى ﴾ [سورة القيامة ، الآيتان : ٣١ ، ٣٢] وقد قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُم مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ومَا أُولَـٰئِكَ بِالْمُؤْمِنينَ ﴾ [سورة النور ، الآية : ٤٧] فنفى الإيمان عمن تولَّى عن العمل وإن كان قد أتى بالقول ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ ورَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ

يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوه ﴾ [سورة النور ، الآية : ٦٢] وقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٢] .

ففى القرآن والسنة من نفى الإيمان عمن لم يأت بالعمل مواضع كثيرة كما نفى فيها الإيمان عن المنافق ، وأما العالم بقلبه مع المعاداة والمخالفة الظاهرة فهذا لم يسم قط مؤمنًا ، وعند الجهمية إذا كان العلم فى قلبه فهو مؤمن كامل الإيمان ، إيمانه كإيمان النبيين ، ولو قال وعمل ماذا عسى أن يقول ويعمل ، ولا يتصور عندهم أن ينتفى عنده الإيمان إلا إذا زال ذلك العلم من قلبه .

ثم أكثر المتأخرين الذين نصروا قول جهم يقولون بالاستثناء من الإيمان ويقولون الإيمان فى الشرع هو ما يوافى به العبد ربه ، وإن كان فى اللغة أعم من ذلك فجعلوا فى مسألة الاستثناء مسمى الإيمان ما ادعوا أنه مسماه فى الشرع ، وعدلوا عن اللغة فهلا فعلوا هذا فى الأعمال . ودلالة الشرع على أن الأعمال الواجبة من تمام الإيمان لا تحصى كثرة ، بخلاف دلالته على أنه لا يسمى إيمانًا إلا ما مات الرجل عليه ، فإنه ليس فى الشرع ما يدل على هذا وهو قول محدث لم يقله أحد من السلف ، لكن هؤلاء ظنوا أن الذين استثنوا فى الإيمان من السلف كان هذا مأخذهم ، لأن هؤلاء وأمثالهم لم يكونوا خبيرين بكلام السلف ، بل ينصرون ما يظهر من أقوالهم بما تلقوه عن المتكلمين من الجهمية ونحوهم من أهل البدع فيبقى الظاهر قول السلف والباطن قول الجهمية الذين هم أفسد الناس مقالة فى الإيمان ، وسنذكر إن شاء الله أقوال السلف فى الاستثناء ولهذا لما صار يظهر لبعض أتباع أبى الحسن فساد قول جهم فى الإيمان خالفه كثير منهم فمنهم من اتبع السلف .

قال أبو القاسم الأنصارى شيخ الشهرستانى فى شرح الإرشاد لأبى المعالى بعد أن ذكر قول أصحابه قال : وذهب أهل الأثر إلى أن الإيمان جميع الطاعات فرضها ونفلها ، وعبروا عنه بأنه إتيان ما أمر الله به فرضًا ونفلًا ، والانتهاء عما نهى

عنه تحريمًا وأدبًا ، وقال : وبهذا كان يقول أبو على الثقفى من متقدمى أصحابنا وأبو العباس القلانسى ، وقد مال إلى هذا المذهب أبو عبد الله بن مجاهد قال : وهذا قول مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، ومعظم أئمة السلف رضوان الله عليهم أجمعين ، وكانوا يقولون : الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان . ومنهم من يقول بقول المرجئة إنه التصديق بالقلب واللسان ، ومنهم من قال : إذا ترك التصديق باللسان عنادًا كان كافرًا بالشرع وإن كان فى قلبه التصديق والعلم ، وكذلك قال أبو إسحاق الإسفرائينى ، قال الأنصارى : رأيت فى تصانيفه أن المؤمن إنما يكون مؤمنًا حقًّا إذا حقق إيمانه بالأعمال الصالحة ، كما أن العالم إنما يكون عالمًا حقًّا إذا عمل بما علم ، واستشهد بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُم وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٢] إلى قوله : ﴿ أُولَـٰئِكَ هُم الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٤] .

وقال أيضًا أبو إسحاق : حقيقة الإيمان فى اللغة التصديق ، ولا يتحقق ذلك إلا بالمعرفة والائتمار ، وتقوم الإشارة والانقياد مقام العبارة .

وقال أيضًا أبو إسحاق فى كتاب الأسماء والصفات : اتفقوا على أن ما يستحق به المكلف اسم الإيمان فى الشريعة أوصاف كثيرة وعقائد مختلفة ، وإن اختلفوا فيها على تفصيل ذكروه واختلفوا فى إضافة ما لا يدخل فى جملة التصديق إليها لصحة الاسم ، فمنها ترك قتل الرسول ، وترك إيذائه ، وترك تعظيم الأصنام فهذا من المتروك ، ومن الأفعال نصرة الرسول والذب عنه وقالوا : إن جميعه يضاف إلى التصديق شرعًا ، وقال آخرون : إنه من الكبائر لا يخرج المرء بالمخالفة فيه عن الإيمان .

قلت : وهذان القولان ليسا قول جهم ، لكن من قال ذلك فقد اعترف بأنه ليس مجرد تصديق القلب ، وليس هو شيئًا واحدًا ، وقال إن الشرع تصرف فيه ، وهذا أهم أصلهم . ولهذا كان حذاق هؤلاء كجهم والصالحى وأبى الحسن

والقاضى أبى بكر على أنه لا يزول عنه اسم الإيمان إلا بزوال العلم من قلبه .

قال أبو المعالى : باب فى ذكر الأسماء والأحكام : اعلم أن غرضنا فى هذا الباب يستدعى تقديم ذكر حقيقة الإيمان قال : وهذا مما تباينت فيه مذاهب الإسلاميين ، ثم ذكر قول الخوارج والمعتزلة والكرامية ، ثم قال : وأما مذاهب أصحابنا فصار التحقيق من أصحاب الحديث والنظار منهم إلى أن الإيمان هو التصديق ، وبه قال شيخنا أبو الحسن رحمة الله عليه ، واختلف رأيه فى معنى التصديق ، فقال مرة : هو المعرفة بوجوده وقدمه وإلٰهيته ، وقال مرة : التصديق قول فى النفس غير أنه يتضمن المعرفة ، ولا يصح أن يوجد دونها ، وهذا مقتضاه فإن التصديق والتكذيب والصدق والكذب بالأقوال أجدر ، فالتصديق إذًا قول فى النفس يعبر عنه باللسان فتوصف العبادة بأنها تصديق ، لأنها عبارة عن التصديق ، قال : وقال بعض أصحابنا التصديق لا يتحقق إلا بالقول والصدق جميعًا ، فإذا اجتمعا كانا تصديقًا واحدًا ، ومنهم من اكتفى بترك العناد ؛ فلم يجعل الإقرار أحد ركنى الإيمان ، فيقول الإيمان هو التصديق بالقلب ، وأوجب ترك العناد بالشرع ، وعلى هذا الأصل يجوز أن يعرف الكافر الله ، وإنما يكفر بالعناد ، لأنه ترك ما هو الأهم فى الإيمان ، وعلى هذا الأصل يقال إن اليهود كانوا عالمين بالله ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم إلا أنهم كفروا عنادًا وبغيًا وحسدًا ، وعلى قول شيخنا أبى الحسن : كل من حكمنا بكفره فنقول إنه لا يعرف الله أصلًا ولا عرف رسوله ولا دينه .

قال أبو القاسم الأنصارى تلميذه : كأن المعنى لا حكم لإيمانه ولا لمعرفته شرعًا .

قلت : وليس الأمر على هذا القول كما قاله الأنصارى ، هذا ولكن على قولهم المعاند كافر شرعًا ، فيجعل الكفر تارة بانتفاء الإيمان الذى فى القلب ، وتارة بالعناد ، ويجعل هذا كافرًا فى الشرع وإن كان معه حقيقة الإيمان الذى هو التصديق ، ويلزمه أن يكون كافرًا فى الشرع مع أن معه الإيمان الذى هو مثل

إيمان الأنبياء والملائكة .

والحذاق فى هذا المذهب كأبى الحسن والقاضى ، ومن قبلهم من أتباع جهم عرفوا أن هذا تناقض يفسد الأصل فقالوا : لا يكون واحد كافرًا إلا إذا ذهب ما فى قلبه من التصديق ، والتزموا أن كل من حكم الشرع بكفره فإنه ليس فى قلبه شيء من معرفة الله ولا معرفة رسوله ، ولهذا أنكر هذا عليهم جماهير العقلاء وقالوا هذا مكابرة وسفسطة .

وقد احتجوا على قولهم بقوله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَه ﴾ إلى قوله : ﴿ أُولَـٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِم الإِيمانَ ﴾ [سورة المجادلة ، الآية : ٢٢] . قالوا ومفهوم هذا إن لم يعمل بمقتضاه لم يكتب فى قلوبهم الإيمان .

قالوا : فإن قيل معناه لا يؤمنون إيمانًا مجزئًا معتدًّا به ، أو يكون المعنى لا يؤدون حقوق الإيمان ولا يعملون بمقتضاه ! قلنا هذا عام لا يخصص إلا بدليل .

فيقال لهم : هذه الآية فيها نفى الإيمان عمن يواد المحادين لله ورسوله ، وفيه أن من لا يود المحادين لله ورسوله فإن الله كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، وهذا يدل على مذهب السلف أنه لابد فى الإيمان من محبة القلب لله ورسوله ، ومن بغض من يحاد الله ورسوله ، ثم لم تدل الآية على أن العلم الذى فى قلوبهم بأن محمدًا رسول الله يرتفع لا يبقى منه شيء . والإيمان الذى كتب ليس هو مجرد العلم والتصديق ، بل هو تصديق القلب وعمل القلب ؛ ولهذا قال : ﴿ وأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ويُدْخِلُهُم جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ أُولَـٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُم الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة المجادلة ، الآية : ٢٢] فقد وعدهم بالجنة وقد اتفق الجميع على أن الوعد بالجنة لا يكون إلا مع الإتيان بالمأمور به وترك المحظور . فعلم أن هؤلاء الذين كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، قد أدوا الواجبات التى بها يستحقون ما وعد الله به الأبرار المتقين ، ودل هذا على أن الفساق لم

يدخلوا فى هذا الوعد ، ودلت هذه الآية على أنه لا يوجد مؤمن يواد الكفار ، ومعلوم أن خلقًا كثيرًا من الناس يعرف من نفسه أن التصديق فى قلبه لم يكذب الرسول ، وهو مع هذا يواد بعض الكفار ، فالسلف يقولون : ترك الواجبات الظاهرة دليل على انتفاء الإيمان الواجب من القلب ، لكن قد يكون ذلك بزوال عمل القلب الذى هو حب الله ورسوله ، وخشية الله ونحو ذلك لا يستلزم ألا يكون فى القلب من التصديق شىء ، وعند هؤلاء كل من نفى الشرع إيمانه دل على أنه ليس فى قلبه شىء من التصديق أصلًا ، وهذا سفسطة عند جماهير العقلاء .

وكذلك حكى ابن فورك عن أبى الحسن قال : الإيمان هو اعتقاد صدق المخبر فيما يخبر به اعتقادًا ، فهو علم ومنه ليس بعلم ، والإيمان بالله وهو اعتقاد صدقه ، إنما يصح إذا كان عالمًا بصدقه فى أخباره ، وإنما يكون كذلك إذا كان عالمًا بأنه يتكلم ، والعلم بأنه متكلم بعد العلم بأنه حى والعلم بأنه حى بعد العلم بأنه فاعل والعلم بأنه فاعل بعد العلم بالفعل وهو كون العالم فعلًا له ، قال : وكذلك يتضمن العلم بكونه قادرًا ، وله قدرة وعالمًا وله علم ومريدًا وله إرادة ، وسائر ما لا يصح العلم بالله إلا بعد العلم به من شرائط الإيمان .

قلت : هذا مما اختلف فيه قول الأشعرى ، وهو أن الجهل ببعض الصفات هل يكون جهلًا بالموصوف أم لا ؟ على قولين ، والصحيح الذى عليه الجمهور وهو آخر قوليه أنه لا يستلزم الجهل بالموصوف ، وجعل إثبات الصفات من الإيمان مما خالف فيه الأشعرى جهمًا ، فإن جهمًا غالى فى نفى الصفات ، بل فى نفى الأسماء . قال أبو الحسن : السمع ورد بضم شرائط أخرى إليه ، وهو ألا يقترن به ما يدل على كفر من يأتيه فعلًا وتركًا ، وهو أن الشرع أمره بترك العبادة والسجود للصنم ، فلو أتى بما دل على كفره ، وكذلك من قتل نبيًّا أو استخف به دل على كفره ، وكذلك لو ترك تعظيم المصحف والكعبة دل على كفره ، قال وحد ما استدللنا به على كفره ما منع الشرع أن يقرنه بالإيمان أو أوجب ضمه إلى الإيمان لو وجد دلنا ذلك على أن التصديق الذى هو الإيمان مفقود من قلبه ، وكذلك كل ما كفر به المخالف من طريق التأويل ، فإنما كفرناه به لدلالته

على ما فقد ما هو إيمان من قلبه ، لاستحالة أن يقضى السمع بكفر من معه الإيمان والتصديق بقلبه .

فيقال لا ريب أن الشارع لا يقضى بكفر من معه الإيمان بقلبه ، لكن دعواكم أن الإيمان هو التصديق ، وإن تجرد عن جميع أعمال القلب غلط ، ولهذا قالوا أعمال التصديق والمعرفة من قلبه ، ألا ترى أن الشريعة حكمت بكفره ، والشريعة لا تحكم بكفر المؤمن المصدق ، ولهذا نقول إن كفر إبليس لعنه الله كان أشد من كفر كل كافر . وأنه لم يعرف الله بصفاته قطعًا ، ولا آمن به إيمانًا حقيقيًّا باطنًا ، وإن وجد منه القول والعبادة وكذلك اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من الكفرة لم يوجد فى قلوبهم حقيقة الإيمان المعتد به فى حال حكمنا لهم بالكفر ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَو كَانُوا يُؤْمِنُونَ باللَّهِ والنَّبِىِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوليِاءَ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٨١] وقوله : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُم ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٦٥] ، فجعل الله هذه الأمور شرطًا فى ثبوت حكم الإيمان ، فثبت أن الإيمان المعرفة بشرائط لا يكون معتدًّا به دونها .

فيقال : إن قلتم إنه ضم إلى معرفة القلب شروطًا فى ثبوت الحكم أو الاسم لم يكن هذا قول جهم ، بل يكون هذا قول من جعل الإيمان كالصلاة والحج هو وإن كان فى اللغة بمعنى القصد والدعاء ، لكن الشارع ضم إليه أمورًا إما فى الحكم وإما فى الحكم والاسم ، وهذا القول قد سلم صاحبه أن حكم الإيمان المذكور فى الكتاب والسنة لا يثبت بمجرد تصديق القلب ، بل لابد من تلك الشرائط ، وعلى هذا لا يمكنه جعل الفاسق مؤمنًا إلا بدليل يدل على ذلك لا بمجرد قول إن معه تصديق القلب .

ومن جعل الإيمان هو تصديق القلب يقول كل كافر فى النار ليس له معه من التصديق بالله شىء لا مع إبليس ولا مع غيره وقد قال الله تعالى : ﴿ وإِذْ يَتَحَاجُّونَ فى النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إنَّا كُنَّا لَكُم تَبَعًا فَهَلْ

أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العِبَادِ ﴾ [سورة غافر ، الآيتان : ٤٨ - ٤٩] وقال تعالى : ﴿ وسِيقَ الَّذِينَ كَفَروا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُم خزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُم يَتْلُونَ عَلَيكُم آيَاتِ رَبِّكُم وَيُنْذِرُونَكُم لِقَاءَ يَومِكُم هٰذا قالُوا بَلَى ولٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ العَذَابِ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ [سورة الزمر ، الآية : ٧١] فقد اعترفوا بأن الرسل أتتهم وتلت عليهم آيات ربهم وأنذرتهم لقاء يومهم هذا ، فقد عرفوا الله ورسوله واليوم الآخر وهم فى الآخرة كفار ، وقال تعالى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيءٍ ﴾ [سورة الملك ، الآية : ٨ ، ٩] فقد كذبوا بوجوده وكذبوا بتنزيله ، وأما فى الآخرة فعرفوا الجميع وقال تعالى : ﴿ ولَو تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهم قالَ أَلَيْسَ هٰذا بالحَقِّ قالُوا بَلى ورَبِّنا قالَ فذُوقُوا العَذَابَ بما كُنْتُم تكْفُرُونَ ﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ٣٠] وقال تعالى : ﴿ وجاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بالحَقِّ ذٰلكَ ما كُنْتَ مِنْه تَحيدُ ﴾ إلى قوله : ﴿ لقدْ كُنْتَ فى غَفْلةٍ مِنْ هـٰذا فكَشَفْنا عَنْك غِطاءَكَ فَبصُرُكَ اليَوْمَ حَديدٌ ﴾ [سورة ق ، الآية : ١٩] إلى آيات أخر كثيرة تدل على أن الكفار فى الآخرة يعرفون ربهم ؛ فإن كان مجرد المعرفة إيمانًا كانوا مؤمنين فى الآخرة .

فإن قالوا الإيمان فى الآخرة لا ينفع ، وإنما الثواب على الإيمان فى الدنيا . قيل هذا صحيح لكن إذا لم يكن الإيمان إلا مجرد العلم ؛ فهذه الحقيقة لا تختلف ، فإن لم يكن العمل من الإيمان فالعارف فى الآخرة لم يفته شيء من الإيمان .

لكن أكثر ما يدعونه أنه حين مات لم يكن فى قلبه من التصديق بالرب شيء ، ونصوص القرآن فى غير موضع تدل على أن الكفار كانوا فى الدنيا مصدقين بالرب حتى فرعون الذى أظهر التكذيب كان فى باطنه مصدقًا قال تعالى : ﴿ وجَحَدوا بِها واستَيقَنَتْها أَنْفُسهم ظُلْمًا وعُلُوًّا ﴾ [سورة النمل ، الآية : ١٤] وكما قال موسى لفرعون : ﴿ لَقَد عَلمْت ما أَنْزَل هٰؤلاء إِلَّا رَبُّ السَّمٰواتِ والأَرْضِ

بَصائِر ﴾ [سورة الإسراء ، الآية : ١٠٢] ومع هذا لم يكن مؤمنًا بل قال موسى : ﴿ ربَّنا اطْمِس عَلَى أمْوالِهم واشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهم فلا يُؤْمِنُوا حتَّى يَرَوُا العَذابَ الأَلِيمَ ﴾ [سورة يونس ، الآية : ٨٨] قال الله : ﴿ قَدْ أُجيبتْ دَعْوتكُما ﴾ [سورة يونس ، الآية : ٨٩] ولما قال فرعون : ﴿ آمنتُ أنَّهُ لا إلٰه إلَّا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إسْرائِيلَ ﴾ [سورة يونس ، الآية : ٩٠] قال الله : ﴿ الآنَ وقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وكُنْت من المُفْسِدِينَ ﴾ [سورة يونس ، الآية : ٩١] فوصفه بالمعصية لم يصفه بعدم العلم فى الباطن كما قال : ﴿ فَعَصَى فِرْعَونُ الرَّسُولَ ﴾ [سورة المزمل ، الآية : ١٦] وكما قال عن إبليس : ﴿ فَسَجَد المَلائِكَةُ كلُّهُم أَجْمَعُونَ * إلَّا إبْلِيسَ أَبى أَنْ يَّكُونَ مَعَ الساجِدِيْنَ ﴾ [سورة الحجر ، الآية : ٣٠ ، ٣١] فلم يصفه إلا بالإباء والاستكبار ومعارضته الأمر ، لم يصفه بعدم العلم ، وقد أخبر الله عن الكفار أنهم كانوا معترفين بالصانع فى مثل قوله : ﴿ وَلَئِن سأَلْتهُم مَنْ خَلَقَ السَمٰواتِ والأَرضَ ليَقُولنّ اللَّهُ ﴾ [سورة لقمان ، الآية : ٢٥] .

ثم يقال : إذا قلتم هو التصديق بالقلب أو باللسان أو بهما فهل هو التصديق المجمل ، أو لابد فيه من التفصيل ؛ فلو صدق أن محمدًا رسول الله ولم يعرف صفات الحق هل يكون مؤمنًا أولا ؟ فإن جعلوه مؤمنًا قيل فإذا بلغه ذلك فكذب به لم يكن مؤمنًا باتفاق المسلمين ، فصار بعض الإيمان أكمل من بعض ، وإن قالوا لا يكون مؤمنًا لزمهم ألا يكون أحد مؤمنًا حتى يعرف تفصيل كل ما أخبر به الرسول ؛ ومعلوم أن أكثر الأمة لا يعرفون ذلك ؛ وعندهم الإيمان لا يتفاضل إلا بالدوام فقط .

قال أبو المعالى : فإن قال القائل أصلكم يلزمكم أن يكون إيمان المتهتك فى فسقه كإيمان النبى صلى الله عليه وسلم . قلنا الذى يفضل إيمانه على إيمان من عداه باستمرار تصديقه وعصمة الله إياه من مخامرة الشكوك واختلاج الريب ، والتصديق عرض من الأعراض لا يبقى وهو متوال لنبى الله ثابت لغيره فى بعض الأوقات وزائل عنه فى أوقات الفترات ، فيثبت للنبى صلى الله عليه وسلم أعداد

من التصديق ، ولا يثبت لغيره إلا بعضها ، فيكون إيمانه لذلك أكثر وأفضل ؛ قال ولو وصف الإيمان بالزيادة والنقصان وأريد به ذلك كان مستقيمًا .

قلت : فهذا هو الذى يفضل به النبى غيره فى الإيمان عندهم . ومعلوم أن هذا فى غاية الفساد من وجوه كثيرة كما قد بسط فى مواضع أخرى .

فصل

حجة من نصر الجهمية :

قال الذين نصروا مذهب جهم فى الإيمان من المتأخرين كالقاضى أبى بكر وهذا لفظه ، فإن قال قائل : وما الإسلام عندكم ؟ قيل له الإسلام الانقياد والاستسلام ، فكل طاعة انقاد العبد بها لربه واستسلم فيها لأمره فهى إسلام والإيمان خصلة من خصال الإسلام ، وكل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيمانًا . فإن قال : فلم قلتم إن معنى الإسلام ما وصفتم ؟ قيل لأجل قوله تعالى : ﴿ قالَتِ الأَعْرابُ آمنَّا قُلْ لَمْ تؤْمِنُوا ولٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمنا ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٤] فنفى عنهم الإيمان وأثبت لهم الإسلام ، وإنما أراد بما أثبته الانقياد والاستسلام ، ومنه : ﴿ أَلْقَوا إِلَيْكم السَّلَمَ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٩٠] وكل من استسلم لشيء فقد أسلم ، وإن كان أكثر ما يستعمل ذلك فى المستسلم لله ولنبيه .

قلت : وهذا الذى ذكروه مع بطلانه ، ومخالفته للكتاب والسنة هو تناقض ، فإنهم جعلوا الإيمان خصلة من خصال الإسلام ، فالطاعات كلها إسلام وليس فيها إيمان إلا التصديق ، والمرجئة وإن قالوا إن الإيمان تضمن الإسلام فهم يقولون الإيمان هو تصديق القلب واللسان ، وأما الجهمية فيجعلونه تصديق القلب فلا تكون الشهادتان ولا الصلاة ولا الزكاة ولا غيرهن من الإيمان ، وقد تقدم ما بينه الله ورسوله من أن الإسلام داخل فى الإيمان ، فلا يكون الرجل مؤمنًا حتى يكون مسلمًا كما أن الإيمان داخل فى الإحسان فلا يكون محسنًا حتى يكون مؤمنًا .

وأما التناقض فإنهم إذا قالوا الإيمان خصلة من خصال الإسلام كان من أتى

بالإيمان ، إنما أتى بخصلة من خصال الإسلام ، لا بالإسلام الواجب جميعه . فلا يكون مسلمًا حتى يأتى بالإسلام كله ، كما لا يكون عندهم مؤمنًا حتى يأتى بالإيمان كله ، وإلا فمن أتى ببعض الإيمان عندهم لا يكون مؤمنًا ولا فيه شيء من الإيمان ، فكذلك يجب أن يقولوا فى الإسلام ، وقد قالوا كل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيمانًا ، وهذا إن أرادوا به أن كل إيمان هو الإسلام الذى أمر الله به ناقض قولهم إن الإيمان خصلة من خصاله ، فجعلوا الإيمان بعضه و لم يجعلوه إياه ، وإن قالوا كل إيمان فهو إسلام ، أى هو طاعة لله وهو جزء من الإسلام الواجب ، وهذا مرادهم ، قيل لهم : فعلى هذا يكون الإسلام متعددًا بتعدد الطاعات ، وتكون الشهادتان وحدهما إسلامًا ، والصلاة وحدها إسلامًا ، والزكاة إسلامًا ، بل كل درهم تعطيه للفقير إسلامًا ، وكل سجدة إسلامًا ، وكل يوم تصومه إسلامًا ، وكل تسبيحة تسبحها فى الصلاة أو غيرها إسلامًا .

ثم المسلم إن كان لا يكون مسلمًا إلا بفعل كل ما سميتموه إسلامًا لزم أن يكون الفساق ليسوا مسلمين ، مع كونهم مؤمنين ، فجعلتم المؤمنين الكاملى الإيمان عندكم ليسوا مسلمين ، وهذا شر من قول الكرامية ، ويلزم أن الفساق من أهل القبلة ليسوا مسلمين ، وهذا شر من قول الخوارج والمعتزلة وغيرهم ، بل أن يكون من ترك التطوعات ليس مسلمًا ، إذ كانت التطوعات طاعة لله إن جعلتم كل طاعة فرضًا أو نفلا إسلاما .

ثم هذا خلاف ما احتججتم به من قوله للأعراب لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا فأثبت لهم الإسلام دون الإيمان ، وأيضًا فإخراجكم الفساق من اسم الإسلام إن أخرجتموهم أعظم شناعة من إخراجهم من اسم الإيمان ، فوقعتم فى أعظم ما عبتموه على المعتزلة ، فإن الكتاب والسنة ينفى عنهم اسم الإيمان أعظم مما ينفى اسم الإسلام ، واسم الإيمان فى الكتاب والسنة أعظم ، وإن قلتم : بل كل من فعل طاعة سمى مسلمًا لزم أن يكون من فعل طاعة من الطاعات ، و لم يتكلم بالشهادتين مسلمًا ، ومن صدق بقلبه و لم يتكلم بلسانه أن يكون مسلمًا عندكم ، لأن الإيمان عندكم إسلام ، فمن أتى به فقد أتى بالإسلام ، فيكون مسلمًا

عندكم من تكلم بالشهادتين ولا أتى بشىء من الأعمال .

واحتجاجكم بقوله : ﴿ قالَتِ الأعْرابُ آمنَّا قُلْ لَم تُؤْمنُوا ولٰكِن قُولُوا أسْلَمنا ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٤] قلتم نفى عنهم الإيمان وأثبت لهم الإسلام ، فيقال هذه الآية حجة عليكم ، لأنه لما أثبت الإسلام مع انتفاء الإيمان دل ذلك على أن الإيمان ليس بجزء من الإسلام ، إذ لو كان بعضه لما كانوا مسلمين إن لم يأتوا به ، وإن قلتم أردنا بقولنا أثبت لهم الإسلام أى إسلامًا ما ، فإن كل طاعة من الإسلام إسلام عندنا لزمكم ما تقدم من أن يكون صوم يوم إسلامًا ، وصدقه درهم إسلامًا ، وأمثال ذلك ، وهم يقولون كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمنًا قالوا هذا من حيث الإطلاق ، وإلا فالتفصيل ما ذكرناه من أن الإيمان خصلة من خصال الإسلام والدين ، وليس هو جميع الإسلام والدين ، فإن الإسلام هو الاستسلام لله بفعل كل طاعة وقعت موافقة للأمر ، والإيمان أعظم خصلة من خصال الإسلام ، واسم الإسلام شامل لكل طاعة انقاد بها العبد لله من إيمان وتصديق وفرض سواه ونفل غير أنه لا يصح التقريب بفعل ما عدا الإيمان من الطاعات دون تقديم فعل الإيمان ، قالوا : والدين مأخوذ من التدين وهو قريب من الإسلام فى المعنى ،

فيقال لهم إذا كان هذا قولهم فقولكم كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمنًا يناقض هذا ، فإن المسلم هو المطيع لله ولا تصح الطاعة من أحد إلا مع الإيمان ، فيمتنع أن يكون أحد فعل شيئًا من الإسلام ، إلا وهو مؤمن ولو كان ذلك أدنى الطاعات ، فيجب أن يكون كل مسلم مؤمنًا سواء أريد بالإسلام فعل جميع الطاعات أو فعل واحدة منها وذلك لا يصح كله إلا مع الإيمان ، وحينئذ فالآية حجة عليكم لا لكم .

ثم قولكم كل مؤمن مسلم ، وأنكم تريدون بالإيمان تصديق القلب فقط ، فيلزم أن يكون الرجل مسلمًا ، ولو لم يتكلم بالشهادتين ولا أتى بشىء من الأعمال المأمور بها ، وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة من دين الإسلام ، بل عامة

اليهود والنصارى يعلمون أن الرجل لا يكون مسلمًا حتى يأتى بالشهادتين أو ما يقوم مقامهما ، وقولكم كل مؤمن مسلم لا تريدون أنه أتى بالشهادتين ولا بشيء من المبانى الخمس ، بل أتى بما هو طاعة وتلك باطنة ، وليس هذا هو المسلم المعروف فى الكتاب والسنة ، ولا عند الأئمة الأولين والآخرين .

ثم استدللتم بالآية ، والأعراب إنما أتوا بإسلام ظاهر نطقوا فيه بالشهادتين سواء كانوا صادقين أو كاذبين ، فأثبت الله لهم الإسلام دون الإيمان فيظن من لا يعرف حقيقة الأمر أن هذا هو قول السلف الذى دل عليه الكتاب والسنة من أن كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنًا ، وبينهما من التباين أعظم مما بين قول السلف وقول المعتزلة فى الإيمان والإسلام ، فإن قول المعتزلة فى الإيمان والإسلام أقرب من قول الجهمية بكثير ، ولكن قولهم فى تخليد أهل القبلة أبعد عن قول السلف من قول الجهمية ، فالمتأخرون الذين نصروا قول جهم فى مسألة الإيمان يظهرون قول السلف فى هذا الاستثناء ، وفى انتفاء الإيمان الذى فى القلب حيث نفاه القرآن ونحو ذلك ، وذلك كله موافق للسلف فى مجرد اللفظ ، وإلا فقولهم فى غاية المباينة لقول السلف ليس فى الأقوال أبعد عن السلف منه ، وقول المعتزلة والخوارج والكرامية فى اسم الإيمان والإسلام أقرب إلى قول السلف من قول الجهمية ، لكن المعتزلة والخوارج يقولون بتخليد العصاة ، وهذا أبعد عن قول السلف من كل قول ، فهم أقرب فى الاسم وأبعد فى الحكم ، والجهمية وإن كانوا في قولهم بأن الفساق لا يخلدون أقرب في الحكم إلى السلف ، فقولهم فى مسمى الإسلام والإيمان وحقيقتهما أبعد من كل قول عن الكتاب والسنة ، وفيه من مناقضة العقل والشرع واللغة ما لا يوجد مثله لغيرهم .

فصل

الإيمان المطلق مستلزم للأعمال :

ومما يدل من القرآن على أن الإيمان المطلق مستلزم للأعمال قوله تعالى : ﴿ إنَّما يؤْمِنُ بآياتِنا الَّذينَ إذا ذُكِّرُوا بها خَرُّوا سُجَّدًا وسَبَّحُوا بحمْدِ ربِّهم

وهَمْ لا يستَكبِرون ﴾ [سورة السجدة ، الاية : ١٥] فنفى الإيمان عن غير هؤلاء ، فمن كان إذا ذكر بالقرآن لا يفعل ما فرضه الله عليه من السجود ، لم يكن من المؤمنين ، وسجود الصلوات الخمس فرض باتفاق المسلمين ، وأما سجود التلاوة ففيه نزاع ؛ وقد يحتج بهذه الآية من يوجبه لكن ليس هذا موضع بسط هذه المسألة ، فهذه الآية مثل قوله : ﴿ إنما المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُم ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٢] وقوله : ﴿ إنَّما المؤْمِنُونَ الَّذينَ آمنُوا باللَّهِ ورَسُولِه وإذا كانُوا مَعهُ علَى أمْرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حتَّى يسْتأْذِنُوه ﴾ [سورة النور ، الآية : ٦٢] ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ عفَا اللَّهُ عنْكَ لِمَ أذِنْتَ لَهُم حتَّى يَتبيَّن لَكَ الَّذينَ صَدَقُوا وتَعْلَم الكاذِبِينَ * لا يسْتأْذِنكَ الَّذينَ يؤْمِنُونَ باللَّهِ واليَوْم الآخِر أنْ يُجاهِدُوا بأمْوالِهم وأنْفُسِهِم واللَّهُ عليمُ بالمتَّقِينَ * إنَّما يسْتأْذِنكَ الَّذينَ لا يؤْمِنُون باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ وارْتابَتْ قلُوبُهم فَهُم فِي رَيْبِهم يتَردَّدُونَ ﴾ [سورة التوبة ، الآيتان : ٤٣ – ٤٥]

وهذه الآية مثل قوله : ﴿ لا تَجدُ قَوْمًا يؤْمنُونَ باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حادَّ الله ورَسُولَه ﴾ [سورة المجادلة ، الآية : ٢٢] وقوله : ﴿ ولوْ كانُوا يؤْمِنُون باللَّهِ والنَّبى وما أُنزلَ إليْهِ ما اتَّخذُوهُم أوْلياءَ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٨١] بين سبحانه أن الإيمان له لوازم وله أضداد موجودة يستلزم ثبوت لوازمه وانتفاء أضداده ومن أضداده موادة من حاد الله ورسوله ، ومن أضداده استئذانه فى ترك الجهاد ، ثم صرح بأن استئذانه إنما يصدر من الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ودل قوله : ﴿ واللَّهُ عليمٌ بالمتَّقِينَ ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ٤٤] على أن المتقين هم المؤمنون .

ومن هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » . وقوله : « لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » وقوله : « لا تؤمنوا حتى تحابوا » وقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » وقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب

لنفسه » وقوله : « من غشنا فليس منا ، ومن حمل علينا السلاح فليس منا » .

فصل

اقتران الإيمان بالإسلام والعمل الصالح :

وأما إذا قيد الإيمان فقرن بالإسلام أو بالعمل الصالح فإنه قد يراد به ما فى القلب من الإيمان باتفاق الناس ، وهل يراد به أيضًا المعطوف عليه ويكون من باب عطف الخاص على العام أو لا يكون حين الاقتران داخلًا فى مسماه ، بل لا يكون لازمًا له على مذهب السنة ، لا يكون بعضًا ولا لازمًا ، هذا فيه ثلاثة أقوال للناس كما سيأتى إن شاء الله ، وهذا موجود فى عامة الأسماء يتنوع مسماها بالإطلاق والتقييد ، مثال ذلك اسم المعروف والمنكر إذا أطلق كما فى قوله تعالى : ﴿ يأْمُرهُم بالمعْرُوف وينْهاهُم عَنِ المنْكَرِ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ١٥٧] وقوله تعالى : ﴿ كُنْتُم خَيْر أُمَّة أُخْرِجَتْ للنَّاسِ تأْمُرونَ بالمعْرُوفِ وتَنْهونَ عَنِ المنْكَرِ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١١٠] وقوله : ﴿ والمُؤْمِنُونَ والمؤْمِنَاتِ بعضُهم أولياءُ بَعْض يَأْمُرُونَ بالمعْرُوفِ وينهَوْنَ عَنِ المُنْكَر ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ٧١] يدخل فى المعروف كل خير ، وفى المنكر كل شر ، ثم قد يقرن بما هو أخص منه كقوله : ﴿ لا خَير فى كَثيرٍ مِنْ نَجْواهُم إلَّا مَنْ أمَرَ بِصدقَةٍ أَوْ مَعْروفٍ أَوْ إصْلاحٍ بَينَ النَّاسِ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١١٤] فغاير بين المعروف وبين الصدقة والإصلاح بين الناس ، كما غاير بين اسم الإيمان والعمل ، واسم الإيمان والإسلام ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ إنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَن الفَحْشاء والمنْكَرِ ﴾ [سورة العنكبوت ، الآية : ٤٥] غاير بينهما ، وقد دخلت الفحشاء فى المنكر فى قوله : ﴿ وينْهَونَ عَنِ المُنْكَرِ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١١٤] ثم ذكر مع المنكر اثنين فى قوله : ﴿ إنَّ اللَّهَ يأْمُر بالعَدْلِ والإحْسَانِ وإيتاءِ ذِى القُربى وينْهَى عَنِ الفَحْشاءِ والمنْكَرِ والبَغْيِ ﴾ [سورة النحل ، الآية : ٩٠] جعل

البغى هنا مغايرًا لهما ، وقد دخل فى المنكر فى ذينك الموضعين .

ومن هذا الباب لفظ العبادة ، فإذا أمر بعبادة الله مطلقًا دخل فى عبادته كل ما أمر الله ، فالتوكل عليه مما أمر به والاستعانة به مما أمر به ؛ فيدخل ذلك فى مثل قوله : ﴿ ومَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلَّا لِيعْبُدونِ ﴾ [سورة الذاريات ، الآية : ٥٦] وفى قوله : ﴿ واعْبُدوا اللَّهَ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٣٦] وقوله : ﴿ يـٰأَيُّها النَّاسُ اعْبدُوا ربَّكُم الَّذِى خَلَقكُم ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢١] وقوله : ﴿ إنَّا أنْزَلْنا إلَيْكَ الكِتابَ بالحَقِّ فاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلصًا لَهُ الدِّيْنَ ﴾ [سورة الزمر ، الآية : ٢] ﴿ قلِ اللَّهَ أعْبُد مُخلِصًا لَه دِيْنى ﴾ [سورة الزمر ، الآية : ١٤] وقوله : ﴿ قُلْ أَفَغَيْر اللَّهِ تأْمُرونِّى أعْبدُ أيُّها الجاهِلُون ﴾ [سورة الزمر ، الآية : ٦٤] ثم قد يقرن بها اسم آخر كما فى قوله : ﴿ إيَّاكَ نَعْبُد وإيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [سورة الفاتحة ، الآية : ٥] وقوله : ﴿ فَاعْبُدْهُ وتوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [سورة هود ، الآية : ١٢٣] وقول نوح : ﴿ اعْبُدوا الله واتَّقُوه وأطِيعُون ﴾ [سورة نوح ، الآية : ٣] وكذلك إذا أفرد اسم طاعة الله دخل فى طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة فى طاعته ، وكذا اسم التقوى إذا دخل فيه فعل كل مأمور به ، وترك كل محظور .

قال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله ، وهذا كما فى قوله : ﴿ إنَّ المتَّقينَ فى جنَّاتٍ وَنَهر * فى مَقْعَد صِدْقٍ عِنْدَ مَليكٍ مُقْتَدرٍ ﴾ [سورة القمر ، الآية : ٥٤ ، ٥٥] وقد يقرن بها إسم آخر كقوله : ﴿ ومَنْ يتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لهُ مخْرجًا * ويَرزُقْهُ مِنْ حَيثُ لا يَحْتَسب ومَنْ يتَوكَّلْ علَى اللَّهِ فَهُو حَسْبُه ﴾ [سورة الطلاق ، الآية : ٢ ، ٣] وقوله : ﴿ إنَّهُ مَنْ يتَّقِ ويَصْبِر فإنَّ اللَّهَ لا يُضيعُ أَجْرَ المحْسِنين ﴾ [سورة يوسف ، الآية : ٩٠] وقوله : ﴿ واتقُوا الله الَّذى تَساءَلُون بِهِ والأرْحَام ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١] وقوله : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وقُولُوا قَولًا سَدِيدًا ﴾ [سورة

الأحزاب ، الآية : ٧٠] وقوله : ﴿ اتَّقوا الله وكونُوا معَ الصَّادِقِينَ ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ١١٩] وقوله : ﴿ اتَّقُوا الله حقَّ تقاتِه ولا تَمُوتُنَّ إلَّا وأنْتُم مسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٠٢] وأمثال ذلك .

فقوله : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وقُولُوا قَوْلًا سَديدًا ﴾ مثل قوله : ﴿ آمنُوا باللهِ ورسُولِه وأنفقُوا ممَّا جَعلكُم مُستخْلفينَ فِيه ﴾ [سورة الحديد ، الآية : ٧] وقوله : ﴿ آمنَ الرَّسُولُ بما أنْزِلَ إليه مِنْ ربِّهِ والمُؤْمِنُونَ كلٌّ آمنَ باللَّهِ وملائِكتِه وكُتُبه ورُسُلِه لا نُفرِّق بَينَ أحدٍ منْ رُسلِه وقالُوا سَمِعْنا وأطَعْنا غُفْرانكَ ربَّنا وإليْكَ المصيرُ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٨٥] فعطف قولهم على الإيمان كما عطف القول السديد على التقوى ومعلوم أن التقوى إذا أطلقت دخل فيها القول السديد وكذلك الإيمان إذا أطلق دخل فيه السمع والطاعة لله وللرسول ، وكذلك قوله : ﴿ آمنُوا باللَّهِ ورَسُولِه ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١٣٦] وإذا أطلق الإيمان بالله فى حق أمة محمد دخل فيه الإيمان بالرسول ، وكذلك قوله : ﴿ كلٌّ آمَنَ باللَّهِ ومَلائِكَتِه وكُتُبه ورُسُلِه ﴾ وإذا أطلق الإيمان بالله دخل فيه الإيمان بهذه التوابع ، وكذلك قوله : ﴿ والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إليكَ ومَا أُنْزِل مِنْ قَبْلكَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٤] وقوله : ﴿ قُولُوا آمَنَّا باللَّهِ ومَا أُنْزِلَ إلَيْنا وَمَا أُنْزِلَ إلَى إبْرَاهِيمَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٣٦] .

وإذا قيل قوله : ﴿ فآمِنُوا بِاللَّهِ ورَسُولِهِ النَّبِىِّ الأُمِّىِّ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ١٥٨] دخل فى الإيمان برسوله الإيمان بجميع الكتب والنبيين ، وكذلك إذا قيل : ﴿ يٰأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ [سورة الحديد ، الآية : ٢٨] وإذا قيل : ﴿ آمنوا باللَّهِ ورَسُولِهِ وأنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيه ﴾ دخل فى الإيمان بالله ورسوله الإيمان بذلك كله ، والإنفاق يدخل فى قوله فى الآية الأخرى : ﴿ آمِنُوا باللَّهِ ورَسُولِهِ ﴾ كما يدخل القول السديد فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١٣١] .

وكذلك لفظ البر إذا أطلق تناول جميع ما أمر الله به كما فى قوله : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وإِنَّ الفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [سورة الانفطار ، الآية : ١٣ ، ١٤] وقوله : ﴿ ولَـٰكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقَى ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٨٩] وقوله : ﴿ ولَـٰكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ واليَومِ الآخِرِ والمَلائِكَةِ والكِتَابِ والنَّبِيينَ وآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكِين وابن السَّبِيلِ والسَّائِلِينَ وفِى الرِّقَابِ وأَقَامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكَاةَ والمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا والصَّابِرِينَ فى البَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ البَأْسِ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وأُولَـٰئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٧٧] فالبر إذا أطلق كان مسماه مسمى التقوى ، والتقوى إذا أطلقت كان مسماها مسمى البر ، ثم قد يجمع بينهما كما فى قوله تعالى : ﴿ وتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ والتَّقْوَى ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٢] .

وكذلك لفظ الإثم إذا أطلق دخل فيه كل ذنب ، وقد يقرن بالعدوان كما فى قوله تعالى : ﴿ ولَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والعُدْوَانِ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٢] وكذلك لفظ الذنوب إذا أطلق دخل فيه ترك كل واجب وفعل كل محرم كما فى قوله : ﴿ يَا عِبادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِم لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [سورة الزمر ، الآية : ٥٣]ثم قد يقرن بغيره كما فى قوله : ﴿ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٤٧] وكذلك لفظ الهدى إذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعًا فيدخل فيه كل ما أمر به كما فى قوله : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيم ﴾ [سورة الفاتحة ، الآية : ٦] والمراد طلب العلم بالحق والعمل جميعًا ، وكذلك قوله : ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِين ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢] المراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ؛ ولهذا صاروا مفلحين ، وكذلك قول أهل الجنة : ﴿ الحَمْدُ لله الَّذِى هَدَانَا لِهَـٰذا ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٤٣] وإنما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح . ثم قد يقرن الهدى إما بالاجتباء كما فى قوله تعالى : ﴿ اجْتَبَيْنَاهُم

وهَدَيْنَاهُم إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ٨٧] وكما فى قوله : ﴿ شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ ﴾ [سورة النحل ، الآية : ١٢١] ، ﴿ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيهِ مَنْ يَشَاءُ ويَهْدِي إِلَيهِ مَنْ يُنِيب ﴾ [سورة الشورى ، الآية : ١٣] وكذلك قوله تعالى : ﴿ هوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِين الحَقِّ ﴾ [سورة الفتح ، الآية : ٢٨] والهدى هنا الإيمان ودين الحق هو الإسلام ، وإذا أطلق الهدى كان كالإيمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا .

ولفظ الضلال إذا أطلق تناول من ضلَّ عن الهدى ، سواءٌ كان عمدًا أو جهلًا ، ولزم أن يكون معذبًا كقوله : ﴿ إِنَّهُم أَلْفَوا آباءَهُم ضَالِّين * فَهُمْ عَلَى آثارِهِم يُهْرَعُونَ ﴾ [سورة الصافات ، الآيتان : ٦٩ ، ٧٠] وقوله : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِم ضِعْفَين مِنَ العَذَابِ والْعَنْهُمْ لَعْنًا كبيرًا ﴾ [سورة الأحزاب ، الآيتان : ٦٧ – ٦٨] وقوله : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ ولَا يَشْقَى ﴾ [سورة طه ، الآية : ١٢٣] ثم يقترن بالغىّ أو الغضب كما فى قوله : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُم وَمَا غَوَى ﴾ [سورة النجم ، الآية : ٢] وفى قوله : ﴿ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيهِم ولَا الضَّالِّين ﴾ [سورة الفاتحة ، الآية : ٧] وقوله : ﴿ إِنَّ المُجْرِمِينَ فِى ضَلَالٍ وَسُعُر ﴾ [سورة القمر ، الآية : ٤٧] وكذلك لفظ الغىّ إذا أطلق تناول كل معصية لله كما فى قوله عن الشيطان : ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُم أَجْمَعِين * إِلَّا عِبَادكَ مِنْهُم المُخْلَصِين ﴾ [سورة الحجر ، الآية : ٣٩ ، ٤٠] وقد يقرن بالضلال كما فى قوله : ﴿ مَا ضَلَّ صاحِبُكُم ومَا غَوَى ﴾ .

وكذلك اسم الفقير إذا أطلق دخل فيه المسكين ، وإذا أطلق لفظ المسكين تناول الفقير وإذا قرن بينهما فأحدهما غير الآخر ؛ فالأول كقوله : ﴿ إِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفُقَراءَ فَهُوَ خَيرٌ لَكُم ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٧١] ، وقوله : ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مسَاكِين ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٨٩] والثانى كقوله : ﴿ إِنَّما الصَّدَقَاتُ لِلفُقَرَاءِ والمَسَاكِين ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ٦٠] .

وهذه الأسماء التى تختلف دلالتها بالإطلاق والتقييد ، والتجريد والاقتران ، تارة يكونان إذا أفرد أحدهما أعم من ذلك الآخر ، كاسم الإيمان والمعروف مع العمل ومع الصدق ، وكالمنكر مع الفحشاء ، ومع البغى ونحو ذلك ، وتارة يكونان متساويين فى العموم والخصوص ، كلفظ الإيمان والبر والتقوى ، ولفظ الفقير والمسكين ؛ فأيها أطلق تناول ما يتناوله الآخر ؛ وكذلك لفظ التلاوة فإنها إذا أطلقت فى مثل قوله : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُم الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٢١] تناولت العمل به كما فسره بذلك الصحابة والتابعون مثل ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرهم قالوا : يتلونه حق تلاوته ، يتبعونه حق اتباعه فيحلون حلاله ويحرمون حرامه ويعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه .

وقيل هو من التلاوة بمعنى الاتباع كقوله : ﴿ والقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾ [سورة الشمس ، الآية : ٢] وهذا يدخل فيه من لم يقرأه ، وقيل : بل من تمام قراءته أن يفهم معناه ، ويعمل به كما قال أبو عبد الرحمن السلمى حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله ابن مسعود وغيرهما : أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا فتعلمنا القرآن والعلم جميعًا .

وقوله : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُم الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٢١] قد فسر بالقرآن وقد فسر بالتوراة . وروى محمد بن نصر بإسناده الثابت عن ابن عباس : ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ قال يتبعونه حق اتباعه ، وروى أيضا عن ابن عباس : « يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ » قال يحلُّون حلاله ويحرمون حرامه ، ولا يحرفونه عن مواضعه . وعن قتادة : ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ قال أولئك أصحاب محمد آمنوا بكتاب الله وصدقوا به ، أحلوا حلاله وحرموا حرامه وعملوا بما فيه . ذكر لنا أن ابن مسعود كان يقول إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ، وأن نقرأه كما أنزل الله ولا نحرفه عن مواضعه ، وعن الحسن يتلونه قال : يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه

ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه ، وعن مجاهد يتبعونه حق اتباعه ، وفى رواية يعملون به حق عمله .

ثم قد يقرن بالتلاوة غيرها كقوله : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ ﴾ [سورة العنكبوت ، الآية : ٤٥] قال أحمد بن حنبل وغيره : تلاوة الكتاب العمل بطاعة الله كلها ، ثم خص الصلاة بالذكر كما فى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بالكِتَابِ وأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ١٧٠] وقوله : ﴿ فاعْبُدْنِي وأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى ﴾ [سورة طه ، الآية : ١٤] .

وكذلك لفظ اتباع ما أنزل الله يتناول جميع الطاعات كقوله : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيكُم مِنْ رَبِّكُم ولَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوليِاءَ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٣] وقوله : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ ولَا يَشْقَى ﴾ [سورة طه ، الآية : ١٢٣] وقوله : ﴿ وأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ولَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ١٥٣] وقد يقرن به غيره كقوله : ﴿ هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ واتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ١٥٥] وقوله : ﴿ واتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وأَعْرِضْ عَنِ المُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ١٠٦] وقوله : ﴿ واتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيكَ واصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وهُو خَيرُ الحَاكِمِينَ ﴾ [سورة يونس ، الآية : ١٠٩] .

وكذلك لفظ الأبرار إذا أطلق دخل فيه كل تقى من السابقين والمقتصدين وإذا قرن بالمقربين كان أخص ، قال تعالى فى الأول : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وإِنَّ الفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [سورة ، الانفطار ، الآيتان : ١٣ ، ١٤] وقال فى الثانى : ﴿ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيين * ومَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّون * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ المُقَرَّبُون ﴾ [سورة المطففين ، الآيات : ١٨ – ٢١] وهذا باب واسع يطول استقصاؤه .

ومن أنفع الأمور فى معرفة دلالة الألفاظ مطلقًا وخصوصًا ألفاظ الكتاب والسنة ، وبه تزول شبهات كثيرة كثر فيها نزاع الناس ، من جملتها مسألة الإيمان والإسلام ؛ فإن النزاع فى مسماها أول اختلاف وقع افترقت الأمة لأجله ، وصاروا مختلفين فى الكتاب والسنة ، وكفّر بعضهم بعضًا كما قد بسطنا هذا فى مواضع أخر ، إذ المقصود هنا بيان شرح كلام الله ورسوله على وجه يبين أن الهدى كله مأخوذ من كلام الله ورسوله بإقامة الدلائل الدالة ، لا بذكر الأقوال التى لا تقبل بلا دليل وترد بلا دليل ، أو يكون المقصود بها نصر غير الله والرسول ، فإن الواجب أن يقصد معرفة ما جاء به الرسول وأتباعه بالأدلة الدالة على ما بيّنه الله ورسوله .

ومن هذا الباب أقوال السلف وأئمة السنة فى تفسير الإيمان ، فتارة يقولون : هو قول وعمل ؛ وتارة يقولون : هو قول وعمل ونية ، وتارة يقولون : قول وعمل ونية واتباع السنة ، وتارة يقولون : قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح وكل هذا صحيح . فإذا قالوا : قول وعمل فإنه يدخل فى القول قول القلب واللسان جميعًا ؛ وهذا هو المفهوم من لفظ القول والكلام ونحو ذلك إذا أطلق .

والناس لهم فى مسمى الكلام والقول عند الإطلاق أربعة أقوال ، فالذى عليه السلف والفقهاء والجمهور أنه يتناول اللفظ والمعنى جميعًا ، كما يتناول لفظ الإنسان للبدن والروح جميعًا ، وقيل : بل مسماه هو اللفظ ، والمعنى ليس جزء مسماه ، بل هو مدلول مسماه ، وهذا قول كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم وطائفة من المنتسبين إلى السنة ، والكلام على اللفظ مجاز لأنه دال عليه ، وهذا قول ابن كلاب ومن اتبعه ، وقيل بل هو مشترك بين اللفظ والمعنى وهو قول بعض المتأخرين من الكلابية ، ولهم قول ثالث يروى عن أبى الحسن أنه مجاز فى كلام الله ، حقيقة فى كلام الآدميين ، لأن حروف الآدميين تقوم بهم ، فلا يكون الكلام قائمًا بغير المتكلم بخلاف الكلام القرآنى فإنه لا يقوم عنده بالله فيمتنع أن يكون كلامه . ولبسط هذا موضع آخر .

والمقصود هنا أن من قال من السلف : الإيمان قول وعمل ، أراد قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح ؛ ومن أراد الاعتقاد رأى أن لفظ القول لايفهم منه إلا القول الظاهر أو خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب ، ومن قال قول وعمل ونية . قال : القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان ، وأما العمل فقد لا يفهم منه النية فزاد ذلك ، ومن زاد اتباع السنة فلأن ذلك كله لا يكون محبوبا لله إلا باتباع السنة ، وأولئك لم يريدوا كل قول وعمل . إنما أرادوا ما كان مشروعًا من الأقوال والأعمال ، ولكن كان مقصودهم الرد على المرجئة الذين جعلوه قولا فقط ، فقالوا بل هو قول وعمل ، والذين جعلوه أربعة فسروا مرادهم كما سئل سهل بن عبد الله التسترى عن الإيمان ما هو ؟ فقال : قول وعمل ونية وسنة ، الإيمان إذا كان قولا بلا عمل فهو كفر ، وإذا كان قولا وعملا بلا نية فهو نفاق ، وإذا كان قولا وعملا ونية بلا سنة فهو بدعة .

فصل

المغايرة بين المتعاطفين فى القرآن :

وعطف الشىء على الشىء فى القرآن وسائر الكلام يقتضى مغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع اشتراك المعطوف والمعطوف عليه فى الحكم الذى ذكر لهما ، والمغايرة على مراتب أعلاها أن يكونا متباينين ، ليس أحدهما هو الاخر ولا جزءه ، ولا يعرف لزومه له كقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ والأَرْضَ ومَا بَينَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [سورة السجدة ، الآية : ٤] ونحو ذلك وقوله : ﴿ وجِبْرِيلَ ومِيكَالَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٩٨] وقوله : ﴿ وأَنْزَلَ التَّورَاة والإِنْجِيلَ * مِنْ قَبلُ هُدًى للنَّاسِ وأَنْزَلَ الفُرْقَانَ ﴾ [سورة آل عمران ، الآيتان :٣ ، ٤] وهذا هو الغالب ، ويليه أن يكون بينهما لزوم كقوله : ﴿ ولَا تَلْبِسُوا الحَقَّ بالباطِلِ وتَكْتُمُوا الحَقَّ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٤٢] وقوله : ﴿ ومَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١١٥]

بِاللَّهِ ومَلَائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١٣٦] فإن من كفر بالله فقد كفر بهذا كله ، فالمعطوف لازم للمعطوف عليه ، وفى التى قبلها المعطوف عليه لازم ، فإنه من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى فقد اتبع غير سبيل المؤمنين ، وفى الثانى نزاع وقوله : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الحَقَ بِالباطِلِ وتَكْتُمُوا الحَقَّ ﴾ هما متلازمان ، فإن من لبس الحق بالباطل فجعله ملبوسًا فقد أخفى من الحق بقدر ما أظهره من الباطل ، فصار ملبوّسا ، ومن كتم الحق احتاج أن يقيم موضعه باطلًا فيلبس الحق بالباطل ، لهذا كان كل من كتم من أهل الكتاب ما أنزل الله فلابد أن يظهر باطلا .

وهكذا أهل البدع ولا تجد أحدًا ترك بعض السنة التى يجب التصديق بها والعمل إلا وقع فى بدعة ، ولاتجد صاحب بدعة إلا ترك شيئا من السنة ، كما جاء فى الحديث : « ما ابتدع قوم بدعة إلا تركوا من السنة مثلها » رواه الإمام أحمد ، وقد قال تعالى : ﴿ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ١٤] فلما تركوا حظًّا مما ذكروا به اعتاضوا بغيره فوقعت بينهم العداوة والبغضاء . وقال تعالى : ﴿ ومَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [سورة الزخرف ، الآية : ٣٦] أى عن الذكر الذى أنزله الرحمن ، وقال تعالى : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ونَحْشُرُهُ يَومَ القِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [سورة طه ، الآيات : ١٢٣ ، ١٢٤] وقال : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَبِّكُم وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٣] فأمر باتباع ما أنزل ، ونهى عما يضاد ذلك وهو اتباع أولياء من دونه ، فمن لم يتبع أحدهما اتبع الآخر ؛ ولهذا قال : ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١١٥] قال العلماء من لم يكن متبعًا سبيلهم كان متبعًا غير سبيلهم ، فاستدلوا بذلك على أن اتباع سبيلهم واجب ، فليس لأحد أن يخرج عما أجمعوا عليه .

وكذلك من لم يفعل المأمور ، فعل بعض المحظور ، ومن فعل المحظور لم يفعل

جميع المأمور ، فلا يمكن الإنسان أن يفعل جميع ما أمر مع فعله لبعض ما حظر ، ولا يمكنه ترك كل ما حظر مع تركه لبعض ما أمر ، فإن ترك ما حظر من جملة ما أمر به فهو مأمور ، ومن المحظور ترك المأمور ، فكل ما شغله عن الواجب فهو محرم ، وكل ما لا يمكن فعل الواجب إلا به فعليه فعله ولهذا كان لفظ الأمر إذا أطلق يتناول النهى ، وإذا قيد بالنهى كان النفى نظير ما تقدم ، فإذا قال تعالى عن الملائكة : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُم ﴾ [سورة التحريم ، الآية : ٦] دخل فى ذلك أنه إذا نهاهم عن شيء اجتنبوه ، وأما قوله : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [سورة التحريم ، الآية : ٦] فقد قيل لا يتعدون ما أمروا به ، وقيل يفعلونه فى وقته لا يقدمونه ولا يؤخرونه .

وقد يقال : هو لم يقل ولا يفعلون إلا ما يؤمرون ، بل هذا يدل عليه قوله : ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الأنبياء ، الآية : ٢٧] وقد قيل لا يعصون ما أمرهم فى الماضى ويفعلون ما يؤمرون فى المستقبل ، وقد يقال هذه الآية خبر عما سيكون ، ليس ما أمروا به عنا ماضيًا بل الجميع مستقبل ، فإنه قال : ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [سورة التحريم ، الآية : ٦] وما يتقى به إنما يكون مستقبلًا ، وقد يقال ترك المأمور تارة يكون لمعصية المأمور وتارة يكون لعجزه ، فإذا كان قادرًا مريدًا لزم وجود الأمور المقدورة ، فقوله : ﴿ لَا يَعْصُونَ ﴾ لا يمتنعون عن الطاعة ، وقوله : ﴿ ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أى هم قادرون على ذلك لا يعجزون عن شيء منه بل يفعلونه كله فيلزم وجود كل ما أمروا به وقد يكون فى ضمن ذلك أنهم لا يفعلون إلا المأمور به كما يقول القائل أنا أفعل ما أمرت به أى أفعله ولا أتعداه إلى زيادة ولا إلى نقصان .

وأيضًا فقوله : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُم ﴾ إن كان نهاهم عن فعل آخر كان ذلك عن أمره ، وإن كان لم ينههم لم يكونوا مذمومين بفعل ما لم ينهوا عنه .

والمقصود أن لفظ الأمر إذا أطلق تناول النهى ومنه قوله : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ

وأطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِى الأَمْرِ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٥٩] أى أصحاب الأمر ، ومن كان صاحب الأمر كان صاحب النهى ووجبت طاعته فى هذا وهذا ، فالنهى داخل فى الأمر ، وقال موسى للخضر : ﴿ سَتَجِدُنِى إنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِى لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْأَلْنِى عَنْ شَىْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [سورة الكهف ، الآيتان : ٦٩ ، ٧٠] وهذا نهى له عن السؤال حتى يحدث له منه ذكرًا ، ولما خرق السفينة قال له موسى : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إمْرًا ﴾ [سورة الكهف ، الآية : ٧١] فسأله قبل إحداث الذكر ، وقال فى الغلام : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ [سورة الكهف ، الآية : ٧٤] فسأله قبل إحداث الذكر ، وقال عن الجدار : ﴿ لَو شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [سورة الكهف ، الآية : ٧٧] وهذا سؤال من جهة المعنى ، فإن السؤال والطلب قد يكون بصيغة الشرط كما تقول لو نزلت عندنا لأكرمناك ، وإن بت الليلة عندنا أحسنت إلينا . ومنه قول آدم : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وإنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٢٣] وقول نوح : ﴿ رَبِّ إنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وإلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُنْ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ [سورة هود ، الآية : ٤٧] ومثله كثير ولهذا قال موسى : ﴿ إنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِى ﴾ [سورة الكهف ، الآية : ٧٦] فدل على أنه سأل الثلاث قبل أن يحدث الذكر ، وهذا معصية لنهيه وقد دخل فى قوله : ﴿ ولا أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ فدلَّ على أن عاصى النهى عاصى الأمر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٥٤] وقد دخل النهى فى الأمر ، ومنه قوله : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ [سورة النور ، الآية : ٦٣] وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ولَا مُؤْمِنَةٍ إذَا قَضَى اللَّهُ ورسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِم ﴾ [سورة الأحزاب ، الآية : ٣٦] فإن نهيه داخل فى ذلك .

وقد تنازع العلماء فى قوله لامرأته : إذا عصيت أمرى فأنت طالق ، إذا نهانا فعصته هل يكون ذلك داخلًا فى قوله ؟ على قولين : قيل لا يدخل لأن حقيقة النهى غير حقيقة الأمر ، وقيل يدخل لأن ذلك يفهم فى العرف معصية الأمر والنهى ، وهذا هو الصواب ، لأن ما ذكر فى العرف هو حقيقة فى اللغة والشرع ، فإن الأمر المطلق فى كل متكلم إذا قيل أطع أمر فلان ؛ أو فلان يطيع أمر فلان أو لا يعصى أمره ، فإنه يدخل فيه النهى ؛ لأن الناهى آمر بترك المنهى عنه ، فلهذا قال سبحانه : ﴿ ولَا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٤٢] ولم يقل لا تكتموا الحق فلم ينه عن كل منهما لتلازمهما ، وليست هذه واو الجمع التى يسميها الكوفيون واو الصرف كما قد يظنه بعضهم ، فإنه كان يكون المعنى لا تجمعوا بينهما فيكون أحدهما وحده غير منهى عنه .

وأيضًا فتلك إنما تجىء إذا ظهر الفرق كقوله : ﴿ ولَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُم ويعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٤٢] وقوله : ﴿ أَوْ يُوبِقهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ * وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِنَا مَا لَهُم مِنْ مَحِيصٍ ﴾ [سورة الشورى ، الآيتان : ٣٤ - ٣٥] ومن عطف الملزوم قوله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِى الأَمْرِ مِنْكُم ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٥٩] فإنهم إذا أطاعوا الرسول فقد أطاعوا الله كما قال تعالى : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٨٠] وإذا أطاع من بلغته رسالة محمد الله فإنه لا طاعة لله إلا بطاعته ، والثالث عطف بعض الشىء عليه ، كقوله : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلَاةِ الوُسْطَى ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٣٨] وقوله : ﴿ وإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيْثَاقَهُم وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وإِبْرَاهِيمَ ومُوسى وعِيسَى ابْنِ مَرْيَم ﴾ [سورة الأحزاب ، الآية : ٧] وقوله : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا للهِ ومَلَائِكَتِهِ ورُسُلِهِ وجِبْرِيلَ ومِيكَالَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٩٨] وقوله : ﴿ وأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ ودِيَارَهُم وأَمْوَالَهُم وأَرْضًا لَم

تَطَئُوهَا ﴾ [سورة الأحزاب ، الآية : ٢٧] والرابع عطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين كقوله : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى * والَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى * والَّذِى أَخْرَجَ المَرْعَى ﴾ [سورة الأعلى ، الآيات : ١ - ٤] وقوله : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ ويُقِيمُون الصَّلاَةَ ومِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ * والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ومَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٣ - ٤] وقد جاء فى الشعر ما ذكر أنه عطف لاختلاف اللفظ فقط كقوله :

* وألفى قولها كذبًا ومينًا *(١)

ومن الناس من يدعى أن مثل هذا جاء فى كتاب الله كما يذكرونه فى قوله : ﴿ شِرْعَةً ومِنْهَاجًا ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٤٨] وهذا غلط ، مثل هذا لا يجيء فى القرآن ولا فى كلام فصيح ، وغاية ما يذكر منها يذكر الناس اختلاف معنى اللفظ ، كما ادعى بعضهم أن من هذا قوله :

ألا حبَّذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأى والبعد

فزعموا أنهما بمعنى واحد ، واستشهدوا بذلك على ما ادعوه من أن الشرعة هى المنهاج ، فقال لهم المخالفون لهم : « النأى » أعم من البعد ، فإن النأى كل ما قل بعده أو كثر كأنه مثل المفارقة « والبعد » إنما يستعمل فيما كثرت مسافة مفارقته . وقد قال تعالى : ﴿ وهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ويَنْئَوْنَ عَنْهُ ﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ٢٦] وهم مذمومون على مجانبته والتنحى عنه سواء كانوا قريبين أو بعيدين ، وليس كلهم كان بعيدًا عنه لا سيما عند من يقول نزلت فى أبى طالب ، وقد قال النابغة :

---

(١) (المَيْن) : بفتح الميم وسكون الياء هو الكذب ، يقال : مان فلان مَيْنًا : أى كذب .

والنؤى كالحوض بالمظلومة الجلد *

والمراد به ما يحفر حول الخيمة لينزل فيه الماء ولا يدخل الخيمة أى صار كالحوض فهو مجانب للخيمة ليس بعيدًا عنها .

فصل

الإيمان يرادف البر فى القرآن :

فإذا تبين هذا فلفظ الإيمان إذا أطلق فى القرآن والسنة يراد به ما يراد بلفظ البر وبلفظ التقوى ، وبلفظ الدين كما تقدم ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم بين أن الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، . فكان كل ما يحبه الله يدخل فى اسم الإيمان ، وكذلك لفظ البر يدخل فيه جميع ذلك إذا أطلق ، وكذلك لفظ التقوى ، وكذلك الدين أو دين الإسلام ، وكذلك روى أنهم سألوا عن الإيمان فأنزل الله هذه الآية : ﴿ لَيسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُم ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٧٧] ، وقد فسر البر بالإيمان وفسر بالعمل الذى يقرب إلى الله ، والجميع حق ، وقد روى مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه فسر البر بالإيمان .

قال محمد بن نصر : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا عبد الله بن يزيد المقرى والملائىُّ ، قال : حدثنا المسعودى عن القاسم قال : جاء رجل إلى أبى ذر فسأله عن الإيمان فقرأ : ﴿ لَيسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكم ﴾ إلى آخر الآية ؛ فقال الرجل : ليس عن البر سألتك ، فقال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله عن الذى سألتنى عنه فقرأ عليه الذى قرأت عليك ، فقال له الذى قلت لى ؛ فلما أبى أن يرضى قال له : « إن المؤمن الذى إذا عمل الحسنة سرَّته ورجا ثوابها ، وإذا عمل السيئة ساءته وخاف عقابها » .

وقال : حدثنا إسحاق ، حدثنا عبدالرزاق ، حدثنا معمر عن عبد الكريم

الجزيرى ، عن مجاهد أن أبا ذر سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقرأ عليه : ﴿ لَيسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُم ﴾ إلى آخر الآية ، وروى بإسناده عن عكرمة قال : سئل الحسن بن على بن أبى طالب مقبله من الشام عن الإيمان فقرأ : ﴿ لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ﴾ وروى ابن بدلة بإسناده عن مبارك بن حسان قال : قلت لسالم الأفطس : رجل أطاع الله فلم يعصه ، ورجل عصى الله فلم يطعه ، فصار المطيع إلى الله فأدخله الجنة وصار العاصى إلى الله فأدخله النار ، هل يتفاضلان فى الإيمان ؟ قال : لا ، قال فذكرت ذلك لعطاء فقال : سلهم الإيمان طيب أم خبيث ؟ فإن الله قال : ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ويجْعَلَ الخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِى جَهَنَّمَ أُولٰئِكَ هُم الخاسِرُونَ ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٣٧] فَسألتهم فلم يجيبونى ، فقال بعضهم : إن الإيمان يبطن ليس معه عمل ، فذكرت ذلك لعطاء فقال سبحان الله أما يقرءون الآية التى فى البقرة : ﴿ لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُم قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ولٰكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ والمَلَائِكَةِ والكِتَابِ والنَّبِيِّينَ ﴾ قال : ثم وصف الله على هذا الاسم ما لزمه من العمل فقال : ﴿ وآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى القُرْبَى واليَتَامَى والمَساكِينَ وابنَ السَّبِيل ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأُولٰئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٧٧] فقال : سلهم هل دخل هذا العمل فى هذا الاسم ، وقال : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [سورة الإسراء ، الآية : ١٩] فألزم الاسم العمل والعمل الاسم .

والمقصود هنا أنه لم يثبت المدح إلا على إيمان معه العمل ، لا على إيمان خال عن عمل ، فإذا عرف أن الذم والعقاب واقع فى ترك العمل ، كان بعد ذلك نزاعهم لا فائدة فيه ، بل يكون نزاعًا لفظيًا مع أنهم مخطئون فى اللفظ ، مخالفون للكتاب والسنة ، وإن قالوا إنه لا يضره ترك العمل فهذا كفر صريح ؛ وبعض الناس يحكى هذا عنهم وأنهم يقولون إن الله فرض على العباد فرائض و لم يرد منهم

أن يعملوها ولا يضرهم تركها ، وهذا قد يكون قول الغالية الذين يقولون لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد ، لكن ما علمت معينًا أحكى عنه هذا القول ، وإنما الناس يحكونه فى الكتب ولا يعينون قائله ، وقد يكون من لا خلاق له من الفساق والمنافقين يقولون : لا يضر مع الإيمان ذنب أو مع التوحيد ، وبعض كلام الرادِّين على المرجئة.وصفهم بهذا ، ويدل على ذلك قوله تعالى فى آخر الآية : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وأُولَـٰئِكَ هُم الْمُتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٧٧] فقوله صدقوا أى فى قولهم آمنوا كقوله : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ولَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُم ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ ورَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وجَاهَدُوا بأَمْوَالِهِم وأَنْفُسِهِم فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُولَـٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [سورة الحجرات ، الآيتان : ١٤ – ١٥] أى هم الصادقون فى قولهم آمنا بالله بخلاف الكاذبين الذين قال الله فيهم : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ واللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُه واللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [سورة المنافقون ، الآية : ١] وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بَاللَّهِ وَبِاليَومِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ والَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُم ومَا يَشْعُرُونَ * فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ولَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآيات : ٨ – ١٠] ويكذبون قراءتان مشهورتان فإنهم كذبوا فى قولهم آمنا بالله واليوم الآخر ، كذبوا الرسول فى الباطن ، وإن صدقوه فى الظاهر ، وقال تعالى : ﴿ آلم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * ولَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ولَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ ﴾ [سورة العنكبوت ، الآية : ١ – ٣] فبين أنه لابد أن يفتن الناس وأن يمتحنهم ويبتليهم ويختبرهم ، يقال فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتميزه مما اختلط به ومنه قول موسى : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وتَهْدِى مَنْ تَشَاءُ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ١٥٥] أى محنتك وابتلاؤك كما ابتليت عبادك

بالحسنات والسيئات ليتبين الصبار الشكور من غيره ، وابتليتهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب ليتبين المؤمن من الكافر فيجعل ذلك سببًا لضلالة قوم وهدى آخرين .

والقرآن فيه كثير من هذا يصف المؤمنين بالصدق ، والمنافقين بالكذب ، لأن الطائفتين قالت بألسنتهم آمنا ، فمن حقق قوله بعمله فهو مؤمن صادق ، ومن قال بلسانه ما ليس فى قلبه فهو كاذب ، قال تعالى : ﴿ ومَا اصابَكُمْ يَومَ التَقى الجَمْعَانِ فبِإذْن اللّهِ وليَعْلَمَ المُؤْمِنينَ * ولِيعلَمَ الّذِينَ نَافَقُوا وقِيلَ لَهُم تَعَالوا قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللّهِ أَو ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لاتَّبَعْنَاكُم هُمْ لِلكُفْرِ يَومئِذٍ أَقْرَب مِنهُم للإيمانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهم واللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٦٦ ، ١٦٧] فلما قال فى آية البر : ﴿ أُولٰئِكَ الّذِينَ صَدَقُوا وأُولٰئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٧٧] دل على أن المراد صدقوا فى قولهم آمنا ، فإن هذا هو القول الذى أمروا به وكانوا يقولونه ، ولم يؤمروا أن يلفظوا بألسنتهم ويقولوا نحن أبرار أو بررة ، بل إذا قال الرجل أنا بر فهذا مزكٍّ لنفسه ، ولهذا كانت زينب بنت جحش اسمها برة فقيل تزكى نفسها ، فسماها النبى صلى الله عليه وسلم زينب ؛ بخلاف إنشاء الإيمان بقولهم آمنا ، فإن هذا قد فرض عليهم أن يقولوه ، قال تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَينَا ومَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وإِسْحاقَ ويَعقُوبَ والأَسْبَاط وما أُوتِىَ مُوسٰى وعِيسَى ومَا أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِم ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٣٦] وكذلك فى أول آل عمران : ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ ومَا أُنْزِلَ عَلَينَا ومَا أُنْزِلَ علَى إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ والأَسْبَاط ومَا أُوتِىَ مُوسَى وعِيسَى والنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِم ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٨٤] وقال تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيهِ مِنْ رَبِّهِ والمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ ومَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٨٥] فقوله : ﴿ لا نُفَرِّقُ ﴾ دليل على أنهم قالوا آمنا ولا نفرق ، ولهذا قال : ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا ﴾ فجمعوا بين قولهم آمنَّا وبين قولهم سمعنا وأطعنا ،

وقد قال فى آية البر : ﴿ وأولٰئِكَ هُم المُتَّقُونَ ﴾ فجعل الأبرار هم المتقين عند الإطلاق والتجريد ، وقد ميز بينهما عند الاقتران والتقييد فى قوله : ﴿ وتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ والتَّقْوَى ﴾ ودلت هذه الآية على أن مسمَّى الإيمان ومسمى البر ومسمى التقوى عند الإطلاق واحد ، فالمؤمنون هم المتقون وهم الأبرار .

ولهذا جاء فى حديث الشفاعة الصحيحة : « يخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » وفى بعضها : « مثقال ذرة من خير » وهذا مطابق لقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيرًا يَرَهُ * ومَنْ يَعْمَل مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [سورة الزلزلة ، الآية : ٧ ، ٨] وذلك الذى هو مثقال ذرة من خير هو مثقال ذرة من إيمان ، وهؤلاء المؤمنون الأبرار الأتقياء هم أهل السعادة المطلقة ، وهم أهل الجنة الذين وعدوا بدخولها بلا عذاب ، وهؤلاء الذين قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من غشَّنا فليس منَّا ، ومن حمل علينا السلاح فليس منَّا »[1] فإنه ليس من هؤلاء بل من أهل الذنوب المعرضين للوعيد أسوة أمثالهم .

فصل

أسماء الله الحسنى وأسماء رسوله :

وهذا النوع من نمط أسماء الله وأسماء كتابه وأسماء رسوله وأسماء دينه ،قال الله تعالى : ﴿ قُل ادعُوا الله أَوِ ادْعُوا الرَّحمٰن أَيًّا مَا تَدعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى ﴾ [سورة الإسراء ، الآية : ١١٠] وقال تعالى : ﴿ ولِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ١٨٠] وقال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلٰـهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمـٰن الرَّحِيم * هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلٰـهَ إِلَّا هُوَ

---

(١) سبق تخرجه .

المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلَامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ [سورة الحشر ، الآيات : ٢٢ – ٢٤] فأسماؤه كلها متفقة فى الدلالة على نفسه المقدسة ، ثم كل اسم يدل على معنى من صفاته ؛ ليس هو المعنى الذى دل عليه الاسم الآخر ؛ فالعزيز يدل على نفسه مع عزته ، والخالق يدل على نفسه مع خلقه ، والرحيم يدل على نفسه مع رحمته ، ونفسه تستلزم جميع صفاته ، فصار كل اسم يدل على ذاته والصفة المختصة به بطريق المطابقة ، وعلى أحدهما بطريق التضمن ، وعلى الصفة الأخرى بطريق اللزوم .

وهكذا أسماء كتابه القرآن والفرقان والكتاب والهدى والبيان والشفاء والنور ونحو ذلك هى بهذه المنزلة وكذلك أسماء رسوله محمد وأحمد والماحى والحاشر والمقفّى ونبى الرحمة ونبى التوبة ونبى الملحمة . كل اسم يدل على صفة من صفاته الممدوحة غير الصفة الأخرى ، وهكذا ما يثنّى ذكره من القصص فى القراءة كقصة موسى وغيرها ليس المقصود بها أن تكون سمرًا ، بل المقصود بها أن تكون عبرًا كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِم عِبْرَةٌ لأُولِى الأَلْبَابِ ﴾ [سورة يوسف ، الآية : ١١١] فالذى وقع شىء واحد له صفات فيعبر عنه بعبارات متنوعة كل عبارة تدل على صفة من الصفات التى يعتبر بها المعتبرون وليس هذا من التكرير فى شىء .

وهكذا أسماء دينه الذى أمر الله به ورسوله يسمى إيمانًا وبرًّا وتقوى وخيرًا ودينًا وعملًا صالحًا وصراطًا مستقيمًا ونحو ذلك ، وهو فى نفسه واحد لكن كل اسم يدل على صفة ليست هى الصفة التى يدل عليها الآخر ، وتكون تلك الصفة هى الأصل فى اللفظ والباقى كان تابعًا لها ، ثم صارت دالّة عليه بالتضمن فإن الإيمان أصله الإيمان الذى فى القلب ولابد فيه من شيئين : تصديق بالقلب وإقراره ومعرفته ويقال لهذا قول القلب ، قال الجنيد بن محمد : التوحيد قول القلب والتوكل عمل القلب ، فلابد فيه من قول القلب وعمله ، ثم قول البدن

وعمله ، ولابد فيه من عمل القلب مثل حب الله ورسوله وخشية الله وحب ما يحبه الله ورسوله ، وبغض ما يبغضه الله ورسوله ، وإخلاص العمل لله وحده ، وتوكل القلب على الله وحده ، وغير ذلك من أعمال القلوب التى أوجبها الله ورسوله وجعلها من الإيمان .

ثم القلب هو الأصل ، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهى القلب » .

وقال أبو هريرة : القلب ملك والأعضاء جنوده ، فإذا طاب الملك طابت جنودة ، وإذا خبث الملك خبثت جنوده ، وقول أبى هريرة تقريب ، وقول النبى صلى الله عليه وسلم أحسن بيانًا ، فإن الملك وإن كان صالحًا فالجند لهم اختيار قد يعصون به ملكهم وبالعكس فيكون فيهم صلاح مع فساده أو فساد مع صلاحه ، بخلاف القلب فإن الجسد تابع لها لا يخرج عن إرادته قط كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد » .

فإذا كان القلب صالحًا بما فيه من الإيمان علمًا وعملًا قلبيًّا لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق كما قال أهل الحديث قول وعمل ، قول باطن وظاهر ، وعمل باطن وظاهر ، والظاهر تابع للباطن لازم له متى صلح الباطن صلح الظاهر ، وإذا فسد فسد ؛ ولهذا قال من قال من الصحابة عن المصلّى العابث : « لو خشع هذا لخشعت جوارحه » فلابد فى إيمان القلب من حب الله ورسوله ، وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبونَهُمْ كَحُبِ اللَّهِ والَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٦٥] وصف الذين آمنوا بأنهم أشد حبًّا لله من المشركين .

وفى الآية قولان : قيل يحبونهم كحب المؤمنين الله ، والذين آمنوا أشد حبًّا منهم لأوثانهم ، وقيل يحبونهم كما يحبون الله ، والذين آمنوا أشد حبًّا لله منهم لله ، وهذا هو الصواب ، والأول قول متناقض وهو باطل ، فإن المشركين لا يحبون الأنداد مثل محبة المؤمنين لله ، وتستلزم الإرادة ، والإرادة التامة مع القدرة تستلزم الفعل ، فيمتنع أن يكون الإنسان محبًّا لله ورسوله مريدًا لما يحبه الله ورسوله إرادة جازمة مع قدرته على ذلك وهو لا يفعله . ، فإذا لم يتكلم بالإيمان مع قدرته دل على أنه ليس فى قلبه الإيمان الواجب الذى فرضه الله عليه .

ومن هنا يظهر خطأ قول جهم بن صفوان ومن اتبعه حيث ظنوا أن الإيمان مجرد تصديق القلب وعلمه ، لم يجعلوا أعمال القلب من الإيمان ، وظنوا أنه قد يكون الإنسان مؤمنًا كامل الإيمان بقلبه ، وهو مع هذا يسب الله ورسوله ويعادى أولياء الله ، ويوالى أعداء الله ويقتل الأنبياء ويهدم المساجد ، ويهين المصاحف ، ويكرم الكفار غاية الكرامة ، ويهين المؤمنين غاية الإهانة ، قالوا وهذه كلها معاص لا تنافى الإيمان الذى فى قلبه ، بل يفعل هذا وهو فى الباطن عند الله مؤمن ، قالوا وإنما ثبت له فى الدنيا أحكام الكفار ، لأن هذه الأقوال أمارة على الكفر ليحكم بالظاهر كما يحكم بالإقرار والشهود ، وإن كان فى الباطن قد يكون بخلاف ما أقر به وبخلاف ما شهد به الشهود ، فإذا أورد عليهم الكتاب والسنة والإجماع على أن الواحد من هؤلاء كافر فى نفس الأمر معذب فى الآخرة ، قالوا فهذا دليل على انتفاء التصديق والعلم من قلبه ، فالكفر عندهم شىء واحد ، وهو الجهل ، والإيمان شىء واحد وهو العلم أو تكذيب القلب وتصديقه ، فإنهم متنازعون هل تصديق القلب شىء غير العلم أو هو هو .

وهذا القول مع أنه أفسد قول قيل فى الإيمان فقد ذهب إليه كثير من أهل الكلام ، المرجئة ، وقد كفَّر السلف كوكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وأبى عبيد وغيرهم من يقول بهذا القول ، وقالوا : إبليس كافر بنص القرآن وإنما كفره باستكباره وامتناعه عن السجود لآدم ، لا لكونه كذب خبرًا ، وكذلك فرعون وقومه ، قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا

وَعُلُوًّا ﴾ [سورة النمل ، الآية : ١٤] وقال موسى عليه السلام لفرعون : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَـٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ والأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ بعد قوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْئَلْ بَنِى إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُم فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّى لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَـٰؤُلَاءِ إِلَّا ربّ السَّمـٰوَاتِ والأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّى لأَظُنُّكَ يا فِرْعَون مَثْبُورًا ﴾ [سورة الإسراء ، الآيتان : ١٠١ ، ١٠٢] فموسى وهو الصادق المصدوق يقول : ﴿ لَقَدْ عَلِمتَ مَا أُنْزَلَ هَـٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ والأَرْضِ بَصَائرَ ﴾ فدل على أن فرعون كان عالمًا بأن الله أنزل الآيات. وهو من أكبر خلق الله عنادًا وبغيًا لفساد إرادته وقصده لا لعدم علمه قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى الأَرْضِ وجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً منهُم يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحِى نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ ﴾ [سورة القصص ، الآية : ٤] وقال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسهُم ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [سورة النمل ، الآية : ١٤] وكذلك اليهود الذين قال الله فيهم : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٤٦] وكذلك من المشركين الذين قال الله فيهم : ﴿ فَإِنَّهُم لَا يُكَذِّبُونَكَ ولَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ٣٣] .

فهؤلاء غلطوا فى أصلين :

أحدهما : ظنهم أن الإيمان مجرد تصديق وعلم فقط ، ليس معه عمل وحال وحركة وإرادة ومحبة ، وخشية فى القلب ، وهذا من أعظم غلط المرجئة مطلقًا ، فإن أعمال القلوب التى يسميها بعض الصوفية أحوالًا ومقامات أو منازل السائرين إلى الله أو مقامات العارفين أو غير ذلك كلها فيها مما فرضه الله ورسوله ، فهو من الإيمان الواجب ، وفيها ما أحبه ولم يفرضه ، فهو من الإيمان المستحب ، فالأول لابد لكل مؤمن منه ومن اقتصر عليه فهو من الأبرار أصحاب اليمين ، والثانى للمقربين السابقين ، وذلك مثل حب الله ورسوله ، بل أن يكون الله

ورسوله أحب إليه مما سواهما ، بل أن يكون الله ورسوله والجهاد فى سبيله أحب إليه من أهله وماله ، ومثل خشية الله وحده دون خشية المخلوقين ، ورجاء الله وحده دون رجاء المخلوقين ، والتوكل على الله وحده دون المخلوقين ، والإنابة إليه مع خشيته كما قال تعالى : ﴿ هَـٰذَا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظ * مَن خَشِيَ الرَّحمَـٰنَ بِالغَيْبِ وجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيْبٍ ﴾ [سورة ق ، الآيتان : ٣٢ ، ٣٣] ومثل الحب فى الله والبغض فى الله والموالاة لله والمعاداة لله .

والثانى : ظنهم أن كل من حكم الشارع بأنه كافر مخلد فى النار ، فإنما ذاك لأنه لم يكن فى قلبه شيء من العلم والتصديق ، وهذا أمر خالفوا به الحس والعقل والشرع . وما أجمع عليه طوائف بنى آدم السليمى الفطرة وجماهير النظار ، فإن الإنسان قد يعرف أن الحق مع غيره ومع هذا لم يجحد ذلك لحسده إياه ، أو لطلب علوه عليه ، أو لهوى النفس ، ويحمله ذلك الهوى على أن يعتدى عليه ويرد ما يقول بكل طريق ، وهو فى قلبه يعلم أن الحق معه ، وعامة من كذب الرسل علموا أن الحق معهم وأنهم صادقون ، لكن إما لحسدهم وإما لإرادتهم العلو والرياسة ، وإما لحبهم دينهم الذى كانوا عليه ، وما يحصل لهم به من الأغراض كأموال ورياسة وصداقة أقوام وغير ذلك ، فيرون فى اتباع الرسل ترك الأهواء المحبوبة إليهم أو حصول أمور مكروهة إليهم ، فيكذبونهم ويعادونهم فيكونون من أكفر الناس كإبليس وفرعون مع علمهم بأنهم على الباطل والرسل على الحق ، ولهذا لا يذكر الكفار حجة صحيحة تقدح فى صدق الرسل إنما يعتمدون على مخالفة أهوائهم كقولهم لنوح : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ واتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾ [سورة الشعراء ، الآية : ١١١] ومعلوم أن اتباع الأرذلين له لا يقدح فى صدقه ، لكن كرهوا مشاركة أولئك كما طلب المشركون من النبى صلى الله عليه وسلم إبعاد الضعفاء كسعد بن أبى وقاص ، وابن مسعود وخباب بن الأرت ، وعمار بن ياسر ، وبلال ونحوهم ، وكان ذلك بمكة قبل أن يكون فى الصحابة أهل صفَّة ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ ولَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغَدَاةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِن حِسَابِهِم مِن

شَيْءٍ ومَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيهِم مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وكَذٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [سورة الأنعام ، الآيتان : ٥٢ ، ٥٣] .

ومثل قول فرعون : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ [سورة المؤمنون ، الآية : ٤٧] وقول فرعون : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِى فَعَلْتَ وأَنْتَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾ [سورة الشعراء ، الآيات : ١٨ ، ١٩] ومثل قول مشركى العرب : ﴿ إِنْ نَتَّبِعِ الهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ﴾ [سورة القصص ، الآية : ٥٧] ومثل قول قوم شعيب له : ﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَو أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ [سورة هود ، الآية : ٨٧] ومثل قول عامة المشركين : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ [سورة الزخرف ، الآية : ٢٣]

وهذه الأمور وأمثالها ليست حججًا تقدح فى صدق الرسل ، بل تبين أنها تخالف إرادتهم وأهواءهم وعاداتهم ، فلذلك لم يتبعوهم ، وهؤلاء كلهم كفار ؛ بل أبو طالب وغيره كانوا يحبون النبى صلى الله عليه وسلم ويحبون علو كلمته ، وليس عندهم حسد له ، وكانوا يعلمون صدقه ، ولكن كانوا يعلمون فى متابعته فراق دين آبائهم وذم قريش لهم فما احتملت نفوسهم ترك العادة واحتمال هذا الذم ، فلم يتركوا الإيمان لعدم العلم بل لهوى النفس ، فكيف يقال إن كل كافر إنما كفر لعدم علمه بالله .

ولم يكف الجهمية أن جعلوا كل كافر جاهلًا بالحق حتى قالوا هو لا يعرف أن الله موجود حق ، والكفر عندهم ليس هو الجهل بأى حق كان بل الجهل بهذا الحق المعين ، ونحن والناس كلهم يرون خلقًا من الكفار يعرفون فى الباطن أن دين الإسلام حق ، ويذكرون ما يمنعهم من الإيمان ، إما معاداة أهلهم وإما

مال يحصل من جهتهم يقطعونه عنهم ، وإما خوفهم إذا آمنوا ألا يكون لهم حرمة عند المسلمين كحرمتهم فى دينهم ، وأمثال ذلك من أغراضهم التى يبينون أنها المانعة لهم من الإيمان ، مع علمهم بأن دين الإسلام حق ، ودينهم باطل ، وهذا موجود فى جميع الأمور التى هى حق ، يوجد من يعرف بقلبه أنها حق وهو فى الظاهر يجحد ذلك ، ويعادى أهله لظنه أن ذلك يجلب له منفعة ويدفع عنه مضرة ، قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِنْكُم فَإِنَّهُ مِنْهُم إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِم يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِى أَنْفُسِهِم نَادِمِينَ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِيْنَ ﴾ [سورة المائدة ، الآيات : ٥١ – ٥٣]

والمفسرون متفقون على أنها نزلت بسبب قوم ممن كان يظهر الإسلام وفى قلبه مرض ، وخاف أن يغلب أهل الإسلام فيوالى الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم للخوف الذى فى قلوبهم ، لا لاعتقادهم أن محمدًا كاذب واليهود والنصارى صادقون ، وأشهر النقول فى ذلك أن عبادة بن الصامت قال : يا رسول الله إن لى موالى من اليهود وإنى أبرأ إلى الله من ولاية يهود ، فقال عبد الله بن أبىّ لكنى رجل أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية يهود ، فنزلت هذه الآية .

والمرجئة الذين قالوا الإيمان تصديق القلب ، وقول اللسان ، والأعمال ليست منه كان منهم طائفة من فقهاء الكوفة وعبّادها ، ولم يكن قولهم مثل قول جهم ، فعرفوا أن الإنسان لا يكون مؤمنًا إن لم يتكلم بالإيمان مع قدرته عليه ، وعرفوا أن إبليس وفرعون وغيرهما كفار مع تصديق قلوبهم لكنهم إذا لم يدخلوا أعمال القلوب فى الإيمان لزمهم قول جهم ، وإن أدخلوها فى الإيمان لزمهم دخول أعمال الجوارح أيضًا فإنها لازمة لها . ولكن هؤلاء لهم حجج شرعية بسببها اشتبه الأمر عليهم ، فإنهم رأوا أن الله قد فرق فى كتابه بين الإيمان والعمل ، فقال فى غير موضع : ﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [سورة البقرة ،

[سورة البقرة ، الآية : ٢٧٧] ورأو أن الله خاطب الإنسان بالإيمان قبل وجود الأعمال فقال : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُم وأَيْدِيَكُم إلى المَرَافِقِ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٦] - ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ للصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ [سورة الجمعة ، الآية : ٩] وقالوا لو أن رجلًا آمن بالله ورسولة ضحوة ومات قبل أن يجب عليه شيء من الأعمال مات مؤمنًا وكان من أهل الجنة ، فدل على أن الأعمال ليست من الإيمان ، وقالوا نحن نسلم أن الإيمان يزيد بمعنى أنه كان كلما أنزل الله آية وجب التصديق بها ، فانضم هذا التصديق إلى التصديق الذى كان قبله لكن بعد كمال ما أنزل الله ما بقى الإيمان يتفاضل عندهم ، بل إيمان الناس كلهم سواء : إيمان السابقين الأولين كأبى بكر وعمر ، وإيمان أفجر الناس كالحجاج وأبى مسلم الخراسانى وغيرهما .

والمرجئة المتكلمون منهم والفقهاء منهم يقولون : إن الأعمال قد تسمى إيمانًا مجازًا لأن العمل ثمرة الإيمان ومقتضاه ، ولأنها دليل عليه ، ويقولون قوله : « الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إلٰه إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » مجاز .

والمرجئة ثلاثة أصناف : الذين يقولون الإيمان مجرد ما فى القلب ، ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب وهم أكثر فرق المرجئة كما قد ذكر أبو الحسن الأشعرى أقوالهم فى كتابه ، وذكر فرقًا كثيرة يطول ذكرهم لكن ذكرنا جمل أقوالهم ، ومنهم من لا يدخلها كجهم ومن اتبعه كالصالحى وهذا الذى نصره هو وأكثر أصحابه ، والقول الثانى من يقول : هو مجرد قول اللسان ، وهذا لا يعرف لأحد قبل الكرامية ، والثالث تصديق القلب وقول اللسان ، وهذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة منهم ، وهؤلاء غلطوا من وجوه :

أحدها : ظنهم أن الإيمان الذى فرضه الله على العباد متماثل فى حق العباد ، وأن الإيمان الذى يجب على شخص يجب مثله على كل شخص ، وليس الأمر

كذلك فإن أتباع الأنبياء المتقدمين أوجب الله عليهم من الإيمان ما لم يوجبه على أمة محمد ، وأوجب على أمة محمد من الإيمان ما لم يوجبه على غيرهم ، والإيمان الذى كان يجب قبل نزول جميع القرآن ليس هو مثل الإيمان الذى يجب بعد نزول القرآن ، والإيمان الذى يجب على من عرف ما أخبر به الرسول مفصلًا ليس مثل الإيمان الذى يجب على من عرف ما أخبر به مجملًا ، فإنه لابد فى الإيمان من تصديق الرسول فى كل ما أخبر ، لكن من صدق الرسول أو مات عقب ذلك لم يجب عليه من الإيمان غير ذلك ، وأما من بلغه القرآن والأحاديث وما فيهما من الأخبار والأوامر المفصلة فيجب عليه من التصديق المفصل بخبر خبر وأمر أمر ما لا يجب على من لم يجب عليه إلا الإيمان المجمل لموته قبل أن يبلغه شئ آخر .

وأيضًا لو قدر أنه عاش فلا يجب على كل واحد من العامة أن يعرف كل ما أمر به الرسول وكل ما نهى عنه وكل ما أخبر به ، بل إنما عليه أن يعرف ما يجب عليه هو وما يحرم عليه ، فمن لا مال له لا يجب أن يعرف أمره المفصل فى الزكاة ، ومن لا استطاعة له على الحج ليس عليه أن يعرف أمره المفصل بالمناسك ، ومن لم يتزوج ليس عليه أن يعرف ما وجب للزوجة فصار يجب من الإيمان تصديقًا وعملًا على أشخاص ما لا يجب على الآخرين .

وبهذا يظهر الجواب عن قولهم خوطبوا بالإيمان قبل الأعمال فنقول : إن قلتم إنهم خوطبوا به قبل أن تجب تلك الأعمال فقبل وجوبها لم تكن من الإيمان ، وكانوا مؤمنين الإيمان الواجب عليهم قبل أن يفرض عليهم ما خوطبوا بفرضه ، فلما نزل إن لم يقروا بوجوبه لم يكونوا مؤمنين ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٩٧] ولهذا لم يجئ ذكر الحج فى أكثر الأحاديث التى فيها ذكر الإسلام والإيمان كحديث وفد عبد القيس وحديث الرجل النجدى الذى يقال له ضمام بن ثعلبة وغيرهما ، وإنما جاء ذكر الحج فى حديث ابن عمر وجبريل ، وذلك لأن الحج آخر ما فرض من الخمس ، فكان قبل فرضه لا يدخل فى الإيمان والإسلام ، فلما فرض أدخله النبى صلى الله عليه

وسلم فى الإيمان إذا أفرد ، وأدخله فى الإسلام إذا قرن بالإيمان وإذا أفرد ، وسنذكر إن شاء الله متى فرض .

وكذلك قولهم : من آمن ومات قبل وجوب العمل عليه مات مؤمنًا ، صحيح ، لأنه أتى بالإيمان الواجب عليه والعمل لم يكن وجب عليه بعد ، فهذا مما يجب أن يعرف فإنه تزول به شبهة حصلت للطائفتين .

فإذا قيل : الأعمال الواجبة من الإيمان ، فالإيمان الواجب متنوع ليس شيئًا واحدًا فى حق جميع الناس .

وأهل السنة والحديث يقولون جميع الأعمال الحسنة واجبها ومستحبها من الإيمان ، أى من الإيمان الكامل بالمستحبات . ليست من الإيمان الواجب ، فيفرق بين الإيمان الواجب وبين الإيمان الكامل بالمستحبات كما يقول الفقهاء : الغسل ينقسم إلى مجزئ وكامل ، فالمجزئ ما أتى فيه بالواجبات فقط ، والكامل ما أتى فيه بالمستحبات ، ولفظ الكمال قد يراد به الكمال الواجب ، وقد يراد به الكمال المستحب .

وأما قولهم : إن الله فرق بين الإيمان والعمل فى غير موضع فهذا صحيح ، وقد بينا أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها ؛ وقد يقرن به الأعمال وذكرنا نظائر ذلك كثيرة ، وذلك لأن أصل الإيمان هو ما فى القلب ، والأعمال الظاهرة لازمة لذلك ، لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح ، بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذى فى القلب فصار الإيمان متناولًا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما فى القلب ، وحيث عطفت عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمان القلب بل لابد معه من الأعمال الصالحة .

ثم للناس فى مثل هذا قولان : منهم من يقول المعطوف دخل فى المعطوف عليه أولًا ، ثم ذكر باسمه الخاص تخصيصًا له ، لئلا يظن أنه لم يدخل فى الأول ، وقالوا هذا فى كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا

لِلَّهِ ومَلَائِكَتِهِ ورُسُلِهِ وجِبرِيلَ ومِيكَالَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٩٨] وقوله : ﴿ وإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ ومِنْ نُوحٍ وإِبْرَاهِيمَ وموسَى وعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ [سورة الأحزاب ، الآية : ٧] وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّد وهُوَ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِم ﴾ [سورة محمد ، الآية : ٢] فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله : ﴿ والَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وهذه نزلت فى الصحابة وغيرهم من المؤمنين ، وقوله : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٣٨] وقوله : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ويُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [سورة البينة ، الآية : ٥] والصلاة والزَّكَاةَ من العبادة ، فقوله : ﴿ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ كقوله : ﴿ ومَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ويُقِيمُوا الصَّلَاةَ ويُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [سورة البينة ، الآية : ٥] فإنه قصد أولًا أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره ، ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان ، فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما ، وكذلك يذكر الإيمان أولًا لأنه الأصل الذى لابد منه ، ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضًا من تمام الدين لابد منه ، فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح ، وكذلك قوله : ﴿ الم * ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى للمُتَّقِينَ * الَّذِيْنَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ويُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِيْنَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ومَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِم وأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآيات : ١ — ٥] وقد قيل هؤلاء هم أهل الكتاب الذين آمنوا بما أنزل عليه وما أنزل على من قبله ، كابن سلام ونحوه ، وإن هؤلاء نوع غير النوع المتقدم الذين يؤمنون بالغيب ، وقد قيل هؤلاء جميع المتقدمين الذين آمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله ، وهؤلاء هم الذين يؤمنون بالغيب وهم صنف واحد ، وإنما عطفوا لتغاير الصفتين كقوله : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى * والَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى * والَّذِى

أَخْرَجَ المَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ [سورة الأعلى ، الآيات : ١ - ٥] فهو سبحانه واحد وعطف بعض صفاته على بعض ، وكذلك قوله : ﴿ والصَّلاةَ الوُسْطَى ﴾ وهى صلاة العصر .

والصفات إذا كانت معارف كانت للتوضيح وتضمنت المدح أو الذم ، تقول هذا الرجل هو الذى فعل كذا وهو الذى فعل كذا وهو الذى فعل كذا . تعدد محاسنه ، ولهذا مع الاتباع قد يعطفونها وينصبون أو يرفعون ، وهذا القول هو الصواب ، فإن المؤمنين بالغيب إن لم يؤمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله لم يكونوا على هدى من ربهم ولا مفلحين ولا متقين ، وكذلك الذين آمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله إن لم يكونوا من الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقهم الله ينفقون ، لم يكونوا على هدى من ربهم ولم يكونوا مفلحين ولم يكونوا متقين ، فدل على أن الجميع صفة المهتدين المتقين الذين اهتدوا بالكتاب المنزل إلى محمد ، فقد عطفت هذه الصفة على تلك مع أنها داخلة فيها ، لكن المقصود صفة إيمانهم وأنهم يؤمنون بجميع ما أنزل الله على أنبيائه لا يفرقون بين أحد منهم ، وإلا فإذا لم يذكر إلا الإيمان بالغيب فقد يقول من يؤمن ببعض ويكفر ببعض نحن نؤمن بالغيب .

ولما كانت سورة البقرة سنام القرآن ، ويقال إنها أول سورة نزلت بالمدينة ، افتتحها الله بأربع آيات فى صفة المؤمنين ، وآيتين فى صفة الكافرين ، وبضع عشرة آية فى صفة المنافقين ، فإنه من حين هاجر النبى صلى الله عليه وسلم صار الناس ثلاثة أصناف : إما مؤمن وإما كافر مظهر للكفر ، وإما منافق ، بخلاف ما كانوا بمكة فإنه لم يكن هناك منافق ، ولهذا قال أحمد بن حنبل وغيره : لم يكن من المهاجرين منافق ، وإنما كان النفاق فى قبائل الأنصار ، فإن مكة كان الكفار مستولين عليها فلا يؤمن ويهاجر إلا من هو مؤمن ، وليس هناك داع يدعو إلى النفاق ، والمدينة من بها أهل الشوكة فصار للمؤمنين بها عز ومنعة بالأنصار ، فمن لم يظهر الإيمان آذوه ، فاحتاج المنافقون إلى إظهار الإيمان مع أن قلوبهم لم تؤمن ، والله تعالى افتتح البقرة ووسط البقرة وختم بالإيمان بجميع ما جاءت

به الأنبياء فقال فى أولها ما تقدم وقال فى وسطها : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ومَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ومَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ ومَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ومَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِم لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُم ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ﴾ [سورة البقرة ، الآيتان : ١٣٦ ، ١٣٧] ، وقال فى آخرها : ﴿ آمَنَ الرَسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ والمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وإِلَيْكَ المَصِيرُ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٨٥] والآية الأخرى .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما فى ليلته كفتاه » والآية الوسطى قد ثبت فى الصحيح أنه كان يقرأ بها فى ركعتى الفجر وبـ : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بيننا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٦٤] تارة وبـ : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الكَافِرُونَ ﴾ ، ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فيقرأ بما فيه ذكر الإيمان والإسلام أو بما فيه ذكر التوحيد والإخلاص .

فعلى قول هؤلاء يقال : الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت فى الإيمان ، وعطفت عليه عطف الخاص على العام إما لذكره خصوصًا بعد عموم ، وإما لكونه إذا عطف كان دليلًا على أنه لم يدخل فى العام ، وقيل بل الأعمال فى الأصل ليست من الإيمان ، فإن أصل الإيمان هو ما فى القلب ولكن هى لازمة له ، فمن لم يفعلها كان إيمانه منتفيًا ؛ لأن انتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم ؛ لكن صارت بعرف الشارع داخلة فى اسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا عطفت عليه ذكرت لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد ، فكان ذكرها تخصيصًا وتنصيصًا ليعلم أن الثواب الموعود به فى الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحًا ؛ لا يكون لمن ادعى الإيمان ولم يعمل ، وقد بيَّن

سبحانه فى غير موضع أن الصادق فى قوله آمنت لابد أن يقوم بالواجب ، وحصر الإيمان فى هؤلاء يدل على انتفائه عمن سواهم .

وللجهمية هنا سؤال ذكره أبو الحسن فى كتاب الموجز ، وهو أن القرآن نفى الإيمان عن غير هؤلاء كقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِيْنَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وجِلَتْ قُلُوبُهُم ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٢] ولم يقل إن هذه الأعمال من الإيمان ، قالوا فنحن نقول من لم يعمل هذه الأعمال لم يكن مؤمنًا لأن انتفاءها دليل على انتفاء العلم من قلبه .

والجواب على هذا من وجوه :

أحدها : أنكم سلمتم أن هذه الأعمال لازمة لإيمان القلب ؛ فإذا انتفت لم يبق فى القلب إيمان ، وهذا هو المطلوب ، وبعد هذا فكونها لازمة أو جزءًا نزاع لفظى .

الثانى : أن نصوصًا صرَّحت بأنها جزء كقوله : « الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة » .

الثالث : أنكم إن قلتم بأن من انتفى عنه هذه الأمور فهو كافر خال من كل إيمان كان قولكم قول الخوارج ، وأنتم فى طرف ، والخوارج فى طرف ، فكيف توافقونهم ، ومن هذه الأمور إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج والجهاد والإجابة إلى حكم الله ورسوله وغير ذلك مما لا تكفرون تاركه ، وإن كفرتموه كان قولكم قول الخوارج .

الرابع : أن قول القائل إن انتفاء بعض هذه الأعمال يستلزم ألا يكون فى قلب الإنسان شيء من التصديق بأن الرب حق ، قول يعلم فساده بالاضطرار .

الخامس : أن هذا إذا أثبت فى هذه ثبت فى الواجبات فيرتفع النزاع المعنوى .

* * *

فصل

القول فى خطأ المرجئة :

الوجه الثانى من غلط المرجئة ظنهم أن ما فى القلب من الإيمان ليس إلا التصديق فقط دون أعمال القلوب كما تقدم عن جهمية المرجئة .

الثالث : ظنهم أن الإيمان الذى فى القلب يكون تامًّا بدون شىء من الأعمال ، ولهذا يجعلون الأعمال ثمرة الإيمان ومقتضاه بمنزلة السبب مع المسبب ، ولا يجعلونها لازمة له ، والتحقيق أن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة ، ويمتنع أن يقوم بالقلب إيمان تام بدون عمل ظاهر ، ولهذا صاروا يقدرون مسائل يمتنع وقوعها لعدم تحقق الارتباط الذى بين البدن والقلب ، مثل أن يقولوا رجل فى قلبه من الإيمان مثل ما فى قلب أبى بكر وعمر وهو لا يسجد لله سجدة ، ولا يصوم رمضان ، ويزنى بأمه وأخته ويشرب الخمر نهار رمضان ؛ يقولون هذا مؤمن تام الإيمان ، فيبقى سائر المؤمنين ينكرون ذلك غاية الإنكار .

قال أحمد بن حنبل : حدثنا خلف بن حيان ، حدثنا معقل بن عبيد الله العنسى قال : قدم علينا سالم الأفطس بالإرجاء ، فنفر منه أصحابنا نفورًا شديدًا منهم ميمون بن مهران ، وعبد الكريم بن مالك ، فإنه عاهد الله ألا يؤويه وإياه سقف بيت إلا المسجد ، قال معقل فحججت فدخلت على عطاء بن أبى رباح فى نفر من أصحابى وهو يقرأ : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وظَنُّوا أَنَّهُم قَد كُذِبُوا ﴾ [سورة يوسف ، الآية : ١١٠] قلت : إن لنا حاجة فأخلنا[١] ، ففعل ؛ فأخبرته أن قومًا قبلنا قد أحدثوا وتكلموا وقالوا إن الصلاة والزكاة ليسا من الدين ، فقال : أو ليس الله تعالى يقول : ﴿ وما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ويُؤْتُوا الزَّكَاةَ وذٰلِكَ دِينُ القَيِّمةِ ﴾ [سورة البينة ، الآية : ٥] فالصلاة والزكاة من الدين ، قال فقلت :

---

(١) (فأخلنا) : يريد منه أن يختلى بهم .

إنهم يقولون ليس فى الإيمان زيادة ، فقال : او ليس قد قال الله فيما أنزل : ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [سورة الفتح ، الآية : ٤] هذا الإيمان ، فقلت : إنهم انتحلوك وبلغنى أن ابن ذر دخل عليك فى أصحاب له فعرضوا عليك قولهم فقبلته فقلت هذا الأمر ، فقال : لا والله الذى لا إلـٰه إلا هو ، مرتين أو ثلاثًا ثم قال : قدمت المدينة فجلست إلى نافع فقلت يا أبا عبد الله إن لى إليك حاجة . فقال : سر أم علانية ؟ فقلت : لا بل سرّ . قال : ربّ سرّ لا خير فيه . فقلت : ليس من ذلك ، فلما صلينا العصر قام وأخذ بثوبى ثم خرج من الخوخة ولم ينتظر القاص ، فقال : حاجتك ، قال : فقلت أخلنى هذا فقال تنح ؛ قال : فذكرت له قولهم فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أضربهم بالسيف حتى يقولوا لا إلـٰه إلا الله فإذا قالوا لا إلـٰه إلا الله عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » . قال قلت : إنهم يقولون نحن نقرّ بأن الصلاة فرض ولا نصلّى ، وبأن الخمر حرام ونشربها ؛ وأن نكاح الأمهات حرام ونحن ننكح ، فنثر يده من يدى وقال : من فعل هذا فهو كافر .

قال معقل : فرأيت الزهرى فأخبرته بقولهم فقال : سبحان الله ، وقد أخذ الناس فى هذه الخصومات . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » قال معقل : فلقيت الحكم بن عتبة فقلت له إن عبد الكريم وميمونًا بلغهما أنه دخل عليك ناس من المرجئة فعرضوا قولهم عليك فقبلت قولهم ، قال : فقيل ذلك على ميمون وعبد الكريم ؛ لقد دخل علىّ اثنا عشر رجلًا وأنا مريض فقالوا : يا أبا محمد بلغك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه رجل بأمَة سوداء أو حبشية ، فقال : يا رسول الله علىّ رقبة مؤمنة أفترى هذه مؤمنة ؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتشهدين أن لا إلـٰه إلا الله ؟ » فقالت : نعم ، قال : « وتشهدين أن محمدًا رسول الله ؟ » قالت : نعم ، قال : « وتشهدين أن الجنة حق والنار حق ؟ » قالت : نعم ، قال : « وتشهدين أن الله يبعثك من بعد الموت ؟ » قالت : نعم . قال : « فاعتقها فإنها مؤمنة »[1] فخرجوا وهم ينتحلون ذلك .

---

(١) الموطأ (جـ٢ – عتق / ٩) .

قال معقل : ثم جلست إلى ميمون بن مهران فقلت يا أبا أيوب لو قرأت لنا سورة ففسرتها ، قال فقرأ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَت ﴾ حتى إذا بلغ ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِين ﴾ قال ذاكم جبريل ، والخيبة لمن يقول إن إيمانه كإيمان جبريل ،ورواه حنبل عن أحمد ، ورواه أيضًا عن أبى مليكة قال : لقد أتى علىَّ برهة من الدهر وما أرانى أدرك قومًا يقول أحدهم إنى مؤمن مستكمل الإيمان ، ثم ما رضى حتى قال إيمانى على إيمان جبريل وميكائيل ، وما زال بهم الشيطان حتى قال أحدهم : إنى مؤمن وإن نكح أخته وأمه وبنته ، والله لقد أدركت كذا وكذا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ما مات أحد منهم إلا وهو يخشى النفاق على نفسه . وقد ذكر هذا المعنى عنه البخارى فى صحيحه قال : أدركت ثلاثين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ، وما منهم أحد يقول إيمانه كإيمان جبريل .

وروى البغوى عن عبد الله بن محمد عن أبى مجاهد قال : كنت عند عطاء بن أبى رباح فجاء ابنه يعقوب فقال : يا أبتاه إن أصحابنا يزعمون أن إيمانهم كإيمان جبريل ؛ فقال : يا بنى ليس إيمان من أطاع الله كإيمان من عصى الله .

قلت : قوله عن المرجئة إنهم يقولون إن الصلاة والزكاة ليستا من الدين قد يكون قول بعضهم فإنهم كلهم يقولون ليستا من الإيمان ، وأما من الدين فقد حكى عن بعضهم أنه يقول ليستا من الدين ؛ ولا نفرق بين الإيمان والدين ، ومنهم من يقول بل هما من الدين ويفرق بين اسم الإيمان واسم الدين ، وهذا هو المعروف من أقوالهم التى يقولونها عن أنفسهم ، ولم أر أنا فى كتاب أحد منهم أنه قال الأعمال ليست من الدين ، بل يقولون ليست من الإيمان .

وكذلك حكى أبو عبيد عمن ناظره منهم ، فإن أبا عبيد وغيره يحتجون بأن الأعمال من الدين ؛ فذكر قوله : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٣] أنها نزلت فى حجة الوداع . قال أبو عبيد فأخبر أنه إنما كمل الدين الآن فى آخر الإسلام فى حجة النبى صلى الله عليه وسلم ، وزعم

هؤلاء أنه كان كاملا قبل ذلك بعشرين سنة من أول ما نزل عليه الوحى بمكة حين دعا الناس إلى الإقرار ، حتى قال : لقد اضطر بعضهم حين أدخلت عليه هذه الحجة إلى أن قال إن الإيمان ليس بجميع الدين ، ولكن الدين ثلاثة أجزاء الإيمان جزء ، والفرائض جزء ، والنوافل جزء .

قلت : هذا الذى قاله هذا هو مذهب القوم ، قال أبو عبيد : وهذا غير ما نطق به الكتاب ، ألا تسمع إلى قوله : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسلامُ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٩] وقال : ﴿ ومَن يَبْتَغِ غَيرَ الإِسلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنهُ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٨٥] وقال : ﴿ وَرَضِيْتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٣] فأخبر أن الإسلام هو الدين برمّته ؛ وزعم هؤلاء أنه ثلث الدين .

قلت : إنما قالوا إن الإيمان ثلث ولم يقولوا إن الإيمان ثلث الدين ، لكنهم فرقوا بين مسمى الإيمان ومسمى الدين ، وسنذكر إن شاء الله تعالى الكلام فى مسمى هذا ومسمى هذا ، فقد يحكى عن بعضهم أنه يقول : ليستا من الدين ولا يفرق بين اسم الإيمان والدين ، ويفرق بين اسم الإيمان واسم الدين ، والشافعى رضى الله عنه كان معظمًا لعطاء بن أبى رباح ويقول : ليس فى التابعين أتبع للحديث منه ، وكذلك أبو حنيفة قال : مارأيت مثل عطاء ، وقد أخذ الشافعى هذه الحجة عن عطاء فروى ابن أبى حاتم فى مناقب الشافعى ، حدثنا أبى ، حدثنا ميمون ، حدثنا أبو عثمان بن الشافعى ، سمعت أبى يقول ليلة للحميدى : ما يحتج عليهم يعنى أهل الإرجاء آية أحج من قوله : ﴿ ومَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ويُقِيمُوا الصَّلاةَ ويُؤْتُوا الزَّكاةَ وذٰلِكَ دِينُ القيِّمة ﴾ [سورة البينة ، الآية : ٥] .

وقال الشافعى رضى الله عنه فى كتاب الأم فى باب النية فى الصلاة يحتج بأن لا تجزئ صلاة إلا بنية بحديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات » ثم قال : وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون : الإيمان قول وعمل ونية ، لا يجزئ واحد من الثلاث إلا بالآخر .

وقال حنبل : حدثنا الحميدى قال وأخبرت أن ناسًا يقولون : من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والحج ولم يفعل من ذلك شيئًا حتى يموت ، ويصلى مستدبر القبلة حتى يموت ؛ فهو مؤمن ما لم يكن جاحدًا إذا علم أن تركه ذلك فيه إيمانه إذا كان مقرًا بالفرائض واستقبال القبلة . فقلت : هذا الكفر الصراح وخلاف كتاب الله وسنة رسوله وعلماء المسلمين . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ الآية ، وقال حنبل : سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول : من قال هذا فقد كفر بالله ورد على الله أمره وعلى الرسول ما جاء به .

قلت : وأما احتجاجهم بقوله للأمة : « أعتقها فإنها مؤمنة » فهو من حججهم المشهورة وبه احتج ابن كلاب وكان يقول : الإيمان هو التصديق والقول جميعا ، فكان قوله أقرب من قول جهم وأتباعه ، وهذا لا حجة فيه لأن الإيمان الظاهر الذى تجرى عليه الأحكام فى الدنيا لا يستلزم الإيمان فى الباطن الذى يكون صاحبه من أهل السعادة فى الآخرة ، فإن المنافقين الذين قالوا : ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وبالْيَوْمِ الآخِرِ وما هُم بِمُؤْمِنِين ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٨] وهم فى الظاهر مؤمنون ، ويصلُّون مع الناس ويصومون ويحجون ويغزون ، والمسلمون يناكحونهم ويوارثونهم كما كان المنافقون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، . ولم يحكم النبى صلى الله عليه وسلم فى المنافقين بحكم الكفار المظهرين للكفر ، لا فى مناكحتهم ولا موارثتهم ولا نحو ذلك ؛ بل لما مات عبد الله بن أبى بن سلول – وهو من أشهر الناس بالنفاق – ورثه ابنه عبد الله وهو من خيار المؤمنين . وكذلك سائر من كان يموت منهم يرثه ورثته المؤمنون ؛ وإذا مات لأحدهم وارث ورثوه مع المسلمين .

وقد تنازع الفقهاء فى المنافق الزنديق الذى يكتم زندقته هل يرث ويورث ؟ على قولين ، والصحيح أنه يرث ويورث وإن علم فى الباطن أنه منافق كما كان الصحابة على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن الميراث مبناه على الموالاة الظاهرة لا على المحبة التى فى القلوب ، فإنه لو علق بذلك لم تمكن معرفته ،

والحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها وهو ما أظهره من موالاة المسلمين ، فقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم » لم يدخل فيه المنافقون وإن كانوا فى الآخرة فى الدرك الأسفل من النار ، بل كانوا يورثون ويرثون ، وكذلك كانوا فى الحقوق والحدود كسائر المسلمين ، وقد أخبر الله عنهم أنهم يصلُّون ويزكون ، ومع هذا لم يقبل ذلك منهم فقال : ﴿ ومَا منَعَهُم أنْ تُقْبَلَ مِنْهُم نَفَقَاتُهُم إلَّا أَنَّهُم كَفَرُوا بِاللهِ وبِرَسُولِهِ ولَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إلَّا وهُم كُسَالَى ولا يُنْفِقُونَ إلَّا وهُم كَارِهُون ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ٥٤] وقال : ﴿ إنَّ المُنافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُم وإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ ولَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إلَّا قَلِيلًا ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١٤٢] .

وفى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق ، يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى شيطان قام فنقر أربعًا لا يذكر الله فيها إلا قليلا » وكانوا يخرجون مع النبى صلى الله عليه وسلم فى المغازى ، كما خرج ابن أُبّى فى غزوة بنى المصطلق وقال فيها : ﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنهَا الأَذَلَّ ﴾ [سورة المنافقون ، الآية : ٨] . وفى الصحيحين عن زيد بن أرقم قال : خرجنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر أصاب الناس فيه شدة ، فقال عبد الله بن أُبّى لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضُّوا من حوله ، وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته فأرسل إلى عبد الله بن أُبّى فسأله فاجتهد يمينه ما فعل ، وقالوا كذب زيد يا رسول الله ، فوقع فى نفسى مما قالوا شدة حتى أنزل الله تصديقى فى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ المُنَافِقُونَ ﴾ فدعاهم النبىّ صلى الله عليه وسلم ليستغفر لهم فلووا رءوسهم .

وفى غزوة تبوك استنفرهم النبى صلى الله عليه وسلم كما استنفر غيرهم ؛ فخرج بعضهم معه ، وبعضهم تخلفوا ، وكان فى الذين خرجوا معه من هم بقتله فى

الطريق ، هموا بحل حزام ناقته ليقع فى واد هناك فجاءه الوحى ، فأسرَّ إلى حذيفة أسماءهم ، ولذلك يقال هو صاحب السر الذى لا يعلمه غيره كما ثبت ذلك فى الصحيح ، ومع هذا ففى الظاهر تجرى عليهم أحكام أهل الإيمان .

وبهذا يظهر الجواب عن شبهات كثيرة تورد فى هذا المقام ، فإن كثيرًا من المتأخرين ما بقى فى المظهرين للإسلام عندهم إلا عدل أو فاسق ، وأعرضوا عن حكم المنافقين ، والمنافقون ما زالوا ولا يزالون إلى يوم القيامة ، والنفاق شعب كثيرة ، وقد كان الصحابة يخافون النفاق على أنفسهم ، ففى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » وفي لفظ لمسلم : « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم »(1) وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ، ومن كانت فيه شعبة منهن كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا ائتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر »(2) .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم أولا يصلى عليهم ويستغفر لهم حتى نهاه الله عن ذلك فقال : ﴿ ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهم ماتَ أبدًا ولا تَقُمْ على قَبرِه ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ٨٤] وقال : ﴿ اسْتَغْفِرْ لهم أوْ لا تَسْتَغفر لهم إن تستغفِر لهم سبعينَ مَرَّةً فلَن يغفر الله لهُم ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ٨٠] فلم يكن يصلى عليهم ولا يستغفر لهم ، ولكن دماءَهم وأموالهم معصومة لا يستحل منهم ما يستحله من الكفار الذين لا يظهرون أنهم مؤمنون ، بل يظهرون الكفر دون الإيمان فإنه صلى الله عليه وسلم قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلـٰه إلا الله وأنى رسول الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم

---

(1) أخرجه البخارى (حـ١ / ٣٣) ، ومسلم (حـ١ ــ إيمان / ١٠٧) ، والترمذى (حـ٥ / ٢٦٣١) عن أبى هريرة .

(2) أخرجه البخارى (حـ١ / ٣٤) ، ومسلم (حـ١ ــ إيمان / ١٠٦) ، وأبو داود (حـ٤ / ٤٦٨٨) ، والترمذى (حـ٥ / ٢٦٣٢) ، والنسائى (حـ٨ ص ١١٦) ، وأحمد (حـ٢ ص ١٨٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله »[1] ولما قال لأسامة بن زيد : « أقتلته بعد ما قال لا إلٰه إلا الله ؟ » قال : إنما قالها تعوذًا . قال : « هلا شققت عن قلبه ؟ » وقال : « إنى لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم » وكان إذا استؤذن فى قتل رجل يقول : أليس يتشهد ؟ فإذا قيل له إنه منافق ، قال ذاك ، فكان صلى الله عليه وسلم حكمه فى دمائهم وأموالهم كحكمه فى دماء غيرهم لا يستحل منها شيئًا إلا بأمر ظاهر ، مع أنه كان يعلم نفاق كثير منهم ، وفيهم من لم يكن يعلم نفاقه قال تعالى : ﴿ وممَّن حَوْلَكُم مِنَ الأَعْرَابِ مُنافِقُونَ ومِن أَهْلِ المدِينَة مَرَدُوا علَى النِّفاقِ لا تَعْلَمهُم نَحْنُ نعْلَمهُم سَنعذِّبُهُم مرَّتَيْنِ ثمَّ يردُّونَ إلَى عَذابٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ١٠١] وكان من مات منهم صلى عليه المسلمون الذين لا يعلمون أنه منافق ، ومن علم أنه منافق لم يصل عليه . وكان عمر إذا مات ميت لم يصل عليه حتى يصلى عليه حذيفة ، لأن حذيفة كان قد علم أعيانهم . وقد قال الله تعالى : ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ المؤْمِنَاتُ مُهاجِرَاتٍ فامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بإِيمانِهِنَّ فإنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكُفَّارِ ﴾ [سورة الممتحنة ، الآية : ١٠] فأمر بامتحانهن هنا وقال : ﴿ الله أَعْلَمُ بإيمانهِنَّ ﴾ .

والله تعالى لما أمر فى الكفَّارة بعتق رقبة مؤمنة لم يكن على الناس ألا يعتقوا إلا من يعلمون أن الإيمان فى قلبه ، فإن هذا كما لو قيل لهم لا تعتقوا إلا من علمتم أن الإيمان فى قلبه . وهم لم يؤمروا أن ينقبوا عن قلوب الناس ولا يشقوا بطونهم ، فإذا رأو رجلًا يظهر الإيمان جاز لهم عتقه ، وصاحب الجارية لما سأل النبى صلى الله عليه وسلم هل هى مؤمنة ؟ إنما أراد الإيمان الظاهر الذى يفرق به بين المسلم والكافر ، وكذلك من عليه نذر لم يلزمه أن لا يعتق إلا من علم أن الإيمان فى قلبه ، فإنه لا يعلم ذلك مطلقًا ، بل لا أحد من الخلق يعلم ذلك مطلقًا ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الخلق والله يقول له :

---

(١) صحيح متفق عليه أخرجه البخارى (حـ١٣ / ٧٢٨٤ / ٧٢٨٥) ، ومسلم (حـ١ ــ إيمان / ٣٢ ، ٣٣) ، وأبو داود (حـ٢ / ١٥٥٦) ، والترمذى (حـ٥ / ٢٦٠٦) ، والنسائى (حـ٥ ص ١٤) عن أبى هريرة .

﴿ وممَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأعْراب مُنافِقُونَ ومِنْ أهْلِ المدِينَةِ مَرَدُوا علَى النِّفاقِ لا تعْلَمُهُم نحْنُ نَعلمُهم سَنُعذِّبُهُم مرَّتَيْن ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ١٠١] فأولئك إنما كان النبى صلى الله عليه وسلم يحكم فيهم كحكمه فى سائر المؤمنين ، ولو حضرت جنازة أحدهم صلى عليها ، ولم يكن منهيًا عن الصلاة إلا على من علم نفاقه ، وإلا لزم أن ينقب عن قلوب الناس ويعلم سرائرهم ، وهذا لا يقدر عليه بشر .

ولهذا لما كشفهم الله بسورة براءة بقوله : ﴿ ومنهم ﴾ ﴿ ومنهم ﴾ صار يعرف نفاق ناس منهم لم يكن يعرف نفاقهم قبل ذلك ، فإن الله وصفهم بصفات علمها الناس منهم ، وما كان الناس يجزمون بأنها مستلزمة لنفاقهم ، وإن كان بعضهم يظن ذلك وبعضهم يعلمه ، فلم يكن نفاقهم معلومًا عند الجماعة ، بخلاف حالهم لما نزل القرآن ، ولهذا لما نزلت سورة براءة كتموا النفاق وما بقى يمكنهم من إظهاره أحيانًا ما كان يمكنهم قبل ذلك ، وأنزل الله تعالى : ﴿ لئِنْ لَم ينْتهِ المنافِقُونَ والَّذِينَ فى قُلوبِهِم مَرضٌ والمُرْجِفُونَ فى المدِينَة لَنُغْرِينَّكَ بِهِم ثمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إلَّا قَليلًا * ملْعُونِينَ أيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وقُتِّلُوا تَقْتِيلًا * سُنَّة اللَّهِ فى الَّذِيْنَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ولَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [سورة الأحزاب ، الآيات : ٦٠ – ٦٢] فلما توعدوا بالقتل إذا أظهروا النفاق كتموه .

ولهذا لما تنازع الفقهاء فى استتابة الزنديق فقيل يستتاب . واستدل من قال ذلك بالمنافقين الذين كان النبى صلى الله عليه وسلم يقبل علانيتهم ويكل أمرهم إلى الله فيقال له : هذا كان فى أول الأمر ، وبعد هذا أنزل الله : ﴿ مَلْعُونِينَ أيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوْا وقُتِّلُوا تَقْتِيْلًا ﴾ فعلموا أنهم إن أظهروه كما كانوا يظهرونه قتلوا ، فكتموه ، والزنديق هو المنافق ، وإنما يقتله من يقتله إذا ظهر منه أنه يكتم النفاق ، قالوا ولا تعلم توبته ، لأن غايته ما عنده أنه يظهر ما كان يظهر ، وقد كان يظهر الإيمان وهو منافق ، ولو قبلت توبة الزنادقة لم يكن سبيل إلى تقتيلهم ، والقرآن قد توعدهم بالقتل .

والمقصود أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما أخبر عن تلك الأمة بالإيمان الظاهر الذى علقت به الأحكام الظاهرة ، وإلا فقد ثبت عنه أن سعدًا لما شهد لرجل أنه مؤمن قال أو مسلم ، وكان يظهر من الإيمان ما تظهره الأمة وزيادة ، فيجب أن يفرق بين أحكام المؤمنين الظاهرة التى يحكم فيها الناس فى الدنيا ، وبين حكمهم فى الآخرة بالثواب والعقاب ، فالمؤمن المستحق للجنة لابد أن يكون، مؤمنًا فى الباطن باتفاق جميع أهل القبلة حتى الكرامية الذين يسمون المنافق مؤمنًا . ويقولون الإيمان هو الكلمة ، يقولون إنه لا ينفع فى الآخرة إلا الإيمان الباطن .

وقد حكى بعضهم عنهم أنهم يجعلون المنافقين من أهل الجنة ، وغلط عليهم إنما نازعوا فى الاسم لا فى الحكم بسبب شبهة المرجئة فى أن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل ، ولهذا أكثر ما اشترط الفقهاء فى الرقبة التى تجزىء فى الكفارة العمل الظاهر ، فتنازعوا هل يجزىء الصغير ؟ على قولين معروفين للسلف هما روايتان عن أحمد ، فقيل لا يجزىء عتقه ، لأن الإيمان قول وعمل ، والصغير لم يؤمن بنفسه إنما إيمانه تبع لأبويه فى أحكام الدنيا ، ولم يشترط أحد أن يعلم أنه مؤمن فى الباطن ، وقيل بل يجزىء عتقه لأن العتق من الأحكام الظاهرة وهو تبع لأبويه ، فكما أنه يرث منهما ويصلى عليه ولا يصلى إلا على مؤمن ، فإنه يعتق .

وكذلك المنافقون الذين لم يظهروا نفاقهم يصلى عليهم إذا ماتوا ويدفنون فى مقابر المسلمين من عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، والمقبرة التى كانت للمسلمين فى حياته وحياة خلفائه وأصحابه يدفن فيها كل من أظهر الإيمان وإن كان منافقًا فى الباطن ، لم يكن للمنافقين مقبرة يتميزون بها عن المسلمين فى شىء من ديار الإسلام ، كما يكون لليهود والنصارى مقبرة يتميزون بها ، ومن دفن فى مقابر المسلمين صلى عليه المسلمون . والصلاة لا تجوز على من علم نفاقه بنص القرآن فعلم أن ذلك بناء على الإيمان الظاهر ، والله يتولى السرائر ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى عليهم ويستغفر لهم حتى نهى عن ذلك . وعلل ذلك بالكفر فكان ذلك دليلا على أن كل من لم يعلم أنه كافر بالباطن جازت الصلاة عليه والاستغفار له وإن كانت فيه بدعة وإن كان له ذنوب .

وإذا ترك الإمام أو أهل العلم والدين الصلاة على بعض المتظاهرين ببدعة أو فجور زجرًا عنها لم يكن ذلك محرمًا للصلاة عليه والاستغفار له ، بل قال النبى صلى الله عليه وسلم فيمن كان يمتنع عن الصلاة عليه وهو الغال ، وقاتل نفسه ، والمدين الذى لا وفاء له : « صلوا على صاحبكم » وروى أنه كان يستغفر للرجل فى الباطن وإن كان فى الظاهر يدع ذلك زجرًا عن مثل مذهبه كما روى فى حديث محلم بن جثامة .

وليس فى الكتاب والسنة المظهرون للإسلام إلا قسمان : مؤمن أو منافق فالمنافق فى الدرك الأسفل من النار ، والآخر مؤمن ، ثم قد يكون ناقص الإيمان فلا يتناوله الاسم المطلق ، وقد يكون تام الإيمان ، وهذا يأتى الكلام عليه إن شاء الله فى مسألة الإسلام والإيمان ، وأسماء الفساق من أهل الملة ؛ لكن المقصود هنا أنه لا يجعل أحد بمجرد ذنب يذنبه ولا ببدعة ابتدعها ولو دعا الناس إليها — كافرًا فى الباطن ، إلا إذا كان منافقًا . فأما من كان فى قلبه الإيمان بالرسول وما جاء به ، وقد غلط فى بعض ما تأوله من البدع ، فهذا ليس بكافر أصلا ، والخوارج كانوا من أظهر الناس بدعة وقتالا للأمة وتكفيرًا لها ، ولم يكن فى الصحابة من يكفرهم لا على بن أبى طالب ولا غيره ، بل حكموا فيهم بحكمهم فى المسلمين الظالمين المعتدين كما ذكرت الآثار عنهم بذلك فى غير هذا الموضع .

وكذلك سائر الثنتين والسبعين فرقة من كان منهم منافقًا فهو كافر فى الباطن ، ومن لم يكن منافقًا بل كان مؤمنًا بالله ورسوله فى الباطن لم يكن كافرًا فى الباطن ، وإن أخطأ فى التأويل كائنًا ما كان خطؤه ، وقد يكون فى بعضهم شعبة من شعب النفاق ولا يكون فيه النفاق الذى يكون صاحبه فى الدرك الأسفل من النار . ومن قال إن الثنتين والسبعين فرقة كل واحد منهم يكفر كفرًا ينقل عن الملة ، فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، بل إجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة ، فليس فيهم من كفر كل واحد من الثنتين وسبعين فرقة . وإنما يكفر بعضهم بعضًا ببعض المقالات ، كما قد بسط الكلام عليهم فى غير هذا الموضع .

وإنما قال الأئمة بكفر هذا لأن هذا فرض ما لا يقع ، فيمتنع أن يكون الرجل لا يفعل شيئًا مما أمر به من الصلاة والزكاة والصيام والحج ، ويفعل ما يقدر عليه من المحرمات ، مثل الصلاة بلا وضوء إلى غير القبلة ، ونكاح الأمهات ، وهو مع ذلك مؤمن فى الباطن ، لا يفعل ذلك إلا لعدم الإيمان الذى فى قلبه . ولهذا كان أصحاب أبى حنيفة يكفرون أنواعًا ممن يقول كذا وكذا لما فيه من الاستخفاف ، ويجعلونه مرتدًا ببعض هذه الأنواع مع النزاع اللفظى الذى بين أصحابه وبين الجمهور فى العمل : هل هو داخل فى اسم الإيمان أو لا ، ولهذا فرض متأخرو الفقهاء مسألة يمتنع وقوعها وهو أن الرجل إذا كان مقرًا بوجوب الصلاة فدعى إليها وامتنع واستتيب ثلاثا مع تهديده بالقتل فلم يصل حتى قتل ، هل يموت كافرًا أو فاسقًا ؟ على قولين .

وهذا الفرض باطل فإنه يمتنع فى الفطرة أن يكون الرجل يعتقد أن الله فرضها عليه ، وأنه يعاقبه على تركها ويصبر على القتل ولا يسجد لله سجدة من غير عذر له فى ذلك . هذا لا يفعله بشر قط ، بل لا يضرب أحد ممن يقر بوجوب الصلاة إلا صلى ، لا ينتهى الأمر إلى القتل ، وسبب ذلك أن القتل ضرر عظيم لا يصبر عليه الإنسان إلا لأمر عظيم مثل لزومه لدين يعتقد أنه إن فارقه هلك فيصبر عليه حتى يقتل . وسواء كان الدين حقًا أو باطلا ، أما مع اعتقاده أن الفعل يجب عليه باطنًا وظاهرًا فلا يكون فعل الصلاة أصعب عليه من احتمال القتل قط .

ونظير هذا : لو قيل إن رجلا من أهل السنة قيل له ترض عن أبى بكر وعمر فامتنع عن ذلك حتى قتل مع محبته لهما واعتقاده فضلهما ، ومع عدم الأعذار المانعة من الترضى عنهما ، فهذا لا يقع قط ، وكذلك لو قيل إن رجلا يشهد أن محمدًا رسول الله باطنًا وظاهرًا وقد طلب منه ذلك ، وليس هناك رهبة ولا رغبة يمتنع لأجلها فامتنع منها حتى قتل ، فهذا يمتنع أن يكون فى الباطن يشهد أن محمدًا رسول الله ، ولهذا كان القول الظاهر من الإيمان الذى لا نجاة للعبد إلا به عند عامة السلف والخلف من الأولين والآخرين إلا الجهمية [جهمًا ومن

وافقه] ، فإنه إذا قدر أنه معذور لكونه أخرس أو لكونه خائفًا من قوم إن أظهر الإسلام آذوه ونحو ذلك ، فهذا يمكن ألا يتكلم مع إيمان فى قلبه كالمكره على كلمة الكفر قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وقلبُهُ مُطمئنٌّ بالإيمان ولٰكنْ منَ شَرَح بالكُفْر صَدْرًا فَعَلَيْهم غضبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عذابٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة النحل ، الآية : ١٠٦] وهذه الآية مما يدل على فساد قول جهم ، فإنه جعل كل من تكلم بالكفر من أهل وعيد الكفار إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان .

فإن قيل فقد قال تعالى : ﴿ ولٰكِنْ مَنْ شَرَح بالكُفْر صَدْرًا ﴾ قيل وهذا موافق لأولها فإنه من كفر من غير إكراه فقد شرح بالكفر صدرًا ، وإلا تناقض أول الآية وآخرها ، ولو كان المراد بمن كفر هو الشارح صدره وذلك يكون بلا إكراه لم يستثن المكره فقط ، بل كان يجب أن يستثنى المكره وغير المكره إذا لم يشرح صدره ، وإذا تكلم بكلمة الكفر طوعًا فقد شرح بها صدرًا وهى كفر ، وقد دل على ذلك قوله تعالى : ﴿ يَحْذَرُ المُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ * ولَئِنْ سَأَلْتَهُم لَيَقُولُنَّ إنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وآياتِهِ ورَسُولِهِ كُنْتُم تَسْتَهْزِءُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إيمَانِكُم إنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ منكُم نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [سورة التوبة ، الآيات : ٦٤ — ٦٦] فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم إنا تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له ، بل كنا نخوض ونلعب ، وبين أن الاستهزاء بآيات الله كفر ، ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدره بهذا الكلام ، ولو كان الإيمان فى قلبه منعه أن يتكلم بهذا الكلام .

والقرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه كقوله تعالى : ﴿ ويقُولُونَ آمنَّا باللَّهِ وبالرَّسُولِ وأَطَعْنَا ثُمَّ يتولَّى فَرِيقٌ منْهُم مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ ومَا أولٰئِكَ بالمُؤْمِنينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ ورَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُم مُعْرِضُونَ * وإنْ يَكُنْ لَهُمُ الحَقُّ يَأْتُوا إِلَيهِ مُذْعِنِينَ * ﴾

إلى قوله : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[سورة النور ، الآيات : ٤٧ - ٥١] فنفى الإيمان عمَّن تولَّى عن طاعة الرسول ، وأخبر أن المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا ؛ فبين أن هذا من لوازم الإيمان .

فصل

الإيمان المطلق يستلزم تكفير الذنوب :

فإن قيل : فإذا كان الإيمان المطلق يتناول جميع ما أمر الله به ورسوله ، فمتى ذهب بعض ذلك فيلزم تكفير أهل الذنوب كما تقوله الخوارج ، أو تخليدهم فى النار وسلبهم اسم الإيمان بالكلية كما يقوله المعتزلة ، وكلا هذين القولين شر من قول المرجئة ، فإن المرجئة منهم جماعة من العلماء والعباد المذكورين عند الأمة بخير ، وأما الخوارج والمعتزلة فأهل السنة والجماعة من جميع الطوائف مطبقون على ذمهم ؟

قيل أولًا : ينبغى أن يعرف أن القول الذى لم يوافق الخوارج والمعتزلة عليه أحد من أهل السنة هو القول بتخليد أهل الكبائر فى النار ، فإن هذا القول من البدع المشهورة وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، وسائر أئمة المسلمين على أنه لا يخلد فى النار أحد ممن فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، واتفقوا أيضًا على أن نبينا صلى الله عليه وسلم يشفع فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته ، وفى الصحيحين عنه أنه قال : « لكل نبى دعوة مستجابة وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة » وهذه أحاديث مذكورة فى مواضعها ، وقد نقل بعض الناس عن الصحابة فى ذلك خلافًا كما روى عن ابن عباس أن القاتل لا توبة له ؛ وهذا غلط على الصحابة ؛ فإنه لم يقل أحد منهم إن النبى صلى الله عليه وسلم لا يشفع لأهل الكبائر ولا قال إنهم يخلدون فى النار ، ولكن ابن عباس فى إحدى الروايتين عنه قال : إن القاتل لا توبة له ، وعن أحمد بن حنبل

فى قبول توبة القاتل روايتان أيضًا . والنزاع فى التوبة غير النزاع فى التخليد ، وذلك أن القتل يتعلق به حق آدمى ، فلهذا حصل فيه النزاع .

وأما قول القائل : إن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله ، فهذا ممنوع وهذا هو الأصل الذى تفرعت عنه البدع فى الإيمان فإنهم ظنوا أنه متى ذهب بعضه ذهب كله لم يبق منه شىء . ثم قالت الخوارج والمعتزلة هو مجموع ما أمر الله به ورسوله وهو الإيمان المطلق كما قاله أهل الحديث ؛ قالوا فإذا ذهب شىء منه لم يبق مع صاحبه من الإيمان شىء فيخلد فى النار ، وقالت المرجئة على اختلاف فرقهم لا تذهب الكبائر وترك الواجبات الظاهرة منه إذ لو ذهب شىء منه لم يبق منه شىء فيكون شيئًا واحدًا يستوى فيه البر والفاجر .

ونصوص الرسول وأصحابه تدل على ذهاب بعضه وبقاء بعضه كقوله : « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » ولهذا كان أهل السنة والحديث على أنه يتفاضل ، وجمهورهم يقولون يزيد وينقص ، ومنهم من يقول يزيد ولا يقول ينقص كما روى عن مالك فى إحدى الروايتين ، ومنهم من يقول يتفاضل كعبد الله بن المبارك ، وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان منه عن الصحابة ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة فروى الناس من وجوه كثيرة مشهورة عن حماد بن سلمة عن أبى جعفر عن جده عمير بن حبيب الخطمى وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الإيمان يزيد وينقص ؛ قيل له : وما زيادته وما نقصانه ؟ قال : إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبَّحناه فتلك زيادة ؛ وإذا غفلنا ونسينا فذلك نقصانه . ويروى إسماعيل بن عياش عن جرير بن عثمان عن الحارث بن محمد عن أبى الدرداء قال : الإيمان يزيد وينقص .

وقال أحمد بن حنبل : حدثنا يزيد ، حدثنا جرير بن عثمان قال : سمعت أشياخنا أو بعض أشياخنا أن أبا الدرداء قال : إن من فِقْه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه ، ومن فِقْه العبد أن يعلم أيزداد هو أم ينقص ، وإن من فِقْه الرجل أن يعلم نزغات الشيطان أنَّى تأتيه . وروى إسماعيل بن عياش عن صفوان بن عمرو عن عبد الله بن ربيعة الحضرمى عن أبى هريرة قال : الإيمان يزيد وينقص ،

وقال أحمد بن حنبل : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا محمد بن طلحة ، . عن زبيد عن ذر قال : كان عمر بن الخطاب يقول لأصحابه : هلموا نزداد إيمانًا ، فيذكرون الله عز وجل ، وقال أبو عبيد فى الغريب فى حديث علىّ : « إن الإيمان يبدو كلمظة فى القلب كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة » يروى ذلك عن عثمان بن عبد الله بن عمرو بن هند الجملى الأصمعى ، اللمظة مثل النكتة أو نحوها ، وقال أحمد بن حنبل : حدثنا وكيع عن شريك عن هلال عن عبد الله بن عكيم قال : سمعت ابن مسعود يقول فى دعائه : اللهم زدنا إيمانًا ويقينًا وفقهًا ، وروى سفيان الثورى ، عن جامع بن شداد ، عن الأسود بن هلال قال : كان معاذ بن جبل يقول لرجل : اجلس بنا نؤمن نذكر الله تعالى ؛ وروى أبو اليمان حدثنا صفوان ، عن شريح بن عبيد أن عبد الله بن رواحة كان يأخذ بيد الرجل من أصحابه فيقول : قم بنا نؤمن ساعة ، فنجلس فى مجلس ذكر ، وهذه الزيادة أثبتها الصحابة بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن كله .

وصح عن عمار بن ياسر أنه قال : « ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان : الإنصاف من نفسه ، والإنفاق من الإقتار ؛ وبذل السلام للعالم » ذكره البخارى فى صحيحه ، وقال جندب بن عبد الله وابن عمر وغيرهما : تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانًا ، والآثار فى هذا كثيرة ، رواها المصنفون فى هذا الباب عن الصحابة والتابعين فى كتب كثيرة معروفة .

والزيادة قد نطق بها القرآن فى عدة آيات كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُم وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِم آيَاتُهُ زَادَتْهُم إِيْمَانًا ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٢] وهذه زيادة إذا تليت عليهم الآيات أى وقت تليت ليس هو تصديقهم بها عند النزول ، وهذا أمر يجده المؤمن إذا تليت عليه الآيات زاد فى قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن ؛ حتى كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ ، ويحصل فى قلبه من الرغبة فى الخير والرهبة من الشر ما لم يكن ؛ فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته ، وهذا زيادة الإيمان ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُم فاخْشَوهُم فَزَادَهُم

إيمانًا وقالوا حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلَ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٧٣] فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو لم تكن عند آية نزلت فازدادوا يقينًا وتوكلًا على الله ، وثباتًا على الجهاد ، وتوحيدًا بألا يخافوا المخلوق ، بل يخافون الخالق وحده ، وقال تعالى : ﴿ وإذَا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هٰذِهِ إيمانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُم إيمانًا وهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَتْهُم رِجْسًا إلَى رِجْسِهِم ﴾ [سورة التوبة ، الآيات : ١٢٤ ، ١٢٥] وهذه الزيادة ليست مجرد التصديق بأن الله أنزلها بل زادتهم إيمانًا بحسب مقتضاها .

فإن كانت أمرًا بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة ، وإن كانت نهيًا عن شىء انتهوا عنه فكرهوه ، ولهذا قال : ﴿ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ والاستبشار غير مجرد التصديق ، وقال تعالى : ﴿ والَّذِينَ آتَيْنَاهُم الكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إلَيْكَ ومِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنْكِرُ بَعضَه ﴾ [سورة الرعد ، الآية : ٣٦] والفرح بذلك من زيادة الإيمان ، قال تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ [سورة يونس ، الآية : ٥٨] وقال تعالى : ﴿ ويومَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ [سورة الروم ، الآيتان: ٤ ، ٥] وقال تعالى : ﴿ ومَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إلَّا مَلَائِكَةً وما جَعَلْنَا عِدَّتَهُم إلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُتُوا الكِتَابَ ويَزدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إيمانًا ﴾ [سورة المدثر ، الآية : ٣١] وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إيمانًا مَعَ إيمانِهِم ﴾ [سورة الفتح ، الآية : ٤] وهذه نزلت لما رجع النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الحديبية ؛ فجعل السكينة موجبة لزيادة الإيمان ، والسكينة طمأنينة فى القلب غير علم القلب وتصديقه ، ولهذا قال يوم حنين : ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وعَلَى المُؤْمِنِينَ وأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى ﴾ [سورة الفتح ، الآية : ٢٦] وقال تعالى : ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إذْ هُمَا فِى الغَارِ إذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَن إنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيهِ وأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ٤٠]

ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن ولا يوم الغار ؛ وإنما أنزل سكينته وطمأنينته من خوف العدو ، فلما أنزل السكينة فى قلوبهم مرجعهم من الحديبية ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم دل على أن الإيمان المزيد حال للقلب وصفة له وعمل مثل طمأنينته وسكونه ويقينه ، واليقين قد يكون بالعمل والطمأنينة كما يكون بالعلم ، والريب المناف لليقين يكون ريبًا فى العلم وريبًا فى طمأنينة القلب ، ولهذا جاء فى الدعاء المأثور : « اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به إلى جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا » .

وفى حديث الصديق الذى رواه أحمد والترمذى وغيرهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سلوا الله العافية واليقين فما أعطى أحد بعد اليقين شيئًا خيرًا من العافية ، فسلوهما الله تعالى »[1] فاليقين عند المصائب بعد العلم بأنَّ الله قدرها سكينة للقلب وطمأنينته وتسليمه ، وهذا من تمام الإيمان بالقدر خيره وشره كما قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [سورة التغابن ، الآية : ١١] قال علقمة ويروى عن ابن مسعود هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم ، وقوله تعالى : ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ وهداه لقلبه هو زيادة فى إيمانه ، كما قال تعالى : ﴿ والَّذِينَ اهْتَدَوا زَادَهُم هُدًى ﴾ [سورة محمد ، الآية : ١٧] وقال : ﴿ إِنَّهُم فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِم وزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [سورة الكهف ، الآية : ١٣] .

ولفظ الإيمان أكثر ما يذكر فى القرآن مقيَّدًا فلا يكون ذلك اللفظ متناولًا لجميع ما أمر الله به ، بل يجعل موجبًا للوازمه وتمام ما أمر به ، وحينئذ يتناوله الاسم المطلق قال تعالى : ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وأَنْفَقُوا لَهُم أَجْرٌ كَبِيرٌ * ومَا لَكُم لَا تُؤْمِنُونَ بِالله والرَّسُولُ يَدْعُوكُم لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُم وقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُم إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ * هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِنَ الظُّلُمَاتِ

(١) أخرجه الترمذى (حـ٥ / ٣٥٥٨) ، وابن ماجه (حـ٢ / ٣٨٤٩) ، وأحمد (حـ١ ص٣ ، ٥ ، ٧ ، ٩) وصححه الألبانى .

إِلَى النُّورِ ﴾ [سورة الحديد ، الآيات : ٧ – ٩] وقال تعالى فى آخر السورة : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُم كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِر لَكُمْ واللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة الحديد ، الآية : ٢٨] وقد قال بعض المفسرين فى الآية الأولى : إنها خطاب لقريش ، وفى الثانية : إنها خطاب لليهود والنصارى ، وليس كذلك ، فإن الله لم يقل قط للكفار ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ثم قال بعد ذلك : ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلى شَىءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [سورة الحديد ، الآية : ٢٩] وهذه السورة مدنية باتفاق لم يخاطب بها المشركين بمكة وقد قال : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ والرَّسُولُ يَدْعُوكُم لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُم وقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُم إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الحديد ، الآية : ٨] وهذا لا يخاطب به كافر ، وكفّار مكة لم يكن أخذ ميثاقهم ، وإنما أخذ ميثاق المؤمنين ببيعتهم له ، فإن كل من كان مسلمًا مهاجرًا كان يبايع النبى صلى الله عليه وسلم كما بايعه الأنصار ليلة العقبة وإنما دعاهم إلى تحقيق الإيمان وتكميله بأداء ما يجب من تمامه باطنًا وظاهرًا ، كما نسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم فى كل صلاة ، وإن كان قد هدى المؤمنين للإقرار بما جاء به الرسول جملة ، لكن الهداية المفصلة فى جميع ما يقولونه ويفعلونه فى جميع أمورهم لم تحصل ، وجميع هذه الهداية المفصلة الخاصة هى من الإيمان المأمور به ، وبذلك يخرجهم الله من الظلمات إلى النور .

فصل

وجوه زيادة الإيمان :

وزيادة الإيمان الذى أمر الله به ، والذى يكون من عباده المؤمنين من وجوه :

أحدها : الإجمال والتفصيل فيما أمروا به ، فإنه وإن وجب على جميع الخلق الإيمان بالله ورسوله ، ووجب على كل أمة التزام ما يأمر به رسولهم مجملًا ، فمعلوم أنه لا يجب فى أول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله ، ولا يجب

على كل عبد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول ما يجب على من بلغه غيره ، فمن عرف القرآن والسنن ومعانيها لزمه من الإيمان المفصل بذلك ما لا يلزم غيره ، ولو آمن الرجل بالله وبالرسول باطنًا وظاهرًا ثم مات قبل أن يعرف شرائع الدين مات مؤمنًا ، مؤمنًا بما وجب عليه من الإيمان ، وليس ما وجب عليه ولا ما وقع منه مثل إيمان من عرف الشرائع فآمن بها وعمل بها ، بل إيمان هذا أكمل وجوبًا ووقوعًا ، فإن ما وجب عليه من الإيمان أكمل وما وقع منه أكمل .

وقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٣] أى فى التشريع بالأمر والنهى ليس المراد أن كل واحد من الأمة وجب عليه ما يجب على سائر الأمة ، وأنه فعل ذلك ، بل فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه وصف النساء بأنهن ناقصات عقل ودين ، وجعل نقصان عقلها أن شهادة امرأتين شهادة رجل واحد ، ونقصان دينها أنها إذا حاضت لا تصوم ولا تصلى ، وهذا النقصان ليس هو نقصان مما أمرت ؛ فلا تعاقب على هذا النقصان ، لكن من أمر بالصلاة والصوم ففعله كان دينه كاملًا بالنسبة إلى هذه الناقصة الدين .

الوجه الثانى : الإجمال والتفصيل فيما وقع منهم ، فمن آمن بما جاء به الرسول مطلقًا فلم يكذبه قط ، لكن أعرض عن معرفة أمره ونهيه وخبره وطلب العلم الواجب عليه فلم يعلم الواجب عليه ولم يعمله ، بل اتبع هواه . وآخر طلب علم ما أمر به فعمل به ، وآخر طلب علمه فعلمه وآمن به . فهؤلاء وإن اشتركوا فى الوجوب لكن من طلب علم التفصيل وعمل به فإيمانه أكمل ممن عرف ما يجب عليه والتزمه وأقر به لكنه لم يعمل بذلك كله . وهذا المقر بما جاء به الرسول المعترف بذنبه الخائف من عقوبته على ترك العمل ، أكمل إيمانًا ممن لم يطلب معرفة ما أمره به الرسول ولا عمل بذلك ، ولا هو خائف أن يعاقب ، بل هو فى غفلة من تفصيل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم مع أنه مقرّ بنبوته باطنًا وظاهرًا .

فكل ما علم القلب ما أخبر به الرسول فصدقه وما أمر به فالتزمه ، كان ذلك

زيادة فى إيمانه على من لم يحصل له ذلك ؛ وإن كان معه التزام عام وإقرار عام .

وكذلك من عرف أسماء الله ومعانيها فآمن بها كان إيمانه أكمل ممن لم يعرف تلك الأسماء ، بل آمن بها إيمانًا مجملًا ، أو عرف بعضها ؛ وكلما ازداد الإنسان معرفة بأسماء الله وصفاته وآياته كان إيمانه به أكمل .

الثالث : أن العلم والتصديق نفسه يكون بعضه أقوى من بعض وأثبت وأبعد من الشك والريب ، وهذا أمر يشهده كل أحد من نفسه ؛ كما أن الحس الظاهر بالشيء الواحد مثل رؤية الناس للهلال ، وإن اشتركوا فيها فبعضهم تكون رؤيته أتم من بعض ؛ وكذلك سماع الصوت الواحد وشم الرائحة الواحدة وذوق النوع الواحد من الطعام ؛ فكذلك معرفة القلب وتصديقه يتفاضل أعظم من ذلك من وجوه متعددة ؛ والمعانى التى يؤمن بها من معانى أسماء الرب وكلامه يتفاضل الناس فى معرفتها أعظم من تفاضلهم فى معرفة غيرها .

الرابع : أن التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذى لا يستلزم عمله ، فالعلم الذى يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذى لا يعمل به ، وإذا كان شخصان يعلمان أن الله حق ورسوله حق والجنة حق وهذا علمه أوجب له محبة الله وخشيته والرغبة فى الجنة والهرب من النار ، والآخر علمه لم يوجب ذلك ؛ فعلم أن الأول أكمل ، فإن قوة المسبب دليل على قوة السبب ، وهذه الأمور نشأت عن العلم ، فالعلم بالمحبوب يستلزم طلبه ، والعلم بالمخوف يستلزم الهرب منه ، فإذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ليس المخبر كالمعاين »[1] فإن موسى لما أخبره ربه أن قومه عبدوا العجل لم يلق الألواح ، فلما رآهم قد عبدوه ألقاها ، وليس ذلك لشك موسى فى خبر الله لكن المخبر وإن جزم بصدق المخبر فقد لا يتصور المخبر به فى نفسه كما يتصوره إذا عاينه ، بل يكون قلبه مشغولًا عن تصور المخبر به وإن كان مصدقًا

---

(١) أخرجه أحمد (حـ ص ٢٧١) ، وابن حبان فى صحيحه (٢٠٨٧ ـــ موارد الظمآن) والبزار (حـ١ / ٢٠١ ـــ كشف الأستار) ، وغيرهم . انظر كتابنا جامع الأحاديث القدسية (حـ٦ / ٩١١) طبع دار الريان للتراث .

به ، ومعلوم أنه عند المعاينة يحصل له من تصور المخبر به ما لم يكن عند الخبر ، فهذا التصديق أكمل من ذلك التصديق .

الخامس : أن أعمال القلوب مثل محبة الله ورسوله ، وخشية الله تعالى ورجائه ونحو ذلك ، هى كلها من الإيمان كما دل على ذلك الكتاب والسنة واتفاق السلف ، وهذه يتفاضل الناس فيها تفاضلًا عظيمًا .

السادس : أن الأعمال الظاهرة مع الباطنة هى أيضًا من الإيمان والناس يتفاضلون فيها .

السابع : ذكر الإنسان بقلبه ما أمره الله به ، واستحضاره لذلك بحيث لا يكون غافلًا عنه أكمل ممن صدق به وغفل عنه ، فإن الغفلة تضاد كمال العلم والتصديق والذكر والاستحضار يكمل العلم واليقين ؛ ولهذا قال عمر بن حبيب من الصحابة : إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته ، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فتلك نقصانه ، كان معاذ بن جبل يقول لأصحابه : اجلسوا بنا ساعة نؤمن . قال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ [سورة الكهف ، الآية : ٢٨] وقال تعالى : ﴿ وذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الذاريات ، الآية : ٥٥] وقال تعالى : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى ﴾ [سورة الأعلى ، الآيات : ١٠ – ١١] ثم كلما تذكر الإنسان ما عرفه قبل ذلك وعمل به حصل له معرفة شيء آخر لم يكن عرفه قبل ذلك ، وعرف من معانى أسماء الله وآياته ما لم يكن عرفه قبل ذلك ، كما فى الأثر : « من عمل بما علم ورَّثه الله علم ما لم يعلم » وهذا أمر يجده فى نفسه كل مؤمن .

وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم : « مَثَل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه مَثل الحى والميت » قال تعالى : ﴿ وإذَا تُلِيَتْ عَلَيهِم آيَاتُهُ زَادَتْهُم إيمانًا ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٢] وذلك أنها تزيدهم علم ما لم يكونوا قبل ذلك علموه ، وتزيدهم عملًا بذلك العلم ، وتزيدهم تذكرًا لما كانوا نسوه وعملًا

بتلك التذكرة ، وكذلك ما يشاهده العباد من الآيات فى الآفاق وفى أنفسهم قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وفِى أَنْفُسِهِم حتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الحَقُّ ﴾ [سورة فصلت ، الآية : ٥٣] أى القرآن حق ، ثم قال : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ علَى كلِّ شَىءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سورة فصلت ، الآية : ٥٣] فإن الله شهيد فى القرآن بما أخبر به ، فآمن به المؤمن ثم أراهم فى الآفاق وفى أنفسهم من الآيات ما يدل على مثل ما أخبر به فى القرآن ، فبينت لهم هذه الآيات أن القرآن حق مع ما كان قد حصل لهم قبل ذلك .

وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوَقَهُم كَيفَ بَنَيْنَاهَا وزَيَّنَّاهَا وما لَهَا مِن فُرُوجٍ * والأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ وأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ [سورة ق ، الآيات : ٦ - ٨] فالآيات المخلوقة والمتلوّة فيها تبصرة وفيها تذكره : تبصرة من العمى ، وتذكرة من الغفلة ؛ فيبصر من لم يكن عرف يعرف ، ويذكر من عرف ونسى ، والإنسان يقرأ السورة مرات حتى سورة الفاتحة ويظهر له فى أثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك ، حتى كأنها تلك الساعة نزلت ، فيؤمن بتلك المعانى ويزداد علمه وعمله ، وهذا موجود فى كل من قرأ القرآن بتدبر ، بخلاف من قرأه مع الغفلة ، ثم كلما فعل شيئًا مما أمر به استحضر أنه أمر به فصدق الأمر ؛ فحمل له فى تلك الساعة من التصديق فى قلبه ما كان غافلًا عنه ، وإن لم يكن مكذبًا .

الثامن : أن الإنسان قد يكون مكذبًا ومنكرًا لأمور لا يعلم أن الرسول أخبر بها وأمر بها ولو علم ذلك لم يكذب ولم ينكر ، بل قلبه جازم بأنه لايخبر إلا بصدق ولا يأمر إلا بحق ، ثم يسمع الآية أو الحديث أو يتدبر ذلك أو يفسر له معناه ؛ أو يظهر له ذلك بوجه من الوجوه ، فيصدق بما كان مكذبًا به ، ويعرف ما كان منكرًا ، وهذا تصديق جديد وإيمان جديد ازداد به إيمانه ، ولم يكن قبل ذلك كافرًا بل جاهلًا ؛ وهذا وإن أشبه المجمل قد يكون قلبه سليمًا عن تكذيب وتصديق لشىء من التفاصيل ، وعن معرفة وإنكار لشىء من ذلك ،

فيأتيه التفصيل بعد الإجمال على قلب ساذج ، وأما كثير من الناس بل من أهل العلوم والعبادات فيقوم بقلوبهم من التفصيل أمور كثيرة تخالف ما جاء به الرسول ؛ وهم لا يعرفون أنها تخالف ، فإذا عرفوا رجعوا . وكل من ابتدع فى الدين قولًا أخطأ فيه أو عمل عملًا أخطأ فيه وهو مؤمن بالرسول أو عرف ما قاله وآمن به ، لم يعدل عنه ، هو من هذا الباب ، وكل مبتدع قصده متابعة الرسول فهو من هذا الباب ، فمن علم ما جاء به الرسول وعمل به أكمل ممن أخطأ ذلك ، ومن علم الصواب بعد الخطأ وعمل به فهو أكمل ممن لم يكن كذلك .

فصل

من أثبت إسلامًا بدون إيمان :

وقد أثبت فى القرآن إسلامًا بلا إيمان فى قوله تعالى : ﴿ قَالتِ الأعْرابُ آمنَّا قُلْ لَم تؤْمِنُوا ولـٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا ولمَّا يدْخُلِ الإيمانُ فى قُلوبِكُم وإنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَه لا يَلِتْكُم من أعمالِكم شيئًا ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٤] وقد ثبت فى الصحيحين عن سعد بن أبى وقاص قال أعطى النبى صلى الله عليه وسلم رهطًا ، وفى رواية قسم قسمًا وترك فيهم من لم يعطه ، وهو أعجبهم إلىّ ، فقلت : يا رسول الله مالك عن فلان فو الله إنى لأراه مؤمنًا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أو مسلمًا » أقولها ثلاثًا ويرددها علىَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثًا ثم قال : « إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلىَّ منه مخافة أن يكبه الله فى النار »[1] وفى رواية فضرب بين عنقى وكتفى وقال : أقتال أى سعد .

فهذا الإسلام الذى نفى الله عن أهله دخول الإيمان فى قلوبهم هل هو إسلام يثابون عليه ؟ أو هو من جنس إسلام المنافقين ؟ فيه قولان مشهوران للسلف والخلف :

---

(١) أخرجه البخارى (حـ١ / ٢٧) ، ومسلم (حـ١ ــ إيمان / ٢٣٧) ، والنسائى (حـ٨ ص ١٠٣ ، ١٠٤) .

أحدهما : أنه إسلام يثابون عليه ويخرجهم من الكفر والنفاق ، وهذا مروى عن الحسن ، وابن سيرين ، وإبراهيم النخعى ، وأبى جعفر الباقر ، وهو قول حماد بن زيد ، وأحمد بن حنبل ، وسهل بن عبد الله التسترى ، وأبى طالب المكى وكثير من أهل الحديث والسنة والحقائق .

قال أحمد بن حنبل : حدثنا مؤمل عن عمار بن يزيد قال : سمعت هشامًا يقول : كان الحسن ومحمد يقولان : مسلم ، ويهابان : مؤمن ، وقال أحمد بن حنبل : حدثنا أبو سلمة الخزاعى قال : قال مالك وشريك وأبو بكر بن عياش ، وعبد العزيز بن أبى سلمة ، وحماد بن سلمة ، وحماد بن زيد : الإيمان المعرفة والإقرار والعمل إلا أن حماد بن زيد يفرق بين الإسلام والإيمان ، يجعل الإيمان خاصًّا والإسلام عامًّا .

والقول الثانى : أن هذا الإسلام هو الاستسلام خوف السبى والقتل مثل إسلام المنافقين ، قال وهؤلاء كفار ، فإن الإيمان لم يدخل فى قلوبهم ، ومن لم يدخل الإيمان فى قلبه فهو كافر ، وهذا اختيار البخارى ومحمد بن نصر المروزى ، والسلف مختلفون فى ذلك .

قال محمد بن نصر : حدثنا إسحاق ، أنبأنا جرير عن مغيرة قال : أتيت إبراهيم النخعى فقلت : إن رجلًا خاصمنى يقال له سعيد العنبرى ، فقال إبراهيم : ليس بالعنبرى ولكنه زبيدى ، قوله : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ولٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٤] فقال هو الاستسلام ، فقال إبراهيم : لا ، هو الإسلام .

وقال : حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان عن مجاهد : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ولٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ قال استسلمنا خوف السبى والقتل ولكن هذا منقطع ، سفيان لم يدرك مجاهدًا والذين قالوا إن هذا الإسلام هو كإسلام المنافقين لا يثابون عليه قالوا : لأن الله نفى عنهم الإيمان ، ومن نفى عنه الإيمان فهو كافر ، وقال هؤلاء : الإسلام هو الإيمان ،

وكل مسلم مؤمن ، وكل مؤمن مسلم ، ومن جعل الفساق مسلمين غير مؤمنين لزمه ألا يجعلهم داخلين فى قوله تعالى : ﴿ يأَيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا إذا قُمْتُم إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٦] وفى قوله تعالى : ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا إذا نُودى للصَّلاة مِنْ يَوْم الجُمُعَةِ ﴾ [سورة الجمعة ، الآية : ٩] وأمثال ذلك فإنهم إنما دعوا باسم الإيمان لا باسم الإسلام . فمن لم يكن مؤمنًا لم يدخل فى ذلك .

وجواب هذا أن يقال : الذين قالوا من السلف إنهم خرجوا من الإيمان إلى الإسلام لم يقولوا إنه لم يبق معهم من الإيمان شىء ، بل هذا قول الخوارج والمعتزلة وأهل السنة الذين قالوا : الفساق يخرجون من النار بالشفاعة ، وإن معهم إيمانا يخرجون به من النار . لكن لا يطلق عليهم اسم الإيمان ، لأن الإيمان المطلق هو الذى يستحق صاحبه الثواب ودخول الجنة ، وهؤلاء ليسوا من أهله ، وهم يدخلون فى الخطاب بذلك هو لمن دخل فى الإيمان وإن لم يستكمله ، فإنه إنما خوطب ليفعل تمام الإيمان ، فكيف يكون قد أتمه قبل الخطاب ، وإلا كنا قد تبينا أن هذا المأمور من قبل الخطاب وإنما صار من الإيمان بعد أن أمروا به ، فالخطاب بـ يأيها الذين آمنوا غير قوله : ﴿ إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وجَاهَدُوا بأَمْوَالِهِمْ وأَنْفُسِهِم ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٥] ونظائره فإن الخطاب بـ يأيها الذين آمنوا يدخل فيه من أظهر الإيمان وإن كان منافقًا فى الباطن يدخل فيه فى الظاهر ، فكيف لا يدخل فيه من لم يكن منافقًا وإن لم يكن من المؤمنين حقًا ، وحقيقة أن من لم يكن من المؤمنين حقًا يقال فيه إنه مسلم ومعه إيمان يمنعه الخلود فى النار ، وهذا متفق عليه بين أهل السنة ، لكن هل يطلق عليه اسم الإيمان ؟ هذا هو الذى تنازعوا فيه فقيل يقال مسلم ، ولا يقال مؤمن ، وقيل بل يقال مؤمن .

والتحقيق أن يقال إنه مؤمن ناقص الإيمان ، مؤمن بإيمانه ، فاسق بكبيرته ، ولا يعطى الاسم المطلق ، فإن الكتاب والسنة نفيا عنه الاسم المطلق ، واسم الإيمان يتناوله فيما أمر الله به ورسوله ، لأن ذلك إيجاب عليه وتحريم عليه وهو

لازم له كما يلزمه غيره ، وإنما الكلام فى اسم المدح المطلق ، وعلى هذا فالخطاب بالإيمان يدخل فيه ثلاث طوائف : يدخل فيه المؤمن حقًا ، ويدخل فيه المنافق فى أحكامه الظاهرة وإن كانوا فى الآخرة فى الدرك الأسفل من النار ، وهو فى الباطن ينفى عنه الإسلام والإيمان ، وفى الظاهر يثبت له الإسلام والإيمان الظاهر ، ويدخل فيه الذين أسلموا و لم تدخل حقيقة الإيمان فى قلوبهم ، لكن معهم جزء من الإيمان وإسلام يثابون عليه ، ثم قد يكونون مفرطين فيما فرض عليهم وليس معهم من الكبائر ما يعاقبون عليه كأهل الكبائر ، لكن يعاقبون على ترك المفروضات ، وهؤلاء كالأعراب المذكورين فى الآية وغيرهم ، فإنهم قالوا آمنا من غير قيام منهم بما أمروا به باطنًا وظاهرًا ، فلا دخلت حقيقة الإيمان فى قلوبهم ، ولا جاهدوا فى سبيل الله ، وقد كان دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم إلى الجهاد ، وقد يكونون من أهل الكبائر المعرضين للوعيد كالذين يصلون ويزكون ويجاهدون ويأتون الكبائر ، وهؤلاء لا يخرجون من الإسلام بل هم مسلمون ، ولكن بينهم نزاع لفظى : هل يقال إنهم مؤمنون كما سنذكره إن شاء الله .

وأما الخوارج والمعتزلة فيخرجونهم من اسم الإيمان والإسلام ، فإن الإيمان والإسلام عندهم واحد ، فإذا خرجوا عندهم من الإيمان خرجوا من الإسلام ، لكن الخوارج تقول هم كفار . والمعتزلة تقول : لا مسلمون ولا كفار ، ينزلونهم منزلة بين المنزلتين ، والدليل على أن الإسلام المذكور فى الآية هو إسلام يثابون عليه ، وأنهم ليسوا منافقين أنه قال : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لم تُؤْمِنُوا ولَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ولمَّا يَدْخُلِ الإيمَانُ فى قُلوبِكُم ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٤] ثم قال : ﴿ وإنْ تُطِيعُوا اللَّهَ ورسُولَه لا يَلِتكُم مِنْ أعْمَالِكُم شَيْئًا ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٤] فدل أنهم إذا أطاعوا الله ورسوله مع هذا الإسلام آجرهم الله على الطاعة ، والمنافق عمله حابط فى الآخرة .

وأيضًا فإنه وصفهم بخلاف صفات المنافقين ، وصفهم بكفر فى قلوبهم ، وأنهم يبطنون خلاف ما يظهرون كما قال تعالى : ﴿ ومِنَ النَّاسِ من يَقُولُ آمنَّا بِاللَّهِ وباليَوْمِ الآخِرِ ومَا هُمْ بمؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ والَّذِينَ آمنُوا وما

يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُم وما يَشْعُرُونَ * فى قُلُوبِهم مَرضٌ فَزَادَهُم اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [سورة البقرة ، الآيات : ٨ – ١٠] . وقال : ﴿ إِذَا جَاءَكَ المنَافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ واللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُه واللَّهُ يشْهَدُ إِنَّ المنافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [سورة المنافقون ، الآية : ١] فالمنافقون يصفهم فى القرآن بالكذب . وأنهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، وبأن فى قلوبهم من الكفر ما يعاقبون عليه ، وهؤلاء لم يصفهم بشيء من ذلك ، لكن لما ادعوا الإيمان قال للرسول : ﴿ قُلْ لَم تُؤْمِنُوا ولٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ولمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فى قُلُوبِكُم وإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ ورَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُم شَيْئًا ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٤] .

ونفى الإيمان المطلق لا يستلزم أن يكونوا منافقين كما فى قوله : ﴿ يسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ والرَّسُولِ فاتَّقُوا اللَّهَ وأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُم وأَطِيعُوا الله ورَسُولَه إِنْ كُنْتم مُؤْمِنينَ ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ١] ثم قال : ﴿ إِنَّما المؤْمِنُونَ الَّذينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبهم وإِذَا تُلِيتْ عَلَيْهِم آياتُهُ زَادتْهُم إِيمانًا وعَلَى ربِّهِم يتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ومِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ * أُولٰئِكَ هُم المُؤْمِنُونَ حقًّا ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٢ – ٤] ومعلوم أنه ليس من لم يكن كذلك يكون منافقًا من أهل الدرك الأسفل من النار . بل لا يكون قد أتى بالإيمان الواجب ، فنفى عنه كما ينفى سائر الأسماء عمن ترك بعض ما يجب فيها ، فكذلك الأعراب لم يأتوا بالإيمان الواجب ، فنفى عنهم لذلك وإن كانوا مسلمين ، معهم من الإيمان ما يثابون عليه .

وهذا حال أكثر الداخلين فى الإسلام ابتداء ، بل حال أكثر من لم يعرف حقائق الإيمان ، فإن الرجل إذا قوتل حتى أسلم كما كان الكفار يقاتلون حتى يسلموا ، أو أسلم بعد الأسر وسمع بالإسلام فجاء فأسلم ، فإنه مسلم ملتزم طاعة الرسول و لم تدخل إلى قلبه المعرفة بحقائق الإيمان ، فإن هذا إنما يحصل لمن تيسرت له أسباب ذلك ، إما بفهم القرآن ، وأما بمباشرة أهل الإيمان والاقتداء بما يصدر من الأقوال والأعمال ، وإما بهداية خاصة من الله يهديه بها ، والإنسان قد يظهر

له من محاسن الإسلام ما يدعوه إلى الدخول فيه ، وإن كان قد ولد عليه وتربى بين أهله فإنه يحبه ، فقد أظهر له بعض محاسنه وبعض مساوئ الكفار ، وكثير من هؤلاء قد يرتاب إذا سمع الشبه القادحة فيه ولا يجاهد فى سبيل الله فليس هو داخلا في قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٥] وليس هو منافقًا فى الباطن مضمرًا للكفر ، فلا هو من المؤمنين حقًا ، ولا هو من المنافقين ، ولا هو أيضًا من أصحاب الكبائر ، بل يأتى بالطاعات الظاهرة ولا يأتى بحقائق الإيمان التى يكون بها من المؤمنين حقًا ، فهذا معه إيمان ، وليس هو من المؤمنين حقًا ، ويثاب على ما فعل من الطاعات ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ ولهذا قال : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٧] يعنى فى قولكم : ﴿ آمَنَّا ﴾ يقول إن كنتم صادقين ، فالله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ، وهذا يقتضى أنهم قد يكونون صادقين فى قولهم ﴿ آمنا ﴾ ثم صدقهم إما أن يراد به اتصافهم بأنهم آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ، وإما أن يراد به أنهم لم يكونوا كالمنافقين بل معهم إيمان وإن لم يكن لهم أن يدعوا مطلق الإيمان ، وهذا أشبه والله أعلم ، لأن النسوة الممتحنات قال فيهن : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ [سورة الممتحنة ، الآية : ١٠] ولا يمكن نفى الريب عنهن فى المستقبل ، ولأن الله إنما كذب المنافقين لم يكذب غيرهم ؛ وهؤلاء لم يكذبهم ولكن قال : ﴿ لَمْ تُؤْمِنُوا ﴾ كما قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وقوله : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » وهؤلاء ليسوا منافقين .

وسياق الآية يدل على أن الله ذمهم لكونهم منوا بإسلامهم لجهلهم وجفائهم ، وأظهروا ما فى أنفسهم مع علم الله به ، فإن الله تعالى قال : ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ

اللَّهَ بِدِينِكُم واللَّهُ يَعْلَمُ ما فى السَّمٰوَاتِ وما فى الأَرْضِ ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٦] فلو لم يكن فى قلوبهم شيء من الدين لم يكونوا يعلمون الله بدينهم ، فإن الإسلام يعرفه كل أحد ، ودخلت الباء فى قوله : ﴿ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُم ﴾ لأنه ضمن معنى يخبرون ويحدثون ، كأنه قال أتخبرونه وتحدثونه بدينكم وهو يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، وسياق الآية يدل على أن الذين أخبروا به الله هو ما ذكره الله عنهم من قولهم ﴿ آمنَّا ﴾ فإنهم أخبروا عما فى قلوبهم .

وقد ذكر المفسرون أنه لما نزلت هاتان الآيتان أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحلفون أنهم مؤمنون صادقون فنزل قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُم ﴾ وهذا يدل على أنهم كانوا صادقين أولا فى دخولهم فى الدين ، لأنه لم يتجدد لهم بعد نزول الآية جهاد حتى يدخلوا فى الآية ، إنما هو كلام قالوه وهو سبحانه قال : ﴿ ولمَّا يَدْخُلِ الإيمانُ فى قُلُوبِكُم ﴾ ولفظ ﴿ لمَّا ﴾ ينفى به ما يقرب حصوله ويحصل غالبًا فقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ ولمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُم ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٤٢] وقد قال السدى : نزلت هذه الآية فى أعراب مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار ، وهم الذين ذكرهم الله فى سورة الفتح ، وكانوا يقولون آمنا بالله ليأمنوا على أنفسهم ، فلما استنفروا إلى الحديبية تخلفوا فنزلت فيهم هذه الآية .

وعن مقاتل كانت منازلهم بين مكة والمدينة ، وكانوا إذا مرت بهم سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : ﴿ آمنَّا ﴾ ليأمنوا على مائهم وأموالهم ، فلما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية استنفرهم فلم ينفروا معه .

وقال مجاهد : نزلت فى أعراب بنى أسد بن خزيمة ، ووصف غيره حالهم فقالو قدموا المدينة فى سنة مجدبة فأظهروا الإسلام ولم يكونوا مؤمنين ، وأفسدوا طري المدينة بالعذرات ، وأغلوا أسعارهم ، وكانوا يمنون على رسول الله صلى الله ع وسلم يقولون : أتيناك بالأثقال والعيال ، فنزلت فيهم هذه الآية ، وقد قال قتا

فى قوله : ﴿ يَمنُّونَ عَلَيْكَ أنْ أَسْلَمُوا قلْ لا تمُنُّوا علَىَّ إسْلامَكُم بلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُم أنْ هَدَاكُم للإيمَانِ إنْ كُنْتُم صادِقِينَ ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٧] قال منوا على النبى صلى الله عليه وسلم حين جاءوا فقالوا إنا أسلمنا بغير قتال لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان ، فقال الله لنبيه : ﴿ يمنُّونَ عليْكَ أنْ أَسْلَموا قلْ لا تمُنُّوا عَلَىَّ إسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يمنُّ علَيْكُم أنْ هَداكُم للإيمانِ ﴾ .

وقال مقاتل بن حيان : هم أعراب بنى أسد بن خزيمة قالوا : يا رسول الله أتيناك بغير قتال وتركنا العشائر والأموال ، وكل قبيلة من العرب قاتلتك حتى دخلوا كرهًا فى الإسلام ، فلنا بذلك عليك حق ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يمنُّونَ عَليْكَ أنْ أسْلَمُوا قُلْ لا تمنُّوا علىَّ إسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يمنُّ عَلَيْكُم أنْ هَدَاكُم للإيمانِ إنْ كُنتُم صادِقِينَ ﴾ فله بذلك المن عليكم وفيهم أنزل : ﴿ ولا تُبْطِلُوا أعْمَالَكُمْ ﴾ ، ويقال من الكبائر التى ختمت بنار كل موجبة من ركبها ومات عليها لم يتب منها .

وهذا كله يبين أنهم لم يكونوا كفارًا فى الباطن ، ولا كانوا قد دخلوا فيما يجب من الإيمان ، وسورة الحجرات قد ذكرت هذه الأصناف فقال : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أكْثَرُهم لا يَعْقِلُونَ ﴾ ولم يصفهم بكفر ولا نفاق ، لكن هؤلاء يخشى عليهم الكفر والنفاق ولهذا ارتد بعضهم لأنهم لم يخالط الإيمان بشاشة قلوبهم ، وقال بعد ذلك : ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إنْ جاءَكُم فاسِقٌ بِنَبأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ٦] وهذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة وكان قد كذب فيما أخبر .

قال المفسرون : نزلت هذه الآية فى الوليد بن عقبة بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى المصطلق ليقبض صدقاتهم ، وقد كانت بينه وبينهم عداوة فى الجاهلية ، فسار بعض الطريق ثم رجع فقال إنهم منعوا الصدقة وأرادوا قتلى ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم البعث إليهم ، فنزلت هذه الآية . وهذه الآية معروفة من وجوه كثيرة ثم قال تعالى فى تمامها : ﴿ واعْلَمُوا أنَّ فِيكُم

رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُم فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّم ﴾ وقال تعالى : ﴿ وإِنْ طائِفَتَانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فأَصْلِحُوا بيْنَهُمَا فإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُما علَى الأُخرَى ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ٩] . ثم نهاهم عن أن يسخر بعضهم ببعض ، وعن اللمز[1] والتنابز بالألقاب وقال : ﴿ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمانِ ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١١] وقد قيل معناه لا تسميه فاسقًا ولا كافرًا بعد إيمانه ، وهذا ضعيف بل المراد بئس الاسم أن تكونوا فساقًا بعد إيمانكم كما قال تعالى فى الذى كذب : ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ فسماه فاسقًا .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » يقول : « فإذا ساببتم المسلم وسخرتم منه ولمزتموه استحققتم أن تسموا فساقًا » . وقد قال فى آية القذف : ﴿ ولَا تَقْبَلُوا لَهُم شَهادةً أَبَدًا وأُولَٰئِكَ هُم الفَاسِقُونَ ﴾ [سورة النور ، الآية : ٤] يقول فإذا أتيتم بهذه الأمور التى تستحقون بها أن تسموا فساقًا كنتم قد استحققتم اسم الفسوق بعد الإيمان ، وإلا فهم فى تنابزهم ما كانوا يقولون : فاسق كافر ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وبعضهم يلقب بعضًا .

وقد قال طائفة من المفسرين فى هذه الآية لا تسميه بعد الإسلام بذنبه قبل الإسلام كقوله لليهودى إذا أسلم يا يهودى ، وهذا مروى عن ابن عباس وطائفة من التابعين كالحسن وسعد بن جبير ، وعطاء الخراسانى والقرظى ، وقال عكرمة هو قول الرجل : يا كافر يا منافق ، وقال عبد الرحمن بن زيد : هو تسميته بالأعمال كقوله : يا زانى يا سارق يا فاسق ، وفى تفسير العوفى عن ابن عباس قال : هو تعيير التائب بسيئات كان قد عملها ، ومعلوم أن اسم الكفر واليهودية والزانى والسارق وغير ذلك من السيئات ليست هى اسم الفاسق فعلم أن قوله : ﴿ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ ﴾ لم يرد به تسمية المسبوب باسم الفاسق ، فإن

---

(١) (اللمز) : العيب .

تسميته كافرًا أعظم ، بل إن الساب يصير فاسقًا لقوله : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » ثم قال : ﴿ ومَنْ لَمْ يتُبْ فأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١١] فجعلهم ظالمين إذا لم يتوبوا من ذلك وإن كانوا يدخلون فى اسم المؤمنين ، ثم ذكر النهى عن الغيبة ، ثم ذكر النهى عن التفاخر بالأحساب وقال : ﴿ إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٣] ثم ذكر قول الأعراب آمنّا .

فالسورة تنهى عن هذه المعاصى والذنوب التى فيها تعد على الرسول وعلى المؤمنين ، فالأعراب المذكورون فيها من جنس المنافقين ، وأهل السباب والفسوق والمنادين من وراء الحجرات وأمثالهم ليسوا من المنافقين ، ولهذا قال المفسرون : إنهم الذين استنفروا عام الحديبية ، وأولئك وإن كانوا من أهل الكبائر فلم يكونوا فى الباطن كفارًا منافقين .

قال ابن إسحاق : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم العمرة [عمرة الحديبية] استنفر من حول المدينة من أهل البوادى والأعراب ليخرجوا معه خوفًا من قومه أن يعرضوا له بحرب أو بصد ، فتثاقل عنه كثير منهم ، فهم الذين عنى الله بقوله : ﴿ سيَقُولُ لَكَ المخلَّفُونَ مِنَ الأعْرابِ شَغَلَتْنا أمْوالُنا وأهْلُونا فاسْتَغْفِر لَنا ﴾ أى ادع الله أن يغفر لنا تخلفنا عنكَ : ﴿ يقُولُون بألْسِنَتِهِم ما لَيْس فى قُلُوبِهِم ﴾ [سورة الفتح ، الآية : ١١] أى ما يبالون أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، وهذا حال الفاسق الذى لا يبالى بالذنب . والمنافقون قال فيهم : ﴿ وإذا قِيلَ لَهُم تَعالَوْا يَسْتغْفِر لَكُم رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُم وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهم أمْ لَم تَسْتغْفِر لَهم لَنْ يغْفِرَ اللَّهُ لَهُم ﴾ [سورة المنافقون ، الآية : ٥ ، ٦] ولم يقل هذا فى هؤلاء الأعراب ، بل الآية دليل على أنهم لو صدقوا فى طلب الاستغفار نفعهم استغفار الرسول . ثم قال : ﴿ ستُدْعَوْنَ إلَى قَوْمٍ أُولِى بأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُم أَوْ يُسْلِمُونَ فإنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُم اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وإنْ تَتَولَّوْا كما تَولَّيْتُم مِنْ قَبْلُ يُعذِّبكُم عَذابًا أليمًا ﴾ [سورة الفتح ، الآية : ١٦]

فوعدهم الله بالثواب على طاعة الداعى إلى الجهاد وتوعدهم بالتولى عن طاعته .

وهذا كخطاب أمثالهم من أهل الذنوب والكبائر بخلاف من هو كافر فى الباطن ، فإنه لا يستحق الثواب بمجرد طاعة الأمر حتى يؤمن أولا ، ووعيده ليس على مجرد توليه عن الطاعة فى الجهاد فإن كفره أعظم من هذا .

فهذا كله يدل على أن هؤلاء من فساق الملة ، فإن الفسق يكون تارة بترك الفرائض ، وتارة بفعل المحرمات ، وهؤلاء لما تركوا ما فرض الله عليهم من الجهاد وحصل عندهم نوع من الريب الذى أضعف إيمانهم ، لم يكونوا من الصادقين الذين وصفهم ، وإن كانوا صادقين فى أنهم فى الباطن متدينون بدين الإسلام .

وقول المفسرين : « لم يكونوا مؤمنين » نفى لما نفاه الله عنهم من الإيمان كما نفاه عن الزانى والسارق والشارب وعمن لا يأمن جاره بوائقه ، وعمن لا يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه ، وعمن لا يجيب إلى حكم الله ورسوله وأمثال هؤلاء وقد يحتج على هؤلاء بقوله ﴿ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعدَ الإيمانِ ﴾ كما قال : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » فذم من استبدل اسم الفسوق بعد الإيمان ، فدل على أن الفاسق لا يسمى مؤمنًا ، فدل ذلك على أن هؤلاء الأعراب من جنس أهل الكبائر لا من جنس المنافقين .

وأما ما نقل من أنهم أسلموا خوف القتل والسباء فهكذا كان إسلام غير المهاجرين ، والأنصار أسلموا رغبة ورهبة ، كإسلام الطلقاء من قريش بعد أن قهرهم النبى صلى الله عليه وسلم ، وإسلام المؤلفة قلوبهم من هؤلاء ومن أهل نجد ، وليس كل من أسلم لرغبة أو رهبة كان من المنافقين الذين هم فى الدرك الأسفل من النار ، بل يدخلون فى الإسلام والطاعة ، وليس فى قلوبهم تكذيب ومعاداة للرسول ، ولا استنارت قلوبهم بنور الإيمان واستبصروا فيه ، وهؤلاء قد يحسن إسلام أحدهم فيصير من المؤمنين كأكثر الطلقاء ، وقد يبقى من فساق الملة ، ومنهم من يصير منافقًا مرتابًا إذا قال له منكر ونكير : ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى ، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته .

وقد تقدم قول من قال : أنهم أسلموا بغير قتال ، فهؤلاء كانوا أحسن إسلامًا من غيرهم ، وإن الله إنما ذمهم لكونهم منوا بالإسلام وأنزل فيهم : ﴿ ولا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُم ﴾ وأنهم من جنس أهل الكبائر .

وأيضًا قوله : ﴿ ولٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ولَمَّا يَدْخُلِ الإيمانُ فِي قُلُوبِكُم ﴾ « ولما » إنما ينتفى بها ما ينتظر ويكون حصوله مترقبًا كقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا ولَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ويَعْلَمَ الصابِرِينَ ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ١٦] وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدخُلُوا الجَنَّة ولَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوا مِن قَبْلِكُم ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢١٤] فقوله : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمانُ فِي قُلُوبِكُم ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٤] يدل على أن دخول الإيمان منتظر منهم ، فإن الذى يدخل فى الإسلام ابتداء لا يكون قد حصل فى قلبه الإيمان ، لكنه يحصل فيما بعد كما فى الحديث : كان الرجل يسلم أول النهار رغبة فى الدنيا فلا يجيء آخر النهار إلا والإسلام أحب إليه مما طلعت عليه الشمس ، ولهذا كان عامة الذين أسلموا رغبة ورهبة دخل الإيمان فى قلوبهم بعد ذلك ، وقوله : ﴿ ولٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ أمر لهم بأن يقولوا ذلك ، والمنافق لا يؤمر بشيء ، ثم قال : ﴿ وإنْ تُطِيعُوا اللَّهَ ورَسُولَه لا يَلِتْكُم مِن أَعْمَالِكُم شيئًا ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٤] والمنافق لا تنفعه طاعة الله ورسوله حتى يؤمن أولا .

وهذه الآية مما احتج به أحمد بن حنبل وغيره على أنه يستثنى فى الإيمان دون الإسلام وأن أصحاب الكبائر يخرجون من الإيمان إلى الإسلام ، قال الميمونى : سألت أحمد بن حنبل عن رأيه فى : أنا مؤمن إن شاء الله ؟ فقال : أقول مؤمن إن شاء الله وأقول مسلم ولا أستثنى . قال قلت لأحمد : تفرق بين الإسلام والإيمان ؟ فقال لى : نعم ، فقلت له : بأى شيء تحتج . قال لى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا ولٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ وذكر أشياء . وقال الشالنجى : سألت أحمد عمن قال أنا مؤمن عند نفسى من طريق الأحكام والمواريث ولا أعلم ما أنا عند الله ؟ قال ليس بمرجئ .

وقال أبو أيوب : سليمان بن داود الهاشمي : الاستثناء جائز ، ومن قال أنا مؤمن حقًّا ، ولم يقل عند الله ، ولم يستثن فذلك عندى جائز وليس بمرجىء ، وبه قال أبو خيثمة وابن أبى شيبة ، وذكر الشالنجى أنه سأل أحمد بن حنبل عن المصِرّ على الكبائر يطلبهم بجهده أى يطلب الذنب بجهده ، إلا أنه لم يترك الصلاة والزكاة والصوم هل يكون مصِرًّا من كانت هذه حاله ؟ قال : هو مصِرٌّ مثل قوله : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » يخرج من الإيمان ويقع فى الإسلام ، ومن نحو قوله : « ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن » ومن نحو قول ابن عباس فى قوله : ﴿ وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَـٰئِكَ هُم الكَافِرُونَ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٤٤] .

فقلت له : ما هذا الكفر ؟ قال : كفر لا ينقل عن الملة مثل الإيمان بعضه دون بعض ؛ فكذلك الكفر حتى يجيىء من ذلك أمر لا يختلف فيه ، وقال ابن أبى شيبة : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » لا يكون مستكمل الإيمان يكون ناقصًا من إيمانه .

قال الشالنجى : وسألت أحمد عن الإيمان والإسلام فقال : الإيمان قول وعمل ؛ والإسلام إقرار . قال وبه قال أبو خيثمة ؛ وقال ابن أبى شيبة : لا يكون إسلام إلا بإيمان ولا إيمان إلا بإسلام ، وإذا كان على المخاطبة فقال : قد قبلت الإيمان فهو داخل فى الإسلام وإذا قال قد قبلت الإسلام فهو داخل فى الإيمان . وقال محمد بن نصر المروزى : وحكى غير هؤلاء أنه سأل أحمد بن حنبل عن قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » فقال : من أتى هذه الأربعة أو مثلهن أو فوقهن فهو مسلم ولا أسميه مؤمنًا ، ومن أتى دون ذلك [يريد دون الكبائر] أسميه مؤمنًا ناقص الإيمان .

قلت : أحمد بن حنبل كان يقول تارة بهذا الفرق وتارة كان يذكر الاختلاف ويتوقف وهو المتأخر عنه . قال أبو بكر الأثرم فى السنّة : سمعت أبا عبد الله يسأل عن الاستثناء فى الإيمان ما تقول فيه ؟ فقال : أما أنا فلا أعيبهم أى من الناس

من يعيبه قال أبو عبد الله : إذا كان يقول إن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص فاستثنى مخافة واحتياطًا ليس كما يقولون على الشك ؛ إنما يستثنى للعمل ، قال أبو عبد الله قال تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ [سورة الفتح ، الآية : ٢٧] أى أن هذا استثناء بغير شك ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » أى لم يكن يشك فى هذا وقد استثناه وذكر قول النبى صلى الله عليه وسلم : « وعليها نبعث إن شاء الله » ، يعنى من القبر . وذكر قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله » قال هذا كله تقوية للاستثناء فى الإيمان .

قلت لأبى عبد الله : وكأنك لا ترى بأسًا ألا يستثنى ؟ فقال : إذا كان ممن يقول الإيمان قول وعمل يزيد وينقص فهو أسهل عندى ، ثم قال أبو عبد الله : إن قومًا تضعف قلوبهم عن الاستثناء كالمتعجب منهم ، وسمعت أبا عبد الله وقيل له شبابة أى شىء تقول ؟ فقال شبابة : كان يدعى الإرجاء ، قال وحكى عن شبابة قول أخبث من هذه الأقاويل ما سمعت عن أحد بمثله ، قال أبو عبد الله قال شبابة : إذا قال فقد عمل بلسانه كما يقولون فإذا قال فقد عمل بجارحته أى بلسانه حين تكلم به ؛ ثم قال أبو عبد الله : هذا قول خبيث ما سمعت أحدًا يقول به ولا بلغنى ، قيل لأبى عبد الله : كنت كتبت عن شبابة شيئًا ، فقال : نعم كنت كتبت عنه قديمًا يسيرًا قبل أن نعلم أنه يقول بهذا ، قلت لأبى عبد الله : كتبت عنه ، قال : لا ولا حرف . قيل لأبى عبد الله : يزعمون أن سفيان كان يذهب إلى الاستثناء فى الإيمان فقال : هذا مذهب سفيان المعروف به الاستثناء . قلت لأبى عبد الله : من يرويه عن سفيان ؟ فقال كل من حكى عن سفيان فى هذا حكاية كان يستثنى ، قال وقال وكيع عن سفيان : الناس عندنا مؤمنون فى الأحكام والمواريث ولا ندرى ما هم عند الله ، قلت لأبى عبد الله : فأنت بأى شىء تقول ؟ فقال : نحن نذهب إلى الاستثناء .

قلت لأبى عبد الله : فأما إذا قال أنا مسلم أفلا يستثنى ؟ فقال : نعم لا يستثنى إذا قال أنا مسلم ؛ قلت لأبى عبد الله أقول هذا مسلم وقد قال النبى ﷺ :

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » وأنا أعلم أنه لا يسلم الناس منه ! فذكر حديث معمر عن الزهرى . فنرى أن الإسلام الكلمة ، والإيمان العمل ، قال أبو عبد الله : حدثناه عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى : قيل لأبى عبد الله : فنقول الإيمان يزيد وينقص ؟ فقال : حديث النبى صلى الله عليه وسلم يدل على ذلك ، فذكر قوله : أخرجوا من كان فى قلبه مثقال كذا أخرجوا من كان فى قلبه مثقال كذا فهو يدل على ذلك . وذكر عند أبى عبد الله : عيسى الأحمر وقوله فى الإرجاء فقال : نعم وذاك خبيث القول . وقال أبو عبد الله : حدثنا مؤمل ، حدثنا حماد بن زيد ، سمعت هشامًا يقول : كان الحسن ومحمد[1] يقولان : مسلم ويهابان : مؤمن .

قلت لأبى عبد الله : رواه غير سويد ؟ قال : ما علمت بذلك ، وسمعت أبا عبد الله يقول : الإيمان قول وعمل ، قلت لأبى عبد الله : فالحديث الذى يروى : « أعتقها فإنها مؤمنة » ، قال : ليس كل أحد يقول إنها مؤمنة يقولون أعتقها ، قال ومالك سمعه من هذا الشيخ هلال بن على لا يقول : « فإنها مؤمنة » قال : وقد قال بعضهم : بأنها مؤمنة فهى تقر بذلك فحكمها حكم المؤمنة ، هذا معناه ، قلت لأبى عبد الله : تفرق بين الإيمان والإسلام ؟ فقال : قد اختلف الناس فيه ، وكان حماد بن زيد – زعموا – يفرق بين الإيمان والإسلام . قيل له : من المرجئة ؟ قال الذين يقولون الإيمان قول بلا عمل .

قلت : فأحمد بن حنبل لم يرد قط أنه سلب جميع الإيمان فلم يبق معه منه شيء كما تقوله الخوارج والمعتزلة ، فإنه قد صرح فى غير موضع بأن أهل الكبائر معهم إيمان يخرجون به من النار ، واحتج بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » ، وليس هذا قوله

(١) الحسن هو ابن أبى الحسن واسم أبيه يسار الأنصارى البصرى تابعى ثقة فقيه ، فاضل مشهور . ومحمد هو ابن سيرين الأنصارى البصرى ، تابعى ثقة تبت ، عابد كبير القدر .

ولا قول أحد من أئمة أهل السنة ، بل كلهم متفقون على أن الفساق الذين ليسوا منافقين معهم شيء من الإيمان يخرجون به من النار هو الفارق بينهم وبين الكفار والمنافقين ، ولكن إذا كان معه بعض الإيمان لم يلزم أن يدخل فى الاسم المطلق الممدوح . وصاحب الشرع قد نفى الاسم عن هؤلاء فقال : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » ، وقال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه » ، وقال : « لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » وأقسم على ذلك مرات وقال : « المؤمن مَن أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » .

والمعتزلة ينفون عنه اسم الإيمان بالكلية واسم الإسلام أيضًا ، ويقولون : ليس معه شيء من الإيمان والإسلام ، ويقولون : ننزله منزلة بين منزلتين ، فهم يقولون إنه يخلد فى النار لا يخرج منها بالشفاعة ، وهذا هو الذى أنكر عليهم ، وإلا لو نفوا مطلق الاسم وأثبتوا معه شيئًا من الإيمان يخرج به من النار لم يكونوا مبتدعة ، وكان أهل السنَّة متفقون على أنه قد سلب كمال الإيمان الواجب فزال بعض إيمانه الواجب ، لكنه من أهل الوعيد ، وإنما ينازع فى ذلك من يقول الإيمان لا يتبعض من الجهمية والمرجئة فيقولون : إنه كامل الإيمان ، فالذى ينفى إطلاق الاسم يقول : الاسم المطلق مقرون بالمدح واستحقاق الثواب ، كقولنا متَّقٍ وبر ، وعلى الصراط المستقيم ، فإذا كان الفاسق لا تطلق عليه هذه الأسماء فكذلك اسم الإيمان ، وأما دخوله فى الخطاب فلأن المخاطب باسم الإيمان كل من معه شيء منه ، لأنه أمر لهم ، فمعاصيهم لا تسقط عنهم .

وأما ما ذكره أحمد فى الإسلام فاتبع فيه الزهرى حيث قال : فكانوا يرون الإسلام الكلمة ، والإيمان العمل فى حديث سعد بن أبى وقاص . وهذا على وجهين ، فإنه قد يراد به الكلمة بتوابعها من الأعمال الظاهرة ، وهذا هو الإسلام الذى بيَّنه النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال : « الإسلام أن تشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت » ، وقد تراد الكلمة فقط من غير فعل الواجبات الظاهرة ، وليس هذا

هو الذى جعله النبى صلى الله عليه وسلم الإسلام .

لكن قد يقال : إسلام الأعراب كان من هذا ، فيقال : الأعراب وغيرهم كانوا إذا أسلموا على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ألزموا بالأعمال الظاهرة ، الصلاة والزكاة والصيام والحج . ولم يكن أحد يترك بمجرد الكلمة ، بل كان من أظهر المعصية يعاقب عليها ، وأحمد إن كان أراد فى هذه الرواية أن الإسلام هو الشهادتان فقط ، فكل من قالهما فهو مسلم فهذه إحدى الروايات عنه ، والرواية الأخرى : لا يكون مسلمًا حتى يأتى بها ويصلى ، فإذا لم يصلِّ كان كافرًا . والثالثة أنه كافر بترك الزكاة أيضًا ، والرابعة أنه يكفر بترك الزكاة إذا قاتل الإمام عليها دون ما إذا لم يقاتله ، وعنده أنه لو قال : أنا أؤديها ولا أدفعها إلى الإمام ، لم يكن للإمام أن يقتله ، وكذلك عنه رواية أنه يكفر بترك الصيام والحج إذا عزم أنه لا يحج أبدًا ومعلوم أنه على القول بكفر تارك المبانى يمتنع أن يكون الإسلام مجرد الكلمة بل المراد أنه إذا أتى بالكلمة دخل فى الإسلام . وهذا صحيح فإنه يشهد له بالإسلام ، ولا يشهد له بالإيمان الذى فى القلب ، ولا يستثنى فى هذا الإسلام لأنه أمر مشهور ، لكن الإسلام الذى هو أداء الخمس كما أمر به يقبل الاستثناء ، فالإسلام الذى لا يستثنى فيه الشهادتان باللسان فقط فإنها لا تزيد ولا تنقص فلا استثناء فيه .

وقد صار الناس فى مسمى الإسلام على ثلاثة أقوال ، قيل هو الإيمان وهو اسمان لمسمى واحد وقيل هو الكلمة ، وهذان القولان لهما وجه سنذكره ، لكن التحقيق ابتداء هو ما بيَّنه النبى صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الإسلام والإيمان ، ففسر الإسلام بالأعمال الظاهرة والإيمان بالأصول الخمسة ، فليس لنا إذا جمعنا بين الإسلام والإيمان أن نجيب بغير ما أجاب به النبى صلى الله عليه وسلم ، وأما إذا أفرد اسم الإيمان فإنه يتضمن الإسلام ، وإذا أفرد الإسلام فقد يكون مع الإسلام مؤمنًا بلا نزاع ، وهذا هو الواجب ، وهل يكون مسلمًا ولا يقال له مؤمن ؟ قد تقدم الكلام فيه ، وكذلك هل يستلزم الإسلام للإيمان ؟ هذا فيه النزاع المذكور وسنبينه ، والوعد الذى فى القرآن بالجنة وبالنجاة من العذاب إنما

هو معلق باسم الإيمان ، وأما اسم الإسلام مجردًا فما علق به فى القرآن دخول الجنة ، لكنه فرضه وأخبر أنه دينه الذى لا يقبل من أحد سواه ، وبالإسلام بعث الله جميع النبيين قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وهو فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٨٥] وقال : ﴿ إنَّ الدِّينَ عِنْدَ الله الإسلَامُ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٩] وقال نوح : ﴿ يَاقَوْمِ إنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيكُم مَقَامِي وتَذْكِيرِى بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُم وشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُم عَلَيكُم غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إلَيَّ ولَا تُنْظِرُونَ * فَإِنْ تَوَلَّيتُم فَمَا سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ إنْ أَجْرِيَ إلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ ﴾ [سورة يونس ، الآية : ٧١ – ٧٢] وقد أخبر أنه لم ينج من العذاب إلا المؤمنين فقال : ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوجَيْنِ اثْنَينِ وَأَهْلَكَ إلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيهِ القَولُ ومَن آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلَّا قَلِيلُ ﴾ [سورة هود ، الآية : ٤٠] وقال : ﴿ وَأُوحِيَ إلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إلَّا مَن قَدْ آمَنَ ﴾ [سورة هود ، الآية : ٣٦] وقال نوح : ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [سورة هود ، الآية : ٢٩] .

وكذلك أخبر عن إبراهيم أن دينه الإسلام فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَب عَنْ مِلَّةِ إبْراهِيمَ إلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ولَقَدِ اصْطَفَينَاهُ فِي الدُّنْيَا وإنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالمِيْنَ * وَوَصَّى بِهَا إبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ويَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُم الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآيات : ١٣٠ – ١٣٢] وقال : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وجْهَهُ لله وهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفًا واتَّخَذَ اللَّهُ إبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١٢٥] وبمجموع هذين الوصفين علّق السعادة فقال : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وجْهَهُ لِلَّهِ وهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ولَا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُم يحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١١٢] كما علّقه بالإيمان باليوم الآخر والعمل الصالح

فى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوا والَّذِينَ هَادُوا والنَّصَارَى والصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُم أَجْرُهُم عِنْدَ رِبِّهِم ولَا خَوْفٌ علَيهِم ولَا هُم يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٦٢] وهذا يدل على أن الإسلام الذى هو إخلاص الدين لله مع الإحسان وهو العمل الصالح الذى أمر الله به وهو الإيمان المقرون بالعمل الصالح متلازمان ، فإن الوعد على الوصفين وعد واحد وهو الثواب وانتفاء العقاب ، فإن انتفاء الخوف علّة تقتضى انتفاء ما يخافه ، ولهذا قال : ﴿ لَا خَوْفٌ علَيهِمْ ولَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ لم يقل لا يخافون فهم لا خوف عليهم وإن كانوا يخافون الله ، ونفى عنهم أن يحزنوا لأن الحزن إنما يكون على ماض ، فهم لا يحزنون بحال لا فى القبر ولا فى عرصات القيامة ، بخلاف الخوف فإنه قد يحصل لهم قبل دخول الجنة ولا خوف عليهم فى الباطن كما قال تعالى : ﴿ أَلَا إنَّ أَوْلِيَاءَ الله لا خَوْفٌ علَيهِم ولَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِيْنَ آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [سورة يونس ، الآياتان : ٦٢ - ٦٣] .

وأما الإسلام المطلق فليس فى كتاب الله تعليق دخول الجنة به كما فى كتاب الله تعليق دخول الجنة بالإيمان المطلق المجرد كقوله : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُم وجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ والأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ ورُسُلِهِ ﴾ [سورة الحديد ، الآية : ٢١] وقال : ﴿ وبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِم ﴾ [سورة يونس ، الآية : ٢] وقد وصف الخليل ومن اتبعه بالإيمان كقوله : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ [سورة العنكبوت ، الآية : ٢٦] ووصفه بذلك فقال : ﴿ فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيْمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولٰئِكَ لَهُم الأَمْنُ وهُم مُهْتَدُونَ ﴾ [سورة الأنعام ، الآياتان : ٨١ ، ٨٢] وقال تعالى : ﴿ وتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ علَى قَوْمِهِ ﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ٨٣] ووصفه بأعلى طبقات الإيمان ، وهو أفضل البرية بعد محمد صلى الله عليه وسلم والخليل إنما دعا بالرزق للمؤمنين خاصة فقال : ﴿ وارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٢٦] وقال :

﴿ وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ وقال موسى : ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كُنتُم آمَنْتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُم مُسْلِمِينَ ﴾ [سورة يونس ، الآية : ٨٣] بعد قوله : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَونَ ومَلَئِهِم أَنْ يَفْتِنَهُم ﴾ [سورة يونس ، الآية : ٨٣] وقال : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةِ وبَشِّر المُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة يونس ، الآية : ٨٧] وقد ذكرنا البُشرى المطلقة للمؤمنين فى قوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا علَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيءٍ وهُدًى ورَحْمَةً وبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة النحل ، الآية : ٨٩] .

وقد وصف الله السحرة بالإسلام والإيمان معًا فقالوا : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُوْن ﴾ [سورة الأعراف ، الآيات : ١٢١ – ١٢٢] وقالوا : ﴿ ومَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ١٢٦] وقالوا : ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ المُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الشعراء ، الآية : ٥١] وقالوا : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ١٢٦] ، ووصف الله تعالى أنبياء بنى إسرائيل بالإسلام فى قوله : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاة فِيهَا هُدًى ونُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٤٤] والأنبياء كلهم مؤمنون ، ووصف الحواريِّين بالإسلام فقال تعالى : ﴿ وإِذْ أَوْحَيتُ إِلَى الحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِى وَبِرَسُولِى قَالُوا آمَنَّا واشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ١١١] ، ﴿ قَالَ الحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ واشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٥٢] .

وحقيقة الفرق أن الإسلام دين ، والدين مصدر دان يدين دينًا إذا خضع وذل ، ودين الإسلام الذى ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده ، فأصله فى القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه ، فمن عبده

وعبد معه إلٰهًا آخر لم يكن مسلمًا ، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلمًا ، والإسلام هو الاستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له ، وهكذا قال أهل اللغة أسلم الرجل إذا استسلم ، فالإسلام فى الأصل من باب العمل عمل القلب والجوارح .

وأما الإيمان فأصله تصديق وإقرار ومعرفة فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب ، والأصل فيه التصديق والعمل تابع له ، فلهذا فسر النبى صلى الله عليه وسلم الإيمان بإيمان القلب وبخضوعه ، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وفسر الإسلام باستسلام مخصوص هو المبانى الخمس ، وهكذا فى سائر كلامه صلى الله عليه وسلم يفسر الإيمان بذلك النوع ويفسر الإسلام بهذا وذلك النوع أعلى ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الإسلام علانية والإيمان فى القلب » فإن الأعمال الظاهرة يراها الناس وأما ما فى القلب من تصديق ومعرفة وحب وخشية ورجاء فهذا باطن ، لكن له لوازم قد تدل عليه ، واللازم لا يدل إلا إذا كان ملزومًا ، فلهذا كان من لوازمه ما يفعله المؤمن والمنافق .

ففى حديث عبد الله بن عمرو وأبى هريرة جميعًا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » ففسر المسلم بأمر ظاهر وهو سلامة الناس منه ، وفسر المؤمن بأمر باطن وهو أن يأمنوه على دمائهم وأموالهم ، وهذه الصفة أعلى من تلك ، فإن من كان مأمونًا سلم الناس منه ، وليس كل من سلموا منه يكون مأمونًا فقد يترك أذاهم وهم لا يأمنون إليه خوفًا أن يكون ترك أذاهم لرغبة ورهبة لا لإيمان فى قلبه .

وفى حديث عبيد بن عمير عن عمرو بن عنبسة عن النبى صلى الله عليه وسلم أن رجلًا قال للنبى صلى الله عليه وسلم : ما الإسلام ؟ قال : « إطعام الطعام ولين الكلام » قال : فما الإيمان ؟ قال : « السماحة والصبر »[1] فإطعام الطعام

(١) أحمد (حـ٤ ص ٣٨٥) .

عمل ظاهر يفعله الإنسان لمقاصد متعددة ، وكذلك لين الكلام ، وأما السماحة والصبر فخلقان فى النفس ، قال تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ وَتَواصَوْا بالمَرْحَمَة ﴾ [سورة البلد ، الآية : ١٧] وهذا أعلى من ذاك وهو أن يكون صبَّارًا شكورًا فيه سماحة بالرحمة للإنسان وصبر على المكاره ، وهذا ضد الذى خلق هلوعًا ، إذا مسَّه الشرُّ جزوعًا ، وإذا مسَّه الخير منوعًا ، فإن ذاك ليس فيه سماحة عند النعمة ولا صبر عند المصيبة .

وتمام الحديث : فأى الإسلام أفضل ؟ قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » قال : يا رسول الله أى المؤمنين أكمل إيمانًا ؟ قال : « أحسنهم خلقًا » قال : يا رسول الله أى القتل أشرف ؟ قال : « من أريق دمه وعقر جواده » ، قال : يا رسول الله فأى الجهاد أفضل ؟ قال : « الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله » قال : يا رسول الله فأى الصدقة أفضل ؟ قال : « جهد المُقِلّ » ، قال : يا رسول الله فأى الصلاة أفضل ؟ قال : « طول القنوت » ، قال : يا رسول الله فأى الهجرة أفضل ؟ قال : « من هجر السوء » وهذا محفوظ عن عبيد عن عمير تارة يروى مرسلًا وتارة يروى مسندًا ، وفى رواية : أى الساعات أفضل ؟ قال : « جوف الليل الغابر » ، وقوله : « أفضل الإيمان السماحة والصبر » يروى من وجه آخر عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم .

وهكذا فى سائر الأحاديث إنما يفسر الإسلام بالاستسلام لله بالقلب مع الأعمال الظاهرة كما فى الحديث المعروف الذى رواه أحمد عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال : والله يا رسول الله ما أتيتك حتى حلفت عدد أصابعى هذه ألَّا آتيك فبالذى بعثك بالحق ما بعثك به ؟ قال : « الإسلام » قال : وما الإسلام ؟ قال : « أن تسلم قلبك لله وأن توجِّه وجهك إلى الله وأن تصلِّى الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة أخوان نصيران لا يقبل الله من عبد أشرك بعد إسلامه » وفى رواية قال : « أن تقول أسلمت وجهى لله وتخليت وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وكل المسلم على المسلم محرم » ، وفى لفظ تقول : « أسلمت نفسى لله وخلَّيت وجهى إليه » وروى محمد بن نصر من حديث خالد بن معدان عن

أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن للإسلام صوى[1] ومنارًا كمنار الطريق » من ذلك أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا ، وأن تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتسلم على بنى آدم إذا لقيتهم ، فإن ردوا عليك ردت عليك وعليهم الملائكة . وإن لم يردوا عليك ردت عليك الملائكة ، ولعنتهم إن سكتوا عنك ، وتسليمك على أهل بيتك إذا دخلت عليهم ، فمن انتقص منهن شيئًا فهو سهم فى الإسلام تركه ، ومن تركهن فقد نبذ الإسلام وراء ظهره .

وقد قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فى السِّلْم كافَّة ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٠٨] قال مجاهد وقتادة نزلت فى المسلمين يأمرهم بالدخول فى شرائع الإسلام كلها ، وهذا لا ينافى قول من قال نزلت فيمن أسلم من أهل الكتاب أو فيمن لم يسلم ، لأن هؤلاء كلهم مأمورون أيضًا بذلك ، والجمهور يقولون : ﴿ فى السِّلْم ﴾ أى فى الإسلام . قالت طائفة هو الطاعة ، وكلاهما مأثور عن ابن عباس وكلاهما حق ، فإن الإسلام هو الطاعة كما تقدم أنه من باب الأعمال ، وأما قوله : ﴿ كَافَّة ﴾ فقد قيل : المراد ادخلوا كلكم ، وقيل : المراد به ادخلوا فى الإسلام جميعه وهذا هو الصحيح ، فإن الإنسان لا يؤمر بعمل غيره ، وإنما يؤمر بما يقدر عليه ، وقوله : ﴿ ادْخُلُوا ﴾ خطاب لهم كلهم ، فقوله : ﴿ كافَّة ﴾ إن أريد به مجتمعين لزم أن يترك الإنسان الإسلام حتى يسلم غيره ، فلا يكون الإسلام مأمورًا به إلا بشرط الغير له كالجمعة ، وهذا لا يقوله مسلم ، وإن أريد بكافة أى ادخلوا جميعكم فكل أوامر القرآن كقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٤٣] كلها من هذا الباب وما قيل فيها كافة ، وقوله تعالى : ﴿ وقَاتِلُوا المشْرِكينَ كافَّة ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ٣٦] أى قاتلوهم كلهم لا تدعوا

---

(١) أخرجه الطبرانى عن أبى الدرداء وبنحوه عن أبى هريرة ، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة كذا فى كنز العمال (حـ١ / ٢٠ ، ٣٤) ، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع الصغير (١٩٤٠) .
(صُوًى) : الصوى جمع صُوَّة وهى ما نصب من الحجارة ليستدل به على الطريق .

مشركًا حتى تقاتلوه ، فإنها أنزلت بعد نبذ العهود ، ليس المراد قاتلوهم مجتمعين أو جميعكم ، فإن هذا لا يجب ، بل يقاتلون بحسب المصلحة ، والجهاد فرض على الكفاية ، فإذا كانت فرائض الأعيان لم يؤكد المأمورين فيها بكافة فكيف يؤكد بذلك في فروض الكفاية ، وإنما المقصود تعميم المقاتلين وقوله : ﴿ كما يُقاتِلُونَكُم كافَّة ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ٣٦] احتمالان .

والمقصود أن الله أمر بالدخول فى جميع الإسلام كما دل عليه هذا الحديث ، فكل ما كان من الإسلام وجب الدخول فيه ، فإن كان واجبًا على الأعيان لزمه فعله ، وإن كان واجبًا على الكفاية اعتقد وجوبه وعزم عليه إذا تعين ، أو أخذ بالفضل ففعله ، وإن كان مستحبًا اعتقد حسنه وأحب فعله ، وفى حديث جرير أن رجلا قال يا رسول الله صف لى الإسلام قال : « تشهد أن لا إله إلا الله وتقر بما جاء من عند الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » قال أقررت ، فى قصة طويلة فيها أنه وقع فى أخاقيق جرذان وأنه قتل وكان جائعًا وملكان يدسان فى شدقه من ثمار الجنة ، فقوله وتقر بما جاء من عند الله هو الإقرار بأن محمدًا رسول الله فإنه هو الذى جاء بذلك .

وفى الحديث الذى يرويه أبو سليمان الدارانى حديث الوفد الذين قالوا : نحن المؤمنون ، قال : فما علامة إيمانكم ؟ قالوا خمس عشرة خصلة : خمس أمرتنا رسلك أن نعمل بهن ، وخمس أمرتنا رسلك أن نؤمن بهن ، وخمس تخلقنا بها فى الجاهلية ونحن عليها فى الإسلام إلا أن تكره منها شيئًا ، قال : فما الخمس التى أمرتكم رسلى أن تعملوا بها ؟ قالوا أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، ونقيم الصلاة ونؤتى الزكاة ، ونصوم رمضان ، ونحج البيت ، قال : وما الخمس التى أمرتكم أن تؤمنوا بها ؟ قالوا : أمرتنا أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ، قال : وما الخمس التى تخلقتم بها فى الجاهلية وثبتم عليها فى الإسلام ؟ قالوا : الصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضا بمر القضاء ، والصدق فى مواطن اللقاء ، وترك الشماتة بالأعداء ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : علماء حكماء كادوا من صدقهم أن يكونوا أنبياء ، فقال

النبى صلى الله عليه وسلم : « وأنا أزيدكم خمسًا فتتم لكم عشرون خصلة إن كنتم كما تقولون ، فلا تجمعوا ما لا تأكلون ، ولا تبنوا ما لا تسكنون ، ولا تنافسوا فيما أنتم عنه منتقلون ، واتقوا الله الذى إليه ترجعون وعليه تعرضون ، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون »[1] .

فقد فرقوا بين الخمس التى يعمل بها فجعلوها الإسلام والخمس التى يؤمن بها فجعلوها الإيمان ؛ وجميع الأحاديث المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم تدل على مثل هذا .

وفى الحديث الذى رواه أحمد من حديث أيوب عن أبى قلابة عن رجل من أهل الشام عن أبيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : « أسلم تسلم » قال : وما الإسلام ؟ قال : « أن تسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك » قال : فأى الإسلام أفضل ؟ قال : « الإيمان » قال : وما الإيمان ؟ قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورُسله وبالبعث بعد الموت » قال : فأى الإيمان أفضل ؟ قال : « الهجرة » قال : وما الهجرة ؟ قال : « أن تهجر السوء » قال : فأى الهجرة أفضل ؟ قال : « الجهاد » قال : وما الجهاد ؟ قال : « أن تجاهد الكفار إذا لقيتهم ولا تغل[2] ولا تجبن » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثم عملان هما أفضل الأعمال إلا من عمل بمثلهما قالها ثلاثًا : حجة مبرورة أو عمرة »[3] وقوله : « هما أفضل الأعمال » أى بعد الجهاد لقوله : ثم عملان ، ففى الحديث جعل الإيمان خصوصًا فى الإسلام ، والإسلام أعم منه كما جعل الهجرة خصوصًا فى الإيمان والإيمان أعم منها ، وجعل الجهاد خصوصًا من الهجرة ، والمهاجر أعم منه . فالإسلام أن تعبد الله وحده لا شريك له مخلصًا له الدين .

---

(١) هو فى كنز العمال (حـ١ / ١٣٦٣) معزوًا للحاكم فى المستدرك عن علقمة بن سويد بن علقمة ابن الحارث حدث به علقمة أبو سليمان الدارنى وعلقمة هذا لا يعرف .

(٢) (لا تغل) : الغلول الخيانة فى كل شىء خفية .

(٣) سبق تخريجه .

وهذا دين الله الذى لا يقبل من أحد غيره لا من الأولين ولا من الآخرين ، ولا تكون عبادته مع إرسال الرسل إلينا إلا بما أمرت به رسله ، لا بما يضاد ذلك فإن ضد ذلك معصية ، وقد ختم الله الرسل بمحمد صلى الله عليه وسلم فلا يكون مسلمًا إلا من شهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله . وهذه الكلمة بها يدخل الإنسان فى الإسلام ، فمن قال الإسلام الكلمة وأراد هذا فقد صدق ، ثم لابد من التزام ما أمر به الرسول من الأعمال الظاهرة كالمبانى الخمس ، ومن ترك من ذلك شيئًا نقص إسلامه بقدر ما نقص من ذلك كما فى الحديث : « من نقص منهن شيئًا فهو سهم من الإسلام تركه » وهذه الأعمال إذا عملها الإنسان مخلصًا لله تعالى فإنه يثيبه عليها ، ولا يكون ذلك إلا مع إقراره بقلبه أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فيكون معه من الإيمان هذا الإقرار ، وهذا الإقرار لا يستلزم أن يكون صاحبه معه من اليقين ما لا يقبل الريب ، ولا أن يكون مجاهدًا ولا سائر ما يتميز به المؤمن عن المسلم الذى ليس بمؤمن ، وخلق كثير من المسلمين باطنًا وظاهرًا معهم هذا الإسلام بلوازمه من الإيمان ، ولم يصلوا إلى اليقين والجهاد ، فهؤلاء يثابون على إسلامهم وإقرارهم بالرسول مجملًا ، قد لا يعرفون أنه جاء بكتاب ، وقد لا يعرفون أنه جاءه ملك ، ولا أنه أخبر بكذا ، وإذا لم يبلغهم أن الرسول أخبر بذلك لم يكن عليهم الإقرار المفصل به لكن لابد من الإقرار بأنه رسول الله وأنه صادق فى كل ما يخبر به عن الله .

ثم الإيمان الذى يمتاز فيه تفصيل وفيه طمأنينة ويقين ، فهذا متميز بصفته وقدره فى الكمية والكيفية ، فإن أولئك معهم من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وتفصيل المعاد والقدر ما لا يعرفه هؤلاء .

وأيضًا ففى قلوبهم من اليقين والثبات ولزوم التصديق لقلوبهم ما ليس مع هؤلاء ، وأولئك هم المؤمنون حقًا ، وكل مؤمن لابد أن يكون مسلمًا ، فإن الإيمان يستلزم الأعمال ، وليس كل مسلم مؤمنًا هذا الإيمان المطلق ، لأن الاستسلام لله والعمل له لا يتوقف على هذا الإيمان الخاص ، وهذا الفرق يجده الإنسان من نفسه ويعرفه من غيره ، فعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر ، وولدوا

على الإسلام والتزموا شرائعه ، وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله ، فهم مسلمون ومعهم إيمان مجمل ، ولكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم إنما يحصل شيئًا فشيئًا إن أعطاهم الله ذلك ، وإلا فكثير من الناس لا يصلون لا إلى اليقين ولا إلى الجهاد ، ولو شككوا لشكوا ، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا ، وليسوا كفارًا ولا منافقين ، بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب ، ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله ما يقدمونه على الأهل والمال ، وهؤلاء إن عرفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة ، وإن ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب ريبهم فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مرتابين ، وانتقلوا إلى نوع من النفاق .

وكذلك إذا تعين عليهم الجهاد ولم يجاهدوا كانوا من أهل الوعيد ، ولهذا لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة أسلم عامة أهلها ، فلما جاءت المحنة والابتلاء نافق من نافق ، فلو مات هؤلاء قبل الامتحان لماتوا على الإسلام ودخلوا الجنة ولم يكونوا من المؤمنين حقًا الذين ابتلوا فظهر صدقهم قال تعالى : ﴿ الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وهُمْ لَا يُفْتَنُون * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ من قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صدَقُوا ولَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ ﴾ [سورة العنكبوت ، الآيات : ١ – ٣] وقال تعالى : ﴿ ما كانَ اللَّهُ لِيذر المؤْمِنِينَ علَى ما أَنْتُم عليْهِ حتَّى يميزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٧٩] وقال : ﴿ ومِنَ النَّاسِ مَنْ يعْبُد اللَّهَ علَى حَرْفٍ فإنْ أصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأنَّ بِهِ وإنْ أصَابَتْهُ فِتْنةٌ انْقَلَبَ علَى وجْهِه خَسِرَ الدُّنْيا والآخِرَة ذٰلِكَ هُو الخُسْران المبِينُ ﴾ [سورة الحج ، الآية : ١١] ولهذا ذم المنافقين بأنهم دخلوا فى الإيمان ثم خرجوا منه بقوله تعالى : ﴿ إنَّ المنَافِقِيْنَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخذُوا أَيْمَانَهُم جُنَّة فَصَدُّوا عَنْ سَبِيل اللَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ ذٰلِكَ بأنَّهُمْ آمنُوا ثمَّ كَفرُوا فَطُبِعَ علَى قُلُوبِهم فَهُم لا يفْقَهُونَ ﴾ [سورة المنافقون ، الآيات : ١ – ٣] وقال فى الآية الأخرى : ﴿ يَحْذَرُ المنافِقُونَ أنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِم سُورةٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ قلْ أَبِاللَّهِ وآياتِهِ ورَسُولِه كُنْتُم تَسْتَهْزِءُونَ *

لا تعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بعْدَ إيمانِكُم إنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ منْكُم نعذّب طائفةً بأنَّهُم كانُوا مجْرِمِينَ ﴾ [سورة التوبة ، الآيات : ٦٤ – ٦٦] فقد أمره أن يقول لهم قد كفرتم بعد إيمانكم .

وقول من يقول عن مثل هذه الآيات إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولًا بقلوبهم ، لا يصح لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر ، فلا يقال قد كفرتم بعد إيمانكم فإنهم لم يزالوا كافرين فى نفس الأمر ، وإن أريد أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان فهم لم يظهروا للناس إلا لخواصهم ، وهم مع خواصهم ما زالوا هكذا ، بل لما نافقوا وحذروا أن تنزل سورة تبين ما فى قلوبهم من النفاق وتكلموا بالاستهزاء صاروا كافرين بعد إيمانهم ، ولا يدل اللفظ على أنهم ما زالوا منافقين وقد قال تعالى : ﴿ يـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ جاهِدِ الكُفَّارَ والمنافِقِينَ واغْلظ علَيْهم ومأْوَاهُم جَهنَّمُ وبِئْسَ المصِيرُ * يَحْلِفُونَ باللَّهِ ما قَالُوا ولَقَدْ قالُوا كَلِمة الكُفْرِ وكَفَرُوا بعْدَ إسْلَامِهِم وهمُّوا بما لَمْ ينالُوا وما نَقَمُوا إلَّا أنْ أغْناهُم اللَّهُ ورَسُولُه مِن فَضْلِهِ فإنْ يتُوبُوا يكُ خَيْرًا لَّهُمْ وإنْ يتولَّوْا يُعذِّبْهُم اللَّهُ عذابًا أَليمًا فى الدُّنْيا والآخِرَة ﴾ [سورة التوبة ، الآيات : ٧٣ – ٧٤] فهنا قال كفروا بعد إسلامهم ، فهذا الإسلام قد يكون من جنس إسلام الأعراب ، فيكون قوله بعد إيمانهم وبعد إسلامهم سواء ، وقد يكونون ما زالوا منافقين ، فلم يكن لهم حال كان معهم فيها من الإيمان شئ، لكنهم أظهروا الكفر والردة ، ولهذا دعاهم إلى التوبة فقال : ﴿ فإنْ يتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُم وإنْ يَتولَّوْا ﴾ بعد التوبة عن التوبة يعذبهم عذابًا أليمًا فى الدنيا والآخرة ، وهذا إنما هو كمن أظهر الكفر فيجاهده الرسول بإقامة الحد والعقوبة . ولهذا ذكر هذا فى سياق قوله : ﴿ جاهِدِ الكُفَّار والمنَافِقِينَ واغْلُظ علَيْهِم ﴾ ولهٰذا قال فى تمامها : ﴿ ومَا لَهُم فِى الأَرضِ مِنْ وَلِىٍّ ولَا نَصِيرٍ ﴾ .

وهؤلاء الصنف الذين كفروا بعد إسلامهم غير الذين كفروا بعد إيمانهم فإن هؤلاء حلفوا بالله ما قالوا ، وقد قالوا كلمة الكفر التى كفروا بها بعد إسلامهم ،

وهموا بما لم ينالوه ، وهو يدل على أنهم سعوا فى ذلك فلم يصلوا إلى مقصودهم ، فإنه لم يقل هموا بما لم يفعلوا ، لكن ﴿ بمَا لَم ينَالوا ﴾ فصدر منهم قول وفعل قال تعالى : ﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم لَيَقُولُنَّ إنَّما كُنَّا نَخُوضُ ونلْعَبُ ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ٦٥] فاعترفوا واعتذروا ولهذا قيل : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إيمَانِكُمْ إنْ نَعْفُ عنْ طائِفةٍ منْكُم نُعذِّبْ طَائِفَةً ﴾ فدل على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتو كفرًا ، بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر ، فبين أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه ، فدل على أنه كان عندهم إيمان ضعيف ، ففعلوا هذا المحرم الذى عرفوا أنه محرم ، ولكن لم يظنوه كفرًا وكان كفرًا كفروا به ، فإنهم لم يعتقدوا جوازه ، وهكذا قال غير واحد من السلف فى صفة المنافقين الذين ضرب لهم المثل فى سورة البقرة : أنهم أبصروا ثم عموا ، وعرفوا ثم أنكروا ، وآمنوا ثم كفروا ، ولذلك قال قتادة ومجاهد : ضرب المثل لإقبالهم على المؤمنين وسماعهم ما جاء به الرسول وذهاب نورهم . قال : ﴿ مَثَلُهُم كمثَلِ الَّذِى استَوْقَدَ نارًا فلمَّا أضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَب اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَركهُم فى ظُلماتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآيتان : ١٧ - ١٨] إلى ما كانوا عليه .

وأما قول من قال : المراد بالنور ما حصل فى الدنيا من حقن دمائهم وأموالهم ، فإذا ماتوا سلبوا ذلك الضوء كما سلب ذلك النور ضوءه ، فلفظ الآية يدل على خلاف ذلك ، فإنه قال : ﴿ وتَرَكَهُمْ فى ظُلماتٍ لا يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ ويوم القيامة يكونون فى العذاب كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يقُولُ المنافِقُونَ والمنافِقَاتُ للَّذِينَ آمنُوا انْظُرُونَا نقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُم قِيلَ ارْجِعُوا ورَاءَكُم فالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بيْنَهُم بسُورٍ لهُ بابٌ باطِنُه فِيهِ الرَّحْمةُ وظاهِرهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذَابُ * يُنَادُونَهُم أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى ولَـٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُم أنفُسَكُم ﴾ [سورة الحديد ، الآيتان : ١٣ - ١٤] ، وقد قال غير واحد من السلف : إن المنافق يعطى يوم القيامة نورًا ثم يطفأ ولهذا قال تعالى : ﴿ يوْم لا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِىَّ والَّذِينَ آمنُوا مَعَهُ نُورهُم يسْعَى

بيْنَ أَيْدِيهِم وبِأَيْمَانِهِم يقُولُونَ ربَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنا واغْفِر لَنَا ﴾ [سورة التحريم ، الآية : ٨] .

قال المفسرون : إذا رأى المؤمنون نور المنافقين يطفأ سألوا الله أن يتم لهم نورهم ويبلغهم به الجنة .

قال ابن عباس : ليس أحد من المسلمين إلا يعطى نورًا يوم القيامة ، فأما المنافق فيطفأ نوره ، والمؤمن يشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق ، فهو يقول : ربنا أتمم لنا نورنا ، وهو كما قال ، فقد ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة وأبى سعيد وهو ثابت من وجوه أخر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ورواه مسلم من حديث جابر ، وهو معروف من حديث ابن مسعود وهو أطولها ، ومن حديث أبى موسى فى الحديث الطويل الذى يذكر فيه : « ينادى يوم القيامة ليتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله فى صورة غير صورته التى يعرفون فيقول أنا ربكم . فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون ، فيقول أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا فيتبعونه ، وفى رواية : فيكشف عن ساقه ، وفى رواية فيقول : هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساق ، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد أنفًا ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة ، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه »[1] .

فبين أن المنافقين يحشرون مع المؤمنين فى الظاهر كما كانوا معهم فى الدنيا ثم وقت الحقيقة هؤلاء يسجدون لربهم ، وأولئك لا يتمكنون من السجود ، فإنهم لم يسجدوا فى الدنيا له ، بل قصدوا الرياء للناس ، والجزاء فى الآخرة هو من جنس العمل فى الدنيا ، فلهذا أعطوا نورًا ثم طفىء لأنهم فى الدنيا دخلوا فى الإيمان

---

(١) البخارى (حـ١٣ / ٧٤٣٧) ، ومسلم (حـ١ ــ إيمان / ٢٩٩) ، وأحمد (حـ٢ ص ٢٧٥) عن أبى هريرة .

ثم خرجوا . ولهذا ضرب الله لهم المثل بهذا بذلك ، وهذا المثل هو لمن كان فيهم آمن ثم كفر ، هؤلاء الذين يعطون فى الآخرة نورًا ثم يطفأ . ولهذا قال : ﴿ فَهُم لا يَرْجِعُون ﴾ قال قتادة ومقاتل : لا يرجعون عن ضلالهم ، وقال السدى : لا يرجعون إلى الإسلام يعنى فى الباطن وإلا فهم يظهرونه ، وهذا المثل إنما يكون فى الدنيا ، وهذا المثل مضروب لبعضهم وهم الذين آمنوا ثم كفروا . وأما الذين لم يزالوا منافقين فضرب لهم المثل الآخر وهو قوله : ﴿ أو كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فيهِ ظُلُماتٌ ورعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٩] وهذا أصح القولين ، فإن المفسرين اختلفوا هل المثلان مضروبان لهم كلهم أو هذا المثل لبعضهم ؟ على قولين . والثانى هو الصواب لأنه قال ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾ وإنما يثبت بها أحد الأمرين . فدل ذلك على أنهم مثلهم هذا وهذا فإنهم لا يخرجون عن المثلين بل بعضهم يشبه هذا وبعضهم يشبه هذا ، ولو كانوا كلهم يشبهون المثلين لم يذكر « أو » بل يذكر الواو العاطفة .

وقول من قال : « أو » ههنا للتخيير كقولهم : جالس الحسن أو ابن سيرين ليس بشىء لأن التخيير يكون فى الأمر لا يكون فى الخبر ، وهذا خبر ، وكذلك قول من قال « أو » بمعنى الواو أو لتشكيك المخاطبين أو الإبهام عليهم ليس بشىء فإن الله يريد بالأمثال البيان والتفهيم لا يريد التشكيك والإبهام .

والمقصود تفهيم المؤمنين حالهم ، ويدل على ذلك أنه قال فى المثل الأول : ﴿ صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ ﴾ وقال فى الثانى : ﴿ يجْعَلونَ أصابِعَهُم فى آذانِهِم مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الموْتِ واللهُ مُحيطٌ بالكافِرينَ * يَكادُ البَرْقُ يخْطَفُ أَبْصارَهُم كلَّما أَضَاءَ لَهُم مَشَوْا فيهِ وإذا أَظْلَمَ عليْهِمْ قامُوا ولَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِم وأَبْصارِهم إنَّ اللَّهَ عَلَى كلِّ شَيْءٍ قديرٌ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٩ — ٢٠] فبين فى المثل الثانى أنهم يسمعون ويبصرون ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، وفى الأول كانوا يبصرون ثم صاروا فى ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمى . وفى الثانى إذا أصابهم البرق مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، فلهم حالان : حال ضياء وحال ظلام ، والأولون بقوا فى

الظلمة ، فالأول حال من كان فى ضوء فصار فى ظلمة ، والثانى حال من لم يستقر لا فى ضوء ولا فى ظلمة ، بل تختلف عليه الأحوال التى توجب مقامه واسترابته .

يبين هذا أنه سبحانه ضرب للكفار أيضًا مثلين بحرف أو فقال : ﴿ والَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُم كَسَراب بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حتَّى إِذَا جَاءَهُ لَم يَجِدْهُ شَيْئًا ووَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ واللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ * أَو كَظُلُمَاتٍ فى بَحْرٍ لُجِّىٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ومَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [سورة النور ، الآية : ٣٩ - ٤٠] فالأول مثل الكفر الذى يحسب صاحبه أنه على حق وهو على باطل كمن زين له سوء عمله فرآه حسنًا فإنه لا يعلم أنه لا يعلم ، فلهذا مثل بسراب بقيعة ، والثانى مثل الكفر الذى لا يعتقد صاحبه شيئًا بل هو فى ظلمات بعضها فوق بعض من عظم جهله لم يكن معه اعتقاد أنه على حق ، بل لم يزل جاهلا ضالًّا فى ظلمات متراكمة .

وأيضًا فقد يكون المنافق والكافر تارة متصفًا بهذا الوصف ، فيكون التقسيم فى المثلين لنوع الأشخاص ولتنوع أحوالهم . وبكل حال فليس ما ضرب له هذا المثل هو مماثل لما ضرب له هذا المثل لاختلاف المثلين صورة ومعنى ، ولهذا لم يضرب للإيمان إلا مثل واحد ، لأن الحق واحد ، فضرب مثله بالنور ، وأولئك ضرب لهم المثل بضوء لا حقيقة له كالسراب بالقيعة أو الظلمات المتراكمة ، وكذلك المنافق يضرب له المثل بمن أبصر ثم عمى أو هو مضطرب يسمع ويبصر ما لا ينتفع به . فتبين أن من المنافقين من كان آمن ثم كفر باطنًا ، وهذا مما استفاض به النقل عند أهل العلم بالحديث والتفسير والسيرة أنه كان رجال قد آمنوا ثم نافقوا ، وكان يجرى ذلك لأسباب : منها أمر القبلة لما حولت ارتد عن الإيمان لأجل ذلك طائفة وكانت محنة امتحن بها الناس ، قال تعالى : ﴿ ومَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَّتِى كُنْتَ عَلَيهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ

عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٤٣] وقال أى إذا حوِّلت ؛ والمعنى أن الكعبة هى القبلة التى كان فى علمنا أن نجعلها قبلتكم ، فإن الكعبة ومسجدها وحرمها أفضل بكثير من بيت المقدس ، وهى البيت العتيق ، وقبلة إبراهيم وغيره من الأنبياء ، ولم يأمر الله قط أحدًا أن يصلِّى إلى بيت المقدس لا موسى ولا عيسى ولا غيرهما ، فلم نكن لنجعلها قبلة دائمة ، ولكن جعلناها أولا قبلة لنمتحن بتحويلك منها الناس فيتبين من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، فكان فى شرعها هذه الحكمة .

وكذلك أيضًا لما انهزم المسلمون يوم أحد وشج وجه النبى صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته ارتد طائفة نافقوا ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَونَ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُم قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُه وتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَينَ النَّاسِ ولِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُم شُهَدَاءَ واللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلْيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكافِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران ، الآيات : ١٣٩ – ١٤١] وقال تعالى : ﴿ ومَا أَصَابَكُمْ يَومَ التَقَى الجمعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ ولِيَعْلَمَ المُؤْمِنِينَ * ولِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وقِيلَ لَهُم تَعَالَوا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَو ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لاتَّبَعْنَاكُم هُم للْكُفْرِ يَومَئِذٍ أَقْرَبُ مِنهُم للإيمان يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَا لَيسَ فِى قُلُوبِهِم والله أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٦٦ – ١٦٧] فقوله : ﴿ ولِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ ظاهر فيمن أحدث نفاقًا وهو يتناول من لم ينافق قبل ومن نافق ثم جدد نفاقًا ثانيًا ، وقوله : ﴿ هُم لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ منهم لِلإيمانِ ﴾ يبين أنهم لم يكونوا قبل ذلك أقرب منهم ، بل إما أن يتساووا وإما أن يكونوا للإيمان أقرب ، وكذلك كان ، فإن ابن أُبّى لما انخذل عن النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم أحد انخذل ثلث الناس قالوا : كانوا نحو ثلاثمائة ، وهؤلاء لم يكونوا قبل ذلك كلهم منافقين فى الباطن ، إذا لم يكن لهم داع إلى النفاق ، فإن ابن أُبّى كان مظهرًا لطاعة النبى صلى الله عليه وسلم والإيمان به ، وكل يوم جمعة يقوم خطيبًا فى المسجد يأمر باتباع النبى صلى الله عليه وسلم

ولم يكن ما فى قلبه يظهره إلا لقليل من الناس إن ظهر ، وكان معظمًا فى قومه ، كانوا قد عزموا على أن يتوّجوه ويجعلوه مثل الملك عليهم ، فلما جاءت النبوة بطل ذلك ، فحمله الحسد على النفاق ، وإلا فلم يكن هو فى الباطن على دين يدعو إليه ، وإنما كان هذا فى اليهود ، فلما جاء النبى صلى الله عليه وسلم بدينه وقد ظهر حسنه ونوره مالت إليه القلوب لا سيما لمّا نصره الله يوم بدر ، ونصره من يهود بنى قينقاع صار معه الدين والدنيا ، فكان المقتضى للإيمان فى عامة الأنصار قائمًا ، وكان كثير منهم يعظم ابن أبىّ تعظيمًا كثيرًا ويواليه ، ولم يكن ابن أبىّ أظهر مخالفة توجب الامتياز ، فلما انخذل يوم أحد وقال يدع رأيى ورأيه ويأخذ برأى الصبيان أو كما قال ، انخذل معه خلق كثير منهم من لم ينافق قبل ذلك .

وفى الجملة : فى الأخبار ممن نافق بعد إيمانه ما يطول ذكره هنا ، فأولئك كانوا مسلمين وكان معهم إيمان هو الضوء الذى ضرب الله به المثل ، فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق ماتوا على هذا الإسلام الذى يثابون عليه ، ولم يكونوا من المؤمنين حقًّا الذين امتحنوا فثبتوا على الإيمان ، ولا من المنافقين حقًّا الذين ارتدوا عن الإيمان بالمحنة ، وهذا حال كثير من المسلمين فى زماننا ، وأكثرهم إذا ابتلوا بالمحن التى يتضعضع فيها أهل الإيمان ينقص إيمانهم كثيرًا وينافق كثير منهم ، ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالبًا ، وقد رأينا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة ، وإذا كانت العافية ، أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين ، وهم مؤمنون بالرسول باطنًا وظاهرًا لكن إيمانًا لا يثبت على المحنة .

ولهذا يكثر فى هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم ، وهؤلاء من الذين قالوا آمنا فقيل لهم قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم ، أى الإيمان المطلق الذى أهله هم المؤمنون حقًّا ، فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق فى كتاب الله تعالى كما دل عليه الكتاب والسنة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٥] فلم

يحصل لهم ريب عند المحن التى تقلقل الإيمان فى القلوب ، والريب يكون فى علم القلب وفى عمل القلب ، بخلاف الشك فإنه لا يكون إلا فى العلم ولهذا لا يوصف باليقين إلا من اطمأن قلبه علمًا وعملًا ، وإلا فإذا كان عالمًا بالحق ولكن المصيبة أو الخوف أورثه جزعًا عظيمًا لم يكن صاحب يقين ، قال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [سورة الأحزاب ، الآية : ١١] .

وكثيرًا ما يعرض للمؤمن شعبة من شعب النفاق ثم يتوب الله عليه ؛ وقد يرد على قلبه ما يوجب بعض النفاق ويدفعه الله عنه ، والمؤمن يبتلى بوساوس الشيطان بوساوس الكفر التى يضيق بها صدره كما قالت الصحابة : يا رسول الله إن أحدنا ليجد فى نفسه ما لئن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به ، فقال : « ذاك صريح الإيمان »[1] وفى رواية : ما يتعاظم أن يتكلم به ، قال : « الحمد لله الذى رد كيده إلى الوسوسة » أى حصول هذا الوسواس مع هذه الكراهية العظيمة له ، ودفعه عن القلب هو من صريح الإيمان ، كالمجاهد الذى جاهد العدو فدافعه حتى غلبه ؛ فهذا عظيم الجهاد ، والصريح الخالص كاللبن الصريح ، وإنما صار صريحًا لما كرهوا تلك الوساوس الشيطانية ودفعوها ، فخلص الإيمان فصار صريحًا .

ولابد لعامة الخلق من هذه الوساوس ، فمن الناس من يجيبها فيصير كافرًا أو منافقًا ، ومنهم من قد غمر قلبه الشهوات والذنوب فلا يجيبها إلا إذا طلب الدين ، فإما أن يصير مؤمنًا وإما أن يصير منافقًا . ولهذا يعرض للناس من الوساوس فى الصلاة ما لا يعرض لهم إذا لم يصلُّوا ، لأن الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الإنابة إلى ربه والتقربّ إليه والاتصال به ، فلهذا يعرض للمصلّين ما لا يعرض لغيرهم ، ويعرض للخاصة أهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامة ، ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوساوس والشبهات ما ليس عند غيرهم ، لأنه

---

(١) أخرجه مسلم (حـ١ ـــ إيمان / ٢٠٩) ، وأبو داود (جـ٤ / ٥١١١) ، وأحمد (حـ٢ ص٤٤١) عن أبى هريرة .

لم يسلك شرع الله ومنهاجه ، بل هو مقبل على هواه فى غفلة عن ذكر ربه ، وهذا مطلوب الشيطان ، بخلاف المتوجِّهين إلى ربهم بالعلم والعبادة فإنه عدوهم يطلب صدَّهم عن الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [سورة فاطر ، الآية : ٦] ولهذا أُمِرَ قارىء القرآن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، فإن قراءة القرآن على الوجه المأمور به ، تورث القلب الإيمان العظيم ، وتزيده يقينًا وطمأنينة وشفاء ، وقال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [سورة الإسراء ، الآية : ٨٢] وقال تعالى : ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٣٨] وقال تعالى : ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ١٢٤] .

وهذا مما يجده كل مؤمن من نفسه ، فالشيطان يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن ؛ فأمر الله القارىء إذا قرأ القرآن أن يستعيذ منه ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمنوا وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل ، الآيات : ٩٨ – ١٠٠] فإن المستعيذ بالله مستجير به ، لاجىء إليه ، مستغيث به من الشيطان ، فالعائذ بغيره مستجير به ؛ فإذا عاذ العبد بربه متوكلًا عليه فيعيذه الله من الشيطان ويجيره منه ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بينَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [سورة فصلت ، الآيات : ٣٤ – ٣٦] .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم »[1] فأمر سبحانه

---

(١) أخرجه البخارى (حـ٦ / ٣٢٨٢) ، ومسلم (حـ٤ ـــ بر / ١٠٩) عن سليمان بن صُرَد .

بالاستعاذة عند طلب العبد الخير لئلا يعوقه عنه ، وعندما يعرض عليه من الشر ليدفعه عنه ، عند إرادة العبد للحسنات وعندما يأمره الشيطان بالسيئات ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يزال الشيطان يأتى أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق الله ، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته »[1] فأمر بالاستعاذة عندما يطلب الشيطان أن يوقعه فى شر أو يمنعه من خير كما يفعل العدو مع غيره .

وكلما كان الإنسان أعظم رغبة فى العلم والعبادة ، وأقدر على ذلك من غيره ، بحيث تكون قوته على ذلك أقوى . ورغبته وإرادته فى ذلك أتم ، كان ما يحصل له إن سلمه الله من الشيطان أعظم ؛ وكان ما يفتتن به إن تمكن منه الشيطان أعظم ، ولهذا قال الشعبى : كل أمة علماؤها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم .

وأهل السنة فى الإسلام كالإسلام فى الملل ، ذلك أن كل أمة غير المسلمين فهم ضالون ، وإنما يضلهم علماؤهم ، فعلماؤهم شرارهم والمسلمون على هدى ، وإنما يتبين الهدى بعلمائهم فعلماؤهم خيارهم ؛ وكذلك أهل السنة أئمتهم خيار الأمة ، وأئمة أهل البدع أضر على الأمة من أهل الذنوب ولهذا أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتل الخوارج ، ونهى عن قتل الولاة الظلمة ، وأولئك لهم نهمة فى العلم والعبادة فصار يعرض لهم من الوساوس التى تضلهم وهم يظنونها هدى فيطيعونها ما لا يعرض لغيرهم ، ومن سلم من ذلك منهم كان من أئمة المتقين مصابيح الهدى ، وينابيع العلم ؛ كما قال ابن مسعود لأصحابه : كونوا ينابيع العلم ، مصابيح الحكمة ؛ سُرُج الليل ؛ جدد القلوب ، أحلاس البيوت ، خلقان الثياب ، تعرفون فى أهل السماء وتخفون على أهل الأرض .

* * *

---

(١) أخرجه البخارى (حـ ٦ / ٣٢٧٦) ، ومسلم (حـ١ ــ إيمان / ٢١٣) عن أبى هريرة .

فصل

ما جاء من جهة النبى ﷺ لا يحتاج إلى استدلال :

مما ينبغى أن يعلم أن الألفاظ الموجودة فى القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبى صلى الله عليه وسلم لم يحتج فى ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم ، ولهذا قال الفقهاء : الأسماء ثلاثة أنواع : نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة ، ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر ، ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض ، ولفظ المعروف فى قوله : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ ﴾ ونحو ذلك ، وروى عن ابن عباس أنه قال فى تفسير القرآن على أربعة أوجه : تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله ، من ادَّعى علمه فهو كاذب ، فاسم الصلاة والزكاة والصيام والحج ونحو ذلك قد بيَّن الرسول صلى الله عليه وسلم ما يراد بها فى كلام الله ورسوله ، وكذلك لفظ الخمر وغيرها ، ومن هناك يعرف معناها ، فلو أراد أحد أن يفسرها بغير ما بيَّنه النبى صلى الله عليه وسلم لم يقبل منه ، وأما الكلام فى اشتقاقها ووجه دلالتها فذلك من جنس علم البيان ، وتحليل الأحكام هو زيادة فى العلم ، وبيان حكمة ألفاظ القرآن ؛ لكن معرفة المراد بها لا يتوقف على هذا .

واسم الإيمان والإسلام والنفاق والكفر ؛ هى أعظم من هذا كله ؛ فالنبى صلى الله عليه وسلم قد بيَّن المراد بهذه الألفاظ بيانًا لا يحتاج معه إلى الاستدلال على ذلك بالاشتقاق وشواهد استعمال العرب ونحو ذلك ؛ فلهذا يجب الرجوع فى مسميات هذه الأسماء إلى بيان الله ورسوله ، فإنه شاف كاف ، بل معانى هذه الأسماء معلومة من حيث الجملة للخاصة والعامة ، بل كل من تأمل ما تقوله الخوارج والمرجئة فى معنى الإيمان علم بالاضطرار أنه مخالف للرسول ، ويعلم بالاضطرار أن طاعة الله ورسوله من تمام الإيمان ؛ وأنه لم يكن يجعل كل من أذنب

ذنبًا كافرًا ، ويعلم أنه لو قدر أن قومًا قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : نحن نؤمن بما جئتنا به بقلوبنا من غير شك ؛ ونقرّ بألسنتنا بالشهادتين ، إلا أنا لا نطيعك فى شيء مما أمرت به ونهيت عنه فلا نصلّى ولا نصوم ولا نحج ، ولا نصدق الحديث ، ولا نؤدى الأمانة ، ولا نفى بالعهد ؛ ولا نصل الرحم ، ولا نفعل شيئًا من الخير الذى أمرت به ، ونشرب الخمر ؛ وننكح ذوات المحارم بالزنى الظاهر ، ونقتل من قدرنا عليه من أصحابك وأمتك ، ونأخذ أموالهم ، بل نقتلك أيضًا ونقاتلك مع أعدائك ؛ هل كان يتوهم عاقل أن النبى صلى الله عليه وسلم يقول لهم : أنتم مؤمنون كاملوا الإيمان ، وأنتم من أهل شفاعتى يوم القيامة ، ويرجى لكم ألا يدخل أحد منكم النار ، بل كل مسلم يعلم بالاضطرار أنه يقول لهم أنتم أكفر الناس بما جئت به ويضرب رقابهم إن لم يتوبوا من ذلك .

وكذلك كل مسلم يعلم أن شارب الخمر والزانى والقاذف والسارق لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يجعلهم مرتدين يجب قتلهم ، بل القرآن والنقل المتواتر عنه بيّن أن هؤلاء لهم عقوبات غير عقوبة المرتد عن الإسلام كما ذكر الله فى القرآن جلد القاذف والزانى ، وقطع يد السارق ، وهذا متواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم ولو كانوا مرتدين لقتلهم ، فكلا القولين مما يعلم فساده ، بالاضطرار من دين الرسول صلى الله عليه وسلم .

أهل البدع إنما دخل عليهم الداخل لأنهم أعرضوا عن هذه الطريق وصاروا يبنون دين الإسلام على مقدمات يظنون صحتها ، إما فى دلالة الألفاظ وإما فى المعانى المعقولة ، ولا يتأملون بيان الله ورسوله ، وكل مقدمات تخالف بيان الله ورسوله فإنها تكون ضلالًا ، ولهذا تكلم أحمد فى رسالته المعروفة فى الرد على من يتمسك بما يظهر له من القرآن من غير استدلال ببيان الرسول والصحابة والتابعين ؛ وكذلك ذكر فى رسالته إلى أبى عبد الرحمن الجرجانى فى الرد على المرجئة ، وهذه طريقة سائر أئمة المسلمين لا يعدلون عن بيان الرسول إذا وجدوا إلى ذلك سبيلًا ، ومن عدل عن سبيلهم وقع فى البدع التى مضمونها أنه يقول على الله ورسوله ما لا يعلم ، أو غير الحق ، وهذا مما حرمه الله ورسوله ، وقال

تعالى فى الشيطان : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ والفَحْشَاءِ وأَنْ تَقولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٦٩] وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيهِمْ مِيثَاقُ الكِتَابِ أَنْ لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحَقَّ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ١٦٩] وهذا من تفسير القرآن بالرأى الذى جاء فيه الحديث : « من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار »[١] ..

مثال ذلك أن المرجئة لما عدلوا عن معرفة كلام الله ورسوله أخذوا يتكلمون فى مسمى الإيمان والإسلام وغيرهما بطرق ابتدعوها مثل أن يقولوا الإيمان فى اللغة هو التصديق ، والرسول إنما خاطب الناس بلغة العرب لم يغيرها فيكون مراده بالإيمان التصديق ، ثم قالوا : والتصديق إنما يكون بالقلب واللسان أو بالقلب ، فالأعمال ليست من الإيمان ؛ ثم عمدتهم فى أن الإيمان هو التصديق قوله : ﴿ وما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾ [سورة يوسف ، الآية : ١٧] أى بمصدق لنا .

فيقال لهم : اسم الإيمان قد تكرر ذكره فى القرآن أكثر من ذكر سائر الألفاظ وهو أصل الدين، وبه يخرج الناس من الظلمات إلى النور ؛ ويفرق بين السعداء والأشقياء ، ومن يوالى ومن يعادى ، والدين كله تابع لهذا ، وكل مسلم محتاج إلى معرفة ذلك ، أفيجوز أن يكون الرسول قد أهمل بيان هذا ووكله إلى هاتين المقدمتين ؟ ومعلوم أن الشاهد الذى استشهدوا به على أن الإيمان هو التصديق أنه من القرآن ؛ ونقل معنى الإيمان متواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم أعظم من تواتر لفظ الكلمة ، فإن الإيمان يحتاج إلى معرفته جميع الأمة فينقلونه بخلاف كلمة من سورة ، فأكثر المؤمنين لم يكونوا يحفظون هذه السورة ، فلا يجوز أن يجعل بيان أصل الدين مبنيًا على هذه المقدمات ، ولهذا كثر النزاع والاضطراب بين الذين عدلوا عن صراط الله المستقيم وسلكوا السبل ، وصاروا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا ، ومن الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات ، فهذا كلام عام مطلق .

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذى عن ابن عباس كما فى كنز العمال (حـ٢ / ٢٩٥٨) وضعفه الألبانى .

ثم يقال : هاتان المقدمتان كلاهما ممنوعة . فمن الذى قال إن لفظ الإيمان مرادف للفظ التصديق ، وهب أن المعنى يصح إذا استعمل فى هذا الموضع فلم قلت إنه يوجب الترادف . ولو قلت : ما أنت بمسلم لنا ما أنت بمؤمن لنا صح المعنى ، لكن لم قلت : إن هذا هو المراد بلفظ مؤمن ؟ وإذا قال الله أقيموا الصلاة . ولو قال القائل أتموا الصلاة ولازموا الصلاة التزموا الصلاة افعلوا الصلاة كان المعنى صحيحًا .

لكن لا يدل هذا على معنى أقيموا ، فكون اللفظ يرادف اللفظ يراد دلالته على ذلك .

ثم يقال ليس هو مرادفًا له ، وذلك من وجوه :

أحدها : أن يقال للمخبر إذا صدق ، ولا يقال آمنه وآمن به . بل يقال آمن له كما قال : ﴿ فآمَنَ لَهُ لوطٌ ﴾ [سورة العنكبوت ، الآية : ٢٦] وقالَ : ﴿ فَمَا آمنَ لِمُوسَى إلَّا ذُرِّية مِنْ قَوْمِهِ ﴾ [سورة يونس ، الآية : ٨٣] وقال فرعون : ﴿ آمَنْتُم بِهِ قَبْلَ أنْ آذنَ لَكُم ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ١٢٣] وقال لنوح : ﴿ أنُؤْمِنُ لكَ واتَّبعك الأرْذَلُونَ ﴾ [سورة الشعراء ، الآية : ١١١] وقال تعالى : ﴿ قُلْ أُذنُ خَيْر لَكُمْ يؤْمِنُ باللَّهِ ويؤْمِنُ للمؤْمِنِينَ ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ٦١] . و ﴿ فَقَالُوا أنؤْمِنُ لِبشَرَيْنِ مِثْلِنَا وقَوْمهُما لَنا عابِدُون ﴾ [سورة المؤمنون ، الآية : ٤٧] وقال : ﴿ وإنْ لمْ تُؤْمِنُوا لِى فاعْتَزِلُون ﴾ [سورة الدخان ، الآية : ٢١] .

فإن قيل : فقد يقال ما أنت بمصدق لنا ؟ قيل : اللام تدخل على ما يتعدى بنفسه إذا ضعف عمله ، إما بتأخيره أو بكونه اسم فاعل أو مصدرًا أو باجتماعهما ، فيقال فلان يعبد الله ويخافه ويتقيه ، ثم إذا ذكر باسم الفاعل قيل هو عابد لربه متق لربه خائف لربه ، وكذلك تقول فلان يرهب الله ثم تقول هو راهب لربه ، وإذا ذكرت العمل وآخرته تقويه باللام كقوله : ﴿ وفى نُسْخَتِها هُدًى ورَحْمةٌ للَّذين هُم لربِّهم يرْهَبونَ ﴾ [سورة الأعراف ،

الآية : ١٥٤] وقد قال : ﴿ وَإِيَّاىَ فارْهَبُونِ ﴾ [سورة البقرة ، الاية : ٤٠] فعداه بنفسه ، وهناك ذكر اللام فإن هنا قوله : وإياى أتم من قوله ولى . وقوله : هنالك لربهم أتم من قوله : ربهم فإن الضمير المنفصل المنصوب أكمل من ضمير الجر بالباء ، وهناك اسم ظاهر فتقويته باللام أولى وأتم من تجريده . ومن هذا قوله : ﴿ إنْ كُنتُم لِلرُّءْيَا تَعْبُرُون ﴾ [سورة يوسف ، الآية : ٤٣] ويقال عبرت رؤياه كذلك قوله : ﴿ وإنَّهُم لَنا لغَائِظُونَ ﴾ [سورة الشعراء ، الآية : ٥٥] وإنما يقال غظته لا يقال غظت له ومثله كثير ، فيقول القائل : ما أنت بمصدق لنا ، أدخل فيه اللام كونه اسم فاعل ، وإلا فإنما يقال : صدقته لا يقال : صدقت له ولو ذكروا الفعل لقالوا ما صدقتنا ، وهذا بخلاف لفظ الإيمان فإنه تعدى إلى الخبر باللام دائما لا يقال آمنته قط وإنما يقال آمنت له كما يقال أقررت ، فكان تفسيره بلفظ الإقرار أقرب من تفسيره بلفظ التصديق مع أن بينهما فرقًا .

الثانى : أنه ليس مرادفًا للفظ التصديق فى المعنى ، فإن كل مخبر عن مشاهدة أو غيب يقال له فى اللغة صدقت كما يقال كذبت ، فمن قال السماء فوقنا قيل له صدق كما يقال كذب ، وأما لفظ الإيمان فلا يستعمل إلا فى الخبر عن غائب لم يوجد فى الكلام أن من أخبر عن مشاهدة كقوله طلعت الشمس وغربت أنه يقال آمنا كما يقال صدقناه ، ولهذا المحدثون والشهود ونحوهم يقال صدقناهم وما يقال آمنا لهم . فإن الإيمان مشتق من الأمن ، فإنما يستعمل فى خبر يؤتمن عليه المخبر كالأمر الغائب الذى يؤتمن عليه المخبر ، ولهذا لم يوجد قط فى القرآن وغيره لفظ آمن له إلا فى هذا النوع ، والاثنان إذا اشتركا فى معرفة الشيء يقال صدق أحدهما صاحبه ولا يقال آمن له ، لأنه لم يكن غائبًا عنه ائتمنه عليه .ولهذا قال : ﴿ فآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ ، ﴿ أنُؤْمنُ لبشَرَيْنِ مِثْلِنا ﴾ ، ﴿ آمنْتُم لَه ﴾ ﴿ يؤْمنُ باللَّهِ ويؤْمِنُ للمؤْمنينَ ﴾ فيصدقهم فيما أخبروا به مما غاب عنه وهو مأمون عنده على ذلك ، فاللفظ متضمن مع التصديق معنى الائتمان والأمانة كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق ولهذا قالوا ﴿ ماأنْتَ بمؤْمِنٍ لنا ﴾ أى لا تقر

يخبرنا ولا تثق به ولا تطمئن إليه ولو كنا صادقين ، لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك ، فلو صدقوا لم يأمن لهم .

الثالث : أن لفظ الإيمان فى اللغة لم يقابل بالتكذيب كلفظ التصديق فإنه من المعلوم فى اللغة أن كل مخبر يقال له صدقت أو كذبت ، ويقال صدقناه أو كذبناه ولا يقال لكل مخبر آمنا له أو كذبناه . ولا يقال أنت مؤمن له أو مكذب له ، بل المعروف فى مقابلة الإيمان لفظ الكفر . يقال هو مؤمن أو كافر ، والكفر لا يختص بالتكذيب ، بل لو قال : أنا أعلم أنك صادق لكن لا أتبعك بل أعاديك وأبغضك وأخالفك ولا أوافقك ، لكان كفره أعظم ، فلو كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط علم أن الإيمان ليس هو التصديق فقط ، بل إذا كان الكفر يكون تكذيبًا ويكون مخالفة ومعاداة وامتناعا بلا تكذيب ، فلابد أن يكون الإيمان تصديقًا مع موافقة وموالاة وانقياد ، لا يكفى مجرد التصديق ، فيكون الإسلام جزء مسمى الإيمان كما كان الامتناع من الانقياد مع التصديق جزء مسمى الكفر ، فيجب أن يكون كل مؤمن مسلمًا منقادًا للأمر وهذا هو العمل .

فإن قيل : فالرسول صلى الله عليه وسلم فسر الإيمان بما يؤمن به .

قيل : فالرسول ذكر ما يؤمن به ، لم يذكر ما يؤمن له ، وهو نفسه يجب أن يؤمن به ويؤمن له ، فالإيمان به من حيث ثبوته غيب عنا أخبرنا به ، وليس كل غيب آمنا به علينا أن نطيعه ، وأما ما يجب من الإيمان له فهو الذى يوجب طاعته ، والرسول يجب الإيمان به وله ، فينبغى أن يعرف هذا ، وأيضًا فإن طاعته طاعة لله وطاعة الله من تمام الإيمان به .

الرابع : أن من الناس من يقول : الإيمان أصله فى اللغة من الأمن الذى هو ضد الخوف ، فآمن أى صار داخلا فى الأمن وأنشدوا .

وأما المقدمة الثانية فقال إنه إذا فرض أنه مرادف للتصديق فقولهم : إن التصديق لا يكون إلا بالقلب أو اللسان عنه جوابان .

أحدهما : المنع بل الأفعال تسمى تصديقًا كما ثبت فى الصحيح عن النبى

صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العينان تزنيان وزناهما النظر ؛ والأذن تزنى وزناها السمع ، واليد تزنى وزناها البطش ، والرجل تزنى وزناها المشى ، والقلب يتمنى ذلك ويشتهى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه »[1] . وكذلك قال أهل اللغة وطوائف من السلف والخلف . قال الجوهرى : والصديق مثال الفسيق الدائم التصديق . ويكون الذى يصدق قوله بالعمل .

وقال الحسن البصرى : ليس الإيمان بالتحلى ولا بالتمنى . ولكنه ما وقر فى القلوب وصدقته الأعمال . وهذا مشهور عن الحسن ويروى عنه من غير وجه كما رواه عباس الدورى حدثنا حجاج حدثنا أبو عبيدة الناجى عن الحسن قال : ليس الإيمان بالتحلى ولا بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقته الأعمال ، من قال حسنًا وعمل غير صالح رد الله عليه قوله ، ومن قال حسنًا وعمل صالحًا رفعه العمل ، ذلك بأن الله يقول : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [سورة فاطر ، الآية : ١٠] ورواه ابن بطة من الوجهين ، وقوله : ليس الإيمان بالتمنى – يعنى الكلام – وقوله « بالتحلى » يعنى أن يصير حلية ظاهرة له فيظهره من غير حقيقة من قلبه . ومعناه ليس هو ما يظهر من القول ولا من الحلية الظاهرة ولكن ما وقر فى القلب وصدقته الأعمال ، فالعمل يصدق أن فى القلب إيمانًا ، وإذا لم يكن عمل كذب أن فى قلبه إيمانًا ، لأن ما فى القلب مستلزم للعمل الظاهر ، وانتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم .

وقد روى محمد بن نصر المروزى بإسناده : أن عبد الملك بن مروان كتب إلى سعيد بن جبير يسأله عن هذه المسائل فأجابه عنها : سألت عن الإيمان ، فالإيمان هو التصديق أن يصدق العبد بالله وملائكته ، وما أنزل من كتاب ، وما أرسل من رسول وباليوم الآخر ، وسألت عن التصديق ، والتصديق أن يعمل العبد بما صدق به من القرآن وما ضعف عن شىء منه وفرط فيه عرف أنه ذنب

---

(١) أخرجه مسلم (حـ٤ ــ قدر / ٢٠ ، ٢١) ، وأبو داود (حـ٢ / ٢١٥٢ ، ٢١٥٣ ، ٢١٥٤) ، وأحمد (حـ٢ ص ٣٤٣) عن أبى هريرة .

واستغفر الله وتاب منه ولم يصر عليه ، فذلك هو التصديق . وتسأل عن الدين : فالدين هو العبادة ، فإنك لن تجد رجلا من أهل الدين ترك عبادة أهل دين ثم لا يدخل فى دين آخر إلا صار لا دين له ، وتسأل عن العبادة : والعبادة هى الطاعة ، ذلك أنه من أطاع الله فيما أمره به وفيما نهاه عنه فقد آثر عبادة الله ، ومن أطاع الشيطان فى دينه وعمله فقد عبد الشيطان ، ألا ترى أن الله قال للذين فرطوا : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُم يا بَنِى آدمَ أَنْ لَّا تعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ [سورة يس ، الآية : ٦٠] وإنما كانت عبادتهم الشيطان أنهم أطاعوه فى دينهم . وقال أسد بن موسى : حدثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعى حدثنا حسان بن عطية قال : الإيمان فى كتاب الله صار إلى العمل قال الله تعالى : ﴿ إِنَّما المؤْمنُونَ الَّذينَ إذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَت قُلُوبُهم ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٢] . ثم صيرهم إلى العمل فقال : ﴿ الَّذينَ يؤمِنُونَ بالغَيْبِ ويُقِيمُونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رَزَقْناهُم ينْفقُون ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٣] قال : وسمعت الأوزاعى يقول : قال الله تعالى : ﴿ فإنْ تابـُوا وأَقامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ فإخْوانُكُم فى الدِّينِ ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ١١] والإيمان بالله باللسان والتصديق به العمل .

وقال معمر عن الزهرى : كنا نقول الإسلام بالإقرار ، والإيمان بالعمل ، والإيمان قول وعمل قرينان ، لا ينفع أحدهما إلا بالآخر ، وما من أحد إلا يوزن قوله وعمله ، فإن كان عمله أوزن من قوله صعد إلى الله ، وإن كان كلامه أوزن من عمله لم يصعد إلى الله . ورواه أبو عمر الطلمنكى بإسناده المعروف ، وقال معاوية بن عمرو عن أبى إسحاق الفزارى عن الأوزاعى قال : لا يستقيم الإيمان إلا بالقول ، ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل ، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بنية موافقة للسنة .

وكان من مضى من سلفنا لا يفرقون بين الإيمان والعمل ، العمل من الإيمان والإيمان من العمل ؛ وإنما الإيمان اسم يجمع كما يجمع هذه الأديان اسمها ويصدقه العمل ، فمن آمن بلسانه وعرف بقلبه وصدق بعمله فتلك العروة الوثقى التى

لا انفصام لها ، ومن قال بلسانه و لم يعرف بقلبه ولم يصدق بعمله كان فى الآخرة من الخاسرين . وهذا معروف عن غير واحد من السلف والخلف أنهم يجعلون العمل مصدقًا للقول ، ورووا ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم ، كما رواه معاذ بن أسد : حدثنا الفضيل بن عياض ، عن ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد أن أبا ذر سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال : الإيمان الإقرار والتصديق بالعمل[1] ، ثم تلا : ﴿ لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُم قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِب ﴾ إلى قوله : ﴿ وأُولَـٰئِكَ هُم المُتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٧٧] .

قلت : حديث أبى ذر هذا مروى من غير وجه ، فإن كان هذا اللفظ هو لفظ الرسول فلا كلام ، وإن كانوا رووه بالمعنى دل على أنه من المعروف من لغتهم أنه يقال صدق قوله بعمله ، وكذلك قال شيخ الإسلام الهروى : الإيمان تصديق كله .

وكذلك الجواب الثانى أنه إذا كان أصله التصديق فهو تصديق مخصوص ، كما أن الصلاة دعاء مخصوص والحج قصد مخصوص ، والصيام إمساك مخصوص ، وهذا التصديق له لوزام صارت لوازمه داخلة فى مسماه عند الإطلاق ؛ فإن انتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم ، ويبقى لفظيًا : هل الإيمان دال على العمل بالتضمن أو باللزوم ؟

ومما ينبغى أن يعرف أن أكثر التنازع بين أهل السنة فى هذه المسألة هو نزاع لفظى ، وإلا فالقائلون بأن الإيمان قول من الفقهاء كحماد بن أبى سليمان وهو أول من قال ذلك ومن اتبعه من أهل الكوفة وغيرهم متفقون مع جميع علماء السنة على أن أصحاب الذنوب داخلون تحت الذم والوعيد ، وإن قالوا : إن إيمانهم كامل كإيمان جبريل ، فهم يقولون : إن الإيمان بدون العمل المفروض ومع فعل المحرمات يكون صاحبه مستحقًا للذم والعقاب كما تقوله الجماعة ، ويقولون أيضًا :

(١) لم أقف عليه ورواية ليث بن أبى سليم فيه ضعف على أنه مدلس أيضًا وقد عنعنه .

بأن من أهل الكبائر من يدخل النار كما تقوله الجماعة ، والذين ينفون عن الفاسق اسم الإيمان من أهل السنة متفقون على أنه لا يخلد فى النار ، فليس بين فقهاء الملة نزاع فى أصحاب الذنوب إذا كانوا مقرين باطنًا وظاهرًا بما جاء به الرسول وما تواتر عنه أنهم من أهل الوعيد ، وأنه يدخل النار منهم من أخبر الله ورسوله بدخوله إليها ، ولا يخلد منهم فيها أحد ولا يكونون مرتدين مباحى الدماء ، ولكن الأقوال المنحرفة قول من يقول بتخليدهم فى النار كالخوارج والمعتزلة ؛ وقول غلاة المرجئة الذين يقولون ما نعلم أن أحدًا منهم يدخل النار ؛ بل نقف فى هذا كله .

وحكى عن بعض غلاة المرجئة الجزم بالنفى العام ، ويقال للخوارج : الذى نفى عن السارق والزانى والشارب وغيرهم الإيمان هو الذى لم يجعلهم مرتدين عن الإسلام ، بل عاقب هذا بالجلد وهذا بالقطع ، ولم يقتل أحدًا إلا الزانى المحصن ، ولم يقتله قتل المرتد ، فإن المرتد يقتل بالسيف بعد الاستتابة ، وهذا يرجم بالحجارة بلا استتابة ، فدل ذلك على أنه وإن نفى عنهم الإيمان فليسوا عنده مرتدين عن الإسلام مع ظهور ذنوبهم ، وليسوا كالمنافقين الذين كانوا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ، فأولئك لم يعاقبهم إلا على ذنب ظاهر .

وبسبب الكلام فى مسألة الإيمان تنازع الناس : هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها فى اللغة ؟ أو أنها باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة ؟ لكن الشارع زاد فى أحكامها لا فى معنى الأسماء . وهكذا قالوا فى اسم الصلاة والزكاة والصيام والحج إنها باقية فى كلام الشارع على معناها اللغوى ، لكن زاد فى أحكامها ، ومقصودهم أن الإيمان هو مجرد التصديق ، وذلك يحصل بالقلب واللسان ، وذهبت طائفة ثالثة إلى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهى بالنسبة إلى اللغة مجاز ، وبالنسبة إلى عرف الشارع حقيقة .

والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها كقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٩٧] فذكر حجًا خاصًا وهو حج البيت ، وكذلك قوله : ﴿ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٥٨] فلم يكن

لفظ الحج متناولًا لكل قصد ، بل لقصد مخصوص دل عليه اللفظ نفسه من غير تغيير اللغة ، والشاعر إذا قال :

وأشهد من عوف حلولًا كثيرة   يحجون سب الزبرقان المزعفرا

كان متكلمًا باللغة . وقد قيل لفظه يحج سب الزبرقان المزعفرا . ومعلوم أن ذلك الحج المخصوص دلت عليه الإضافة فكذلك الحج المخصوص الذى أمر الله به دلت عليه الإضافة أو التعريف باللام . فإذا قيل : الحج فرض عليك كانت لام العهد تبين أنه حج البيت ، وكذلك الزكاة هى اسم لما تزكو به النفس ، وزكاة النفس زيادة خيرها وذهاب شرها ؛ والإحسان إلى الناس من أعظم ما تزكو به النفس ؛ كما قال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرهم وتُزَكِّيهِمْ بِها ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ١٠٣] وكذلك ترك الفواحش مما تزكو به . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُم ورحْمتُه ما زَكَى مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ أبدًا ﴾ [سورة النور ، الآية : ٢١] وأصل زكاتها بالتوحيد وإخلاص الدين لله . قال تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ للمشْرِكِينَ * الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ ﴾ [سورة فصلت ، الآيات : ٦ - ٧] وهى عند المفسرين التوحيد .

وقد بين النبى صلى الله عليه وسلم مقدار الواجب وسماها الزكاة المفروضة ؛ فصار لفظ الزكاة إذا عرف باللام ينصرف إليها لأجل العهد ، ومن الأسماء ما يكون أهل العرف نقلوه وينسبون ذلك إلى الشارع مثل لفظ التيمم ، فإن الله تعالى قال : ﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فامْسَحُوا بِوُجُوهِكم وأَيْدِيْكُم منْهُ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٦] فلفظ التيمم استعمل فى معناه المعروف فى اللغة ، فإنه أمر بتيمم الصعيد ، ثم أمر بمسح الوجوه والأيدى منه ؛ فصار لفظ التيمم فى عرف الفقهاء يدخل فيه هذا المسح ؛ وليس هو لغة الشارع ، بل الشارع فرق بين تيمم الصعيد وبين المسح الذى يكون بعده ، ولفظ الإيمان أمر به مقيدًا بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وكذلك لفظ الإسلام بالاستسلام لله رب العالمين ؛ وكذلك لفظ الكفر مقيدًا ، ولكن لفظ النفاق قد قيل إنه لم تكن العرب تكلمت به ، لكنه مأخوذ من كلامهم ، فإن نفق يشبه خرج ومنه نفقت الدابة

إذا ماتت ، ومنه نافق اليربوع ، والنفق فى الأرض . قال تعالى : ﴿ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أن تَبْتَغِى نَفَقًا فى الأَرْضِ ﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ٣٥] فالمنافق هو الذى خرج من الإيمان باطنًا بعد دخوله فيه ظاهرًا ؛ وقيد النفاق بأنه نفاق من الإيمان ، ومن الناس من يسمى من خرج عن طاعة الملك منافقًا عليه ، لكن النفاق الذى فى القرآن هو النفاق على الرسول ، فخطاب الله ورسوله للناس بهذه الأسماء كخطاب الناس بغيرها ، وهو خطاب مقيد خاص لا مطلق يحتمل أنواعًا .

وقد بين الرسول تلك الخصائص والاسم دل عليها فلا يقال إنها منقولة ، ولا إنه زيد فى الحكم دون الاسم ؛ بل الاسم إنما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع ، لم يستعمل مطلقًا ، وهو إنما قال أقيموا الصلاة بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها . فكان التعريف منصرفًا إلى الصلاة التى يعرفونها ، لم ينزل لفظ الصلاة وهو لا يعرفون معناه ، ولهذا قال من قال فى لفظ الصلاة : إنه عام للمعنى اللغوى أو إنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوى والشرعى ونحو ذلك ، فأقوالهم ضعيفة ، فإن هذا اللفظ إنما ورد خبرًا أو أمرًا فالخبر كقوله : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى * عَبْدًا إذا صَلَّى ﴾ [سورة العلق ، الآيات : ٩ ، ١٠] وسورة اقرأ من أول ما نزل من القرآن ، وكان بعض الكفار إما أبو جهل أو غيره قد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة وقال : لئن رأيته يصلى لأطأن عنقه ، فلما رآه ساجدًا رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبيه ، فإذا قيل : أرأيت الذى ينهى عبدًا إذا صلى ، فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال فى اللفظ ولا عموم .

ثم إنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبى صلى الله عليه وسلم لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم ، وكان جبريل يؤم النبى صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون يأتمون بالنبى ، فإذا قيل لهم أقيموا الصلاة عرفوا أنها تلك الصلاة ، وقيل إنه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفى النهار ، فكانت أيضًا فلم يخاطبوا باسم من هذه الأسماء إلا ومسماه معلوم عندهم ؛ فلا إجمال فى ذلك ، ولا تناول كل ما يسمى حجًا ودعاءً وصومًا ، فإن هذا إنما يكون إذا كان اللفظ

مطلقًا وذلك لم يرد .

وكذلك الإيمان والإسلام ، وقد كان معنى ذلك عندهم من أظهر الأمور ، وإنما سأل جبريل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك وهم يسمعون وقال : « هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم » ليبين لهم كمال هذه الأسماء وحقائقها التى ينبغى أن تقصد لئلا يقتصروا على أدنى مسمياتها ، وهذا كما فى الحديث الصحيح أنه قال : « ليس المسكين هذا الطوَّاف الذى تردُّه اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذى لا يجد غناء يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس إلحافًا » فهم كانوا يعرفون المسكين وأنه المحتاج ، وكان ذلك مشهورًا عندهم فيمن يظهر حاجته بالسؤال ، فَبَيَّنَ النبى صلى الله عليه وسلم أن الذى يظهر حَاجَتَهُ بالسؤال والناس يعطونه تزول مسكنته بإعطاء الناس له ، والسؤال له بمنزلة الحرفة ، وهو وإن كان مسكينًا يستحق من الزكاة إذا لم يعط من غيرها كفايته فهو إذا وجد من يعطيه كفايته لم يبق مسكينًا ، وإنما المسكين المحتاج الذى لا يسأل ولا يعرف فيعطى . فهذا هو الذى يجب أن يقدم فى العطاء ، فإنه مسكين قطعًا ، وذاك مسكنته تندفع بعطاء من يسأله ، وكذلك قوله : الإسلام هو الخمس ، يريد أن هذا كله واجب داخل فى الإسلام ، فليس للإنسان أن يكتفى بالإقرار بالشهادتين ، وكذلك الإيمان يجب أن يكون على هذا الوجه المفصل ، لا يكتفى فيه بالإيمان المجمل ، ولهذا وصف الإسلام بهذا .

وقد اتفق المسلمون على أنه من لم يأت بالشهادتين فهو كافر ، وأما الأعمال الأربعة فاختلفوا فى تكفير تاركها ، ونحن إذا قلنا : أهل السنة متفقون على أنه لا يكفر بالذنب ، فإنما نريد به المعاصى كالزنى والشرب ، وأما هذه المبانى ففى تكفير تاركها نزاع مشهور ، وعن أحمد : فى ذلك نزاع وإحدى الروايات عنه أنه يكفر من ترك واحدة منها ، وهو اختيار أبى بكر ، وطائفة من أصحاب مالك كابن حبيب . وعنه رواية ثانية : لا يكفر إلا بترك الصلاة والزكاة فقط . ورواية ثالثة : لا يكفر إلا بترك الصلاة والزكاة إذا قاتل الإمام عليها ، ورابعه : لا يكفر إلا بترك الصلاة ، وخامسه : لا يكفر بترك شىء منهن . وهذه أقوال معروفة

للسلف . قال الحكيم بن عتيبة ، من ترك الصلاة متعمدًا فقد كفر ، ومن ترك الزكاة متعمدًا فقد كفر . ومن ترك الحج متعمدًا فقد كفر ، ومن ترك صوم رمضان متعمدًا فقد كفر . وقال سعيد بن جبير : من ترك الصلاة متعمدًا فقد كفر بالله . ومن ترك الزكاة متعمدًا ، فقد كفر بالله . ومن ترك صوم رمضان متعمدًا فقد كفر بالله . وقال الضحاك : لا ترفع الصلاة إلا بالزكاة ، وقال عبد الله بن مسعود : من أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فلا صلاة له . رواهن أسد بن موسى .

وقال عبد الله بن عمرو : من شرب الخمر ممسيًا ، أصبح مشركًا ، ومن شربه مصبحًا أمسى مشركًا ، فقيل لإبراهيم النخعى : كيف ذلك ؟ قال لأنه يترك الصلاة . قال أبو عبد الله الأخنس فى كتابه : من شرب المسكر فقد تعرض لترك الصلاة ، ومن ترك الصلاة فقد خرج من الإيمان . ومما يوضح ذلك أن جبريل لما سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان كان فى آخر الأمر بعد فرض الحج ، والحج إنما فرض سنة تسع أو عشر .

وقد اتفق الناس على أنه لم يفرض قبل ست من الهجرة . ومعلوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأمر الناس بالإيمان ولم يبين لهم معناه إلى ذلك الوقت ، بل كانوا يعرفون أصل معناه . وهذه المسائل لبسطها موضع آخر .

والمقصود هنا أن من نفى عنه الرسول اسم الإيمان أو الإسلام فلابد أن يكون قد ترك بعض الواجبات فيه وإن بقى بعضها ، ولهذا كان الصحابة والسلف يقولون إنه يكون فى العبد إيمان ونفاق ، قال أبو داود السجستانى : حدثنا أحمد بن حنبل ، حدثنا وكيع عن الأعمش عن شقيق عن أبى المقدام عن أبى يحيى قال : سئل حذيفة عن المنافق ، قال : الذى يصف الإسلام ولا يعمل به . وقال أبو داود : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا جرير عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى البخترى عن حذيفة قال : القلوب أربعة : قلب أغلف فذلك قلب الكافر ، وقلب مصفح وذلك قلب المنافق ، وقلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن ، وقلب فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه كمثل شجرة يمدها ماء

طيب ، ومثل النفاق فيهم مثل قرحة ، يمدها قيح ودم فأيهما غلب عليه غلب ، وقد روى مرفوعًا وهو فى المسند مرفوع .

وهذا الذى قاله حذيفة يدل عليه قوله تعالى : ﴿ هُم للكُفْرِ يوْمَئِذٍ أقْرَبُ مِنْهُم للإيمانِ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٦٧] فقد كان قبل ذلك فيهم نفاق مغلوب ، فلما كان يوم أحد غلب نفاقهم فصاروا إلى الكفر أقرب ، وروى عبد الله بن المبارك عن عوف بن أبى جميلة عن عبد الله بن عمرو بن هند عن على بن أبى طالب قال : إن الإيمان يبدو لمظة بيضاء فى القلب فكلما ازداد العبد إيمانًا ازداد القلب بياضًا ، حتى إذا استكمل الإيمان ابيض القلب كله ، وإن النفاق يبدو لمظة سوداء فى القلب فكلما ازداد العبد نفاقًا ازداد القلب سوادًا حتى إذا استكمل النفاق اسود القلب ، وأيم الله لو شققتم عن قلب المؤمن لوجدتموه أبيض ، ولو شققتم عن قلب المنافق والكافر لوجدتموه أسود ، وقال ابن مسعود : الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل ، رواه أحمد وغيره ، وهذا كثير فى كلام السلف ، يثبتون أن القلب قد يكون فيه إيمان ونفاق ، والكتاب والسنة يدلان على ذلك ، فإن النبى ذكر شعب الإيمان وذكر شعب النفاق وقال : « من كانت فيه شعبة منهن كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها » وتلك الشعبة قد يكون معها كثير من شعب الإيمان ، ولهذا قال : « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » فعلم أن من كان معه من الإيمان أقل القليل لم يخلد فى النار وإن كان معه كثير من النفاق ، فهو يعذب فى النار على قدر ما معه من ذلك ثم يخرج من النار . وعلى هذا فقوله للأعراب : ﴿ لم تُؤْمِنُوا ولٰكنْ قُولُوا أسْلَمْنَا ولمَّا يدْخُلِ الإيمانُ فى قُلُوبِكُم ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٤] نفى حقيقة دخول الإيمان فى قلوبهم ، وذلك لا يمنع أن يكون معهم شعبة منه كما نفاه عن الزانى والسارق ومن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ومن لا يأمن جاره بوائقه وغير ذلك كما تقدم ذكره ، فإن فى القرآن والحديث ممن نفى عنه الإيمان لترك بعض الواجبات شىء كثير .

وحينئذ فنقول : من قال من السلف : أسلمنا خوف السيف ، وقول من

قال : هو الإسلام ؛ الجميع صحيح ، فإن هذا إنما أراد الدخول فى الإسلام ، والإسلام الظاهر يدخل فيه المنافقون ، فيدخل فيه من كان فى قلبه إيمان ونفاق وقد علم أنه يخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة إيمان بخلاف المنافق المحض الذى قلبه كله أسود ، فهذا هو الذى يكون فى الدرك الأسفل من النار ، ولهذا كان الصحابة يخشون النفاق على أنفسهم ، ولم يخافوا التكذيب لله ورسوله ، فإن المؤمن يعلم من نفسه أنه لا يكذب الله ورسوله يقينًا ، وهذا مستند من قال : أنا مؤمن حقًا ، فإنه أراد بذلك ما يعلمه من نفسه من التصديق الجازم ، ولكن الإيمان ليس مجرد التصديق ، بل لابد من أعمال قلبية تستلزم أعمالًا ظاهرة كما تقدم ، فحب الله ورسوله من الإيمان ، وحب ما أمر الله به وبغض ما نهى عنه ، وهذا من أخص الأمور بالإيمان ، ولهذا ذكر النبى صلى الله عليه وسلم فى عدة أحاديث أن من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن ، فهذا يحب الحسنة ويفرح بها ، ويبغض السيئة ويسوؤه فعلها ، وإن فعلها بشهوة غالبة ، وهذا الحب والبغض من خصائص الإيمان .

ومعلوم أن الزانى حين يزنى إنما يزنى لحب نفسه لذلك الفعل ، فلو أقام بقلبه خشية الله التى تقهر الشهوة أو حب الله الذى يغلبها ؛ لم يزن ، ولهذا قال تعالى عن يوسف عليه السلام : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة يوسف ، الآية : ٢٤] فمن كان مخلصًا لله حق الإخلاص لم يزن ؛ وإنما يزنى لخلوه عن ذلك ، وهذا هو الإيمان الذى ينزع منه ، لم ينزع من نفس التصديق ؛ ولهذا قيل هو مسلم وليس بمؤمن ؛ فإن المسلم المستحق للثواب لابد أن يكون مصدقًا وإلا كان منافقًا ؛ لكن ليس كل من صدق قام بقلبه من الأحوال الإيمانية الواجبة مثل كمال محبة الله ورسوله ، ومثل خشية الله والإخلاص له فى الأعمال والتوكل عليه ؛ بل يكون الرجل مصدقًا بما جاء به الرسول وهو مع ذلك يرائى بأعماله ، ويكون أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله والجهاد فى سبيله ، وقد خوطب بهذا المؤمنون فى آخر الأمر فى سورة براءة ، فقيل لهم : ﴿ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ

وعَشِيرتُكم وأَمْوالٌ اقْترفْتُمُوها وتِجَارةَ تخْشون كسَادها ومَساكِنَ ترْضَوْنَهَا أَحَبَّ إليْكُم مِنَ اللَّهِ ورَسُولِهِ وجهادٍ فى سَبِيلِهِ فتربَّصُوا حتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بأَمْرِهِ واللَّهُ لا يهْدِى القَوْمَ الفاسِقِين ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ٢٤] ومعلوم أن كثيرًا من المسلمين أو أكثرهم بهذه الصفة .

وقد ثبت أنه لا يكون الرجل مؤمنًا حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وإنما المؤمن من لم يرتب وجاهد بماله ونفسه فى سبيل الله ، فمن لم تقم بقلبه الأحوال الواجبة فى الإيمان هو الذى نفى عنه الرسول الإيمان وإن كان معه التصديق ، والتصديق من الإيمان ، ولابد أن يكون مع التصديق شىء من حب الله وخشية الله ، وإلا فالتصديق الذى لا يكون معه شىء من ذلك ليس إيمانًا البتة ، بل هو كتصديق فرعون واليهود وإبليس ، وهذا هو الذى أنكره السلف على الجهمية . قال الحميدى : سمعت وكيعًا يقول : أهل السنة يقولون الإيمان قول وعمل ، والمرجئة يقولون الإيمان قول ، والجهمية يقولون الإيمان المعرفة ، وفى رواية أخرى عنه : وهذا كفر ، قال محمد بن عمر الكلابى : سمعت وكيعًا يقول : الجهمية شر من القدرية ، قال : وقال وكيع : المرجئة الذين يقولون الإقرار يجزى من العمل ، ومن قال هذا فقد هلك ، ومن قال النية تجزى من العمل فهو كفر ، وهو قول جهم ، وكذلك قال أحمد بن حنبل .

ولهذا كان القول إن الإيمان قول وعمل عند أهل السنة من شعائر السنة ، وحكى غير واحد الإجماع على ذلك ، وقد ذكرنا عن الشافعى رضى الله عنه ما ذكره من الإجماع على ذلك قوله فى الأم وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون إن الإيمان قول وعمل ونية لا يجزىء واحد من الثلاثة إلا بالآخر ، وذكر ابن أبى حاتم فى مناقبه : سمعت حرملة يقول اجتمع حفص الفرد ومصلان الأباضى عند الشافعى فى دار الجروى ، فتناظرا معه فى الإيمان فاحتج مصلان فى الزيادة والنقصان يعنى وخالفه حفص الفرد ، فحمى الشافعى وتقلد المسألة على أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ، فطحن حفصًا الفرد وقطعه .

وروى أبو عمر الطلمنكى بإسناده المعروف عن موسى بن هارون الحمال وقال : أملى علينا إسحاق بن راهوية أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص لاشك أن ذلك كما وصفنا ، وإنما عقلنا هذا بالروايات الصحيحة والآثار العامة المحكمة وآحاد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين وهلم جرًا على ذلك ، وكذلك بعد التابعين من أهل العلم على شيء واحد لا يختلفون فيه ، وكذلك فى عهد الأوزاعى بالشام وسفيان الثورى بالعراق ؛ ومالك بن أنس بالحجاز ومعمر باليمن على ما فسرنا وبينا أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص .

وقال إسحاق : بمن ترك الصلاة متعمدًا حتى ذهب وقتها الظهر إلى المغرب ، والمغرب إلى نصف الليل ، فإنه كافر بالله العظيم يستتاب ثلاثة أيام ، فإن لم يرجع وقال تركها لا يكون كفرًا ضربت عنقه ، يعنى تركها وقال ذلك ، وأما إذا صلّى وقال ذلك ، فهذه مسألة اجتهاد قال واتبعهم على ما وصفنا من بعدهم من عصرنا هذا أهل العلم إلا من باين الجماعة واتبع الأهواء المختلفة ، فأولئك قوم لا يعبأ الله بهم لما باينوا الجماعة .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام الإمام وله كتاب مصنف فى الإيمان قال : هذه تسمية من كان يقول الإيمان قول وعمل يزيد وينقص : من أهل مكة عبيد بن عمير الليثى ، عطاء بن أبى رباح ، مجاهد بن جبر ، ابن أبى مليكة ، عمرو بن دينار ؛ ابن أبى نجيح ، عبيد الله بن عمر ؛ عبد الله بن عمرو بن عثمان ، عبد الملك بن جريج ، نافع بن جبير ؛ داود بن عبد الرحمن العطار ، عبد الله بن رجاء . ومن أهل المدينة محمد بن شهاب الزهرى ؛ ربيعة بن أبى عبد الرحمن أبو حازم الأعرج ، سعيد بن إبراهيم بن عبد الرحمن ، يحيى بن سعيد الأنصارى ، هشام بن عروة بن الزبير ، عبد الله بن عمر العمرى ، مالك بن أنس ، محمد بن أبى ذئب ، سليمان بن بلال ، عبد العزيز بن عبد الله – يعنى الماجشون – عبد العزيز بن أبى حازم . ومن أهل اليمن : طاوس اليمانى وهب بن منبه ، معمر بن راشد ، عبد الرزاق بن همام . ومن أهل مصر والشام ؛ مكحول طاوس اليمانى وهب بن منبه ، معمر بن راشد ، عبد الرزاق بن همام . ومن أهل مصر

والشام مكحول الأوزاعى ، سعيد بن عبد العزيز ، الوليد بن مسلم ، يونس بن يزيد الأيلى ، يزيد بن أبى حبيب ، يزيد بن شريح ، سعيد بن أبى أيوب ، الليث بن سعد ، عبد الله بن أبى جعفر ، معاوية بن صالح ، حيوة بن شريح ، عبد الله بن وهب . وممن سكن العواصم وغيرها من الجزيرة : ميمون بن مهران ، يحيى بن عبد الكريم ، معقل بن عبيد الله ، عبيد الله بن عمرو الرقى ، عبد الملك بن مالك ، المعاذ بن عمران ، محمد بن سلمة الحرانى ، أبو إسحاق الفزارى ، مخلد بن الحسين ، على بن بكار ، يوسف بن أسباط ، عطاء بن مسلم ، محمد بن كثير ، الهيثم بن جميل . ومن أهل الكوفة : علقمة ، الأسود بن يزيد ، أبو وائل سعيد بن جبير ، الربيع بن خيثم ، عامر الشعبى ، إبراهيم النخعى ، الحكم بن عتيبة ، طلحة بن مصرف ، منصور بن المعتمر ، سلمة بن كهيل ، مغيرة الضبى ، عطاء بن السائب ، إسماعيل بن أبى خالد ، أبو حيان ، يحيى بن سعيد سليمان بن مهران ، الأعمش ، يزيد بن أبى زياد ، سفيان بن سعيد الثورى ، سفيان بن عيينة ، الفضيل بن عياض ، أبو المقدام ثابت بن العجلان ، ابن شبرمة ، ابن أبى ليلى ، زهير ، شريك بن عبد الله . الحسن بن صالح ، حفص بن غياث . أبو بكر بن عياش ، أبو الأحوص ، وكيع بن الجراح ، عبد الله بن نمير ، أبو أسامة ، عبد الله بن إدريس ، زيد بن الحباب ، الحسين بن على الجعفى ، محمد بن بشر العبدى ، يحيى بن آدم ، ومحمد ويعلى وعمرو بنو عبيد .

ومن أهل البصرة : الحسن بن أبى الحسن ، محمد بن سيرين ، قتادة بن دعامة ، بكر بن عبد الله المزنى ، أيوب السختيانى ، يونس بن عبيد ، عبد الله بن عون ، سليمان التيمى ، هشام بن حسان الدستوائى ، شعبة بن الحجاج ، حماد بن سلمة بن زيد ، أبو الأشهب ، يزيد بن إبراهيم ، أبو عوانة ؛ وهيب بن خالد ، عبد الوارث بن سعيد ، معتمر بن سليمان التيمى ، يحيى بن سعيد القطان ، عبد الرحمن بن مهدى ، بشر بن المفضل ، يزيد بن ذريع ، المؤمل بن إسماعيل ، خالد بن الحارث ، معاذ بن معاذ أبو عبد الرحمن المقرى .

ومن اهل واسط : هشيم بن بشير ، خالد بن عبد الله ، على بن عاصم ، يزيد بن هارون ، صالح بن عمر ، عاصم بن على . ومن أهل المشرق : الضحاك بن مزاحم ؛ أبو جمرة ، نصر بن عمران ، عبد الله بن المبارك ، النضر بن شميل ، جرير بن عبد الحميد الضبى .

قال أبو عبيد : هؤلاء جميعًا يقولون : الإيمان قول وعمل يزيد وينقص وهو قول أهل السنة المعمول به عندنا .

قلت : ذكر من الكوفيين من قال ذلك أكثر مما ذكر من غيرهم ، لأن الإرجاء فى أهل الكوفة ، وكان أول من قاله حماد بن أبى سليمان ، فاحتاج علماؤها أن يظهروا إنكار ذلك فكثر منهم من قال ذلك ؛ كما أن التجهم وتعطيل الصفات لما كان ابتداء حدوثه من خراسان كثر من علماء خراسان ذلك الوقت من الإنكار على الجهمية ما لم يوجد لمن لم تكن هذه البدعة فى بلده ولا سمع بها ، كما جاء فى حديث إن لله عند كل بدعة يكاد بها الإسلام وأهله من يتكلم بعلامات الإسلام فاغتنموا تلك المجالس فإن الرحمة تنزل على أهلها أو كما قال . وإذا كان من قول السلف إن الإنسان يكون فيه إيمان ونفاق ، فكذلك فى قولهم إنه يكون فيه إيمان وكفر ، ليس هو الكفر الذى ينقل عن الملة . كما قال ابن عباس وأصحابه فى قوله تعالى : ﴿ ومَنْ لَم يحْكُم بما أَنْزَلَ اللّهُ فأُولئِكَ هُم الكافِرُونَ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٤٤] قالوا كفر لا ينقل عن الملة ، وقد اتبعهم على ذلك أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة .

قال الإمام محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة : اختلف الناس فى تفسير حديث جبرائيل هذا ، فقال طائفة من أصحابنا : قول النبى صلى الله عليه وسلم : « الإيمان أن تؤمن بالله » وما ذكر معه كلام جامع مختصر له غور ، وقد أوهمت المرجئة فى تفسيره فتأولوه على غير تأويله قلة معرفة منهم بلسان العرب ، وغور كلام النبى صلى الله عليه وسلم الذى قد أعطى جوامع الكلم وفواتحه ، واختصر له الحديث اختصارًا . أما قوله الإيمان أن تؤمن بالله فأن توحده وتصدق به بالقلب واللسان وتخضع له ولأمره بإعطاء العزم للأداء لما أمر ، مجانبًا للاستنكاف

والاستكبار والمعاندة ، فإذا فعلت ذلك لزمت محابه واجتنبت مساخطه ، وأما قوله : « وملائكته » فأن تؤمن بمن سمى الله لك منهم فى كتابه ، وتؤمن بأن لله ملائكة سواهم لا يعرف أساميهم وعددهم إلا الذى خلقهم . وأما قوله : « وكتبه » فأن تؤمن بما سمى الله من كتبه فى كتابه من التوراة والإنجيل والزبور خاصة ، وتؤمن بأن لله سوى ذلك كتبًا أنزلها على أنبيائه لا يعرف أسماءها وعددها إلا الذى أنزلها ، وتؤمن بالفرقان ، وإيمانك به غير إيمانك بسائر الكتب . إيمانك بغيره من الكتب إقرارك به بالقلب واللسان ، وإيمانك بالفرقان إقرارك به واتباعك ما فيه .

وأما قوله : « ورسله » فأن تؤمن بما سمى الله فى كتابه من رسله ، وتؤمن بأن لله سواهم رسلًا وأنبياء لا يعلم أسماءهم إلا الذى أرسلهم . وتؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وإيمانك به غير إيمانك بسائر الرسل : إيمانك بسائر الرسل إقرارك بهم ، وإيمانك بمحمد إقرارك به وتصديقك إياه دائبًا على ما جاء به ، فإذا اتبعت ما جاء به أديت الفرائض وأحللت الحلال وحرمت الحرام . ووقفت عند الشبهات ، وسارعت فى الخيرات ، وأما قوله : « واليوم الآخر » فأن تؤمن بالبعث بعد الموت ، والحساب والميزان والثواب والعقاب ، والجنة والنار ، وبكل ما وصف الله به يوم القيامة . وأما قوله : « وتؤمن بالقدر خيره وشره » فأن تؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولا تقل لو كان كذا لم يكن كذا ، ولولا كذا وكذا لم يكن كذا وكذا ، قال فهذا هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

فصل

ما أوجبه الله من الأعمال :

ومما يسأل عنه إذا كان ما أوجبه الله من الأعمال الظاهرة أكثر من هذه الخمس فلماذا قال الإسلام هذه الخمس ، وقد أجاب بعض الناس بأن هذه أظهر شعائر الإسلام وأعظمها ، وبقيام العبد بها يتم استسلامه ، وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده .

والتحقيق أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر الدين الذى هو استسلام العبد لربه مطلقًا الذى يجب لله عبادة محضة على الأعيان ، فيجب على كل من كان قادرًا عليه ليعبد الله بها مخلصًا له الدين ، وهذه هى الخمس ، وما سوى ذلك فإنما يجب بأسباب المصالح ، فلا يعم وجوبها جميع الناس ، بل إما أن يكون فرضًا على الكفاية كالجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وما يتبع ذلك من إمارة وحكم وفتيا وإقراء وتحديث ، وغير ذلك ، وإما أن يجب بسبب حق للآدميين يختص به من وجب له وعليه وقد يسقط بإسقاطه . وإذا حصلت المصلحة أو الإبراء إما بإبرائه وإما بحصول المصلحة ، فحقوق العباد مثل قضاء الديون ورد الغصوب والعوارى والودائع ، والإنصاف من المظالم من الدماء والأموال والأعراض ، إنما هى حقوق الآدميين ، وإذا أبرئوا منها سقطت ، وتجب على شخص دون شخص فى حال دون حال ، لم تجب عبادة محضة لله على كل عبد قادر ، ولهذا يشترك فيها المسلمون واليهود والنصارى بخلاف الخمسة فإنها من خصائص المسلمين .

وكذلك ما يجب من صلة الأرحام وحقوق الزوجة والأولاد والجيران والشركاء والفقراء ، وما يجب من أداء الشهادة والفتيا والقضاء والإمارة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد ، كل ذلك يجب بأسباب عارضة على بعض الناس دون بعض لجلب منافع ودفع مضار ، لو حصلت بدون فعل الإنسان لم تجب ، فما كان مشتركًا فهو واجب على الكفاية ، وما كان مختصًا فإنما يجب على زيد دون عمرو ، ولا يشترك الناس فى وجوب عمل بعينه على كل أحد قادر سوى الخمس فإن زوجة زيد أو أقاربه ليس زوجة عمرو وأقاربه ، فليس الواجب على هذا مثل الواجب على هذا ، بخلاف صوم شهر رمضان وحج البيت والصلوات الخمس والزكاة ، فإن الزكاة وإن كانت حقًّا ماليًا فإنها واجبة لله ، والأصناف الثمانية مصارفها ، ولهذا وجب فيها النية ، ولم يجز أن يفعلها الغير عنه بلا إذنه ، ولم تطلب من الكفار ، وحقوق العباد لا يشترط لها النية ، ولو أداها غيره عنه بغير إذنه برئت ذمته ، ويطلب بها الكفار ، وما يجب حقًّا لله تعالى كالكفارات هو بسبب من العبد ، وفيها شوب

العقوبات ، فإن الواجب لله ثلاثة أنواع : عبادة محضة كالصلوات ، وعقوبات محضة كالحدود وما يشابهها كالكفارات .

وكذلك كفارات الحج وما يجب بالنذر ، فإن ذلك يجب بسبب فعل العبد وهو واجب فى ذمته ، وأما الزكاة فإنها تجب حقًّا لله فى ماله ، ولهذا يقال ليس فى المال حق سوى الزكاة ، أى ليس فيه حق يجب بسبب المال سوى الزكاة ، وإلا ففيه واجبات بغير سبب المال كما تجب النفقات للأقارب والزوجة والرقيق والبهائم ويجب حمل العاقلة ويجب قضاء الديون ، ويجب الإعطاء فى التائبة ، ويجب إطعام الجائع وكسوة العارى فرضًا على الكفاية إلى غير ذلك من الواجبات المالية ، لكن بسبب عارض ، والمال شرط فى وجوبها كالاستطاعة فى الحج ، فإن البدن سبب الوجوب والاستطاعة والمال فى الزكاة هو السبب والوجوب معه حتى لو لم يكن فى بلده من يستحقها حملها إلى بلد آخر . وهى حق وجب لله تعالى ، ولهذا قال من قال من الفقهاء إن التكليف شرط فيها فلا تجب على الصغير والمجنون وأما عامة الصحابة والجمهور كمالك والشافعى وأحمد فأوجبوها فى مال الصغير والمجنون ، لأن ما لهما من جنس مال غيرهما ووليهما يقوم مقامهما بخلاف بدنهما ، فإنه إنما يتصرف بعقلهما ، وعقلهما ناقص ؛ وصار هذا كما يجب العشر فى أرضهما مع مما يستحقه الثمانية ؛ وكذلك إيجاب الكفارة فى مالهما ، والصلاة والصيام إنما تسقط لعجز العقل عن الإيجاب لا سيما إذا انضم إلى عجز البدن كالصغير ، وهذا المعنى منتف فى المال ، فإن الولى قام مقامهما فى الفهم كما يقوم مقامهما فى جميع ما يجب فى المال ، وأما بدنهما فلا يجب عليهما فيه شىء .

فصل

الدليل على أن الإيمان ما جاءت به الآيات :

قال محمد بن نصر : واستدلوا على أن الإيمان هو ما ذكروه بالآيات التى تلوناها عند ذكر تسمية الله الصلاة وسائر الطاعات إيمانًا ، واستدلوا أيضًا بما قص الله من نبأ إبليس حين عصى ربه فى سجدة واحدة أمر أن يسجدها لآدم

فأباها ، فكيف جحد إبليس ربه وهو يقول : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى ﴾ [سورة الحجر ، الآية : ٣٩] ويقول : ﴿ رَبِّ فَأَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [سورة الحجر ، الآية : ٣٦] إيمانًا منه بالبعث وإيمانًا بنفاذ قدرته فى إنظاره إياه إلى يوم يبعثون ، وهل جحد أحدًا من أنبيائه أو أنكر شيئًا من سلطانه وهو يحلف بعزته ، وهل كان كفره إلا بترك سجدة واحدة أمر بها فأباها . قال : واستدلُّوا أيضًا بما قصَّ الله علينا من نبأ ﴿ ابْنَىْ آدَمَ بالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا ولَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٢٧ - ٣٠] قال : وهل جحد ربه وكيف يجحده وهو يقرب القربان ؟ قالوا : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وهُم لا يسْتَكْبِرُونَ ﴾ [سورة السجدة ، الآية : ١٥] ولم يقل إذا ذكروا بها أقروا بها فقط . وقال : ﴿ الَّذِيْنَ آتيناهُم الكِتَابَ يتْلُونَه حقَّ تِلَاوتِهِ أُولئكَ يؤْمِنُونَ به ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٢١] يعنى يتبعونه حق اتباعه .

فإن قيل : فهل مع ما ذكرت من سنة ثابتة تبين أن العمل داخل فى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ؟ قيل : نعم عامة السنن والآثار تنطق بذلك ، منها حديث وفد عبد القيس : وذكر حديث شعبة وقرة بن خالد عن أبى جمرة عن ابن عباس كما تقدم ولفظه : « آمركم بالإيمان بالله وحده ثم قال : هل تدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال شهادة أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا ما غنمتم » وذكر أحاديث كثيرة توجب دخول الأعمال فى الإيمان مثل قوله فى أحاديث كثيرة لما سئل عنها صلى الله عليه وسلم .

ثم قال أبو عبد الله محمد بن نصر : اختلف أصحابنا فى تفسير قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » فقالت طائفة منهم : إنما أراد النبى صلى الله عليه وسلم إزالة اسم الإيمان عنه من غير أن يخرجه من الإسلام ولا يزيل عنه اسمه ، وفرقوا بين الإسلام والإيمان بقوله : ﴿ قَالَتِ

الأَعْرَابُ آمنَّا ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٤] فقالوا الإيمان خاص يثبت الاسم به بالعمل مع التوحيد ، والإسلام عام الاسم بالتوحيد والخروج من ملل الكفر واحتجوا بحديث سعد بن أبى وقاص وذكره عن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى رجالًا ولم يعط رجلًا منهم شيئًا فقلت يا رسول الله أعطيت فلانًا وفلانًا ولم تعط فلانًا وهو مؤمن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أو مسلم » أعادها ثلاثًا والنبى صلى الله عليه وسلم يقول أو مسلم ثم قال إنى لأعطى رجالًا وأمنع آخرين وهم أحب إلى منهم مخافة أن يكبوا على وجوههم فى النار . قال الزهرى فنرى أن الإسلام الكلمة والإيمان العمل .

قال محمد بن نصر : واحتجوا بإنكار عبد الله بن مسعود على من شهد لنفسه بالإيمان فقال أنا مؤمن من غير استثناء وكذلك أصحابه من بعده ، وجل علماء الكوفة ؛ واحتجوا بحديث أبى هريرة يخرج منه الإيمان ، فإن رجع رجع إليه ، وبما أشبه ذلك من الأخبار ، وبما روى عن الحسن ومحمد بن سيرين أنهما كانا يقولان مسلم ويهابان مؤمن ؛ واحتجوا بقول أبى جعفر الذى حدثناه إسحاق بن إبراهيم أنبأنا موهب بن جرير بن حازم حدثنى أبى عن فضيل بن يسار عن أبى جعفر محمد بن على أنه سئل عن قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » فقال أبو جعفر : هذا الإسلام ودور دارة واسعة ، وهذا الإيمان ودور دارة صغيرة فى وسط الكبيرة ، فإذا زنى أو سرق خرج من الإيمان إلى الإسلام ، ولا يخرجه من الإسلام إلا الكفر بالله ، واحتجوا بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص » حدثنا بذلك يحيى بن يحيى حدثنا ابن لهيعة عن شريح بن هانىء عن عقبة بن عامر الجهمى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص » .

وذكر عن حماد بن زيد أنه كان يفرق بين الإيمان والإسلام ، فجعل الإيمان خاصًا والإسلام عامًا قال : فلنا فى هؤلاء أسوة وبهم قدوة مع ما يثبت ذلك من النظر ، وذلك أن الله جعل اسم المؤمن اسم ثناء وتزكية ومدحة أوجب عليه

الجنة فقال : ﴿ وكانَ بالمؤْمِنِينَ رَحِيمًا * تحيَّتُهُم يوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وأعدَّ لَهُم أجْرًا كريمًا ﴾ [سورة الأحزاب ، الآيات : ٤٣ - ٤٤] وقال : ﴿ وبشِّر المُؤْمِنِينَ بأنَّ لَهُم مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب ، الآية : ٤٧] وقال : ﴿ وبَشِّر الَّذِينَ آمَنُوا أنَّ لَهُم قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِم ﴾ [سورة يونس ، الآية : ٢] وقال : ﴿ يَوْمَ تَرَى المؤْمِنِينَ والمؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بيْنَ أيْدِيهِم وبأيْمانِهِمْ ﴾ [سورة الحديد ، الآية : ١٢] وقال : ﴿ اللَّهُ وليُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهم مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّور ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٥٧] وقال : ﴿ وعَدَ اللَّهُ المؤمِنِينَ والمؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأنْهار ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ٧٢] .

قال ثم أوجب الله النار على الكبائر فدل بذلك على أن اسم الإيمان زائل عمن أتى كبيرة ، قالوا ولم نجده أوجب الجنة باسم الإسلام . فثبت أن اسم الإسلام له ثابت على حاله واسم الإيمان زائل عنه .

فإن قيل لهم فى قولهم هذا ليس الإيمان ضد الكفر ، قالوا الكفر ضد لأصل الإيمان ، لأن للإيمان أصلًا وفروعًا ، فلا يثبت الكفر حتى يزول أصل الإيمان الذى هو ضد الكفر ، فإن قيل لهم : فالذى زعمتم أن النبى صلى الله عليه وسلم أزال عنهم اسم الإيمان هل فيه من الإيمان شىء ؟ قالوا نعم أصله ثابت ولولا ذلك لكفروا ، ألم تسمع إلى ابن مسعود أنكر على الذى شهد أنه مؤمن ، ثم قال لكننا نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله يخبرك أنه قد آمن من جهة أنه صدق وأنه لا يستحق اسم المؤمن إذا كان يعلم أنه مقصر لأنه لا يستحق هذا الاسم عنده إلا من أدى ما وجب عليه وانتهى عما حرم عليه من الموجبات للنار التى هى الكبائر .

قالوا : فلما أبان الله أن هذا الاسم يستحقه من قد استحق الجنة وأن الله قد أوجب الجنة عليه ، وعلمنا أنَّا قد آمنا وصدقنا لأنه لا يخرج من التصديق إلا بالتكذيب ، ولسنا بشاكين ولا مكذبين ، وعلمنا أنا عاصون له مستوجبون للعذاب وهو ضد الثواب الذى حكم الله به للمؤمنين على اسم الإيمان ، علمنا

أنا قد آمنا ؛ وأمسكنا عن الاسم الذى أثبت الله عليه الحكم بالجنة وهو من الله اسم ثناء وتزكية ، وقد نهانا الله أن نزكى أنفسنا وأمرنا بالخوف على أنفسنا وأوجب لنا العذاب بعصياننا ، فعلمنا أنا لسنا بمستحقين بأن نسمى مؤمنين إذ أوجب الله على اسم الإيمان الثناء والبركة والرأفة والرحمة والمغفرة والجنة وأوجب على الكبائر النار ، وهذان حكمان متضادان .

فإن قيل : فكيف أمسكتم عن اسم الإيمان أن تسموا به وأنتم تزعمون أن أصل الإيمان فى قلوبكم وهو التصديق بأن الله حق وما قاله صدق ، قالوا : إن الله ورسوله وجماعة المسلمين سموا الأشياء بما غلب عليها من الأسماء فسموا الزانى فاسقًا والقاذف فاسقًا ، وشارب الخمر فاسقًا ، ولم يسموا واحدًا من هؤلاء متقيًا ولا ورعًا ؛ وقد أجمع المسلمون أن فيه أصل التقوى والورع وذلك أنه يتقى أن يكفر أو يشرك بالله شيئًا ، وكذلك يتقى الله أن يترك الغسل من الجنابة أو الصلاة ويتقى أن يأتى أمه فهو فى جميع ذلك متق ، وقد أجمع المسلمون من الموافقين والمخالفين أنهم لا يسمونه متقيًا ولا ورعًا إذا كان يأتى بالفجور ، فلما أجمعوا أن أصل التقى والورع ثابت فيه ؛ وأنه قد يزيد فيه فروعًا بعد الأصل كتورعه عن إتيان المحارم ، ثم لا يسمونه متقيًا ولا ورعًا مع إتيانه بعض الكبائر ؛ بل سموه فاسقًا وفاجرًا مع علمهم أنه قد أتى ببعض التقى والورع ، فمعهم من ذلك أن اسم التقى اسم ثناء وتزكية ، وأن الله قد أوجب عليه المغفرة والجنة .

قالوا : فلذلك لا نسميه مؤمنًا ونسميه فاسقًا زانيًا ، وإن كان فى قلبه أصل اسم الإيمان ، لأن الإيمان اسم أثنى الله به على المؤمنين وزكاهم به وأوجب عليهم الجنة ، فمن ثم قلنا : مسلم ولم نقل : مؤمن ، قالوا : لو كان أحد من المسلمين الموحدين يستحق ألا يكون فى قلبه إيمان ولا إسلام لكان أحق الناس بذلك أهل النار الذين دخلوها ، فلما وجدنا النبى صلى الله عليه وسلم يخبر أن الله يقول : « أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » ثبت أن شر المسلمين فى قلبه إيمان ، ولما وجدنا الأمة تحكم عليه بالأحكام التى ألزمها الله للمسلمين ولا يكفرونهم ؛ ولا يشهدون لهم بالجنة ، ثبت أنهم مسلمون إذ أجمعوا أن يمضوا

عليهم أحكام المسلمين ، وأنهم لا يستحقون أن يسموا مؤمنين ، إذ كان الإسلام ثبتًا للملّة التى يخرج بها الإنسان من جميع الملل فتزول عنه أسماء الملل لا اسم الإسلام وتثبت أحكام الإسلام عليه وتزول عنه أحكام جميع الملل .

فإن قال لهم قائل : لِمَ لَمْ تقولوا كافر إن شاء الله تريدون به كمال الكفر ، كما قلتم مؤمن إن شاء الله تريدون به كمال الإيمان قالوا : لأن الكافر منكر للحق ، والمؤمن أصل إيمانه الإقرار ، والإنكار لا أول له ولا آخر فتنتظر به الحقائق ، والإيمان أصله التصديق والإقرار ينتظر به حقائق الأداء لما أقر والتحقيق لما صدق ؛ ومثل ذلك كمثل رجلين عليهما حق لرجل ؛ فسأل أحدهما حقه ، فقال : ليس لك عندى حق ، فأنكر وجحد فلم يبق له منزلة يحقق بها ما قال إذ جحد وأنكر ، وسأل الآخر حقه فقال : نعم لك علىّ كذا وكذا ، فليس إقراره بالذى يصل إليه بذلك حقه دون أن يوفيه ؛ فهو منتظر له أن يحقق ما قال بالأداء ، وتصديق إقراره بالوفاء ، ولو أقر ثم لم يؤد إليه حقه كان كمن جحده فى المعنى إذ استويا فى الترك للأداء ، فتحقيق ما قال أن يؤدى إليه حقه ، فإن أدى جزءًا منه حقق بعض ما قال ، ووفى بعض ما أقر به ، وكلما أدى جزءًا ازداد تحقيقًا لما أقر به ، وعلى المؤمن الأداء أبدًا بما أقر به حتى يموت ، فمن ثم قلنا : مؤمن إن شاء الله ولم نقل كافر إن شاء الله .

قال محمد بن نصر : وقالت طائفة أخرى من أصحاب الحديث بمثل مقالة هؤلاء ، إلا أنهم سموه مسلمًا لخروجه من ملل الكفر ولإقراره بالله وبما قال ، ولم يسموه مؤمنًا ، وزعموا أنهم مع تسميتهم إياه بالإسلام كافر ، لا كافر بالله ولكن كافر من طريق العمل ، وقالوا : كفر لا ينقل عن الملة ، وقالوا : محال أن يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » والكفر ضد الإيمان فلا يزول عنه اسم الإيمان إلا واسم الكفر لازم له ، لأن الكفر ضد الإيمان إلا أن الكفر كفران : كفر هو جحد بالله وبما قال ، فذاك ضده الإقرار بالله والتصديق به وبما قال ؛ وكفر هو عمل فهو ضد الإيمان الذى هو عمل ، ألآ ترى إلى ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه »[1] قالوا : فإذا لم يؤمن فقد كفر ، ولا يجوز غير ذلك إلا أنه كفر من جهة العمل ، إذا لم يؤمن من جهة العمل ، لأنه لا يضيع ما فرض عليه ويركب الكبائر إلا من قلة خوفه وقلة تعظيمه لله ووعيده ، فقد ترك من الإيمان التعظيم الذى عنه الخوف والورع ، فأقسم النبى صلى الله عليه وسلم أنه لا يؤمن إذا لم يأمن جاره بوائقه .

ثم قد روى جماعة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » وأنه قال : « إذا قال المسلم لأخيه يا كافر فلم يكن كذلك باء بالكفر »[2] ، فقد سماه النبى صلى الله عليه وسلم بقتاله أخاه كافرًا وبقوله له يا كافر كافرًا ؛ وهذه الكلمة دون الزنى والسرقة ؛ قالوا : فأما قول من احتج علينا وزعم أنا إذا سميناه كافرًا لزمنا أن نحكم عليه بحكم الكافرين بالله فنستتيبه ونبطل الحدود عنه ؛ لأنه إذا كفر فقد زالت عنه أحكام المؤمنين وحدودهم ، وفى ذلك إسقاط الحدود وأحكام المؤمنين على كل من أتى كبيرة ، فإنا لم نذهب فى ذلك إلى حيث ذهبوا ولكنا نقول : للإيمان أصل وفرع ؛ وضد الإيمان الكفر فى كل معنى ، فأصل الإيمان الإقرار والتصديق ، وفرعه إكمال العمل بالقلب والبدن ، فضد الإقرار والتصديق الذى هو أصل الإيمان الكفر بالله وبما قال وترك التصديق به وله ، وضد الإيمان الذى هو عمل ، وليس هو إقرار كفر ليس بكفر بالله ينقل عن الملة ، ولكن كفر تضييع العمل كما كان العمل إيمانًا وليس هو الإيمان الذى هو إقرار بالله ، فَلَمَّا كان من ترك الإيمان الذى هو إقرار بالله كافرًا يستتاب ، ومن ترك الإيمان الذى هو عمل مثل الزكاة والحج والصوم أو ترك الورع عن شرب الخمر والزنى قد زال عنه بعض الإيمان ، ولا يجب أن يستتاب عندنا ولا عند من خالفنا من أهل السنة وأهل البدع ممن قال إن الإيمان تصديق وعمل

---

(١) أخرجه البخارى (حـ ١٠ / ٦٠١٦) ، ومسلم (حـ ١ ــ إيمان / ٧٣) ، وأحمد (حـ ٢ ص٢٨٨) عن أبى هريرة .

(٢) أخرجه البخارى (حـ ١٠ / ٦١٠٤) ، ومسلم (حـ١ ــ إيمان / ١١١) ، والترمذى (حـ٥ / ٢٦٣٧) ، وأحمد (حـ ٢ ص ١٨) ، الموطأ (حـ٢ ــ كلام / ١) عن ابن عمر .

إلا الخوارج وحدها ، فكذلك لا يجب بقولنا كافر من جهة تضييع العمل أن يستتاب ولا يزول عنه الحدود ، كما لم يكن بزوال الإيمان الذى هو عمل استتابته ، ولا إزالة الحدود عنه إذ لم يزل أصل الإيمان عنه ، فكذلك لا يجب علينا استتابته وإزالة الحدود والأحكام عنه بإثباتنا له اسم الكفر من قبل العمل ، إذا لم يأت بأصل الكفر الذى هو جحد بالله أو بما قال .

وقالوا : ولما كان العلم بالله إيمانًا ، والجهل به كفرًا ، وكان العمل بالفرائض إيمانًا والجهل بها قبل نزولها ليس بكفر ، لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أقروا بالله أول ما بعث الله رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ولم يعلموا الفرائض التى افترضت عليهم بعد ذلك ، فلم يكن جهلهم بذلك كفرًا ، ثم أنزل عليهم الفرائض فكان إقرارهم بها والقيام بها إيمانًا ، وإنما يكفر من جحدها لتكذيبه خبر الله ، ولو لم يأت خبر من الله ما كان بجهلها كافرًا ، وبعد مجىء الخبر من لم يسمع بالخبر من المسلمين لم يكن بجهلها كافرًا ، والجهل بالله فى كل حال كفر قبل الخبر وبعد الخبر .

قالوا : ومن ثم قلنا إن ترك التصديق بالله كفر ؛ وإن ترك الفرائض مع تصديق الله أنه قد أوجبها كفر ، ليس بكفر بالله إنما هو كفر من جهة ترك الحق ، كما يقول القائل : كفرتنى حقى ونعمتى . يريد ضيعت حقى وضيعت شكر نعمتى ؛ قالوا : ولنا فى هذا قدوة بمن روى عنهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين إذ جعلوا للكفر فروعًا دون أصله لا ينقل صاحبه عن ملة الإسلام ، كما أثبتوا للإيمان من جهة العمل فروعًا للأصل ينقل تركه عن ملة الإسلام ، من ذلك قول ابن عباس فى قوله : ﴿ ومَنْ لَم يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَـٰئِكَ هُم الكَافِرُونَ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٤٤] وقال محمد بن نصر : حدثنا يحيى حدثنا سفيان بن عيينة عن هشام يعنى ابن حجير عن طاوس عن ابن عباس : ﴿ ومَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْـزَلَ اللَّهُ فَأُولَـٰئِكَ هُم الكافرُونَ ﴾ وليس بالكفر الذى يذهبون إليه .

حدثنا محمد بن يحيى ومحمد بن رافع حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن ابن

طاوس عن أبيه قال : سئل ابن عباس عن قوله : ﴿ ومَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَـٰئِكَ هُم الكافِرُونَ ﴾ قال هو به كفر ، قال ابن طاوس : وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله .

حدثنا إسحاق أنبأنا وكيع عن سفيان عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال : هو به كفر وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله . وبه أنبأنا وكيع عن سفيان عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال قلت لابن عباس : ﴿ ومَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أُنْزَلَ اللَّهُ ﴾ فهو كافر قال : هو كفر وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر وملائكته وكتبه ورسله .

حدثنا محمد بن يحيى حدثنا عبد الرزاق عن سفيان عن رجل عن طاوس عن ابن عباس قال : كفر لا ينقل عن الملة .

حدثنا إسحاق أنبانا وكيع عن سفيان عن سعيد المكى عن طاوس قال : ليس بكفر ينقل عن الملة .

حدثنا إسحاق أنبأنا وكيع عن ابن جريج عن عطاء قال : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق .

قال محمد بن نصر : قالوا وقد صدق عطاء قد يسمى الكافر ظالمًا ويسمى العاصى من المسلمين ظالمًا ، فظلم ينقل عن ملة الإسلام وظلم لا ينقل ، قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ٨٢] وقال : ﴿ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة لقمان ، الآية : ١٣] وذكر حديث ابن مسعود المتفق عليه قال : لما نزلت ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيْمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ شق ذلك على أصحاب النبى وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس بذلك ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح : ﴿ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ إنما هو الشرك » .

حدثنا محمد بن يحيى حدثنا الحجاج بن المنهال عن حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب كان إذا دخل بيته

بشر المصحف فقرأ فدخل ذات يوم فقرأ فأتى على هذه الآية : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيْمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ إلى آخر الآية فانتعل وأخذ رداءه ثم أتى أبىّ بن كعب فقال : يا أبا المنذر أتيت قبل على هذه الآية : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيْمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ وقد ترى أنا نظلم ونفعل ، فقال : يا أمير المؤمنين إن هذا ليس بذلك يقول الله : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ إنما ذلك الشرك .

قال محمد بن نصر : وكذلك الفسق فسقان : فسق ينقل عن الملة فيسمى الكافر فاسقًا ، والفاسق من المسلمين فاسقًا ؛ ذكر الله إبليس فقال : ﴿ فَفَسَقَ عَن أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [سورة الكهف ، الآية : ٥٠] وكان ذلك الفسق منه كفرًا ، وقال الله تعالى : ﴿ وأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُم النَّار ﴾ [سورة السجدة ، الآية : ٢٠] يريد الكفار دل على ذلك قوله : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَّخْرُجُوْا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وقِيلَ لَهُم ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنْتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [سورة السجدة ، الآية : ٢٠] وسمى الفاسق من المسلمين فاسقًا ولم يخرجه من الإسلام قال الله تعالى : ﴿ والَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُم ثَمَانِينَ جَلْدَةً ولَا تَقْبَلُوا لَهُم شَهَادَة أَبَدًا وأُولٰئِكَ هُم الفَاسِقُونَ ﴾ [سورة النور ، الآية : ٤] وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ فَلَا رَفَثَ ولَا فُسُوقَ ولَا جِدَالَ فِي الحَجِّ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٩٧] فقالت العلماء فى تفسير الفسوق ها هنا هى المعاصى .

قالوا : فلما كان الظلم ظلمين والفسق فسقين ، كذلك الكفر كفران أحدهما ينقل عن الملة والآخر لا ينقل عن الملة ، وكذلك الشرك شركان شرك فى التوحيد ينقل عن الملة ، وشرك فى العمل لا ينقل عن الملة ، وهو الرياء قال تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوْا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَل عَمَلًا صَالِحًا ولَا يُشْرِك بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [سورة الكهف ، الآية : ١١٠] يريد بذلك المراءاة بالأعمال الصالحة وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « الطيرة شرك » .

قال محمد بن نصر : فهذان مذهبان هما فى الجملة محكيان عن أحمد بن حنبل فى موافقيه من أصحاب الحديث . حكى الشالنجى إسماعيل بن سعيد أنه سأل

أحمد بن حنبل عن المصرّ على الكبائر يطلبها بجهده إلا أنه لم يترك الصلاة والزكاة والصيام هل يكون مصرًّا من كانت هذه حاله ؟ قال : هو مصرٌّ مثل قوله : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » يخرج من الإيمان ويقع فى الإسلام ، ومن نحو قوله : « لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن » ومن نحو قول ابن عباس فى قوله : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُم بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُم الكَافِرُونَ ﴾ فقلت له : ما هذا الكفر ؟ فقال : كفر لا ينقل عن الملة مثل الإيمان بعضه دون بعض ، وكذلك الكفر حتى يجيىء من ذلك أمر لا يختلف فيه ؛ وقال ابن أبى شيبة : لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن لا يكون مستكمل الإيمان يكون ناقصًا من إيمانه ، قال : وسألت أحمد بن حنبل عن الإسلام والإيمان فقال : الإيمان قول وعمل ، والإسلام إقرار قال : وبه قال أبو خيثم ، لا يكون الإسلام إلا بإيمان ولا إيمان إلا بإسلام .

قال : وقد تقدم تمام الكلام بتلازمهما وإن كان مسمى أحدهما ليس هو مسمى الآخر ؛ وقد حكى غير واحد إجماع أهل السنَّة والحديث على أن الإيمان قول وعمل ؛ قال أبو عمر بن عبد البر فى التمهيد : أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل ؛ ولا عمل إلا بنية ، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، والطاعات كلها عندهم إيمان إلا ما ذكر عن أبى حنيفة وأصحابه فإنهم ذهبوا إلى أن الطاعات لا تسمى إيمانًا ، قالوا : إنما الإيمان التصديق والإقرار ، ومنهم من زاد المعرفة وذكر ما احتجوا به إلى أن قال :

وأما سائر الفقهاء من أهل الرأى والآثار بالحجاز والعراق والشام ومصر منهم مالك بن أنس والليث بن سعد وسفيان الثورى والأوزاعى والشافعى وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية وأبى عبيد القاسم بن سلام وداود بن على والطبرى ومن سلك سبيلهم فقالوا الإيمان قول وعمل ، قول باللسان وهو الإقرار والاعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح مع الإخلاص بالنية الصادقة ، قالوا وكل ما يطاع الله عز وجل به من فريضة ونافلة فهو من الإيمان ، والإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصى ، وأهل الذنوب عندهم مؤمنون غير مستكملى الإيمان من أجل ذنوبهم ،

وإنما صاروا ناقصى الإيمان بارتكابهم الكبائر ، ألا ترى إلى قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى وهو مؤمن » الحديث - يريد مستكمل الإيمان و لم يرد به نفى جميع الإيمان عن فاعل ذلك بدليل الإجماع على توريث الزانى والسارق وشارب الخمر إذا صلُّوا إلى القبلة وانتحلوا دعوة الإسلام من قراباتهم المؤمنين الذين ليسوا بتلك الأحوال ؛ واحتج على ذلك ثم قال : وأكثر أصحاب مالك على أن الإيمان والإسلام شىء واحد .

قال : وأما المعتزلة فالإيمان عندهم جماع الطاعات ، ومن قصر منها عن شىء فهو فاسق ، لا مؤمن ولا كافر ، وهؤلاء المتحققون بالاعتزال أصحاب المنزلة بين المنزلتين ، إلى أن قال : على أن الإيمان يزيد وينقص : يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، جماعة أهل الآثار والفقهاء أهل الدنيا فى الأمصار ، وروى ابن أبى القاسم عن مالك أن الإيمان يزيد ، وتوقف فى نقصانه ، وروى عنه عبد الرزاق ومعن بن عيسى وابن نافع أنه يزيد وينقص ، وعلى هذا مذهب الجماعة من أهل الحديث والحمد لله .

ثم ذكر حجج المرجئة ، ثم حجج أهل السنة ، وردَّ على الخوارج التكفير بالحدود المذكورة للعصاة فى الزنى والسرقة ونحو ذلك ، وبالموارثة ، وبحديث عبادة : « من أصاب شيئًا فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة » وقال : الإيمان مراتب بعضها فوق بعض ، فليس ناقص الإيمان ككامل الإيمان ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُم ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٢] أى حقًّا ، ولذلك قال : ﴿ أُولَـٰئِكَ هُم الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٤] ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن من أمنه الناس ، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » - يعنى حقًّا - ومن هذا قوله : « أكمل المؤمنين » ، ومعلوم أن هذا لا يكون أكمل حتى يكون غيره أنقص .

وقوله : « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله »[1] وقوله : « لا

---

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب « الإخوان » عن البراء بن عازب كذا فى كنز العمال (حـ١ / ١٠٥) وحسنه الألبانى . انظر صحيح الجامع الصغير (٢٥٣٦) .

إيمان لمن لا أمانة له »[1] يدل على أن بعض الإيمان أوثق وأكمل من بعض ، وذكر الحديث الذى رواه الترمذى وغيره : « من أحب لله وأبغض لله » – الحديث – وكذلك ذكر أبو عمر الطلمنكى إجماع أهل السنة على أن الإيمان قول وعمل ونية وإصابة السنة ، وقال أبو طالب المكى : مبانى الخمسة بين الشهادتين والصلوات الخمس والزكاة وصيام شهر رمضان والحج قال : وأركان الإيمان سبعة يعنى الخمسة المذكورة فى حديث جبرائيل والإيمان بالقدر والإيمان بالجنة والنار ، وكلاهما قد روى فى حديث جبرائيل كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

قال : والإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته ، والإيمان بكتب الله وأنبيائه والإيمان بالملائكة والشياطين ، يعنى والله أعلم الإيمان بالفرق بينهما ، فإن من الناس من يجعلهما جنسًا واحدًا لكن تختلف باختلاف الأعمال كما يختلف الإنسان البر والفاجر ، والإيمان بالجنة والنار وأنهما قد خلقتا قبل آدم ، والإيمان بالبعث بعد الموت ، والإيمان بجميع أقدار الله خيرها وشرها وحلوها ومرِّها ، أنها من الله قضاء وقدرًا ومشيئةً وحكمًا ، وأن ذلك عدل منه وحكمة بالغة استأثر بعلم غيرها ومعنى حقائقها .

قال : وقد قال قائلون إن الإيمان هو الإسلام ، وهذا قد أذهب التفاوت والمقامات وهذا يقرب من مذهب المرجئة ، وقال آخرون : إن الإسلام غير الإيمان . وهؤلاء قد أدخلوا التضاد والتغاير ؛ وهذا قريب من قول الأباضية ، فهذه مسألة مشكلة تحتاج إلى شرح وتفصيل ، فمثل الإسلام من الإيمان كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى فى المعنى والحكم ، فشهادة الرسول غير شهادة الوحدانية ، فهما شيئان فى الأعيان وإحداهما مرتبطة بالأخرى فى المعنى والحكم كشىء واحد ، كذلك الإيمان والإسلام أحدهما مرتبط بالآخر ، فهما كشىء واحد ، لا إيمان لمن لا إسلام له ، ولا إسلام لمن لا إيمان له ، إذ لا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه ، ولا يخلو المؤمن من إسلام به يحقق إيمانه من حيث

(١) صححه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (٧٠٥٦) معزوًا لأحمد وابن حبان عن أنس .

اشترط الله للأعمال الصالحة الإيمان ، واشترط للإيمان الأعمال الصالحة فقال فى تحقيق ذلك : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ [سورة الأنبياء ، الآية : ٩٤] وقال فى تحقيق الإيمان بالعمل : ﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴾ [سورة طه ، الآية : ٧٥] فمن كان ظاهره أعمال الإسلام ولا يرجع إلى عقود الإيمان بالغيب فهو منافق نفاقًا ينقل عن الملة ، ومن كان عقده الإيمان بالغيب ولا يعمل بأحكام الإيمان وشرائع الإسلام فهو كافر كفرًا لا يثبت معه توحيد ، ومن كان مؤمنًا بالغيب مما أخبرت به الرسل عن الله عاملًا بما أمر الله به فهو مؤمن مسلم ، ولولا أنه كذلك لكان المؤمن يجوز ألا يسمى مسلمًا ولجاز أن المسلم لا يسمى مؤمنًا بالله .

وقد أجمع أهل القبلة على أن كل مؤمن مسلم ، وكل مسلم مؤمن بالله وملائكته وكتبه ، قال : ومثل الإيمان فى الأعمال كمثل القلب فى الجسم لا ينفك أحدهما عن الآخر ، لا يكون ذو جسم حى ولا ذو قلب بغير جسم ، فهما شيئان منفردان ، وهما فى الحكم والمعنى منفصلان ، ومثلهما أيضًا مثل حبة لها ظاهر وباطن وهى واحدة لا يقال حبتان لتفاوت صفتهما ، فكذلك أعمال الإسلام من الإسلام هو ظاهر الإيمان ، وهو من أعمال الجوارح ، والإيمان باطن الإسلام وهو من أعمال القلوب .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الإسلام علانية والإيمان فى القلب »[١] ، وفى لفظ الإيمان سر ، فالإسلام أعمال الإيمان ، والإيمان عقود الإسلام فلا إيمان إلا بعمل ولا عمل إلا بعقد ، ومثل ذلك مثل العلم الظاهر والباطن أحدهما مرتبط بصاحبه من أعمال القلوب وعمل الجوارح ، ومثله قول رسول الله : « إنما الأعمال بالنيات »[٢] أى لا عمل إلا بعقد وقصد لأن « إنما »

---

(١) سبق تخريجه وبيان ضعفه .

(٢) أخرجه البخارى أول كتابه، ومسلم (حـ٣ ـــ إمارة / ١٥٥) وغيرهما .

تحقيق للشيء ونفى لما سواه فأثبت بذلك عمل الجوارح من المعاملات وعمل القلوب من النيات فمثل العمل من الإيمان كمثل الشفتين من اللسان لا يصح الكلام إلا بهما لأن الشفتين تجمع الحروف ، واللسان يظهر الكلام ، وفى سقوط أحدهما بطلان الكلام ، وكذلك فى سقوط العمل ذهاب الإيمان ، ولذلك حين عدَّد الله نعمه على الإنسان بالكلام ذكر الشفتين مع اللسان فى قوله : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ [سورة البلد ، الآيات : ٨ ، ٩] بمعنى ألم نجعله ناظرًا متكلمًا ، فعبر عن الكلام باللسان والشفتين لأن الكلام الذى جرت به النعمة لا يتم إلا بهما .

ومثل الإيمان والإسلام أيضًا كفسطاط قائم فى الأرض له ظاهر وأطناب ، وله عمود فى باطنه ، فالفسطاط مثل الإسلام له أركان من أعمال العلانية والجوارح وهى الأطناب التى تمسك أرجاء الفسطاط والعمود الذى فى وسط الفسطاط مثله كالإيمان لا قوام للفسطاط إلا به ، فقد احتاج الفسطاط إليها إذ لا قوام له ولا قوة إلا بهما ، كذلك الإسلام فى أعمال الجوارح لا قوام له إلا بالإيمان والإيمان من أعمال القلوب لا نفع له إلا بالإسلام ، وهو صالح الأعمال .

وأيضًا فإن الله قد جعل ضد الإسلام والإيمان واحدًا ، فلو أنهما كشىء واحد فى الحكم والمعنى ما كان ضدهما واحدًا فقال : ﴿ كَيْفَ يَهْدِى اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِم ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٨٦] وقال : ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُم مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٨٠] فجعل ضدهما الكفر .

قال : وعلى مثل هذا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام عن صنف واحد فقال فى حديث ابن عمر : « بنى الإسلام على خمس » وقال فى حديث ابن عباس عن وفد عبد القيس أنهم سألوه عن الإيمان فذكر هذه الأوصاف ، فدل بذلك على أنه لا إيمان باطن إلا بإسلام ظاهر ، ولا إسلام ظاهر علانية إلا بإيمان سر ، وأن الإيمان والعمل قرينان لا ينفع أحدهما بدون صاحبه .

قال : فأما تفرقة النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث جبرائيل بين الإيمان

والإسلام فإن ذلك تفصيل أعمال القلوب وعقودها على ما توجب هذه المعانى التى وصفناها أن تكون عقودًا من تفصيل أعمال الجوارح مما يوجب الأفعال الظاهرة التى وصفها أن تكون علانية ، لا أن ذلك يفرق بين الإسلام والإيمان فى المعنى باختلاف وتضاد ، ليس فيه دليل أنهما مختلفان فى الحكم . قال ويجتمعان فى عبد واحد مسلم مؤمن ، فيكون ما ذكره من عقود القلب وصف قلبه ، وما ذكره من العلانية وصف جسمه .

قال : وأيضًا فإن الأمة مجتمعة أن العبد لو آمن بجميع ما ذكره من عقود القلب فى حديث جبرائيل من وصف الإيمان ولم يعمل بما ذكره من وصف الإسلام أنه لا يسمى مؤمنًا ، وأنه إن عمل بجميع ما وصف به الإسلام ثم لم يعتقد ما وصفه من الإيمان أنه لا يكون مسلمًا ، وقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن الأمة لا تجتمع على ضلالة .

قلت : كأنه أراد بذلك إجماع الصحابة ومن اتبعهم ، أو أنه لا يسمى مؤمنًا فى الأحكام وأنه لا يكون مسلمًا إذا أنكر بعض هذه الأركان ، أو علم أن الرسول أخبر بها و لم يصدقه ، أو أنه لم ير خلاف أهل الأهواء خلافًا ، وإلا فأبو طالب كان عارفًا بأقوالهم ، وهذا والله أعلم مراده فإنه عقد الفصل الثالث والثلاثين فى بيان تفصيل الإسلام والإيمان ، وشرح عقود معاملة القلب من مذهب أهل الجماعة ، وهذا الذى قاله أجود مما قاله كثير من الناس ، لكن ينازع فى شيئين :

أحدهما : أن المسلم المستحق للثواب لابد أن يكون معه الإيمان الواجب المفصل المذكور فى حديث جبرائيل .

والثانى : أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما يطلق المؤمن دون مسلم فى مثل قول النبى صلى الله عليه وسلم أو مسلم لكونه ليس من خواص المؤمنين وأفاضلهم ، كأنه يقول لكونه ليس من السابقين المقربين بل من المقتصدين الأبرار ، فهذان مما تنازع فيهما جمهور العلماء ، ويقولون : لم يقل النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك الرجل : أو مسلم ، لكونه لم يكن من خواص المؤمنين وأفاضلهم كالسابقين المقربين ، فإن هذا لو كان كذلك لكان ينفى الإيمان المطلق

عن الأبرار المقتصدين المتقين الموعودين بالجنة بلا عذاب إذا كانوا من أصحاب اليمين ، ولم يكونوا من السابقين والمقربين ؛ وليس الأمر كذلك بل كل من أصحاب اليمين مع السابقين المقربين كلهم مؤمنون موعودون بالجنة بلا عذاب ، وكل من كان كذلك فهو باتفاق المسلمين من أهل السنة وأهل البدع ، ولو جاز أن ينفى الإيمان عن شخص لكون غيره أفضل منه إيمانًا ، نفى الإيمان عن أكثر أولياء الله المتقين بل عن كثير من الأنبياء ، وهذا فى غاية الفساد ، وهذا من جنس قول من يقول نفى الاسم لنفى كماله المستحب .

وقد ذكرنا أن مثل هذا لا يوجد فى كلام الله ورسوله ، بل هذا الحديث خص من قيل فيه مسلم وليس بمؤمن فلابد أن يكون ناقصًا عن درجة الأبرار المقتصدين أهل الجنة ، ويكون إيمانه ناقصًا عن إيمان هؤلاء فلا يكون قد أتى بالإيمان الذى أمر به هؤلاء كله ، ثم إن كان قادرًا على ذلك الإيمان وترك الواجب كان مستحقًا للذم ، وإن قدر أنه لا يقدر على ذلك الإيمان الذى اتصف به هؤلاء كان عاجزًا عن مثل إيمانهم ، ولا يكون هذا واجبًا عليه ، فهو وإن دخل الجنة لا يكون كمن قدر أنه آمن إيمانًا مجملًا ومات قبل أن يعلم تفصيل الإيمان وقبل أن يتحقق به ويعمل بشيء منه فهو يدخل الجنة ، لكن لا يكون مثل أولئك .

لكن قد يقال الأبرار أهل اليمين هم أيضًا على درجات كما فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير » وقد قال الله تعالى : ﴿ لا يَسْتَوِى القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولى الضرر ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٩٥] فدرجة المؤمن القوى فى الجنة أعلى وإن كان كل منهما كمل ما وجب عليه ، وقد يريد أبو طالب وغيره بقولهم : ليس هذا من خواص المؤمنين ، هذا المعنى أى ليس إيمانه كإيمان من حقق خاصة الإيمان سواء كان من الأبرار أو من المقربين ، وإن لم يكن ترك واجبًا لعجزه عنه أو لكونه لم يؤمر به فلا يكون مذمومًا ، ولا يمدح مدح أولئك ، ولا يلزم أن يكون من أولئك المقربين .

فيقال : وهذا أيضًا لا ينفى عنه الإيمان فيقال هو مسلم لا مؤمن ، كما يقال

ليس بعالم ولا مفت ولا من أهل الاجتهاد ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه »(1) وهذا كثير ، فليس كل ما فضل به الفاضل يكون مقدورًا لمن دونه ، فكذلك من حقائق الإيمان ما لا يقدر عليه كثير من الناس بل ولا أكثرهم ، فهؤلاء يدخلون الجنة وإن لم يكونوا ممن تحققوا بحقائق الإيمان التى فضل الله بها غيرهم ، ولا تركوا واجبًا عليهم وإن كان واجبًا على غيرهم ؛ ولهذا كان من الإيمان ما هو من المواهب والفضل من الله فإنه من جنس العلم ، والإسلام الظاهر من جنس العمل ؛ وقد قال تعالى : ﴿ والَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُم هُدًى وآتاهُم تَقْوَاهُم ﴾ [سورة محمد ، الآية : ١٧] وقال : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِيْنَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ [سورة مريم ، الآية : ٧٦] وقال : ﴿ هُو الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ ليَزْدَادُوا إيمانًا مَعَ إيمانهم ﴾ [سورة الفتح ، الآية : ٤] .

ومثل هذه السكينة قد لا تكون مقدورة ؛ ولكن الله يجعل ذلك فى قلبه فضلًا منه وجزاء على عمل سابق كما قال : ﴿ ولَوْ أَنَّهُم فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُم وأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وإذًا لآتَيْنَاهُم مِنْ لدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * ولَهَديْنَاهُم صِراطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [سورة النساء ، الآيات : ٦٦ - ٦٨] كما قال : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وآمِنُوا بِرَسُولِهِ يؤْتِكُم كِفْلَيْنِ مِنْ رحْمَتِه ويجْعَل لَكُم نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ [سورة الحديد ، الآية : ٢٨] وكما قال : ﴿ أُولئِكَ كَتَب فى قُلُوبهم الإيمانَ وأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ [سورة المجادلة ، الآية : ٢٢] ولهذا قيل من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ، وهذا الجنس غير مقدور للعباد وإن كان ما يقدرون عليه من الأعمال الظاهرة والباطنة هو أيضًا بفضل الله وإعانته وإقداره لهم ، لكن الأمور قسمان منه ما جنسه مقدور لهم بإعانة الله لهم كالقيام والقعود ، ومنه ما جنسه غير مقدور لهم ؛ إذا قيل إن الله يعطى من أطاعه قوة فى قلبه وبدنه يكون بها قادرًا على ما لا يقدر عليه غيره ؛ فهذا أيضًا حق وهو من جنس

---

(1) أخرجه البخارى (حـ٧ / ٣٦٧٣) ، ومسلم (حـ٤ / فضائل الصحابة / ٢٢٢) وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى .

هذا المعنى قال تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الملائِكَةِ أَنِّى مَعَكُم فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ١٢] وقد قال : ﴿ إِذَا لَقِيتُم فئةً فاثْبتُوا ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٤٥] فأمرهم بالثبات ، وهذا يوحى إلى الملائكة أنهم يفعلونه بالمؤمنين .

والمقصود أنه قد يكون من الإيمان ما يؤمر به بعض الناس ويذم على تركه ، ولا يذم عليه بعض الناس ممن لا يقدر عليه ، ويفضل الله ذاك بهذا الإيمان ، وإن لم يكن المفضول ترك واجبًا ، فيقال وكذلك فى الأعمال الظاهرة يؤمر القادر على الفعل بما لا يؤمر به العاجز عنه ، ويؤمر بعض الناس بما لا يؤمر به غيره ، لكن الأعمال الظاهرة قد يعطى الإنسان مثل أجر العامل إذا كان يؤمن بها ويريدها جهده ولكن بدنه عاجز كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « إن بالمدينة لرجالًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم . قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة حبسهم العذر » وكما قال تعالى : ﴿ لا يَسْتَوِى القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولى الضَّرَر والمجاهِدُونَ فى سَبيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِم وأَنْفُسِهِم فَضَّل اللَّهُ المجاهِدِين بأَمْوالِهِم وأَنْفُسِهِم عَلَى القاعِدِينَ دَرَجةً ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٩٥] فاستثنى أولى الضرر .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا » .

وفى حديث أبى كبشة الأنمارى : « هما فى الأجر سواء وهما فى الوزر سواء » رواه الترمذى وصححه ولفظه : « إنما الدنيا لأربعة : رجل آتاه الله علمًا ومالًا فهو يتقى فى ذلك المال ربه ، ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقًّا فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علمًا و لم يرزقه مالًا فهو صادق النية ، يقول : لو أن لى مالًا لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالًا و لم يرزقه علمًا يخبط فى ماله بغير علم ، لا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ، ولا

يعلم لله فيه حقًا ، فهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالًا وعلمًا فهو يقول : لو أن لى مالًا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء »[1] .

ولفظ ابن ماجه : « مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر : رجل آتاه الله مالًا وعلمًا فهو يعمل بعلمه فى ماله ينفقه فى حقه ، ورجل آتاه الله علمًا و لم يؤته مالًا فهو يقول لو كان لى مثل هذا عملت فيه مثل الذى يعمل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهما فى الأجر سواء ، ورجل آتاه الله مالًا و لم يؤته علمًا فهو يتخبط فى ماله ينفقه فى غير حقه ، ورجل لم يؤته علمًا ولا مالًا وهو يقول : لو كان لى مثل مال هذا عملت مثل الذى يعمل فهما فى الوزر سواء »[2] .

كالشخصين إذا تماثلا فى إيمان القلوب معرفة تصديقًا وحبًا وقوة وحالًا ومقامًا فقد يتماثلان ، وإن كان لأحدهما من أعمال البدن ما يعجز عنه بدن الآخر ، كما جاء فى الأثر : « إن المؤمن قوته فى قلبه وضعفه فى جسمه ، والمنافق قوته فى جسمه وضعفه فى قلبه ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب »[3] وقد قال : « رأيت كأنى أنزع على قليب فأخذها ابن أبى قحافة فنزع ذنوبًا أو ذنوبين وفى نزعه ضعف والله يغفر له فأخذها ابن الخطاب فاستحالت فى يده غربًا فلم أر عبقريًا يفرى فريه حتى صدر الناس بعطن » فذكر أن أبا بكر أضعف وسواء أراد قصر مدته أو أراد ضعفه عن مثل قوة عمر فلا ريب أن أبا بكر أقوى إيمانًا من عمر ، وعمر أقوى عملًا منه كما قال ابن مسعود : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر ؛ وقوة الإيمان أقوى وأكمل من قوة العمل ، وصاحب الإيمان يكتب له أجر عمل غيره ، وما فعله عمر فى سيرته مكتوب مثله لأبى بكر فإنه هو الذى استخلفه .

---

(١) أخرجه الترمذى (حـ٤ / ٢٣٢٥) عن أبى كبشة الأنمارى . وقال : حسن صحيح

(٢) ابن ماجه (حـ٢ / ٤٢٢٨) عن أبى كبشة الأنمارى وصححه الألبانى .

(٣) البخارى (حـ١٠ / ٦١١٤) ، ومسلم (حـ٤ — بر / ١٠٧) .

وفى المسند من وجهين عن النبى صلى الله عليه وسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم وزن بالأمة فرجح ثم وزن أبو بكر بالأمة فرجح ، ثم وزن عمر بالأمة فرجح ، وكان فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وبعد موته يحصل لعمر بسبب أبى بكر من الإيمان والعلم ما لم يكن عنده . ، فهو قد دعاه إلى ما فعله من خير وأعانه عليه بجهده ، والمعين على الفعل إذا كان يريده إرادة جازمة كان كفاعله كما ثبت فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من جهز غازيًا فقد غزا ، ومن خلفه فى أهله بخير فقد غزا »[1] وقال : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله »[2] وقال : « من فطر صائمًا فله مثل أجره »[3] .

وقد ورى فى الترمذى : « من عزى مصابًا فله مثل أجره »[4] وهذا وغيره مما يبين أن الشخصين قد يتماثلان فى الأعمال الظاهرة بل يتفاضلان ويكون المفضول فيها أفضل عند الله من الآخر ، لأنه أفضل فى الإيمان الذى فى القلب ، وأما إذا تفاضلا فى إيمان القلوب فلا يكون المفضول فيها أفضل عند الله البتة ، وإن كان المفضول لم يهبه الله من الإيمان ما وهبه للفاضل ، ولا أعطى قلبه من الأسباب التى بها ينال ذلك الإيمان الفاضل ما أعطى المفضول ، ولهذا فضل الله بعض النبيين على بعض ، وإن كان الفاضل أقل عملًا بالبدن كما فضل الله نبينا صلى الله عليه وسلم ومدة نبوته بضع وعشرون سنة - على نوح وقد لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وفضل أمة محمد وقد عملوا من صلاة العصر إلى المغرب - على من عمل أول النهار إلى صلاة الظهر . وعلى من عمل من صلاة الظهر إلى صلاة العصر ، فأعطى الله أمة محمد أجرين ، وأعطى كلا من أولئك أجرًا لأن الإيمان الذى فى قلوبهم كان أكمل وأفضل ، وكان أولئك أكثر عملًا وهؤلاء أعظم أجرًا ، وهو فضله يؤتيه من يشاء بالأسباب التى تفضل بها

---

(١) البخارى (حـ٦ / ٢٨٤٣) ، ومسلم (حـ٣ ــ إمارة / ١٣٥ ، ١٣٦) وغيرهما .
(٢) أبو داود (حـ ٤ / ٥١٢٩) ، وأحمد (حـ ٥ ص ٢٧٢ ، ٢٧٣) .
(٣) الترمذى (حـ٣ / ٨٠٧) ، وابن ماجه (حـ١ / ١٧٤٦) ، وأحمد (حـ٤ ص ١١٤) ، وصححه الألبانى .
(٤) الترمذى (حـ٣ / ١٠٧٣) . وضعفه الألبانى (الإرواء / ١٦٢) .

عليهم وخصهم بها .

وهكذا سائر من يفضله الله تعالى فإنه يفضله بالأسباب التى يستحق بها التفضيل بالجزاء ، كما يخص أحد الشخصين بقوة ينال بها العلم ، وبقوة ينال بها اليقين والصبر والتوكل والإخلاص ، وغير ذلك مما يفضله الله به ، وإنما فضله فى الجزاء بما فضل به من الإيمان كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ آمنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِيْنَ آمنُوا وجْهَ النَّهَارِ واكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * ولا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبعَ دِينَكُم قُلْ إِنَّ الهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُم أو يُحَاجُّوكُم عِنْد رَبِّكُم قُلْ إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴾ [سورة آل عمران ، الآيات : ٧٢ - ٧٣] وقال فى الآية الأخرى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَم حَيْث يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ١٢٤] وقال : ﴿ اللَّهُ يصْطَفِى مِنَ الملائِكَةِ رُسُلًا ومِنَ النَّاسِ ﴾ [سورة الحج ، الآية : ٧٥] وقال : ﴿ يغْفِرُ لمنْ يَشاءُ ويُعذِّبُ مَنْ يَشاءُ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٢٩] .

وقد بين فى مواضع أسباب المغفرة وأسباب العذاب ، وكذلك يرزق من يشاء بغير حساب ، وقد عرف أنه قد يخص من يشاء بأسباب الرزق .

وإذا كان من الإيمان ما يعجز عنه كثير من الناس ويختص الله به من يشاء ، فذلك ما يفضلهم الله به ، وذلك الإيمان ينفى عن غيرهم ، ولكن لا على وجه الذم بل على وجه التفضيل ، فإن الذم إنما يكون على ترك مأمور أو فعل محظور ، لكن على ما ذكره أبو طالب يقال : فمثل هؤلاء مسلمون لا مؤمنون باعتبار ، ويقال إنهم مؤمنون باعتبار آخر ، وعلى هذا ينفى الإيمان عمن فاته الكمال المستحب بل الكمال الذى يفضل به على من فاته وإن كان غير مقدور للعباد ، بل ينفى عنه الكمال الذى وجب على غيره وإن لم يكن فى حقه واجبًا ولا مستحبًّا ، لكن هذا لا يعرف فى كلام الشارع ، ولم يعرف فى كلامه إلا أن نفى الإيمان يقتضى الذم حيث كان ، فلا ينفى إلا عمن له ذنب ، فتبين أن قوله : « أو مسلم » توقف فى أداء الواجبات الباطنة والظاهرة كما قال جماهير الناس .

ثم طائفة يقولون قد يكون منافقًا ليس معه شيء من الإيمان وهم الذين يقولون الأعراب المذكورون منافقون ليس معهم شيء من الإيمان ، وهذا هو القول الذى نصره طائفة كمحمد بن نصر ، والأكثرون يقولون : بل هؤلاء لم يكونوا من المنافقين الذين لا يقبل منهم شيء من أعمالهم وإن كان فيهم شعبة نفاق ، بل كان معهم تصديق يقبل معه منهم ما عملوه لله ولهذا جعلهم مسلمين ولهذا قال : ﴿ أَنْ هَداكُم للإِيمانِ إِنْ كُنْتُم صَادقينَ ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٧] كما قال مثل ذلك فى الزانى والسارق وغيرهما ممن نفى عنه الإيمان ، مع أن معه التصديق ، وهذا أصح الأقوال الثلاثة فيهم .

وأبو طالب جعل من كان مذمومًا لترك واجب من المؤلفة قلوبهم الذين لم يعطوا شيئًا وجعل ذاك الشخص مؤمنًا غيره أفضل منه . وأما الأكثرون فيقولون إثبات الإسلام لهم دون الإيمان كإثباته لذلك الشخص كان مسلمًا لا مؤمنًا كلاهما مذموم ، لا لمجرد أن غيره أفضل منه ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا »(١) ولم يسلب من دونه الإيمان . وقال تعالى : ﴿ لا يَسْتوِى مِنْكُم مَنْ أنْفقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أنفقُوا مِنْ بَعْدُ وقاتلُوا وكلاً وَعَدَ اللَّهُ الحُسْنَى ﴾ [سورة الحديد ، الآية : ١٠] .

فأثبت الإيمان للفاضل والمفضول ، وهذا متفق عليه بين المسلمين وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر »(٢) وقال لسعد بن معاذ لما حكم فى بنى قريظة : « لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبعة أرقعة »(٣) وكان يقول لمن يرسله فى جيش أو سرية : إذا حاصرت أهل حصن فسألوك أن تنزلهم على حكم الله فلا

---

(١) أحمد (جـ٢ ص ٤٧٢) ، وأبو داود (جـ٤ / ٤٦٨٢) . وابن حبان والحاكم وغيرهم وصححه الألبانى . صحيح الجامع (١٢٤١) .

(٢) أخرجه البخارى (جـ١٣ / ٧٣٥٢) ، ومسلم (جـ٣ ــ أقضية / ١٥) ، وغيرهما .

(٣) أخرجه البخارى (جـ٦ / ٣٠٤٣) ، ومسلم (جـ٣ ــ جهاد / ٦٥) ، وأحمد (جـ٦ ص ١٤٣)

تنزلهم على حكم الله فإنك لا تدرى ما حكم الله فيهم ، ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك . وهذه الأحاديث الثلاثة فى الصحيح ، وفى حديث سليمان عليه السلام : « وأسألك حكمًا يوافق حكمك » .

فهذه النصوص وغيرها تدل على ما اتفق عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان أن أحد الشخصين قد يخصه الله باجتهاد يحصل له به من العلم ما يعجز عنه غيره فيكون له أجران ، وذلك الآخر عاجز له أجر ، ولا إثم عليه ، وذلك العلم الذى خص به هذا والعمل به باطنًا وظاهرًا زيادة فى إيمانه ، وهو إيمان يجب عليه ، لأنه قادر عليه وغيره عاجز عنه فلا يجب ، فهذا قد فضل بإيمان واجب عليه وليس بواجب على من عجز عنه .

وهذا حال جميع الأمة فيما تنازعت فيه من المسائل الخبرية والعلمية إذا خص أحدهما بمعرفة الحق فى نفس الأمر مع اجتهاد الآخر وعجزه ، كلاهما محمود مثاب مؤمن ، وذاك خصه الله من الإيمان الذى وجب عليه بما فضله به على هذا ، وذلك المخطىء لا يستحق ذمًا ولا عقابًا وإن كان ذاك لو فعل ما فعل ذم وعوقب ، كما خص الله نبينا بشريعة فضله بها ، ولو تركنا مما أمرنا به فيها شيئًا لكان ذلك سببًا للذم والعقاب ، والأنبياء قبلنا لا يذمون بترك ذلك ، لكن محمدًا صلى الله عليه وسلم فضله الله على الأنبياء ، وفضل أمته على الأمم من غير ذم لأحد من الأنبياء ولا لمن اتبعهم من الأمم .

وأيضًا فإذا كان الإنسان لا يجب عليه من الإيمان إلا ما يقدر عليه ، وهو إذا فعل ذلك كان مستحقًا لما وعد الله به من الجنة ، فلو كان مثل هذا يسمى مسلمًا ولا يسمى مؤمنًا لوجب أن يكون من أهل الوعد بالجنة من يسمى مسلمًا لا مؤمنًا كالأعراب ، وكالشخص الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم : « أو مسلم » وكسائر من نفى عنه الإيمان مع أنه مسلم كالزانى والشارب والسارق ومن لا يأمن جاره بوائقه ، ومن لا يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه ، وغير هؤلاء ، وليس الأمر كذلك ، فإن الله لم يعلق وعد الجنة إلا باسم الإيمان لم يعلقه باسم الإسلام مع إيجاب الإسلام وإخباره أنه دينه الذى ارتضاه ، وأنه لا

يقبل دينًا غيره ، ومع هذا فما قال إن الجنة أعدت للمسلمين ولا قال وعد الله المسلمين بالجنة ، بل إنما ذكر ذاك باسم كقوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ المؤْمِنِينَ والمؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأنْهار ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ٧٢] فهو يعلقها باسم الإيمان المطلق أو المقيد بالعمل الصالح كقوله : ﴿ إنَّ الذينَ آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِكَ هُم خَيْرُ البَرِيَّة * جَزاؤُهُم عِنْدَ رَبِّهم جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنْهَارُ ﴾ [سورة البينة ، الآيات : ٧ ، ٨] وقوله : ﴿ وبَشِّرِ الَّذِينَ آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ أنَّ لَهُم جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا منْ ثَمَرةٍ رزْقًا قالُوا هٰذا الَّذى رُزِقْنَا من قَبْل ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٥] وقوله : ﴿ إنَّ الَّذِينَ آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وأقامُوا الصَّلَاةَ وآتَوا الزَّكَاةَ لَهُم أجْرُهم عِنْد ربِّهم ولا خَوْفٌ عَليْهِم ولا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٧٧] وقوله : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِم أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١٧٣] وقوله : ﴿ فَأَمَّا الَّذِيْنَ آمنُوا باللَّهِ واعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهم فى رحْمَةٍ مِنْهُ وفَضْلٍ ويَهْدِيهم إليهِ صراطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١٧٥] وقوله : ﴿ والَّذِينَ آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلهُم جنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأنْهارُ خَالِدِينَ فِيهَا أبدًا لَهُم فِيها أزْواجٌ مُطَهَّرةٌ ونُدْخِلُهم ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٥٧] وفى الآية الأخرى : ﴿ ومَنْ أصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١٢٢] وقال : ﴿ وأمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ فَيُوفِّيهِمْ أجُورَهُم واللَّهُ لا يُحبُّ الظَّالِمين ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٥٧] وقال : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مغْفِرَةٌ وأجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٩] وقال : ﴿ فمنْ آمَنَ وأصْلَحَ فلا خَوْفٌ عليْهِم ولا هُم يحْزَنُونَ ﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ٤٨] وقال : ﴿ والَّذِينَ آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ لا نُكلِّف نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا أُولئِكَ أصْحابُ الجنَّةِ هُم فِيها خَالِدُونَ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٤٢] .

فالوعد بالجنة والرحمة فى الآخرة وبالسلامة من العذاب ءلق باسم الإيمان المطلق والمقيد بالعمل الصالح ونحو ذلك ، وهذا كما تقدم أن المطلق يدخل فيه فعل ما أمر الله به ورسوله ولم يعلق باسم الإسلام . فلو كان من أتى من الإيمان بما يقدر عليه وعجز عن معرفة تفاصيله قد يسمى مسلمًا لا مؤمنًا لكان من أهل الجنة ، وكانت الجنة يستحقها من يسمى مسلمًا وإن لم يسم مؤمنًا وليس الأمر كذلك ، بل الجنة لم تعلق إلا باسم الإيمان . وهذا أيضًا مما استدل به من قال إنه ليس كل مسلم من المؤمنين الموعودين بالجنة ، إذ لو كان كذلك لكان وعد الجنة معلقًا باسم الإسلام كما علق باسم الإيمان وكما علق باسم التقوى واسم البر فى مثل قوله : ﴿ إنَّ المتَّقِينَ فى جَنَّاتٍ ونَهَرٍ ﴾ [سورة القمر ، الآية : ٥٤] وقوله : ﴿ إنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ [سورة الانفطار ، الآية : ١٣] وباسم أولياء الله كقوله : ﴿ أَلَا إنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمنُوا وكانُوا يتَّقُونَ * لَهُم البُشْرَى فى الحيَاةِ الدُّنْيا وفى الآخِرَة لا تَبْدِيلَ لِكلماتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُو الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ [سورة يونس ، الآيات : ٦٢ – ٦٤] فلما لم يجر اسم الإسلام هذا المجرى علم أن مسماه ليس ملازمًا لمسمى الإيمان كما يلازمه اسم البر والتقوى وأولياء الله ؛ وأن اسم الإسلام يتناول من هو من أهل الوعيد وإن كان الله يثيبه على طاعته مثل أن يكون فى قلبه إيمان ونفاق يستحق به العذاب فهذا يعاقبه الله ولا يخلده فى النار ، لأن فى قلبه مثقال ذرة أو أكثر من مثقال ذرة من إيمان .

وهكذا سائر أهل الكبائر إيمانهم ناقص ، وإذا كان فى قلب أحدهم شعبة نفاق عوقب بها إذا لم يعف الله عنه ، ولم يخلد فى النار ، فهؤلاء مسلمون وليسوا مؤمنين ومعهم إيمان ، لكن معهم أيضًا ما يخالف الإيمان من النفاق ، فلم تكن تسميتهم مؤمنين بأولى من تسميتهم منافقين ، لا سيما إن كانوا للكفر أقرب منهم للإيمان ، وهؤلاء يدخلون فى اسم الإيمان فى أحكام الدنيا كما يدخل المنافق المحض وأولى ، لأن هؤلاء معهم إيمان ويدخلون فى خطاب الله بـ يأيها الذين آمنوا ؛ لأن ذلك أمر لهم بما ينفعهم ونهى لهم عما يضرهم ، وهم محتاجون إلى ذلك ، ثم الإيمان الذى معهم إن اقتضى شمول لفظ الخطاب لهم فلا كلام ، وإلا فليس

باسوأ حالًا من النفاق المحض ، وذلك المنافق يخاطب بهذه الاعمال وتنفعه فى الدنيا ويحشر بها مع المؤمنين يوم القيامة ، ويتميز بها عن سائر الملل يوم القيامة كما تميز عنهم بها فى الدنيا لكن وقت الحقيقة : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العَذَابُ * يُنَادُونَهُم أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُم قَالُوا بَلَى ولَـٰكِنَّكُم فَتَنْتُم أَنْفُسَكُم وَتَرَبَّصْتُم وارْتَبْتُم وَغَرَّتْكُم الأَمَانِيُّ حتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الغَرُور * فَاليَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُم فِدْيَةٌ ولَا مِنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُم وَبِئْسَ المَصِيرُ ﴾ [سورة الحديد ، الآيات : ١٣ – ١٥] وقد قال تعالى : ﴿ إنَّ المنافقينَ فى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ولَنْ تَجِدَ لَهُم نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وأَصْلَحُوا واعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وأَخْلَصُوا دِينَهُم لِلَّهِ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ المُؤْمِنِينَ وسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ المُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء ، الآيات : ١٤٥ – ١٤٦] .

فإذا عمل العبد صالحًا لله فهذا هو الإسلام الذى هو دين الله ، ويكون معه من الإيمان ما يحشر به مع المؤمنين يوم القيامة ، ثم إن كان معه من الذنوب ما يعاقب به عذب وأخرج من النار ، إذا كان فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، وإن كان معه نفاق ، ولهذا قال تعالى فى هؤلاء : ﴿ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ المُؤْمِنِينَ وسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ المُؤْمِنِينَ أجْرًا عَظِيمًا ﴾ فلم يقل إنهم مؤمنون بمجرد هذا إذ لم يذكر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، بل هم معهم وإنما ذكر العمل الصالح وإخلاصه لله وقال : ﴿ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ المُؤْمِنِينَ ﴾ فيكون لهم حكمهم .

وقد بيَّن تفاضل المؤمنين فى مواضع أخر ، وأنه من أتى بالإيمان الواجب استحق الثواب ، ومن كان فيه شعبة نفاق وأتى بالكبائر فذلك من أهل الوعيد ، وإيمانه ينفعه الله به ويخرجه به من النار ولو أنه مثقال حبة خردل ، لكن لا يستحق به الاسم المطلق المعلق به وعد الجنة بلا عذاب ، وتمام هذا أن الناس قد يكون فيهم شعبة من شعب الإيمان ، وشعبة من شعب الكفر أو النفاق ويسمى مسلمًا كما نص عليه أحمد .

وتمام هذا أن الإنسان قد يكون فيه شعبة من شعب الإيمان وشعبة من شعب النفاق ، وقد يكون مسلمًا وفيه كفر دون الكفر الذى ينقل عن الإسلام بالكلية كما قال الصحابة ابن عباس وغيره كفر دون كفر وهذا قول عامة السلف ، وهو الذى نص عليه أحمد وغيره ممن قال فى السارق والشارب ونحوهم ممن قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم إنه ليس بمؤمن ، أنه يقال لهم مسلمون لا مؤمنون ، واستدلوا بالقرآن والسنة على نفى اسم الإيمان مع إثبات اسم الإسلام ، وبأن الرجل قد يكون مسلمًا ومعه كفر لا ينقل عن الملة بل كفر دون كفر ، كما قال ابن عباس وأصحابه فى قول : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُم الكَافِرُونَ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٤٤] قالوا كفر لا ينقل عن الملة ، وكفر دون كفر ، وفسق دون فسق ، وظلم دون ظلم .

وهذا أيضًا مما استشهد به البخارى فى صحيحه ، فإن كتاب الإيمان الذى افتتح به الصحيح قرر مذهب أهل السنة والجماعة ، وضمنه الرد على المرجئة فإنه كان من القائمين بنصر السنة والجماعة مذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان .

وقد اتفق العلماء على أن اسم المسلمين فى الظاهر يجرى على المنافقين ؛ لأنهم استسلموا ظاهرًا ، وأتوا بما أتوا به من الأعمال الظاهرة بالصلاة الظاهرة ، والزكاة الظاهرة ، والحج الظاهر ، والجهاد الظاهر ، كما كان النبى يجرى عليهم أحكام الإسلام الظاهر ، واتفقوا على أنه من لم يكن معه شيء من الإيمان ، فهو كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ المُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١٤٥] وفيها قراءتان (دَرْك ودَرَك) قال أبو الحسين بن فارس : الجنة درجات والنار دركات ، قال الضحاك : الدرج إذا كان بعضها فوق بعض ، والدرك إذا كان بعضها أسفل من بعض . فصار المظهرون للإسلام بعضهم فى أعلى درجة فى الجنة وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال فى الحديث الصحيح : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها درجة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ،

فمن سأل الله لى الوسيلة حلّت عليه شفاعتى يوم القيامة »[1] وقوله صلى الله عليه وسلم : « وأرجو أن أكون » مثل قوله : « إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بحدوده » ولا ريب أنه أخشى الأمة لله وأعلمهم بحدوده .

وكذلك قوله : « اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة فهى نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئًا » وقوله : « إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » وأمثال هذه النصوص ؛ وكان يستدل به أحمد وغيره على الاستثناء فى الإيمان كما يذكره فى موضعه .

والمقصود أنه خير المؤمنين فى أعلى درجات الجنة ، والمنافقون فى الدرك الأسفل من النار ، وإن كانوا فى الدنيا مسلمين ظاهرًا تجرى عليهم أحكام الإسلام الظاهرة فمن كان فيه إيمان ونفاق يسمى مسلمًا ؛ إذ ليس هو دون المنافق المحض ، وإذا كان نفاقه أغلب لم يستحق اسم الإيمان بل اسم المنافق أحق به ، فإن ما فيه بياض وسواد وسواده أكثر ، هو باسم الأسود أحق منه باسم الأبيض كما قال تعالى : ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُم لِلإِيمانِ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٦٧] وأما إذا كان إيمانه أغلب ومعه نفاق يستحق به الوعيد لم يكن أيضًا من المؤمنين الموعودين بالجنة ، وهذا حجة لما ذكره محمد بن نصر عن أحمد ولم أره فيما بلغنى من كلام أحمد ولا ذكره الخلال ونحوه ، وقال محمد بن نصر وحكى غير هذا عن أحمد أنه قال : من أتى هذه الأربعة : الزنى والسرقة وشرب الخمر والنهبة التى يرفع الناس فيها أبصارهم إليه أو مثلهن أو فوقهن فهو مسلم ولا أسميه مؤمنًا ، ومن أتى دون ذلك دون الكبائر نسميه مؤمنًا ناقص الإيمان ، فإن صاحب هذا القول يقول لما نفى عنه النبى صلى الله عليه وسلم الإيمان نفيته عنه كما نفاه عنه الرسول صلى الله عليه وسلم ، والرسول لم ينفه إلا عن صاحب كبيرة ، وإلا فالمؤمن الذى يفعل الصغيرة هى مكفرة عنه بفعله للحسنات واجتنابه

---

(١) أخرجه مسلم (حـ١ — صلاة / ١١) ، وأبو داود (حـ١ / ٥٢٣) ، والترمذى (حـ٥ / ٣٦١٤) ، وأحمد (حـ٢ ص ١٦٨) .

للكبائر لكنه ناقص الإيمان عمن اجتنب الصغائر ، فما أتى بالإيمان الواجب ولكن خلطه بسيئات كفَّرت عنه بغيرها ونقص بذلك درجته عمن لم يأت بذلك .

وأما الذين نفى عنهم الرسول الإيمان فنفيه كما نفاه الرسول ، وأولئك وإن كان معهم التصديق وأصل الإيمان فقد تركوا منه ما استحقوا لأجله سلب الإيمان ، وقد يجتمع فى العبد نفاق وإيمان وكفر وإيمان ، فالإيمان المطلق عند هؤلاء ما كان صاحبه مستحقًا للوعد بالجنة .

وطوائف أهل الأهواء من الخوارج والمعتزلة والجهمية والمرجئة كراميهم وغير كراميهم يقولون إنه لا يجتمع فى العبد إيمان ونفاق ، ومنهم من يدَّعى الإجماع على ذلك ، وقد ذكر أبو الحسن فى بعض كتبه الإجماع على ذلك ، ومن هنا غلطوا فيه وخالفوا فيه الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، مع مخالفة صريح المعقول ، بل الخوارج والمعتزلة طردوا هذا الأصل الفاسد ، وقالوا لا يجتمع فى الشخص الواحد طاعة يستحق بها الثواب ، ومعصية يستحق بها العقاب ، ولا يكون الشخص الواحد محمودًا من وجه ، مذمومًا من وجه ، ولا محبوبًا مدعوًّا له من وجه مسخوطًا ملعونًا من وجه ، ولا يتصور أن الشخص الواحد يدخل الجنة والنار جميعًا عندهم بل من دخل إحداهما لم يدخل الأخرى عندهم ، ولهذا أنكروا خروج أحد من النار أو الشفاعة فى أحد من أهل النار ، وحكى عن غالية المرجئة أنهم وافقوهم على هذا الأصل ، لكن هؤلاء قالوا إن أهل الكبائر يدخلون الجنة ولا يدخلون النار مقابلة لأولئك .

وأما أهل السنة والجماعة والصحابة والتابعون لهم بإحسان ؛ وسائر طوائف المسلمين من أهل الحديث والفقهاء وأهل الكلام من مرجئة الفقهاء ، والكرامية والكلابية والأشعرية والشيعة مرجئهم وغير مرجئهم فيقولون إن الشخص الواحد قد يعذبه الله بالنار ثم يدخله الجنة كما نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة ، وهذا الشخص الذى له سيئات عذِّب بها ، وله حسنات دخل بها الجنة ، . وله معصية وطاعة باتفاق هؤلاء الطوائف لم يتنازعوا فى حكمه ، لكن تنازعوا فى اسمه فقالت المرجئة ، جهميتهم وغير جهميتهم ، هو مؤمن كامل الإيمان ، وأهل السنة

والجماعة على أنه ناقص الإيمان ، ولولا ذلك لما عذب ، كما أنه ناقص البر والتقوى باتفاق المسلمين ، وهل يطلق عليه اسم مؤمن ؟ هذا فيه القولان ؛ والصحيح التفصيل ، فإذا سئل عن أحكام الدنيا كعتقه فى الكفارة قيل هو مؤمن ، وكذلك إذا سئل عن دخوله فى خطاب المؤمنين .

وأما إذا سئل عن حكمه فى الآخرة قيل ليس هذا النوع من المؤمنين الموعودين بالجنة ، بل معه إيمان يمنعه الخلود فى النار ، ويدخل به الجنة بعد أن يعذب فى النار إن لم يغفر الله له ذنوبه ، ولهذا قال من قال : هو مؤمن بإيمانه ، فاسق بكبيرته ، أو مؤمن ناقص الإيمان ، والذين لا يسمونه مؤمنًا من أهل السنة ومن المعتزلة يقولون اسم الفسوق ينافى اسم الإيمان كقوله : ﴿ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١١] وقوله : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ﴾ [سورة السجدة ، الآية : ١٨] وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » .

وعلى هذا الأصل فبعض الناس يكون معه شعبة من شعب الكفر ، ومعه إيمان أيضًا ، وعلى هذ ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى تسمية كثير من الذنوب كفرًا مع أن صاحبها قد يكون معه أكثر من مثقال ذرة من إيمان ، فلا يخلد فى النار كقوله : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » وقوله : « لا ترجعوا بعدى كفَّارًا يضرب بعضكم رقاب بعض » وهذا مستفيض عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الصحيح من غير وجه ، فإنه أمر فى حجة الوداع أن ينادى به فى الناس ، فقد سمى من يضرب بعضهم رقاب بعض بلا حق كفارًا ويسمى هذا الفعل كفرًا ؛ ومع هذا فقد قال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [سورة الحجرات ، الآيتان : ٩ ، ١٠] فبيَّن أن هؤلاء لم يخرجوا من الإيمان بالكلية ، ولكن فيهم ما هو كفر ، وهى هذه الخصلة كما قال الصحابة : كفر دون كفر ، وكذلك قوله : « من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما » فقد سمَّاه أخاه حين القول ؛ وقد أخبر أن أحدهما باء بها ؛ فلو خرج أحدهما عن الإسلام بالكلية لم يكن أخاه ،

بل فيه كفر .

وكذلك قوله فى الحديث الصحيح : « ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر » وفى حديث آخر : « كفر بالله من تبرأ من نسب وإن دق » وكان من القرآن الذى نسخ لفظه : « لا ترغبوا عن آبائكم فإن كفرًا بكم أن ترغبوا عن آبائكم » فإن حق الوالدين مقرون بحق الله فى مثله قوله : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [سورة لقمان ، الآية : ١٤] وقوله : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاه وبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [سورة الإسراء ، الآية : ٢٣] فالوالد أصله الذى منه الخلق ، والولد من كسبه فما أغنى عنه ماله وما كسب ؛ فالجحد لهما شعبة من شعب الكفر ؛ فإنه جحد لما منه خلقه ربه فقد جحد خلق الرب إياه ، وقد كان فى لغة من قبلنا يسمى الرب أبًا فكان فيه كفر بالله من هذا الوجه ، ولكن ليس هذا كمن جحد الخالق بالكلية ، وسنتكلم إن شاء الله على سائر الأحاديث .

والمقصود هنا ذكر أصل جامع تنبنى عليه معرفة النصوص ورد ما تنازع فيه الناس إلى الكتاب والسنة ، فإن الناس كثر نزاعهم فى مواضع فى مسمى الإيمان والإسلام لكثرة ذكرهما ، وكثرة كلام الناس فيهما ، والاسم كلما كثر التكلم فيه فتكلم به مطلقًا ومقيدًا بقيد ومقيدًا بقيد آخر فى موضع كان هذا سببًا لاشتباه بعض معناه ، ثم كلما كثر سماعه كثر من يشتبه عليه ذلك ؛ ومن أسباب ذلك أن يسمع بعض الناس بعض موارده ولا يسمع بعضه ، ويكون ما سمعه مُقَيَّدًا بقيد أوجبه اختصاصه بمعنى ، فيظن معناه فى سائر موارده كذلك ، فمن اتبع علمه حتى عرف مواقع الاستعمال عامة وعلم ما أخذ الشبهة أعطى كل ذى حق حقه ، وعلم أن خير الكلام كلام الله ، وأنه لا بيان أتم من بيانه وأن ما أجمع عليه المسلمون من دينهم الذى يحتاجون إليه أضعاف أضعاف ما تنازعوا فيه .

فالمسلمون سنِّيهم وبدعيِّهم متفقون على وجوب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ومتفقون على وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج ، ومتفقون على أن من أطاع الله ورسوله فإنه يدخل الجنة ولا يعذب ؛ وعلى أن

من لم يؤمن بأن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فهو كافر ، وأمثال هذه الأمور التى هى أصول الدين وقواعد الإيمان التى اتفق عليها المنتسبون إلى الإسلام والإيمان ، فتنازعهم بعد هذا فى بعض أحكام الوعيد أو بعض معانى بعض الأسماء أمر خفيف بالنسبة إلى ما اتفقوا عليه ، مع أن المخالفين للحق البيِّن من الكتاب والسنة هم عند جمهور الأمة معروفون بالبدعة ؛ مشهود عليهم بالضلالة ؛ ليس لهم فى الأمة لسان صدق ولا قبول عام ، كالخوارج والروافض والقدرية ونحوهم ، وإنما يتنازع أهل العلم والسنة فى أمور دقيقة تخفى على أكثر الناس ، ولكن يجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله ، والرد إلى الله ورسوله فى مسألة الإسلام والإيمان يوجب أن كلاً من الاسمين ، وإن كان مسمَّاه واجبًا ولا يستحق أحد الجنة إلا بأن يكون مؤمنًا مسلمًا فالحق فى ذلك ما بيَّنه النبى فى حديث جبريل ، فجعل الدين وأهله ثلاث طبقات أولها : الإسلام وأوسطها الإيمان وأعلاها الإحسان ، ومن وصل إلى العليا فقد وصل إلى التى تليها ، فالمحسن مؤمن ، والمؤمن مسلم ؛ وأما المسلم فلا يجب أن يكون مؤمنًا .

وهكذا جاء القرآن فجعل الأمة على هذه الأصناف الثلاثة قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُم ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ومِنْهُم مُقْتَصِدٌ ومنهُم سَابِقٌ بالخيراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبِيرُ ﴾ [سورة فاطر ، الآية : ٣٢] فالمسلم الذى لم يقم بواجب الإيمان هو الظالم لنفسه ، والمقتصد هو المؤمن المطلق الذى أدى الواجب وترك المحرم ؛ والسابق بالخيرات هو المحسن الذى عبد الله كأنه يراه ؛ وقد ذكر الله سبحانه تقسيم الناس فى المعاد إلى هذه الثلاثة فى سورة الواقعة والمطففين وهل أتى ؛ وذكر الكفار أيضًا ، وأما هنا فجعل التقسيم للمصطفين من عباده .

وقال أبو سليمان الخطابى : ما أكثر ما يغلط الناس فى هذه المسألة فأما الزهرى فقال : الإسلام الكلمة والإيمان العمل ، واحتج بالآية ، وذهب غيره إلى أن الإسلام والإيمان شيء واحد فاحتج بقوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة الذاريات ،

الآيات : ٣٥ - ٣٦] قال الخطابى ، وقد تكلم رجلان من أهل العلم وصار كل واحد منهما إلى قول من هذين ورد الآخر منهما على المتقدم وصنَّف عليه كتابًا يبلغ عدد أوراقه المائتين قال الخطابى : والصحيح من ذلك أن يقيد الكافر فى هذا ولا يطلق ، وذلك أن المسلم قد يكون مؤمنًا فى بعض الأحوال ، ولا يكون مؤمنًا فى بعضها ، والمؤمن مسلم فى جميع الأحوال ، فكل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمنًا ، وإذا حملت الأمر على هذا استقام لك تأويل الآيات ، واعتدل القول فيها ، ولم يختلف شىء منها .

قلت : الرجلان اللذان أشار إليهما الخطابى أظن أحدهما وهو السابق محمد بن نصر فإنه الذى علمته بسط الكلام فى أن الإسلام والإيمان شىء واحد من أهل السنة والحديث ، وما علمت لغيره قبله بسطًا فى هذا ، والآخر الذى رد عليه أظنه . . . ولكن لم أقف على رده ؛ والذى اختاره الخطابى هو قول من فرق بينهما كأبى جعفر وحماد بن زيد وعبد الرحمن بن مهدى ، وهو قول أحمد بن حنبل وغيره ؛ و لا علمت أحدًا من المتقدمين خالف هؤلاء ، فجعل نفس الإسلام نفس الإيمان ؛ ولهذا كان عامة أهلم السنة على هذا الذى قاله هؤلاء كما ذكره الخطابى .

وكذلك ذكر أبو القاسم التيمى الأصبهانى وابنه محمد شارح مسلم وغيرهما : أن المختار عند أهل السنة أنه لا يطلق على السارق والزانى اسم مؤمن كما دل عليه النص ، وقد ذكر الخطابى فى شرح البخارى كلامًا يقتضى تلازمهما مع افتراق اسميهما . وذكره البغوى فى شرح السنة فقال : قد جعل النبى صلى الله عليه وسلم الإسلام اسمًا لما ظهر من الأعمال ، وجعل الإيمان اسمًا لما بطن من الاعتقاد ، وليس ذلك لأن الأعمال ليست من الإيمان أو التصديق بالقلب ليس من الإسلام ، بل ذلك تفصيل لجملة هى كلها شىء واحد ؛ وجماعها الدين ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم » والتصديق والعمل يتناولهما اسم الإسلام والإيمان جميعًا يدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّيْنَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَام ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٩] وقوله تعالى : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُم

الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٣] وقوله : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٨٥] فبيَّن أن الدين الذى رضيه ويقبله من عباده هو الإسلام ، ولا يكون الدين فى محل الرضا والقبول إلا بانضمام التصديق إلى العمل .

قلت : تفريق النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث جبريل وإن اقتضى أن الأعلى وهو الإحسان يتضمن الإيمان ، والإيمان يتضمن الإسلام فلا يدل على العكس ، ولو قدر أنه دل على التلازم فهو صريح بأن مسمى هذا ليس مسمى هذا ، لكن التحقيق أن الدلالة تختلف بالتجريد والاقتران كما قد بيَّناه ، ومن فهم هذا انحلت عنه إشكالات كثيرة فى كثير من المواضع حاد عنها طوائف فى مسألة الإيمان وغيرها ، وما ذكره من أن الدين لا يكون فى محل الرضا والقبول إلا بانضمام التصديق إلى العمل يدل على أنه لابد مع العمل من الإيمان ؛ فهذا يدل على وجوب الإيمان مطلقًا لكن لا يدل على أن العمل الذى هو الدين ليس اسمه إسلامًا ؛ وإذا كان الإيمان شرطًا فى قوله لم يلزم أن يكون ملازمًا له ؛ ولو كان ملازمًا له لم يلزم أن يكون جزء مسماه .

وقال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح : قوله صلى الله عليه وسلم : « الإسلام أن تشهد أن لا إلـه إلا الله » إلى آخره ؛ و « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » إلى آخره . قال : هذا بيان لأصل الإيمان وهو التصديق الباطن ؛ وبيان لأصل الإسلام وهو الاستسلام والانقياد الظاهر ، وحكم الإسلام فى الظاهر يثبت بالشهادتين ، وإنما أضاف إليهما الأربع لكونها أظهر شعائر الإسلام ومعظمها ، وبقيامِهِ بها يتم استسلامه ، وتركه لها يشعر بحل قيد انقياده أو انحلاله .

ثم إن اسم الإسلام يتناول ما فسر به الإسلام فى هذا الحديث وسائر الطاعات لكونها ثمرات التصديق الباطن الذى هو أصل الإيمان ، ومقومات ومتممات وحافظات له ، ولهذا فسَّر النبى صلى الله عليه وسلم الإيمان فى حديث وفد عبد القيس بالشهادتين والصلاة والزكاة والصوم وإعطاء الخمس من المغنم ؛ ولهذا لا يقع اسم المؤمن المطلق على من ارتكب كبيرة أو ترك فريضة ؛ لأن اسم الشىء

الكامل يقع على الكامل منه ، ولا يستعمل فى الناقص ظاهرًا إلا بقيد ، ولذلك جاز إطلاق نفيه عنه فى قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » .

واسم الإسلام يتناول أيضًا ما هو أصل الإيمان وهو التصديق ويتناول أصل الطاعات ، فإن ذلك كله استسلام ، قال : فخرج مما ذكرناه وحققناه أن الإسلام والإيمان يجتمعان ويفترقان ؛ وأن كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنًا ، قال فهذا تحقيق واف بالتوفيق بين متفرقات النصوص الواردة فى الإيمان والإسلام التى طالما غلط فيها الخائضون ، وما حققناه من ذلك موافق لمذاهب جماهير العلماء من أهل الحديث وغيرهم .

فيقال : هذا الذى ذكره رحمه الله فيه من الموافقة ما قد بيَّن من أقوال الأئمة وما دل عليه الكتاب والسنَّة وما يظهر به أن الجمهور يقولون : كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنًا ، وقوله : إن الحديث ذكر فيه أصل الإيمان وأصل الإسلام قد يورد عليه أن النبى صلى الله عليه وسلم أجاب عن الإيمان والإسلام بما هو من جنس الجواب بالحد عن المحدود ، فيكون ما ذكره مطابقًا لهما لا لأصلهما فقط ، فالإيمان هو الإيمان بما ذكره باطنًا وظاهرًا ؛ لكن ما ذكره من الإيمان تضمن الإسلام ، كما أن الإحسان تضمن الإيمان .

وقول القائل : أصل الاستسلام هو الإسلام الظاهر ، فالإسلام هو الاستسلام لله والانقياد له ظاهرًا وباطنًا فهذا هو دين الإسلام الذى ارتضاه الله كما دلَّت عليه نصوص الكتاب والسنة ، ومن أسلم بظاهره دون باطنه فهو منافق يقبل ظاهره ؛ فإنه لم يؤمر أن يشق عن قلوب الناس ، وأيضًا فإذا كان الإسلام يتناول التصديق الباطن الذى هو أصل الإيمان ، فيلزم أن يكون كل مسلم مؤمنًا وهو خلاف ما نقل عن الجمهور ، لكن لابد فى الإسلام من تصديق يحصل به أصل الإيمان ، وإلا لم يثبت عليه ، فيكون حينئذ مسلمًا مؤمنًا ، فلابد أن يتبين المسلم الذى ليس بمؤمن ودخوله فى الإسلام ، والنبى صلى الله عليه وسلم قال : « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » وقوله : « الإسلام هو الأركان الخمسة » لا يعنى

به من أداها بلا إخلاص لله بل مع النفاق بل المراد من فعلها كما أمر بها باطنًا وظاهرًا ، وذكر الخمس أنها هى الإسلام ؛ لأنها هى العبادات المحضة التى تجب لله تعالى على كل عبد مطيق لها ، وما سواها إما واجب على الكفاية لمصلحة إذا حصلت سقط الوجوب ، وإما من حقوق الناس بعضهم على بعض وإن كان فيها قربة ونحو ذلك ، وتلك تابعة لهذه كما قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » و : « أفضل الإسلام أن تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » ونحو ذلك ، فهذه الخمس هى الأركان والمبانى كما فى الإيمان .

وقول القائل : الطاعات ثمرات التصديق الباطن يراد به شيئان : يراد به أنها لوازم له فمتى وجد الإيمان الباطن قد يكون سببًا ، وقد يكون الإيمان الباطن تامًّا كاملًا وهى لم توجد ، وهذا قول المرجئة من الجهمية وغيرهم ، وقد ذكرنا فيما تقدم أنهم غلطوا فى ثلاثة أوجه :

أحدها : ظنهم أن الإيمان الذى فى القلب تصديق بلا عمل للقلب كمحبة الله وخشيته .

والثانى : ظنهم أن الإيمان الذى فى القلب يكون تامًّا بدون العمل الظاهر ، وهذا يقول به جميع المرجئة .

الثالث : قولهم كل من كفره الشارع فإنما كان لانتفاء تصديق القلب بالرب تبارك وتعالى ، وكثير من المتأخرين لا يميزون بين مذاهب السلف وأقوال المرجئة والجهمية لاختلاط هذا بهذا فى كلام كثير منهم ممن هو باطنه يرى رأى الجهمية والمرجئة فى الإيمان ، وهو معظم للسلف والحديث ، فيظن أنه يجمع بينهما ، أو يجمع بين كلام أمثاله وكلام السلف .

قال أبو عبد الله محمد بن نصر المروزى : وقالت طائفة ثالثة وهم الجمهور الأعظم من أهل السنة والجماعة وأصحاب الحديث : الإيمان الذى دعا الله العباد إليه وافترضه عليهم هو الإسلام الذى جعله دينًا وارتضاه لعباده ودعاهم إليه ، وهو ضد الكفر الذى سخطه فقال : ﴿ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الكُفْرَ ﴾ [سورة

الزمر ، الآية : ٧] وقال : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُم الإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٣] وقال : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ ﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ١٢٥] وقال : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ [سورة الزمر ، الآية : ٢٢] فمدح الله الإسلام بمثل ما مدح به الإيمان ، وجعله اسم ثناء وتزكية فأخبر أن من أسلم فهو على نور من ربه وهدى ، وأخبر أنه دينه الذى ارتضاه فقد أوجبه وامتدحه ، ألا ترى أن أنبياء الله ورسله رغبوا فيه إليه وسألوه إياه ، فقال إبراهيم وإسماعيل : ﴿ رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَينِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٢٨] وقال يوسف : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بالصَّالِحِينَ ﴾ [سورة يوسف ، الآية : ١٠١] وقال : ﴿ ووَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُم الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وأَنْتُم مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٣٢] وقال : ﴿ وقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ والأُمِّيينَ أَأَسْلَمْتُم ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٢٠] وقال فى موضع آخر : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ومَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ [سورة البقرة ، الآيات : ١٣٦ - ١٣٧] فحكم الله بأن من أسلم فقد اهتدى ، ومن آمن فقد اهتدى ، فسوى بينهما .

قال : وقد ذكرنا تمام الحجة فى أن الإسلام هو الإيمان ، وأنهما لا يفترقان ولا يتباينان فى موضع غير هذا فكرهنا إعادته فى هذا الموضع كراهة التطويل والتكرير غير أنَّا سنذكر من الحجة ما لم نذكره فى غير هذا الموضع ، ونبيِّن خطأ تأويلهم ، والحجج التى احتجوا بها من الكتاب والأخبار على التفرقة بين الإسلام والإيمان .

قلت : مقصود محمد بن نصر المروزى رحمه الله : أن المسلم الممدوح هو المؤمن الممدوح ، وأن المذموم ناقص الإسلام والإيمان ، وأن كل مؤمن فهو مسلم ، وكل مسلم فلابد أن يكون معه إيمان ، وهذا صحيح وهو متفق عليه

ومقصوده أيضًا أن من أطلق عليه الإسلام أطلق عليه الإيمان ، وهذا فيه نزاع لفظى ، ومقصوده أن مسمى أحدهما هو مسمى الآخر ، وهذا لا يعرف عن أحد من السلف ، وإن قيل هما متلازمان ، فالمتلازمان لا يجب أن يكون مسمى هذا هو مسمى هذا ، وهو لم ينقل عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الإسلام المشهورين أنه قال : مسمى الإسلام هو مسمى الإيمان كما نصره ، بل لا عرفت أنا أحدًا قال ذلك من السلف ، ولكن المشهور عن الجماعة من السلف والخلف أن المؤمن المستحق لوعد الله هو المسلم المستحق لوعد الله ، فكل مسلم مؤمن ، وكل مؤمن مسلم وهذا متفق على معناه بين السلف والخلف ، بل بين فِرَق الأمة كلهم يقولون : إن المؤمن الذى وعد بالجنة لابد أن يكون مسلمًا ، والمسلم الذى وعد بالجنة لابد أن يكون مؤمنًا ، وكل من يدخل الجنة بلا عذاب من الأولين والآخرين فهو مؤمن مسلم .

ثم إن أهل السنة يقولون : الذين يخرجون من النار ويدخلون الجنة معهم بعض ذلك ، وإنما النزاع فى إطلاق الاسم ، فالنقول متواترة عن السلف بأن الإيمان قول وعمل ، ولم ينقل عنهم شىء من ذلك فى الإسلام ، ولكن لما كان الجمهور الأعظم يقولون : إن الإسلام هو الدين كله ، ليس هو الكلمة فقط خلاف ظاهر ما نقل عن الزهرى ، فكانوا يقولون إن الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك من الأفعال المأمور بها هى من الإسلام كما هى من الإيمان ، ظن أنهم يجعلونها شيئًا واحدًا ، وليس كذلك ، فإن الإيمان مستلزم للإسلام باتفاقهم ، وليس إذا كان الإسلام داخلًا فيه يلزم أن يكون هو إياه ، وأما الإسلام فليس معه دليل على أنه يستلزم الإيمان ، ولكن هل يستلزم الإيمان الواجب أو كمال الإيمان ؟ فيه نزاع ، وليس معه دليل على أنه مستلزم للإيمان ، ولكن الأنبياء الذين وصفهم الله بالإسلام كلهم كانوا مؤمنين ، وقد وصفهم الله بالإيمان ولو لم يذكر ذلك عنهم فنحن نعلم قطعًا أن الأنبياء كلهم مؤمنون .

وكذلك السابقون الأولون كانوا مسلمين مؤمنين ، ولو قدر أن الإسلام يستلزم الإيمان الواجب فغاية ما يقال إنهما متلازمان ، فكل مسلم مؤمن ، وكل

مؤمن مسلم ، وهذا صحيح إن أريد أن كل مسلم يدخل الجنة معه الإيمان الواجب ، وهو متفق عليه إذا أريد أن كل مسلم يثاب على عبادته ، فلابد أن يكون معه أصل الإيمان ، فما من مسلم إلا وهو مؤمن ، وإن لم يكن هو الإيمان الذى نفاه النبى صلى الله عليه وسلم عمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وعمن يفعل الكبائر ، وعن الأعراب وغيرهم إذا قيل إن الإسلام والإيمان التام متلازمان لم يلزم أن يكون أحدهما هو الآخر ، كالروح والبدن فلا يوجد عندنا روح إلا مع البدن ، ولا يوجد بدن حى إلا مع الروح ، وليس أحدهما الآخر ، فالإيمان كالروح فإنه قائم بالروح ومتصل بالبدن ، والإسلام كالبدن ولا يكون البدن حيًّا إلا مع الروح ، بمعنى أنهما متلازمان لا أن مسمى أحدهما هو مسمى الآخر ، وإسلام المنافقين كبدن الميت جسد بلا روح فما من بدن حى إلا وفيه روح ولكن الأرواح متنوعة كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الأرواح جنود مجنَّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف »[1] وليس كل من صلَّى ببدنه يكون قلبه منوّرًا بذكر الله والخشوع وفهم القرآن ، وإن كانت صلاته يثاب عليها ، ويسقط عنه الفرض فى أحكام الدنيا ، فهكذا الإسلام الظاهر بمنزلة الصلاة الظاهرة ، والإيمان بمنزلة ما يكون فى القلب حين الصلاة من المعرفة بالله والخشوع وتدبر القرآن ، فكل من خشع قلبه خشعت جوارحه ، ولا ينعكس ، ولهذا قيل : إياكم وخشوع النفاق ، وهو أن يكون الجسد خاشعًا والقلب ليس بخاشع فإذا صلح القلب صلح الجسد كله ، وليس إذا كان الجسد فى عبادة يكون القلب قائمًا بحقائقها .

والناس فى الإيمان والإسلام على ثلاث مراتب : ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات ؛ فالمسلم ظاهرًا وباطنًا إذا كان ظالمًا لنفسه فلابد أن يكون معه إيمان ؛ ولكن لم يأت بالواجب ، ولا ينعكس وكذلك فى الآخر وسيأتى إن شاء الله .

والآيات التى احتج بها محمد بن نصر تدل على وجوب الإسلام ، وأنه دين الله

---

(١) أخرجه البخارى (حـ٦ / ٣٣٣٦) ، ومسلم (حـ٤ ــ بر / ١٥٩) .

وأن الله يحبه ويرضاه ، وأنه ليس له دين غيره ، وهذا كله حق ، لكن ليس فى هذا ما يدل على أنه هو الإيمان ، بل ولا يدل على أن بمجرد الإسلام يكون الرجل من أهل الجنة كما ذكره فى حجة القول الأول ، وأن الله وعد المؤمنين بالجنة فى غير آية ، ولم يذكر هذا الوعد باسم الإسلام حينئذ فمدحه وإيجابه ومحبة الله له تدل على دخوله فى الإيمان ، وأنه بعض منه ، وهذا متفق عليه بين أهل السنة ، كلهم يقولون كل مؤمن مسلم وكل من أتى بالإيمان الواجب فقد أتى بالإسلام الواجب ، لكن النزاع فى العكس وهذا كما أن الصلاة يحبها الله ويأمر بها ويوجبها ويثنى عليها وعلى أهلها فى غير موضع ، ثم لم يدل ذلك على أن مسمى الصلاة مسمى الإيمان بل الصلاة تدخل فى الإيمان ، فكل مؤمن مصل ولا يلزم أن يكون كل من صلى وأتى الكبائر مؤمنًا .

وجميع ما ذكره من الحجة عن النبى صلى الله عليه وسلم فإن فيها التفريق بين مسمى الإيمان والإسلام إذا ذكرا جميعًا كما فى حديث جبريل وغيره ، وفيها أيضًا أن اسم الإيمان إذا أطلق دخل فيه الإسلام . قال أبو عبد الله بن حامد فى كتابه المصنف فى أصول الدين :

قد ذكرنا أن الإيمان قول وعمل ، فأما الإسلام فكلام أحمد يحتمل روايتين :

إحداهما : أنه كالإيمان .

والثانية : أنه قول بلا عمل ، وهو نصه فى رواية إسماعيل بن سعيد .

قال : والصحيح أن المذهب رواية واحدة أنه قول وعمل ، ويحتمل قوله : إن الإسلام قول ، يريد به أنه لا يجب فيه ما يجب فى الإيمان من العمل المشروط فيه لأن الصلاة ليست من شرطه إذ النص عنه لا يكفر بتركه الصلاة .

قال : وقد قضينا أن الإسلام والإيمان اسمان لمعنيين ، وذكرنا اختلاف الفقهاء ، وقد ذكر قبل ذلك أن الإسلام والإيمان اسمان لمعنيين مختلفين ، وبه قال مالك وشريك وحماد بن زيد بالتفرقة بين الإسلام والإيمان ، قال : وقال أصحاب الشافعى وأصحاب أبى حنيفة إنهما اسمان معناهما واحد ، قال ويفيد هذا أن الإيمان

قد تنتفى عنه تسميته مع بقاء الإسلام عليه وهو بإتيان الكبائر التى ذكرت فى الخبر ، فيخرج عن تسمية الإيمان إلا أنه مسلم ، فإذا تاب من ذلك عاد إلى ما كان عليه من الإيمان ولا تنتفى عنه تسمية الإيمان بارتكاب الصغائر من الذنوب ، بل الاسم باق عليه ، ثم ذكر أدلة ذلك ولكن ما ذكره فيه أدلة كثيرة على من يقول الإسلام مجرد الكلمة ، فإن الأدلة الكثيرة تدل على أن الأعمال من الإسلام ، بل النصوص كلها تدل على ذلك ، فمن قال إن الأعمال الظاهرة المأمور بها ليست من الإسلام ، فقوله باطل ، بخلاف التصديق الذى فى القلب ، فإن هذا ليس فى النصوص ما يدل على أنه من الإسلام ، بل هو من الإيمان ، وإنما الإسلام الدين كما فسره النبى صلى الله عليه وسلم بأن يسلم وجهه وقلبه لله ، فإخلاص الدين لله إسلام وهذا غير التصديق ، ذاك من جنس عمل القلب ، وهذا من جنس علم القلب .

وأحمد بن حنبل وإن كان قد قال فى هذا الموضع إن الإسلام هو الكلمة فقد قال فى موضع آخر : إن الأعمال من الإسلام ، وهو اتبع هنا الزهرى رحمه الله ، فإن كان مراد من قال ذلك إنه بالكلمة يدخل فى الإسلام ، ولم يأت بتمام الإسلام ، فهذا قريب ، وإن كان مراده أنه أتى بجميع الإسلام ؛ فهذا غلط قطعًا بل قد أنكر أحمد هذا الجواب ، وهو قول من قال يطلق عليه الإسلام وإن لم يعمل متابعة لحديث جبريل ، فكان ينبغى أن يذكر قول أحمد جميعه .

قال إسماعيل بن سعيد : سألت أحمد عن الإسلام والإيمان فقال : الإيمان قول وعمل ، والإسلام الإقرار . وقال : وسألت أحمد عمن قال فى الذى قال جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم إذ سأله عن الإسلام ؛ فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم ؟ فقال : نعم ، فقال قائل : وإن لم يفعل الذى قال جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم فهو مسلم أيضًا ؟ فقال : هذا معاند للحديث .

فقد جعل أحمد من جعله مسلمًا إذا لم يأت بالخمس معاندًا للحديث ، مع قوله إن الإسلام الإقرار ، فدل ذلك على أن ذلك أول الدخول فى الإسلام وأنه لا يكون قائمًا بالإسلام الواجب حتى يأتى بالخمس ، وإطلاق الاسم مشروط

بها ، فإنه ذم من لم يتبع حديث جبريل . وأيضًا فهو فى أكثر أجوبته يكفر من لم يأت بالصلاة بل وبغيرها من المبانى ، والكافر لا يكون مسلمًا باتفاق المسلمين ، فعلم أنه لم يرد أن الإسلام هو مجرد القول بلا عمل ، وإن قدر أنه أراد ذلك فهذا يكون أنه لا يكفر بترك شيء من المبانى الأربعة . وأكثر الروايات عنا بخلاف ذلك والذين لا يكفرون من ترك هذه المبانى يجعلونها من الإسلام كا شافعى ومالك وأبى حنيفة وغيرهم ، فكيف لا يجعلها أحمد من الإسلام ، وقوله فى دخولها فى الإسلام أقوى من قول غيره وقد روى عنه أنه جعل حديث سعد معارضًا لحديث عمر ورجح حديث سعد .

قال الحسن بن على : سألت أحمد بن حنبل عن الإيمان أو كذا والإسلام قال : جاء حديث عمر هذا ، وحديث سعد أحب إلىّ . كأنه فهم أن حديث عمر يدل على أن الأعمال هى مسمى الإسلام فيكون مسماه أفضل ، وحديث سعد يدل على أن مسمى الإيمان أفضل ، ولكن حديث عمر لم يذكر الإسلام إلا الأعمال الظاهرة فقط وهذه لا تكون إيمانًا إلا مع الإيمان الذى فى القلب بالله وملائكته وكتبه ورسله فيكون حينئذ بعض الإيمان فيكون مسمى الإيمان أفضل كما دل عليه حديث سعد فلا منافاة بين الحديثين .

وأما تفريق أحمد بين الإسلام والإيمان فكان يقول تارة ، وتارة يحكى الخلاف ولا يجزم به . وكان إذا فرق بينهما تارة يقول الإسلام الكلمة . وتارة لا يقول ذلك كذلك التكفير بترك المبانى كان تارة يكفر بها حتى يغضب ، وتارة لا يكفر بها قال الميمونى : قلت يا أبا عبد الله تفرق بين الإسلام والإيمان ؟ قال نعم . قلت : بأى شيء تحتج ؟ قال : عامة الأحاديث تدل على هذا ثم قال : لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، وقال الله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٤] قال : وحماد بن زيد يفرق بين الإسلام والإيمان قال وحدثنا أبو سلمة الخزاعى قال : قال مالك وشريك وذكر قولهم وقول حماد بن زيد فى الفرق بين الإسلام والإيمان .

قال أحمد : قال لى رجل لو لم يجئنا فى الإيمان إلا هذا لكان حسنًا قلت لأبى عبد الله فتذهب إلى ظاهر الكتاب مع السنن ؟ قال : نعم . قلت : فإذا كانت المرجئة يقولون إن الإسلام هو القول ؟ قال : هم يصيرون هذا كله واحدًا ويجعلونه مسلمًا ومؤمنًا شيئًا واحدًا على إيمان جبرائيل ومستكمل الإيمان . قلت فمن ههنا حجتنا عليهم ؟ قال : نعم ، فقد ذكر عنه الفرق مطلقًا واحتجاجه بالنصوص .

وقال صالح بن أحمد : سئل أبى عن الإسلام والإيمان قال : قال ابن أبى ذئب : الإسلام القول والإيمان العمل ، قيل له : ما تقول أنت ؟ قال : الإسلام غير الإيمان ، وذكر حديث سعد وقول النبى صلى الله عليه وسلم فهو هذا الحديث لم يختر قول من قال الإسلام القول ، بل أجاب بأن الإسلام غير الإيمان كما دل عليه الحديث الصحيح مع القرآن .

وقال حنبل : حدثنا أبو عبد الله بحديث بريدة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن قائلهم يقول : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » الحديث – قال : وسمعت أبا عبد الله يقول : فى هذا الحديث حجة على من قال الإيمان قول . فمن قال أنا مؤمن . قوله : « من المؤمنين والمسلمين » فبين المؤمن من المسلم ، ورد على من قال : أنا مؤمن مستكمل الإيمان . وقوله : « وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » وهو يعلم أنه ميت يؤيد قول من قال : أنا مؤمن إن شاء الله ، الاستثناء فى هذا الموضع .

وقال أبو الحارث : سألت أبا عبد الله قلت : قوله : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » قال قد تأولوه فأما عطاء فقال : يتنحى عنه الإيمان ، وقال طاوس : إذا فعل ذلك زال عنه الإيمان . وروى عن الحسن قال : إن رجع راجعه الإيمان . وقد قيل يخرج من الإيمان إلى الإسلام . ولا يخرج من الإسلام وروى هذه المسألة صالح فإن مسائل أبى الحارث يرويها صالح أيضًا ، وصالح سأل أباه عن هذه القصة قال فيها هكذا يروى عن

أبى جعفر قال : لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، قال يخرج من الإيمان إلى الإسلام ، فالإيمان مقصور فى الإسلام فإذا زنى خرج من الإيمان إلى الإسلام . قال الزهرى : يعنى لما روى حديث سعد – أو مسلم – فنرى أن الإسلام الكلمة والإيمان العمل – قال أحمد وهو حديث متأول والله أعلم .

فقد ذكر أقوال التابعين و لم يرجح شيئًا ، وذلك والله أعلم لأن جميع ما قالوه حق وهو يوافق على ذلك كله ، كما قد ذكر فى مواضع أخر أنه يخرج من الإيمان إلى الإسلام ونحو ذلك ، وأحمد وأمثاله من السلف لا يريدون بلفظ التأويل صرف اللفظ عن ظاهره ، بل التأويل عندهم مثل التفسير وبيان ما يؤول إليه اللفظ كقول عائشة رضى الله عنها كان رسول الله يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم وبحمدك » يتأول القرآن ، وإلا فما ذكره التابعون لا يخالف ظاهر الحديث بل يوافقه ، وقول أحمد يتأوله أى يفسر معناه وإن كان ذلك يوافق ظاهرهم لئلا يظن مبتدع أن معناه أنه صار كافرًا لا إيمان معه بحال كما تقوله الخوارج ، فإن الحديث لا يدل على هذا ، والذى نفى عن هؤلاء الإيمان كان يجعلهم مسلمين لا يجعلهم مؤمنين .

قال المروزى : قيل لأبى عبد الله نقول نحن المؤمنون ؟ فقال نقول المسلمون . قلت لأبى عبد الله نقول إنا مؤمنون ؟ قال ولكن نقول إنا مسلمون . وهذا لأن من أصله الاستثناء فى الإيمان ، لأنه لا يعلم أنه مؤد لجميع ما أمر الله به فهو مثل قوله : أنا بر ، أنا تقى ، أنا ولى الله كما يذكر فى موضعه ، وهذا لا يمنع ترك الاستثناء إذا أراد إلى مصدق فإنه يجزم بما فى قلبه من التصديق ، ولا يجزم بأنه ممتثل بكل ما أمر به . وكما يجزم بأنه يحب الله ورسوله فإنه يبغض الكفر ونحو ذلك مما يعلم أنه فى قلبه ، وكذلك إذا أراد بأنه مؤمن فى الظاهر فلا يمنع أن يجزم بما هو معلوم له ، وإنما يكره ما كرهه سائر الغالية من قول المرجئة ، إذ يقولون الإيمان شيء متماثل فى جميع أهله مثل كون كل إنسان له رأس فيقول أحدهم أنا مؤمن حقًا ، وأنا مؤمن عند الله ونحو ذلك كما يقول الإنسان لى رأس حقًا ، وأنا لى رأس فى علم الله حقًا . فمن جزم به على هذا الوجه فقد أخرج

الأعمال الباطنة والظاهرة عنه ، وهذا منكر من القول وزور عند الصحابة والتابعين ومن اتبعهم من سائر المسلمين ، وللناس فى مسألة الاستثناء كلام يذكر فى موضعه .

والمقصود هنا أن هنا قولين متطرفين : قول من يقول الإسلام مجرد الكلمة والأعمال الظاهرة ليست داخلة فى مسمى الاسم ، وقول من يقول سمى الإسلام والإيمان واحد ، وكلاهما قول ضعيف مخالف لحديث جبريل وسائر أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم . ولهذا لما نصر محمد بن نصر المروزى القول الثانى لم يكن معه حجة على صحته ولكن احتج بما يبطل به القول الأول ، فاحتج بقوله فى قصة الأعراب : ﴿ بَلِ اللَّهُ يمنُّ علَيْكُم أنْ هَدَاكُم للإِيمَانِ إنْ كُنتُم صادِقِينَ ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٧] قال فدل ذلك على أن الإسلام هو الإيمان ، فيقال يدل على نقيض ذلك لأن القوم لم يقولوا أسلمنا ، بل قالوا آمنا ، والله أمرهم أن يقولوا أسلمنا . ثم ذكر تسميتهم بالإسلام فقال : ﴿ بَلِ اللَّهُ يمنُّ علَيْكُم أنْ هَدَاكُم للإِيمَانِ إنْ كُنتُم صادِقِينَ ﴾ فى قولكم آمنا ، ولو كان الإسلام هو الإيمان لم يحتج أن يقول إن كنتم صادقين فإنهم صادقون فى قولهم أسلمنا مع أنهم لم يقولوا ولكن الله قال : ﴿ يمنُّونَ علَيْكَ أنْ أَسْلَمُوا قلْ لا تمنُّوا علَيَّ إسْلَامَكم بلِ اللَّهُ يمنُّ عَلَيْكُم ﴾ أى يمنون عليك ما فعلوه من الإسلام ، فالله تعالى سمى فعلهم إسلامًا ، وليس فى ذلك ما يدل على أنهم سموه إسلامًا ، وإنما قالوا آمنا ، ثم أخبر أن المنة تقع بالهداية إلى الإيمان ، فأما الإسلام الذى لا إيمان معه فكان الناس يفعلونه خوفًا من السيف فلا منّة لهم بفعله ، وإذا لم يمن الله عليهم بالإيمان كان ذلك كإسلام المنافقين فلا يقبله الله منهم ، فأما إذا كانوا صادقين فى قولهم آمنا فالله هو المانّ عليهم بهذا الإيمان وما يدخل فيه من الإسلام ، وهو سبحانه نفى عنهم الإيمان أولًا ، وهنا علق منة الله به على صدقهم ، فدل على جواز صدقهم .

وقد قيل إنهم صاروا صادقين بعد ذلك ويقال المعلق بشرط لا يستلزم وجود ذلك الشرط ، لأنه كان معهم إيمان ما . لكن ما هو الإيمان الذى وصفه ثانيًا

بل معهم شعبة من الإيمان .

قال محمد بن نصر : وقال الله تعالى : ﴿ وما أُمِرُوا إلَّا لِيعْبدُوا اللَّهَ مخْلِصينَ لَهُ الدِّين ﴾ [سورة البينة ، الآية : ٥] وقال : ﴿ إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإسْلَامُ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٩] فسمى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة دينًا قيمًا وسمى الدين إسلامًا فمَن لم يؤد الزكاة فقد ترك من الدين القيم الذى أخبر الله أنه عنده الدين وهو الإسلام بعضًا . قال : وقد جاء معينًا هذه الطائفة التى فرقت بين الإسلام والإيمان على أن الإيمان قول وعمل ، وأن الصلاة والزكاة من الإيمان ، وقد سماهما الله دينًا وأخبر أن الدين عنده الإسلام ، فقد سمى الله الإسلام بما سمى به الإيمان ، وسمى الإيمان بما سمى به الإسلام ، وبمثل ذلك جاءت الأخبار عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فمن زعم أن الإسلام هو الإقرار وأن العمل ليس منه فقد خالف الكتاب والسنة ؛ ولا فرق بينه وبين المرجئة إذ زعمت أن الإيمان إقرار بلا عمل .

فيقال أما قوله إن الله جعل الصلاة والزكاة من الدين ، والدين عنده هو الإسلام ، فهذا كلام حسن موافق لحديث جبرائيل ، ورده على من جعل العمل خارجًا من الإسلام كلام حسن ، وأما قوله : إن الله سمى الإيمان بما سمى به الإسلام ، وسمى الإسلام بما سمى به الإيمان ، فليس كذلك فإن الله إنما قال : ﴿ إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإسْلَامُ ﴾ ولم يقل قط إن الدين عند الله الإيمان ؛ ولكن هذا الدين من الإيمان ، وليس إذا كان منه يكون هو إياه ، فإن الإيمان أصله معرفة القلب وتصديقه ، وقوله : والعمل تابع لهذا العلم والتصديق ملازم له ولا يكون العبد مؤمنًا إلا بهما ، وأما الإسلام فهو عمل محض مع قول ، والعلم والتصديق ليس جزء مسماه لكن يلزمه جنس التصديق فلا يكون عمل إلا بعلم ، لكن لا يستلزم الإيمان المفصل الذى بينه الله ورسوله كما قال تعالى : ﴿ إنَّما المؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمنُوا بِاللَّهِ ورَسُولِه ثُمَّ لَمْ يرْتَابُوا وجاهَدُوا بأَمْوالِهِم وأنفُسِهِم فى سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُم الصَّادِقونَ ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٥] وقوله : ﴿ إنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قلُوبُهم وإذَا

تُلِيَتْ عَليهِم آياتُهُ زَادَتْهُم إيمانًا وعلَى رَبِّهِم يتوَكّلُونَ ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٢] .

وسائر النصوص التى تنفى الإيمان عمن لم يتصف بما ذكره فإن كثيرًا من المسلمين مسلم باطنًا وظاهرًا ومعه تصديق مجمل ، ولم يتصف بهذا الإيمان والله تعالى قال : ﴿ ومَنْ يَبْتَغ غيْر الإسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَل مِنْهُ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٨٥] وقال : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُم الإسْلَامَ دِينًا ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٣] ولم يقل ومن يبتغ غير الإسلام علمًا ومعرفة وتصديقًا وإيمانًا ، ولا قال رضيت لكم الإيمان تصديقًا وعلمًا ، فإن الإسلام من جنس الدين والعمل والطاعة والانقياد والخضوع ؛ فمن ابتغى غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه ، والإيمان طمأنينة ويقين أصله علم وتصديق ومعرفة ، والدين تابع له ، يقال آمنت بالله وأسلمت لله . قال موسى : ﴿ يا قَوْمِ إنْ كُنْتُم آمَنْتُم باللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إنْ كُنْتُم مُسْلِمِينَ ﴾ [سورة يونس ، الآية : ٨٤] فلو كان مسماها واحدًا كان هذا تكريرًا ، وكذلك قوله : ﴿ إنَّ المسْلِمينَ والمُسْلِمَاتِ والمُؤْمِنينَ والمُؤْمِنَاتِ ﴾ [سورة الأحزاب ، الآية : ٣٥] كما قال : والصادقين والصابرين والخاشعين . فالمؤمن متصف بهذا كله ، لكن هذه الأسماء لا تطابق الإيمان فى العموم والخصوص ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت »[1] كما ثبت فى الصحيحين أنه كان يقول ذلك إذا قام من الليل ، وثبت فى صحيح مسلم وغيره أنه كان يقول فى سجوده : « اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت »[2] وفى الركوع يقول : « لك ركعت ولك أسلمت وبك آمنت » ولما بين النبى صلى الله عليه وسلم خاصة كل منهما قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم

---

(١) أخرجه البخارى (حـ٣ / ١١٢٠) ، ومسلم (حـ١ ـــ مسافرين / ١٩٩) وأصحاب السنن ومالك وأحمد والدارمى .

(٢) وأخرجه النسائى (حـ٢ ص ٢٢٠) .

وأموالهم »[1] ومعلوم أن السلامة من ظلم الإنسان غير كونه مأمونًا على الدم والمال ، فإن هذا أعلى ، والمأمون يسلم الناس من ظلمه ، وليس من سلموا من ظلمه يكون مأمونًا عندهم .

قال محمد بن نصر : فمن زعم أن الإسلام هو الإقرار وأن الإقرار ليس منه ، فقد خالف الكتاب والسنة ، وهذا صحيح ؛ فإن النصوص كلها تدل على أن الأعمال من الإسلام ، قال : ولا فرق بينه وبين المرجئة إذ زعمت أن الإيمان إقرار بلا عمل .

فيقال : بل بينهما فرق وذلك أن هؤلاء الذين قالوا من أهل السنة كالزهرى ومن وافقه يقولون الأعمال داخلة فى الإيمان ، والإسلام عندهم جزء من الإيمان ، والإيمان عندهم أكمل ، وهذا موافق للكتاب والسنة يقولون : الناس يتفاضلون فى الإيمان ، وهذا موافق للكتاب والسنة ، والمرجئة يقولون : الإيمان بعض الإسلام ، والإسلام أفضل ، ويقولون إيمان الناس متساو ، فإيمان الصحابة وأفجر الناس سواء ، ويقولون لا يكون مع أحد بعض الإيمان دون بعض ، وهذا مخالف للكتاب والسنة .

وقد أجاب أحمد عن هذا السؤال كما قاله فى إحدى رواياته أن الإسلام هو الكلمة كما قال الزهرى فإنه تارة يوافق من قال ذلك وتارة لا يوافقه ، بل يذكر ما دل عليه الكتاب والسنة من أن الإسلام غير الإيمان ؛ فلما أجاب بقول الزهرى قال له الميمونى قلت : يا أبا عبد الله تفرق بين الإسلام والإيمان ؟ قال : نعم ؛ قلت : بأى شىء تحتج ؟ قال عامة الأحاديث تدل على هذا ، ثم قال : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » وقال تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٤] قلت له : فتذهب إلى ظاهر الكتاب مع السنن ؟ قال : نعم ، قلت فإذا كانت المرجئة تقول إن الإسلام هو القول ؟ قال :

---

(١) سبق تخريجه .

هم يصيرون هذا كله واحدًا ويجعلونه مسلمًا ومؤمنًا شيئًا واحدًا على إيمان جبريل ومستكمل الإيمان ؛ قلت فمن ههنا حجتنا عليهم ؟ قال : نعم ، فقد أجاب أحمد بأنهم يجعلون الفاسق مؤمنًا مستكمل الإيمان على إيمان جبريل .

وأما قوله : يجعلونه مسلمًا ومؤمنًا شيئًا واحدًا ، فهذا قول من يقول : الدين والإيمان شيء واحد ، فالإسلام هو الدين فيجعلون الإسلام والإيمان شيئًا واحدًا ؛ وهذا القول قول المرجئة فيما يذكره كثير من الأئمة كالشافعى وأبى عبيد وغيرهما ، ومع هؤلاء يناظرون ، فالمعروف من كلام المرجئة الفرق بين لفظ الدين والإيمان ، والفرق بين الإسلام والإيمان ويقولون الإسلام بعضه إيمان وبعضه أعمال ، والأعمال منها فرض ونفل ، ولكن كلام السلف كان فيما يظهر لهم ويصل إليهم من كلام أهل البدع كما تجدهم فى الجهمية إنما يحكون عنهم أن الله فى كل مكان ، وهذا قول طائفة منهم كالنجارية وهو قول عوامهم وعبادهم ، أما جمهور نظارهم من الجهمية والمعتزلة والضرارية وغيرهم فإنما يقولون لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو فوق العالم ، وكذلك كلامهم فى القدرية يحكون عنهم إنكار العلم والكتاب ، وهؤلاء هم القدرية الذين قال ابن عمر فيهم : إذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برىء منهم ، وأنهم براء منى ، وهم الذين كانوا يقولون إن الله أمر العباد ونهاهم وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه ، ولا من يدخل الجنة ممن يدخل النار حتى فعلوا ذلك فعلمه بعد ما فعلوه ، ولهذه قالوا : الأمر أنف أى مستأنف ؛ يقال روض أنف إذا كانت وافرة لم ترع قبل ذلك يعنى أنه مستأنف العمل السعيد والشقى ويبتدأ ذلك من غير أن يكون قد تقدم بذلك علم ولا كتاب ، فلا يكون العمل على ما قد قدر فيحتذى به حذو القدر ؛ بل هو أمر مستأنف مبتدأ ، والواحد من الناس إذا أراد أن يعمل عملًا قدر فى نفسه ما يريد عمله ثم عمله كما قدر فى نفسه وربما . . . أظهر ما قدره فى الخارج بصورته ، ويسمى هذا التقدير الذى فى النفس خلقًا ومنه قول الشاعر :

ولأنت تفرى ما خلقت وبعـ ـض الناس يخلق ثم لا يفرى

يقول إذا قدرت أمرًا أمضيته وأنفذته بخلاف غيرك فإنه عاجز عن إمضاء ما

يقدره ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [سورة القمر ، الآية : ٤٩] وهو سبحانه يعلم قبل أن يخلق الأشياء كل ما سيكون ، وهو يخلق بمشيئته فهو يعلمه ويريده ، وعلمه وإرادته قائم بنفسه ، وقد يتكلم به ويخبر به كما فى قوله : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وممَّن تَبِعَكَ مِنْهُم أَجْمَعِينَ ﴾ [سورة ص ، الآية : ٨٥] وقال : ﴿ ولَوْلا كلمةٌ سَبَقَتْ مِنْ ربِّكَ لَكانَ لِزَامًا وأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ [سورة طه ، الآية : ١٢٩] وقال تعالى : ﴿ ولَقَدْ سَبَقَت كَلمتُنا لِعبادِنا المُرْسَلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المَنْصُورُون * وإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ ﴾ [سورة الصافات ، الآيات : ١٧١ - ١٧٣] وقال تعالى : ﴿ ولَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ فاخْتُلِفَ فِيهِ ولَوْلا كلمةٌ سَبَقتْ مِن ربِّكَ لَقُضِيَ بينَهُم وإِنَّهُم لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [سورة فصلت ، الآية : ٤٥] وهو سبحانه كتب ما يقدره فيما يكتبه فيه كما قال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَم أَنَّ اللَّهَ يَعْلَم ما فى السَّماء والأَرْض إنَّ ذٰلِكَ فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ علَى اللَّهِ يَسيرٌ ﴾ [سورة الحج ، الآية : ٧٠] قال ابن عباس إن الله خلق الخلق وعلم ما هم عاملون ثم قال لعلمه كن كتابًا فكان كتابًا ثم أنزل تصديق ذلك فى قوله : ﴿ أَلَم تَعْلَم أَنَّ اللَّهَ يعْلَمُ ما فِى السَّماءِ والأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فى كتابٍ إِنَّ ذلكَ علَى اللَّهِ يَسيرٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ ما أَصابَ مِنْ مُصيبةٍ فى الأَرْضِ ولا فِى أَنْفُسِكم إِلَّا فى كِتابٍ مِنْ قبل أَنْ نَبرأَها إِنَّ ذٰلِكَ علَى اللَّهِ يَسيرٌ ﴾ [سورة الحديد ، الآية : ٢٢] وقال : ﴿ ولقد كَتَبْنا فى الزَّبُورِ مِنْ بعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ ﴾ [سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٥] وقال : ﴿ يمْحُو اللَّهُ ما يشَاءُ ويثْبِتُ وعِنْدَهُ أُمُّ الكِتابِ ﴾ [سورة الرعد ، الآية : ٣٩] وقال للملائكة : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَليفَةً قَالُوْا أَتَجْعَلُ فِيْهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيها ويَسْفِكُ الدِّمَاءَ ونحْنُ نُسبِّحُ بحمْدِكَ ونُقَدِّسُ لَكَ قال إِنِّى أَعْلَمُ ما لَا تَعْلمُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٣٠] فالملائكة قد علمت ما يفعل بنو آدم من الفساد وسفك الدماء ، فكيف لا يعلمه الله سواء علموه بإعلام الله فيكون هو أعلم بما علمهم إياه كما قاله أكثر المفسرين ، أو قالوه بالقياس على من كان قبلهم كما قاله طائفة منهم أو بغير ذلك والله أعلم بما سيكون

من مخلوقاتهم من الذين لا علم لهم إلا ما علمهم ، وما أوحاه إلى أنبيائه وغيرهم مما سيكون مما هو أعلم به منهم ، فإنهم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء .

وأيضًا فإنه قال للملائكة : ﴿ إِنِّى جاعِلٌ ﴾ قبل أن يأمرهم بالسجود لآدم ؛ وقبل أن يمتنع إبليس وقبل أن ينهى آدم عن أكله من الشجرة ، وقبل أن يأكل منها ويكون أكله سبب إهباطه إلى الأرض ، فقد علم الله سبحانه أنه سيستخلفه مع أمره له ولإبليس بما يعلم أنهما يخالفانه فيه ويكون الخلاف سبب أمره لهما بالإهباط والاستخلاف فى الأرض .

وهذا يبين أنه علم ما سيكون منهما من مخالفة الأمر ، فإن إبليس امتنع من السجود لآدم وأبغضه فصار عدوه فوسوس له حتى يأكل من الشجرة فأذنب آدم أيضًا ، فإنه قد تألى ، أنه ليغوينهم أجمعين ، وقد سأل الإنظار إلى يوم يبعثون ؛ فهو حريص على إغواء آدم وذريته بكل ما أمكنه ، لكن آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه واجتباه ربه وهداه بنبوته ، فصار لبنى آدم سبيل إلى نجاتهم وسعادتهم مما يوقعهم الشيطان فيه بالإغواء وهو التوبة ، قال تعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ المنَافِقِينَ والمنافِقَاتِ والمشْرِكينَ والمشْرِكاتِ ويَتُوبَ اللَّهُ عَلَى المؤْمِنينَ والمؤْمِناتِ ﴾ [سورة الأحزاب ، الآية : ٧٣] وقدر الله أحاط بهذا كله قبل أن يكون ، وإبليس أصر على الذنب واحتج بالقدر وسأل الإنظار ليهلك غيره ، وآدم تاب وأناب وقال هو وزوجته : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسنَا وإِنْ لَمْ تَغْفِر لنَا وَتَرْحَمْنا لنَكونَنَّ مِنَ الخاسِرينَ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٢٣] فتاب الله عليه فاجتباه وهداه وأنزله إلى الأرض ليعمل فيها بطاعته ؛ فيرفع الله بذلك درجته ، ويكون دخوله الجنة بعد هذا أكمل مما كان ، فمن أذنب من أولاد آدم فاقتدى بأبيه آدم فى التوبة كان سعيدًا ، وإذا تاب وآمن وعمل صالحًا بدل الله سيئاته حسنات ، وكان بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة كسائر أولياء الله المتقين ، ومن اتبع منهم إبليس فأصر على الذنب واحتج بالقدر وأراد أن يغوى غيره كان من الذين قال فيهم : ﴿ لأَملأَنَّ جَهنَّم مِنْكَ وممَّن تَبِعَكَ مِنْهُم أَجْمَعِينَ ﴾ [سورة ص ، الآية : ٨٥] .

والمقصود هنا ذكر القدر ، وقد ثبت فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قدَّر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » وفى صحيح البخارى عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان الله ولم يكن شىء قبله وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء ، ثم خلق السمٰوات والأرض »(١) وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم من غير وجه أنه أخبر أن الله قد علم أهل الجنة من أهل النار ، وما يعمله العباد قبل أن يعملوه .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود أن الله يبعث ملكًا بعد خلق الجسد وقبل نفخ الروح فيه فيكتب أجله ورزقه وعمله وشقى أو سعيد ، وهذه الأحاديث تأتى إن شاء الله فى مواضعها ، فهذا القدر هو الذى أنكره القدرية الذين كانوا فى أواخر زمن الصحابة ، وقد روى أن أول من ابتدعه بالعراق رجل من أهل البصرة يقال له سيسويه من أبناء المجوس ؛ وتلقاه عنه معبد الجهنى ، ويقال أول ما حدث فى الحجاز لما احترقت الكعبة ، فقال رجل : احترقت بقدر الله تعالى ، فقال آخر : لم يقدر الله هذا ، ولم يكن على عهد الخلفاء الراشدين أحد ينكر القدر ، فلما ابتدع هؤلاء التكذيب بالقدر رده عليهم من بقى من الصحابة كعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وواثلة بن الأسقع ، وكان أكثره بالبصرة والشام وقليل منه بالحجاز ؛ فأُكثر كلام السلف فى ذم هؤلاء القدرية ؛ ولهذا قال وكيع بن الجراح : القدرية يقولون الأمر مستقبل وإن الله لم يقدر الكتابة والأعمال ، والمرجئة يقولون القول يجزىء من العمل ، والجهمية يقولون المعرفة تجزىء من القول والعمل ، قال وكيع : وهو كله كفر .

ولكن لما اشتهر الكلام فى القدر ودخل فيه كثير من أهل النظر والعبادة صار جمهور القدرية يقرون تقدم العلم ، وإنما ينكرون عموم المشيئة والخلق ؛ وعن

---

(١) البخارى (حـ٦ / ٣١٩١) .

عمرو بن عبيد فى إنكار الكتاب المتقدم روايتان ، وقول أولئك كفرهم عليه مالك والشافعى وأحمد وغيرهم ، وأما هؤلاء فهم مبتدعون ضالون لكنهم ليسوا بمنزلة أولئك ، وفى هؤلاء خلق كثير من العلماء والعباد كتب عنهم العلم ، وأخرج البخارى ومسلم لجماعة منهم ، لكن من كان داعية إليه لم يخرجوا له ، وهذا مذهب فقهاء أهل الحديث كأحمد وغيره أن من كان داعية إلى بدعة فإنه يستحق العقوبة لدفع ضرره عن الناس ، وإن كان فى الباطن مجتهدًا ، وأقل عقوبته أَنَّهُ يهجر ، فلا يكون له مرتبة فى الدين لا يؤخذ عنه العلم ولا يستقضى ، ولا تقبل شهادته ، ونحو ذلك ، ومذهب مالك قريب من هذا ، ولهذا لم يخرج أهل الصحيح لمن كان داعية ولكن رووا هم وسائر أهل العلم عن كثير ممن كان يرى فى الباطن رأى القدرية والمرجئة والخوارج والشيعة .

وقال أحمد : لو تركنا الرواية عن القدرية لتركنا أكثر أهل البصرة ، وهذا لأن مسألة خلق أفعال العباد وإرادة الكائنات مسألة مشكلة ، وكما أن القدرية من المعتزلة وغيرهم أخطئوا فيها فقد أخطأ فيها كثير ممن رد عليهم أو أكثرهم ، فإنهم سلكوا فى الرد عليهم مسلك جهم بن صفوان وأتباعه فنفوا حكمة الله فى خلقه وأمره ، ونفوا رحمته بعباده ، ونفوا ما جعله من الأسباب خلقًا وأمرًا ، وجحدوا من الحقائق الموجودة فى مخلوقاته وشرائعه ما صار ذلك سببًا لنفور أكثر العقلاء الذين فهموا قولهم عما يظنونه السنة ، إذ كانوا يزعمون أن قول أهل السنة فى القدر هو القول الذى ابتدعه جهم ، وهذا لبسطه موضع آخر .

وإنما المقصود هنا أن السلف فى ردهم على المرجئة والجهمية والقدرية وغيرهم يردون من أقوالهم ما يبلغهم عنهم وما سمعوه من بعضهم وقد يكون ذلك قول طائفة منهم وقد يكون نقلًا مغيرًا ، فلهذا ردوا على المرجئة الذين يجعلون الدين والإيمان واحدًا ، ويقولون هو القول ، وأيضًا فلم يكن حدث من المرجئة من يقول الإيمان هو مجرد القول بلا تصديق ولا معرفة فى القلب ، فإن هذا إنما أحدثه ابن كرام ، وهذا هو الذى انفرد به ابن كرام ، وأما سائر ما قاله فأقوال قيلت قبله ، ولهذا لم يذكر الأشعرى ولا غيره ممن يحكى مقالات الناس عنه قولًا انفرد

به إلا هذا .

وأما سائر أقواله فيحكونها عن ناس قبلهم ولا يذكرونه ، ولم يكن ابن كرام فى زمن أحمد بن حنبل وغيره من الأئمة ، فلهذا يحكون إجماع الناس عن خلاف هذا القول كما ذكر أبو عبد الله أحمد بن حنبل وأبو ثور وغيرهما ، وكان قول المرجئة قبله إن الإيمان قول باللسان وتصديق بالقلب ، وقول جهم إنه تصديق القلب ، فلما قال ابن كرام إنه مجرد قول اللسان صارت أقوال المرجئة ثلاثة . لكن أحمد كان أعلم بمقالات الناس من غيره فكان يعرف قول الجهمية فى الإيمان وأما أبو ثور فلم يكن يعرفه ولا يعرف إلا مرجئة الفقهاء ، فلهذا حكى الإجماع على خلاف قول الجهمية والكرامية .

قال أبو ثور فى رده على المرجئة : كما روى ذلك أبو القاسم الطبرى اللالكائى وغيره عن إدريس بن عبد الكريم قال : سأل رجل من أهل خراسان أبا ثور عن الإيمان وما هو أيزيد وينقص ، وقول هو أو قول وعمل ، أو تصديق وعمل ؟ فأجابه أبو ثور بهذا فقال : سألت رحمك الله وعفا عنا وعنك عن الإيمان ما هو يزيد وينقص ، وقول هو أو قول وعمل ، أو تصديق وعمل ؟ فأخبرك بقول الطوائف واختلافهم :

اعلم يرحمنا الله وإياك أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح ، وذلك أنه ليس بين أهل العلم خلاف فى رجل لو قال : أشهد أن الله عز وجل واحد وأن ما جاءت به الرسل حق وأقر بجميع الشرائع ثم قال : ما عقد قلبى على شىء من هذا ولا أصدق به أنه ليس بمسلم ، ولو قال : المسيح هو الله وجحد أمر الإسلام ثم قال : لم يعقد قلبى على شىء من ذلك أنه كافر بإظهار ذلك وليس بمؤمن ، فلما لم يكن بالإقرار إذا لم يكن معه التصديق مؤمنًا ولا بالتصديق إذا لم يكن معه الإقرار مؤمنًا حتى يكون مصدقًا بقلبه مقرًّا بلسانه ، فإذا كان تصديقًا بالقلب وإقرارًا باللسان كان عندهم مؤمنًا وعند بعضهم لا يكون مؤمنًا حتى يكون مع التصديق عمل ، فيكون بهذه الأشياء إذا اجتمعت مؤمنًا ، فلما نفوا أن يكون الإيمان بشىء واحد وقالوا يكون بشيئين فى قول بعضهم ،

وثلاثة أشياء فى قول غيرهم لم يكن مؤمنًا إلا بما أجمعوا عليه من هذه الثلاثة الأشياء ، وذلك أنه إذا جاء بهذه الثلاثة الأشياء فكلهم يشهد أنه مؤمن فقلنا بما أجمعوا عليه من التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح .

فأما الطائفة التى ذهبت إلى أن العمل ليس من الإيمان فيقال لهم ماذا أراد الله من العباد إذ قال لهم أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ؟ الإقرار بذلك أو الإقرار والعمل ؟ فإن قالت : إن الله أراد الإقرار ، ولم يرد العمل فقد كفرت عند أهل العلم من قال إن الله لم يرد من العباد أن يصلوا ولا يؤتوا الزكاة ، وإن قالت أراد منهم الإقرار والعمل ، قيل فإذا كان أراد منهم الأمرين جميعًا لم زعمتم أنه يكون مؤمنًا بأحدهما دون الآخر وقد أرادهما جميعًا ؟ أرأيتم لو أن رجلًا قال أعمل جميع ما أمر به الله ولا أقر به أيكون مؤمنًا ؟ فإن قالوا لا ، قيل لهم : فإن قال أقر بجميع ما أمره الله به ولا أعمل به أيكون مؤمنًا ؟ فإن قالوا : نعم ، قيل : ما الفرق ؟ فقد زعمتم أن الله أراد الأمرين جميعًا ، فإن جاز أن يكون بأحدهما مؤمنًا إذا ترك الآخر ، جاز أن يكون بالآخر إذا عمل به ولم يقر مؤمنًا ، لا فرق بين ذلك ، فإن احتج فقال : لو أن رجلًا أسلم فأقر بجميع ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم أيكون مؤمنًا بهذا الإقرار قبل أن يجىء وقت عمل ؟ قيل له إنما يطلق له الاسم بتصديقه أن العمل عليه بقوله أن يعمله فى وقته إذا جاء وليس عليهم فى هذا الوقت إلا الإقرار بجميع ما يكون به مؤمنًا ولو قال أقر ولا أعمل لم يطلق عليه اسم الإيمان .

قلت : يعنى الإمام أبو ثور رحمه الله أنه لا يكون مؤمنًا إلا إذا التزم بالعمل مع الإقرار ، وإلا فلو أقر ولم يلتزم العمل لم يكن مؤمنًا ، وهذا الاحتجاج الذى ذكره أبو ثور هو دليل على وجوب الأمرين : الإقرار والعمل ، وهو يدل على أن كلًا منهما من الدين ، وأنه لا يكون مطيعًا لله ولا مستحقًّا للثواب ولا ممدوحًا عند الله ورسوله إلا بالأمرين جميعًا ، وهو حجة على من يجعل الأعمال خارجة عن الدين والإيمان جميعًا وأما من يقول إنها من الدين ويقول إن الفاسق مؤمن حيث أخذ ببعض الدين وهو الإيمان عندهم وترك بعضه ، فهذا يحتج عليه بشىء

آخر ، لكن أبا ثور وغيره من علماء السنّة عامة احتجاجهم مع هذا الصنف وأحمد كان أوسعْ علمًا بالأقوال والحجج من أبى ثور ، ولهذا إنما حكى الإجماع على خلاف قول الكرامية ثم إنه نوزع فى النطق على عادته ولم يجزم بنفى الخلاف ، ولكن قال لا أحسب أحدًا يقول هذا ، وهذا فى رسالته إلىٰ أبى عبد الرحيم الجوزجانى ذكرها الخلال ، فى كتاب السنّة ، وهو أجمع كتاب يذكر فيه أقوال أحمد فى مسائل الأصول الدينية ، وإن كان له أقوال زائدة على ما فيه ، كما أن كتابه فى العلم أجمع كتاب يذكر فيه أقوال أحمد فى الأصول الفقهية .

قال المروزى : رأيت أبا عبد الرحيم الجوزجانى عند أبى عبد الله ، وقد كان ذكره أبو عبد الله فقال : كان أبوه مرجئًا أو قال صاحب رأى وأما أبو عبد الرحمن فأثنى عليه وقد كان كتب إلى أبى عبد الله من خراسان يسأله عن الإيمان ، وذكر الرسالة من طريقين عن أبى عبد الرحيم ، وجواب أحمد .

بسم الله الرحمن الرحيم ، أحسن الله إلينا وإليك فى الأمور كلها ، وسلّمنا وإياك من كل شر برحمته ، أتانى كتابك تذكر فيه ما تذكر من احتجاج من احتج من المرجئة ، واعلم رحمك الله أن الخصومة فى الدين ليس من طريق أهل السنّة وأن تأويل من تأوّل القرآن بلا سنّة تدل على معنى ما أراد الله منه ، أو أثر عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعرف ذلك بما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم أو عن أصحابه ، فهم شاهدوا النبى صلى الله عليه وسلم وشهدوا تنزيله ، وما قصّة الله له فى القرآن ، وما عنى به ، وما أراد به أخاص هو أم عام ، فأما من تأوله على ظاهره بلا دلالة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من الصحابة فهذا تأويل أهل البدع ؛ لأن الآية قد تكون خاصة ويكون حكمها حكمًا عامًّا ، ويكون ظاهرها على العموم ، وإنما قصدت لشىء بعينه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو المعبِّر عن كتاب الله وما أراد ، وأصحابه أعلم بذلك منا لمشاهدتهم الأمر ، وما أريد بذلك ، فقد تكون الآية خاصة أى معناها مثل قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١١] وظاهرها على العموم أى من وقع

عليه اسم ولد فله ما فرض الله ، فجاءت سنّة رسول الله صى الله عليه وسلم ألا يرث مسلم كافرًا .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم – وليس بالثبت – إلا أنه عن أصحابه أنهم لم يورثوا قاتلًا ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المعبِّر عن الكتاب أن الآية إنما قصدت المسلم لا الكافر ، ومن حملها على ظاهرها لزمه أن يورث من وقع عليه اسم الولد كافرًا أو قاتلًا ، وكذلك أحكام الوارث من الأبوين وغير ذلك مع آى كثير يطول بها الكتاب ، وإنما استعملت الأُمَّةُ السنَّة من النبى صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه إلا من دفع ذلك من أهل البدع والخوارج وما يشبههم فقد رأيت إلى ما خرجوا .

قلت : لفظ المجمل والمطلق والعام كان فى اصطلاح الأئمة كالشافعى وأحمد وأبى عبيد وإسحاق وغيرهم سواء ، لا يريدون بالمجمل ما لا يفهم منه معنى كما فسره به بعض المتأخرين وأخطأ فى ذلك ، بل المجمل ما لا يكفى وحده فى العمل به وإن كان ظاهره حقًا كما فى قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ١٠٣] فهذه الآية ظاهرها ومعناها مفهوم ليست مما لا يفهم المراد به ؛ بل نفس ما دلت عليه لا يكفى وحده فى العمل ، فإن المأمور به صدقة تكون مطهرة مزكية لهم ، وهذا إنما يعرف ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ ولهذا قال أحمد : يحذر المتكلم فى الفقه هذين الأصلين : المجمل والقياس . وقال : أكثر ما يخطىء الناس من جهة التأويل والقياس ، يريد بذلك ألا يحكم بما يدل عليه العام والمطلق قبيل النظر فيما يخصه ويقيده ؛ ولا يعمل بالقياس قبل النظر فى دلالة النصوص هل تدفعه ، فإن أكثر خطأ الناس تمسكهم بما يظنونه من دلالة اللفظ والقياس ؛ فالأمور الظنية لا يعمل بها حتى يبحث عن المعارض بحيث يطمئن القلب إليه ، وإلا أخطأ من لم يفعل ذلك ، وهذا هو الواقع فى المتمسكين بالظواهر والأقيسة ، ولهذا جعل الاحتجاج بالظواهر مع الإعراض عن تفسير النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه طريق أهل البدع ، وله فى ذلك مصنف كبير .

وكذلك التمسك بالأقيسة مع الإعراض عن المنصوص والآثار طريق أهل البدع ، ولهذا كان كل قول ابتدعه هؤلاء وهؤلاء قولا فاسدًا ، وإنما الصواب من أقوالهم ما وافقوا فيه السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وقوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُم اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُم ﴾ سماه عامًّا وهو مطلق فى الأحوال يعمها علم طريق البدل ؛ كما يعم قوله : ﴿ فتحرير رقبة ﴾ جميع الرقاب كما يعم لفظ الولد للأولاد ، ومن أخذ بهذا لم يأخذ بما دل عليه ظاهر لفظ القرآن ، بل أخذ بما ظهر له مما سكت عنه القرآن ، فكان الظهور لسكوت القرآن عنه لا لدلالة القرآن على أنه ظاهر ، فكانوا متمسكين بظاهر من القول لا بظاهر القول ؛ وعمدتهم عدم العلم بالنصوص التى فيها علم بما قيد وألا تكمل ما بينه القرآن وأظهره فهو حق ؛ بخلاف ما يظهر للإنسان لمعنى آخر غير نفس القرآن يسمى ظاهر القرآن كاستدلالات أهل البدع من المرجئة والجهمية والخوارج والشيعة .

قال أحمد : وأما من زعم أن الإيمان الإقرار فما تقول فى المعرفة ؟ هل يحتاج إلى المعرفة مع الإقرار ، وهل يحتاج أن يكون مصدقًا بما عرف ؟ فإن زعم أنه يحتاج إلى المعرفة مع الإقرار فقد زعم أنه من شيئين ، وإن زعم أنه يحتاج أن يكون مقرًّا ومصدقًا بما عرف فهو من ثلاثة أشياء ؛ وإن جحد وقال لا يحتاج إلى المعرفة والتصديق فقد قال قولا عظيمًا ولا أحسب أحدًا يدفع المعرفة والتصديق وكذلك العمل مع هذه الأشياء .

قلت : أحمد وأبو ثور وغيرهما من الأئمة كانوا قد عرفوا أصل قول المرجئة ، وهو أن الإيمان لا يذهب بعضه ويبقى بعضه فلا يكون إلا شيئًا واحدًا ، فلا يكون ذا عدد اثنين أو ثلاثة ، فإنه إذا كان له عدد أمكن ذهاب بعضه وبقاء بعضه ، بل لا يكون إلا شيئًا واحدًا ، ولهذا قالت الجهمية إنه شيء واحد فى القلب ، وقالت الكرامية : إنه شيء واحد على اللسان ، كل ذلك فرارًا من تبعض الإيمان وتعدده ، فلهذا صاروا يناظرونهم بما يدل على أنه ليس شيئًا واحدًا كما قلتم . فأبو ثور احتج بما اجتمع عليه فقهاء المرجئة من أنه تصديق وعمل ، ولم يكن بلغه قول متكلميهم وجهميتهم ، أو لم يعد خلافهم خلافًا ، وأحمد ذكر

أنه لابد من المعرفة والتصديق مع الإقرار ، وقال إن من جحد المعرفة والتصديق فقد قال قولا عظيما ، فإن فساد هذا القول معلوم من دين الإسلام ، ولهذا لم يذهب إليه أحد قبل الكرامية مع أن الكرامية لا تنكر وجوب المعرفة والتصديق ، ولكن تقول لا يدخل فى اسم الإيمان حذرًا من تبعضه وتعدده ، لأنهم رأوا أنه لا يمكن أن يذهب بعضه ويبقى بعضه بل ذلك يقتضى أن يجتمع فى القلب إيمان وكفر ، واعتقدوا الإجماع على نفى ذلك كما ذكر هذا الإجماع الأشعرى وغيره .

وهذه الشبهة التى أوقفتهم مع علم كثير منهم وعبادته وحسن إسلامه وإيمانه ، ولهذا دخل فى إرجاء الفقهاء جماعة هم عند الأئمة أهل علم ودين ، لهذا لم يكفر أحد من السلف أحدًا من مرجئة الفقهاء ، بل جعلوا هذا من بدع الأقوال والأفعال ، لا من بدع العقائد ، فإن كثيرًا من النزاع فيها لفظى ، لكن اللفظ المطابق للكتاب والسنة هو الصواب ، فليس لأحد أن يقول بخلاف قول الله ورسوله ، لا سيما وقد صار ذلك ذريعة إلى بدع أهل الكلام من أهل الإرجاء وغيرهم إلى ظهور الفسق ، فصار ذلك الخطأ اليسير فى اللفظ سببًا لخطأ عظيم فى العقائد والأعمال ، فلهذا عظم القول فى ذم الإرجاء حتى قال إبراهيم النخعى : لفتنتهم – يعنى المرجئة – أخوف على هذه الأمة من فتنة الأزارقة . وقال الزهرى : ما ابتدعت فى الإسلام بدعة أضر على أهله من الإرجاء . وقال الأوزاعى : كان يحيى بن أبى كثير وقتادة يقولان : ليس شئ من الأهواء أخوف عندهم من الإرجاء . وقال شريك القاضى وذكر المرجئة فقال : هم أخبث قوم ، حسبك بالرافضة خبثًا ، ولكن المرجئة يكذبون على الله . وقال سفيان الثورى : تَرَكَت المرجئة الإسلام أرق من ثوب سابرى . وقال قتادة : إنما حدث الإرجاء بعد فتنة فرقة ابن الأشعث .

وسئل ميمون بن مهران عن كلام المرجئة فقال : أنا أكبر من ذلك ، وقال سعيد بن جبير لذر الهمدانى : ألا تستحى من رأى أنت أكبر منه ؟ وقال أيوب السختيانى : أنا أكبر من دين المرجئة ، إن أول من تكلم فى الإرجاء رجل من أهل المدينة من بنى هاشم يقال له الحسن ، وقال زاذان : أتينا الحسن بن محمد

فقلنا ما هذا الكتاب الذى وضعت ؟ وكان هو الذى أخرج كتاب المرجئة فقال لى : يا أبا عمر لوددت أنى كنت مت قبل أن أخرج هذا الكتاب أو أضع هذا الكتاب ، فإن الخطأ فى اسم الإيمان ليس كالخطأ فى اسم المحدث ، ولا كالخطأ فى غيره من الأسماء إذ كانت أحكام الدنيا والآخرة متعلقة باسم الإيمان والإسلام والكفر والنفاق .

وأحمد رضى الله عنه فرق بين المعرفة التى فى القلب وبين التصديق الذى فى القلب ، فإن تصديق اللسان هو الإقرار ؛ وقد ذكر ثلاثة أشياء وهذا يحتمل شيئين : يحتمل أن يفرق بين تصديق القلب ومعرفته ، وهذا قول ابن كلاب والقلانسي والأشعرى وأصحابه يفرقون بين معرفة القلب وبين تصديق القلب ، فإن تصديق القلب قوله ، وقول القلب عندهم ليس هو العلم ، بل نوعًا آخر ؛ ولهذا قال أحمد : هل يحتاج إلى المعرفة مع الإقرار ؟ وهل يحتاج إلى أن يكون مصدقًا بما عرف ؟ فإن زعم أنه يحتاج إلى المعرفة مع الإقرار فقد زعم أنه من شيئين ، وإن زعم أنه يحتاج أن يكون مقرًا ومصدقًا بما عرف فهو من ثلاثة أشياء ، فإن جحد وقال لا يحتاج إلى المعرفة والتصديق ، فقد أتى عظيمًا ، ولا أحسب امرءًا يدفع المعرفة والتصديق .

والذين قالوا الإيمان هو الإقرار . فالإقرار باللسان يتضمن التصديق باللسان ، والمرجئة لم تختلف أن الإقرار باللسان فيه التصديق ؛ فعلم أنه أراد تصديق القلب ومعرفته مع الإقرار باللسان إلا أن يقال أراد تصديق القلب واللسان جميعًا مع المعرفة والإقرار ؛ ومراده بالإقرار الالتزام لا التصديق كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِنْ كِتَابٍ وحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُم رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُم لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ولَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُم عَلَى ذٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٨١] فالميثاق المأخوذ على أنهم يؤمنون به وينصرونه وقد أمروا بهذا ، وليس هذا الإقرار تصديقًا ، فإن الله تعالى لم يخبرهم بخبر ؛ بل أوجب عليهم إذا جاءهم ذلك الرسول أن يؤمنوا به وينصروه ، فصدقوا بهذا الإقرار

والتزموه ، فهذا هو إقرارهم ، والإنسان قد يقر للرسول بمعنى أنه يلتزم ما يأمر به مع غير معرفة ، ومن غير تصديق له بأنه رسول الله .

لكن لم يقل أحد من المرجئة إن هذا الإقرار يكون إيمانًا ، بل لابد عندهم من الإقرار الخبرى وهو أنه يقر به بأنه رسول الله كما يقر المقر بما يقر به من الحقوق . ولفظ الإقرار يتناول الالتزام والتصديق ولابد منهما ، وقد يراد بالإقرار مجرد التصديق بدون التزام الطاعة ، والمرجئة تارة يجعلون هذا هو الإيمان ، وتارة يجعلون الإيمان التصديق والالتزام معًا ، هذا هو الإقرار الذى يقوله فقهاء المرجئة إنه إيمان ، وإلا لو قال أنا أطيعه ولا أصدق أنه رسول الله ، أو أصدقه ولا ألتزم طاعته لم يكن مسلمًا ولا مؤمنًا عندهم .

وأحمد قال : لابد مع هذا الإقرار أن يكون مصدقًا وأن يكون عارفًا وأن يكون مصدقًا بما عرف ، وفى رواية أخرى مصدقًا بما أَقَرَّ ، وهذا يقتضى أنه لابد من تصديق باطن ، ويحتمل أن يكون لفظ التصديق عنده يتضمن القول والعمل جميعًا ، كما قد ذكرنا شواهده أنه يقال صدق بالقول والعمل ، فيكون تصديق القلب عنده يتضمن أنه مع معرفة قلبه أنه رسول الله قد خضع له وانقاد ، فصدقه بقول قلبه وعمل قلبه محبة وتعظيمًا وإلا مجرد معرفة قلبه أنه رسول الله مع الإعراض عن الانقياد له ، ولما جاء به إما حسدًا وإما كبرًا ، وإما لمحبة دينه الذى يخالفه ، وإما لغير ذلك فلا يكون إيمانًا ، ولابد فى الإيمان من علم القلب وعمله ، فأراد أحمد بالتصديق أنه مع المعرفة به صار القلب مصدقًا له تابعًا له محبًّا له معظمًا له ، فإن هذا لابد منه ، ومن دفع هذا عن أن يكون من الإيمان فهو من جنس من دفع المعرفة من أن تكون من الإيمان ، وهذا أشبه بأن يحمل عليه كلام أحمد ، لأن وجوب انقياد القلب مع معرفته ظاهر ثابت بدلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة بل ذلك معلوم بالاضطرار من دين الإسلام ، ومن نازع من الجهمية فى أن انقياد القلب من الإيمان فهو كمن نازع من الكرامية فى أن معرفة القلب من الإيمان فكان حمل كلام أحمد على هذا هو المناسب لكلامه فى هذا المقام .

وأيضًا فإن الفرق بين معرفة القلب وبين مجرد تصديق القلب الخالى عن الانقياد الذى يجعل قول القلب أمر دقيق ، وأكثر العقلاء ينكرونه وبتقدير صحته لا يجب على كل أحد أن يوجب شيئين لا يتصور الفرق بينهما ، وأكثر الناس لا يتصورون الفرق بين معرفة القلب وتصديقه ، ويقولون : إن ما قاله ابن كلاب والأشعرى من الفرق كلام باطل لا حقيقة له ، وكثير من أصحابه اعترف بعدم الفرق ، وعمدتهم من الحجة إنما هو خبر الكاذب ، قالوا : ففى قلبه خبر بخلاف علمه ، فدل على الفرق ، فقال لهم الناس ذلك بتقدير خبر وعلم ليس هو علمًا حقيقيًّا ولا خبرًا حقيقيًّا ، وما أثبتوه من قول القلب المخالف للعلم والإرادة إنما يعود إلى تقدير علوم وإرادات لا إلى جنس آخر يخالفها .

ولهذا قالوا إن الإنسان لا يمكنه ان يقوم بقلبه خبر بخلاف علمه ، وإنما يمكنه أن يقول ذلك بلسانه ، وأما أن يقوم بقلبه خبر بخلاف ما يعلمه فهذا غير ممكن ، وهذا مما استدلوا به على أن الرب تعالى لا يتصور قيام الكذب بذاته ، لأنه بكل شىء عليم ، ويمتنع قيام معنى يضاد العلم بذات العالم ، والخبر النفسانى الكاذب يضاد العلم .

فيقال لهم : الخبر النفسانى لو كان خلافًا للعلم لجاز وجود العلم مع ضده ، كما يقولون مثل ذلك فى مواضع كثيرة ، وهى من أقوى الحجج التى يحتج بها القاضى أبو بكر وموافقوه فى مسألة العقل وغيرها كالقاضى أبى يعلى ، وأبى محمد بن اللبان ، وأبى على بن شاذان ، وأبى الطيب ، وأبى الوليد الباجى ، وأبى الخطاب ، وابن عقيل وغيرهم فيقولون : العقل نوع من العلم ، فإنه ليس بضد له ، فإن لم يكن نوعًا منه كان خلافًا له ، ولو كان خلافًا لجاز وجوده مع ضد العقل ، وهذه الحجة وإن كانت ضعيفة كما ضعفه الجمهور ، وأبو المعالى الجوينى ممن ضعفها ، فإن ما كان مستلزمًا لغيره لم يكن ضدًّا له ، إذ قد اجتمعا وليس هو من نوعه ، بل هو خلاف له على هذا الاصطلاح الذى يقسمون فيه كل اثنين إلى أن يكونا مثلين أو خلافين أو ضدين ، فالملزوم كالإرادة مع العلم أو كالعلم مع الحياة ونحو ذلك ليس ضدًا ولا مثلًا ، بل هو خلاف ومع هذا فلا

يجوز وجوده مع ضد اللازم ، فإن ضد اللازم ينافيه ، ووجود الملزوم بدون اللازم محال كوجود الإرادة بدون العلم ، والعلم بدون الحياة ، فهذان خلافان عندهم ولا يجوز وجود أحدهما مع ضد الآخر .

كذلك العلم هو مستلزم للعقل ، فكل عالم عاقل ، والعقل شرط فى العلم ، فليس مثلًا له ولا ضدًّا ولا نوعا منه ، ومع هذا لا يجوز وجوده مع ضد العقل ، لكن هذه الحجة يقال لهم فى العلم مع كلام النفس الذى هو الخبر ، فإنه ليس ضدًّا ولا مثلًا ، بل خلافًا ، فيجوز وجود العلم مع ضد الخبر الصادق ، وهو الكاذب ، فبطل تلك الحجة على امتناع الكذب النفسانى من العالم ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن الإنسان إذا رجع إلى نفسه عسر عليه التفريق بين علمه بأن الرسول صادق ، وبين تصديق قلبه تصديقًا مجرَّدًا عن انقياد وغيره من أعمال القلب بأنه صادق .

ثم احتج الإمام أحمد على أن الأعمال من الإيمان بحجج كثيرة فقال : وقد سأل وفد عبد القيس رسول الله عن الإيمان فقال : « شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا خمسًا من المغنم »[1] فجعل ذلك كله من الإيمان . قال وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « الحياء شعبة من الإيمان » وقال : « أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا » وقال : « إن البذاذة من الإيمان » وقال : « الإيمان بضع وسبعون شعبة فأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، وأرفعها قول لا إلٰه إلا الله » مع أشياء كثيرة منها : « أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » وما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى صفة المنافق : « ثلاث من كن فيه فهو منافق » مع حجج كثيرة ، وما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى تارك الصلاة وعن أصحابه من بعده ، ثم ما وصف الله تعالى فى كتابه من زيادة الإيمان فى غير موضع مثل

---

(١) سبق تخريجه .

قوله : ﴿ هُو الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمانًا مَعَ إِيمَانِهِم ﴾ [سورة الفتح ، الآية : ٤] وقال : ﴿ لِيَسْتَيقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ ويَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمانًا ﴾ [سورة المدثر ، الآية : ٣١] وقال : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ علَيهِم آيَاتُهُ زَادَتْهُم إِيمانًا ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٢] وقال تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ أَيُّكُم زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُم إِيمانًا وهُم يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ١٢٤] وقال : ﴿ إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَم يَرْتَابُوا وجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِم وَأَنْفُسِهِم فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُولٰئِكَ هُم الصَّادِقُون ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ١٥] وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُم ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ٥] وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وأَقَامُوا الصَّلَاةَ وآتَوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُم فِى الدِّينِ ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ١١] وقال : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ويُقِيمُوا الصَّلَاةَ ويُؤْتُوا الزَّكَاةَ وذٰلِكَ دِيْنُ القَيِّمَة ﴾ [سورة البينة ، الآية : ٥] .

قال أحمد : ويلزمه أن يقول هو مؤمن بإقراره ، وإن أقر بالزكاة فى الجملة ولم يجد فى كل مائتى درهم خمسة أنه مؤمن ، فيلزمه أن يقول : إذا أقر ثم شد الزنار فى وسطه ، وصلى للصليب ، وأتى الكنائس والبِيَع ، وعمل الكبائر كلها إلا أنه فى ذلك مقر بالله فيلزمه أن يكون عنده مؤمنًا ، وهذه الأشياء من أشنع ما يلزمهم .

قلت : هذا الذى ذكره الإمام أحمد من أحسن ما احتج به عليهم ، جمع فى ذلك جملًا يقول غيره بعضها ، وهذا الإلزام لا محيد لهم عنه ، ولهذا لما عرف متكلمهم مثل جهم ومن وافقه أنه لازم التزموه ، وقالوا : لو فعل من الأفعال الظاهرة لم يكن بذلك كافرًا فى الباطن ، لكن يكون دليلًا على الكفر فى أحكام الدنيا ، فإذا احتج عليهم بنصوص تقتضى أنه يكون كافرًا فى الآخرة ، قالوا فهذه النصوص تدل على أنه فى الباطن ليس معه من معرفة الله شيء ، فإنها عندهم

شيء واحد ، فخالفوا صريح المعقول وصريح الشرع .

وهذا القول مع فساده عقلًا وشرعًا ، ومع كونه عند التحقيق لا يثبت إيمانًا ، فإنهم جعلوا الإيمان شيئًا واحدًا لا حقيقة له كما قالت الجهمية ومن وافقهم مثل ذلك فى وحدة الرب أنه ذات بلا صفات ، وقالوا بأن القرآن مخلوق ، وأن الله لا يُرى فى الآخرة ، وما يقوله من وحدة الكلام وغيره من الصفات .

فقولهم فى الرب وصفاته وكلامه والإيمان به يرجع إلى تعطيل محض ، وهذا قد وقع فيه طوائف كثيرة من المتأخرين المنتسبين إلى السنَّة والفقه والحديث ، المتبعين للأئمة الأربعة ، المتعصبين للجهمية والمعتزلة ، بل للمرجئة أيضًا ، لكن لعدم معرفتهم بالحقائق التى نشأت منها البدع يجمعون بين الضدين ، ولكن من رحمة الله بعباده المسلمين أن الأئمة الذين لهم فى الأمة لسان صدق : الأئمة الأربعة وغيرهم كمالك والثورى والأوزاعى والليث بن سعد ، وكالشافعى وأحمد وإسحق وأبى عبيد وأبى حنيفة وأبى يوسف ومحمد ، كانوا ينكرون على أهل الكلام من الجهمية قولهم فى القرآن والإيمان وصفات الرب . وكانوا متفقين على ما كان عليه السلف من أن الله يُرى فى الآخرة ، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن الإيمان لابد فيه من تصديق القلب واللسان ، فلو شتم الله ورسوله كان كافرًا باطنًا وظاهرًا عندهم كلهم ، ومن كان موافقًا لقول جهم فى الإيمان بسبب انتصار أبى الحسن لقوله فى الإيمان يبقى تارة ، يقول بقول السلف والأئمة ، وتارة يقول بقول المتكلمين الموافقين لجهم ، حتى فى مسألة سب الله ورسوله ، رأيت طائفة من الحنبليين والشافعيين والمالكيين إذا تكلموا بكلام الأئمة قالوا : إن هذا كفر باطنًا وظاهرًا ، وإذا تكلموا بكلام أولئك قالوا هذا كفر فى الظاهر ، وهو فى الباطن يجوز أن يكون مؤمنًا تام الإيمان ، فإن الإيمان عندهم لا يتبعض ، ولهذا لما عرف القاضى عياض هذا من قول بعض أصحابه أنكره ونصر قول مالك وأهل السنة وأحسن فى ذلك .

وقد ذكرت بعض ما يتعلق بهذا فى كتاب « الصارم المسلول على شاتم الرسول » وكذلك تجدهم فى مسائل الإيمان يذكرون أقوال الأئمة والسلف ،

ويبحثون بحثًا يناسب قول الجهمية ؛ لأن البحث أخذوه من كتب أهل الكلام الذين نصروا قول جهم فى مسائل الإيمان .

والرازى لما صنف مناقب الشافعى ذكر قوله فى الإيمان . وقول الشافعى قول الصحابة والتابعين ، وقد ذكر الشافعى أنه إجماع من الصحابة والتابعين ، ومن لقيه استشكل قول الشافعى جدًا ، لأنه كان قد انعقد فى نفسه شبهة أهل البدع فى الإيمان من الخوارج والمعتزلة والجهمية والكرامية وسائر المرجئة ، وهو أن الشيء المركب إذا زال بعض أجزائه لزم زواله كله ، لكن هو لم يذكر إلا ظاهر شبهتهم ، والجواب عما ذكروه هو سهل ، فإنه يسلم له أن الهيئة الاجتماعية لم تبق مجتمعة كما كانت لكن لا يلزم من زوال بعضها زوال سائر الأجزاء .

والشافعى مع الصحابة والتابعين وسائر السلف يقولون : إن الذنب يقدح فى كمال الإيمان ، ولهذا نفى الشارع الإيمان عن هؤلاء ، فذلك المجموع الذى هو الإيمان لم يبق مجموعًا مع الذنوب ، لكن يقولون بقى بعضه ، إما أصله وإما أكثره وإما غير ذلك ، فيعود الكلام إلى أنه يذهب بعضه ويبقى بعضه .

ولهذا كانت المرجئة تنفر من لفظ النقص أعظم من نفورها من لفظ الزيادة ، لأنه إذا نقص لزم ذهابه كله عندهم إن كان متبعضًا متعددًا عند من يقول بذلك ، وهم الخوارج والمعتزلة ، وأما الجهمية فهو واحد عندهم لا يقبل التعدد ، فيثبتون واحدًا لا حقيقة له ، كما قالوا مثل ذلك فى وحدانية الرب ووحدانية صفاته عند من أثبتها منهم .

ومن العجب أن الأصل الذى أوقعهم فى هذا اعتقادهم أنه لا يجتمع فى الإنسان بعض الإيمان وبعض الكفر ، أو ما هو إيمان وما هو كفر ، واعتقدوا أن هذا متفق عليه بين المسلمين كما ذكر ذلك أبو الحسن وغيره ، فلأجل اعتقادهم هذا الإجماع وقعوا فيما هو مخالف للإجماع الحقيقى ، إجماع السلف الذى ذكره غير واحد من الأئمة ، بل صرح غير واحد منهم بكفر من قال بقول جهم فى الإيمان .

ولهذا نظائر متعددة ، يقول الإنسان قولا مخالفًا للنص والإجماع القديم حقيقة ،

ويكون معتقدًا أنه متمسك بالنص والإجماع ، وهذا إذا كان مبلغ علمه واجتهاده ، فالله يثيبه على ما أطاع الله فيه من اجتهاده ، ويغفر له ما عجز عن معرفته من الصواب الباطن ، وهم لما توهموا أن الإيمان الواجب على جميع الناس نوع واحد ، صار بعضهم يظن أن ذلك النوع من حيث هو ، لا يقبل التفاضل ، فقال لى مرة بعضهم : الإيمان من حيث هو إيمان لا يقبل التفاضل ، فقال لى مرة بعضهم : الإيمان من حيث هو إيمان لا يقبل الزيادة والنقصان . فقلت له : قولك من حيث هو كمن يقول الإنسان من حيث هو إنسان ، والحيوان من حيث هو حيوان ، والوجود من حيث هو وجود ، والسواد من حيث هو سواد ، وأمثال ذلك لا يقبل الزيادة والنقصان ، فيثبت لهذه المسميات وجودًا مطلقًا مجردًا عن جميع القيود والصفات ، وهذا لا حقيقة له فى الخارج ، وإنما هو شيء يقدره الإنسان فى ذهنه كما يقدر موجودًا لا قديمًا ولا حادثًا ولا قائمًا بنفسه ولا بغيره ، ويقدر إنسانًا لا موجودًا ولا معدومًا ، ويقول الماهية من حيث هى هى لا توصف بوجود ولا عدم ، والماهية من حيث هى شيء يقدره الذهن وذلك موجود فى الذهن لا فى الخارج ، وأما تقدير شيء لا يكون فى الذهن ولا فى الخارج ممتنع ، وهذا التقدير لا يكون إلا فى الذهن كسائر تقدير الأمور الممتنعة ، مثل تقدير صدور العالم عن صانعين ونحو ذلك ، فإن هذه المقدرات فى الذهن .

فهكذا تقدير إيمان لا يتصف به مؤمن بل هو مجرد عن كل قيد ، وتقدير إنسان لا يكون موجودًا ولا معدومًا ، بل ما ثم إيمان إلا مع المؤمنين ولا ثم إنسانية إلا ما اتصف بها الإنسان ، فكل إنسان له إنسانية تخصه ، وكل مؤمن له إيمان يخصه ، فإنسانية زيد تشبه إنسانية عمرو ، ليست هى هى ، وإذا اشتركوا فى نوع الإنسانية فمعنى ذلك أنهما يشتبهان فيما يوجد فى الخارج ويشتركان فى أمر كلى مطلق يكون فى الذهن .

وكذلك إذا قيل إيمان زيد مثل إيمان عمرو ، فإيمان كل واحد يخصه ، فلو قدر أن الإيمان يتماثل لكان لكل مؤمن إيمان يخصه ، وذلك الإيمان مختص معين ، ليس هو الإيمان من حيث هو هو ، بل هو إيمان معين وذلك الإيمان يقبل الزيادة ،

والذين ينفون التفاضل فى هذه الأمور يتصورون فى أنفسهم إيمانًا مطلقًا أو إنسانًا مطلقًا أو وجود مطلقًا مجردًا عن جميع الصفات المعينة له ، ثم يظنون أن هذا هو الإيمان الموجود فى الناس ، وذلك لا يقبل التفاضل ، ولا يقبل فى نفسه التعدد إذ هو تصور معين قائم فى نفس متصوره . ولهذا يظن كثير من هؤلاء أن الأمور المشتركة فى شيء واحد هى واحدة بالشخص والعين ، حتى انتهى الأمر بطائفة من علمائهم علمًا وعبادة إلى أن جعلوا الوجود كذلك ، فتصوروا أن الموجودات مشتركة فى مسمى الوجود ، وتصوروا هذا فى أنفسهم فظنوه فى الخارج كما هو فى أنفسهم ؛ ثم ظنوا أنه الله فجعلوا الرب هو هذا الوجود الذى لا يوجد قط إلا فى نفس متصوره ، ولا يكون فى الخارج ، وهكذا كثير من الفلاسفة تصوروا أعدادًا مجردة وحقائق مجردة ويسمونها المثل الأفلاطونية ، وزمانًا مجردًا عن الحركة والمتحرك ، وبعدا مجردًا عن الأجسام وصفاتها ، ثم ظنوا وجود ذلك فى الخارج ، وهؤلاء كلهم اشتبه عليهم ما فى الأذهان بما فى الأعيان ، وهؤلاء قد يجعلون الواحد اثنين ، والاثنين واحدًا ، فتارة يجيئون إلى الأمور المتعددة المتفاضلة فى الخارج فيجعلونها واحدة أو متماثلة ، وتارة يجيئون إلى ما فى الخارج من الحيوان والمكان والزمان فيجعلون الواحد اثنين ، والمتفلسفة والجهمية وقعوا فى هذا وهذا ، فجاءوا إلى صفات الرب التى هى أنه عالم وقادر ، فجعلوا هذه الصفة هى عين الأخرى ، وجعلوا الصفة هى الموصوفة .

وهكذا القائلون بأن الإيمان شيء واحد وأنه متماثل فى بنى آدم غلطوا فى كونه واحدًا ، وفى كونه متماثلًا ، كما غلطوا فى أمثال ذلك من مسائل التوحيد والصفات والقرآن ونحو ذلك ، فكان غلط جهم وأتباعه فى الإيمان كغلطهم فى الرب الذى يؤمن به المؤمنون ، وفى كلامه وصفاته ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا ، وكذلك السواد والبياض يقبل الاشتداد والضعف ، بل عامة الصفات التى يتصف بها الموصوف تقبل التفاضل ، ولهذا كان العقل يقبل التفاضل ، والإيجاب والتحريم يقبل التفاضل ، فيكون إيجاب أقوى من إيجاب وتحريم أقوى من تحريم وكذلك المعرفة التى فى القلوب تقبل التفاضل على الصحيح عند أهل

السنة ، وفى هذا كله نزاع ، فطائفة من المنتسبين إلى السنة تنكر التفاضل فى هذا كله كما يختار ذلك القاضى أبو بكر وابن عقيل وغيرهما .

وقد حكى عن أحمد فى التفاضل فى المعرفة روايتان ، وإنكار التفاضل فى هذه هى من جنس أصل قول المرجئة ، ولكن يقوله من يخالف المرجئة ، وهؤلاء يقولون التفاضل إنما هو فى الأعمال ، وأما الإيمان الذى هو فى القلوب فلا يتفاضل ، وليس الأمر كما قالوه ، بل جميع ذلك يتفاضل وقد يقولون إن أعمال القلوب تتفاضل بخلاف معارف القلب ، وليس الأمر كذلك ، بل إيمان القلوب يتفاضل من جهة ما وجب على هذا ، ومن جهة ما وجب على هذا ، فلا يستوون فى الوجوب ، وأمة محمد وإن وجب عليهم جميعهم الإيمان بعد استقرار الشرع ، فوجوب الإيمان بالشىء المعين موقوف على أن يبلغ العبد إن كان خبرًا ، وعلى أن يحتاج إلى العمل به إن كان أمرًا ، وعلى العلم إن كان علمًا ، وإلا فلا يجب على كل مسلم أن يعرف كل خبر وكل أمر فى الكتاب والسنة ويعرف معناه ويعلمه ، فإن هذا لا يقدر عليه أحد ، فالوجوب مما يتنوع الناس فيه ، ثم قُدرَهم فى أداء الواجب متفاوتة . ثم نفس المعرفة تختلف بالإجمال والتفصيل ، والقوة والضعف ، ودوام الحضور ومع الغفلة ، فليست المفصلة المستحضرة الثابتة التى يثبت الله صاحبها بالقول الثابت كالجملة التى غفل عنها ، وإذا حصل له ما يريبه فيها وذكرها فى قلبه ثم رغب إلى الله فى كشف الريب ، ثم أحوال القلوب وأعمالها مثل محبة الله ورسوله ، وخشية الله والتوكل عليه ، والصبر على حكمه والشكر له والإنابة إليه ، وإخلاص العمل مما يتفاضل الناس فيها تفاضلًا لا يعرف قدره إلا الله عز وجل ، ومن أنكر تفاضلهم فى هذا فهو إما جاهل لم يتصوره وإما معاند .

قال الإمام أحمد : فإن زعموا أنهم لا يقبلون زيادة الإيمان من أجل أنهم لا يدرون ما زيادته ، وأنها غير محدودة ، فما يقولون فى أنبياء الله وكتبه ورسله هل يقرون بهم فى الجملة ، ويزعمون أنه من الإيمان ؟ فإذا قالوا نعم ، قيل لهم هل تجدونهم وتعرفون عددهم ، أليس إنما يصيرون فى ذلك إلى الإقرار بهم فى

الجملة ثم يكفون عن عددهم ، فكذلك زيادة الإيمان . وبين أحمد أن كونهم لم يعرفوا منتهى زيادته لا يمنعهم من الإقرار بها فى الجملة ، كما أنهم يؤمنون بالأنبياء والكتب وهم لا يعرفون عدد الكتب والرسل .

وهذا الذى ذكره أحمد وذكره محمد بن نصر وغيرهما يبين أنهم لم يعلموا عدد الكتب والرسل ، وأن حديث أبى ذر فى ذلك لم يثبت عندهم .

وأما قول من سوى بين الإسلام والإيمان وقال : إن الله سمى الإيمان بما سمى به الإسلام ، وسمى الإسلام به سمى الإيمان ، فليس كذلك فإن الله ورسوله قد فسر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبين أيضًا أن العمل بما أمر يدخل فى الإيمان ، ولم يسم الله الإيمان بملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت إسلامًا ، بل إنما سمى الإسلام الاستسلام له بقلبه وقصده وإخلاص الدين والعمل بما أمر به كالصلاة والزكاة خالصًا لوجهه ، فهذا هو الذى سماه الله إسلامًا وجعله دينًا وقال : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٨٥] ولم يدخل فيما خص به الإيمان وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، بل ولا أعمال القلوب ، مثل حب الله ورسله ونحو ذلك ، فإن هذه جعلها من الإيمان ، والمسلم المؤمن يتصف بها وليس إذا اتصف بها المسلم المؤمن يلزم أن تكون من الإسلام ، بل هى من الإيمان ، والإسلام فرض ، والإيمان فرض ، والإسلام داخل فيه ، فمن أتى بالإيمان الذى أمر به فلابد أن يكون قد أتى بالإسلام المتناول لجميع الأعمال الواجبة ، ومن اتى بما سمى إسلامًا لم يلزم أن يكون قد أتى بالإيمان إلا بدليل منفصل ؛ كما علم أن من أثنى الله عليه بالإسلام من الأنبياء وأتباعهم إلى الحواريين كلهم كانوا مؤمنين ، كما كانوا مسلمين كما قال الحواريون : ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٥٢] وقال : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ١١١] ولهذا أمرنا الله بهذا وبهذا فى خطاب واحد كما قال : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

والأَسْباطِ وما أُوْتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وما أُوتِيَ النَّبيُّونَ مِنْ ربِّهم لا نُفرِّقُ بيْنَ أحدٍ منْهُم ونحْنُ لهُ مسْلِمونَ * فإنْ آمنُوا بمثْلِ ما آمنْتُم بِهِ فَقدِ اهْتَدوْا وإنْ تولَّوْا فإنَّما هُم فى شِقَاقٍ فسَيَكفِيكَهُمُ اللَّهُ وهُو السَّميعُ العَلِيمُ ﴾ [سورة البقرة ، الآيتان : ١٣٦ ، ١٣٧] وقال فى الآية الأخرى : ﴿ ومَنْ يبتغِ غَيْرَ الإسْلَامِ دينًا فلنْ يُقْبلَ مِنْهُ وهُو فى الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرِينَ ﴾ .

وهذا يقتضى أن كل من دان بغير دين الإسلام فعمله مردود ، وهو خاسر فى الآخرة ، فيقتضى وجوب دين الإسلام وبطلان ما سواه ، لا يقتضى أن مسمى الدين هو مسمى الإيمان ، بل أمرنا أن نقول آمنا بالله ، وأمرنا أن نقول ونحن له مسلمون ؛ فأمرنا باثنين ، فكيف نجعلهما واحدًا ؟

وإذا جعلوا الإسلام والإيمان شيئًا واحدًا ، فإما أن يقولوا اللفظ مترادف فيكون هذا تكريرًا محضًا ، ثم مدلول هذا اللفظ غير مدلول هذا اللفظ ، وإما أن يقولوا بل أحد اللفظين يدل على صفة غير الصفة الأخرى ، كما فى أسماء الله وأسماء كتابه ، لكن هذا لا يقتضى الأمر بهما جميعًا ، ولكن يقتضى أن يذكر تارة بهذا الوصف ، وتارة بهذا الوصف ؛ فلا يقول قائل قد فرض الله عليك الصلوات الخمس ، والصلاة المكتوبة ، وهذا هو هذا ، والعطف بالصفات يكون إذا قصد بيان الصفات لما فيها من المدح أو الذم كقوله : ﴿ سبِّح اسْمَ رَبِّكَ الأعْلَى * الَّذِى خَلَقَ فَسوَّى * والَّذِىْ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [سورة الأعلى ، الآيات : ١ - ٣] لا يقال صل لربكَ الأعلى وربك الذى خلق فسوى .

وقال محمد بن نصر المروزى رحمه الله : فقد بين الله فى كتابه وسنة رسوله أن الإسلام والإيمان لا يفترقان ، فمن صدق بالله فقد آمن به ، ومن آمن بالله فقد خضع له ، وقد أسلم له ؛ ومن صام وصلى وقام بفرائض الله وانتهى عما نهى الله عنه فقد استكمل الإيمان والإسلام المفترض عليه ، ومن ترك من ذلك شيئًا فلن يزول عنه اسم الإيمان والإسلام إلا أنه أنقص من غيره فى الإسلام والإيمان من غير نقصان من الإقرار بأن الله حق وما قال حق لا باطل ، وصدق لا كذب ؛ ولكن ينقص الإيمان الذى هو تعظيم لله وخضوع للهيبة والجلال والطاعة للمصدق

به وهو الله ، فمن ذلك يكون النقصان لا من إقرارهم بأن الله حق ، وما قال صدق .

فيقال : ما ذكره يدل على أن من أتى بالإيمان الواجب فقد أتى بالإسلام ، ولكن هذا ليس فيه ما يدل على أن من أتى بالإسلام الواجب فقد أتى بالإيمان ، فقوله من آمن بالله فقد خضع له وقد استسلم له حق لكن أى شيء فى هذا يدل على أن من أسلم لله وخضع له فقد آمن به وبملائكته وبكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت ، وقوله إن الله ورسوله قد بَيَّنَ أن الإسلام والإيمان لا يفترقان ، إن أراد أن الله أوجبهما جميعًا ونهى عن التفريق بينهما فهذا حق ؛ وإن أراد أن الله جعل مسمى هذا مسمى هذا ، فنصوص الكتاب والسنة تخالف ذلك ، وما ذكر قط نصًّا واحدًا يدل على اتفاق المسميين .

وكذلك قوله : من فعل ما أمر به وانتهى عما نهى عنه استكمل الإيمان والإسلام ، فهذا صحيح إذا فعل ما أمر به باطنًا وظاهرًا ويكون قد استكمل الإيمان والإسلام الواجب عليه ، ولا يلزم أن يكون إيمانه وإسلامه مساويًا للإيمان والإسلام الذى فعله أولو العزم من الرسل كالخليل إبراهيم ومحمد خاتم النبيين عليهما الصلاة والسلام ، بل كان معه من الإيمان والإسلام ما لا يقدر عليه غيره ، ولم يؤمر به .

وقوله : من ترك من ذلك شيئًا فلن يزول عنه اسم الإسلام والإيمان إلا أنه أنقص من غيره فى ذلك . فيقال إن أريد بذلك أنه بقى معه شيء من الإسلام والإيمان ، فهذا حق كما دلت عليه النصوص ؛ خلافًا للخوارج والمعتزلة ؛ وإن أراد أنه يطلق عليه بلا تقييد مؤمن ومسلم فى سياق الثناء والوعد بالجنة ؛ فهذا خلاف الكتاب والسنة ، ولو كان كذلك لدخلوا فى قوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ المؤْمِنينَ والمؤْمناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِها الأنْهارُ ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ٧٢] وأمثال ذلك مما وعدوا فيه بالجنة بلا عذاب .

وأيضًا فصاحب الشرع قد نفى عنهم الاسم فى غير موضع ، بل قال : « قتال المؤمن كفر » وقال : « لا ترجعوا بعدى كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض »

وإذا احتج بقوله : ﴿ وإنْ طائِفَتانِ منَ المؤْمِنينَ اقْتتَلُوا ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ٩] .

ونحو ذلك قبل هؤلاء إنما سموا به مع التقييد بأنهم فعلوا هذه الأمور ليذكر ما يؤمرون به هم وما يؤمر به غيرهم .

وكذلك قوله : لا يكون النقصان من إقرارهم بأن الله حق وما قاله صدق ، فيقال بل النقصان يكون فى الإيمان الذى فى القلوب من معرفتهم ومن عملهم ، فلا تكون معرفتهم وتصديقهم بالله وأسمائه وصفاته وما قاله من أمر ونهى ، ووعد ووعيد ، كمعرفة غيرهم وتصديقه لا من جهة الإجمال والتفصيل ، ولا من جهة القوة والضعف ، ولا من جهة الذكر والغفلة ، وهذه الأمور كلها داخلة فى الإيمان بالله وما أرسل به رسوله ، وكيف يكون الإيمان بالله وأسمائه وصفاته متماثلا فى القلوب ؛ أم كيف يكون الإيمان بأنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وأنه غفور رحيم ، عزيز حكيم ، شديد العقاب ، ليس هو من الإيمان به ؛ فلا يكون مسلمًا من يقول إن الإيمان بذلك ليس من الإيمان به ، و لا يدعى تماثل الناس فيه .

وأما ما ذكره من أن الإسلام ينقص كما ينقص الإيمان ، فهذا أيضًا حق كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة ، فإن من نقص من الصلاة والزكاة أو الصوم أو الحج شيئًا فقد نقص من إسلامه بحسب ذلك ، ومن قال إن الإسلام هو الكلمة فقط ، وأراد بذلك أنه لا يزيد ولا ينقص فقوله خطأ ، ورد الذين جعلوا الإسلام والإيمان سواء إنما يتوجه على هؤلاء ، فإن قولهم فى الإسلام يشبه قول المرجئة فى الإيمان .

ولهذا صار الناس فى الإيمان والإسلام على ثلاثة أقوال : فالمرجئة يقولون الإسلام أفضل فإنه يدخل فيه الإيمان ، وآخرون يقولون الإيمان والإسلام سواء وهم المعتزلة والخوارج ، وطائفة من أهل الحديث والسنة ، وحكاه محمد بن نصر عن جمهورهم ، وليس كذلك ، والقول الثالث أن الإيمان أكمل وأفضل ، وهذا هو الذى دل عليه الكتاب والسنة فى غير موضع وهو المأثور عن الصحابة

والتابعين لهم بإحسان .

ثم هؤلاء منهم من يقول الإسلام مجرد القول ، والأعمال ليست من الإسلام ؛ والصحيح أن الإسلام هو الأعمال الظاهرة كلها ، وأحمد إنما منع الاستثناء فيه على قول الزهرى هو الكلمة ، وهكذا نقل الأثرم والميمونى وغيرهما عنه ؛ وأما على جوابه للآخر الذى لم يختر فيه قول من قال الإسلام الكلمة ، فيستثنى فى الإيمان . فإن الإنسان لا يجزم بأنه قد فعل كل ما أمر به من الإسلام ، وإذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، وبنى الإسلام على خمس » فجزمه بأنه فعل الخمس بلا نقص كما أمر كجزمه بإيمانه فقد قال تعالى : ﴿ ادْخُلوا فى السِّلْم كافَّةً ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٠٨] أى الإسلام كافة أى فى جميع شرائع الإسلام .

وتعليل أحمد وغيره من السلف ما ذكروه فى اسم الإيمان يجىء فى اسم الإسلام ، فإذا أريد بالإسلام الكلمة فلا استثناء فيه كما نص عليه أحمد وغيره ؛ وإذا أريد به فعل الواجبات الظاهرة كلها فالاستثناء فيه كالاستثناء فى الإيمان ، ولما كان كل من أتى بالشهادتين صار مسلمًا متميزًا عن اليهود والنصارى تجرى عليه أحكام الإسلام التى تجرى على المسلمين كان هذا مما يجزم به بلا استثناء فيه ؛ فلهذا قال الزهرى : « الإسلام الكلمة » وعلى ذلك وافقه أحمد وغيره ؛ وحين وافقه لم يرد أن الإسلام الواجب هو الكلمة وحدها ، فإن الزهرى أجل من أن يخفى عليه ذلك ؛ ولهذا أحمد لم يجب بهذا فى جوابه الثانى ، خوفًا من أن يظن أن الإسلام ليس هو إلا الكلمة ، وهذا ما قال الأثرم لأحمد : فإذا قال أنا مسلم فلا يستثنى ، قال : نعم لا يستثنى إذا قال أنا مسلم ، قال فقلت له : أقول هذا مسلم وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » وأنا أعلم أنه لا يسلم الناس منه ؟ فذكر حديث معمر عن الزهرى ، قال : فنرى أن الإسلام الكلمة والإيمان العمل .

فبين أحمد أن الإسلام إذا كان الكلمة فلا استثناء فيه ، فحيث كان هو المفهوم من لفظ الإسلام فلا استثناء فيه ، ولو أريد بالإيمان هذا كما يراد ذلك فى مثل

قوله : ﴿ فَتَحْرِيْرُ رقبةٍ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٩٢] إنما أريد من أظهر الإسلام ، فإن الإيمان الذى علقت به أحكام الدنيا هو الإيمان الظاهر وهو الإسلام ، فالمسمى واحد فى الأحكام الظاهرة . ولهذا لما ذكر الأثرم لأحمد احتجاج المرجئة بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « أعتقها فإنها مؤمنة » أجابه بأن المراد حكمها فى الدنيا حكم المؤمنة ؛ لم يرد أنها مؤمنة عند الله تستحق دخول الجنة بلا نار إذا لقيته بمجرد هذا الإقرار ، وهذا هو المؤمن المطلق فى كتاب الله وهو الموعود بالجنة بلا نار إذا مات على إيمانه ، ولهذا كان ابن مسعود وغيره من السلف يلزمون من شهد لنفسه بالإيمان أن يشهد لها بالجنة : يعنون إذا مات على ذلك ، فإنه قد عرف أن الجنة لا يدخلها إلا من مات مؤمنًا .

فإذا قال الإنسان أنا مؤمن قطعًا وأنا مؤمن عند الله ، قيل له فاقطع بأنك تدخل الجنة بلا عذاب إذا مت على هذا الحال ، فإن الله أخبر أن المؤمنين فى الجنة ، وأنكر أحمد بن حنبل حديث ابن عميرة أن عبد الله رجع عن الاستثناء ؛ فإن ابن مسعود لما قيل له إن قومًا يقولون إنا مؤمنون فقال أفلا سألتموهم أفى الجنة هم ؟ وفى رواية أفلا قالوا نحن أهل الجنة ؛ وفى رواية قيل له إن هذا يزعم أنه مؤمن قال فاسألوه أفى الجنة أو فى النار ؟ فسألوه فقال : الله أعلم ، فقال له عبد الله فهلا وكلت الأولى كما وكلت الثانية ؟ من قال أنا مؤمن فهو كافر ، ومن قال أنا عالم فهو جاهل . ، ومن قال هو فى الجنة فهو فى النار ، يروى عن عمر بن الخطاب من وجوه مرسلًا من حديث قتادة ونعيم بن أبى هند وغيرهما .

والسؤال الذى تورده المرجئة على ابن مسعود ويقولون إن يزيد بن عميرة أورده عليه حتى رجع ، جعل هذا أن الإنسان يعلم حاله الآن وما يدرى ماذا يموت عليه ، وهذا السؤال صار طائفة كثيرة يقولون المؤمن هو من سبق فى علم الله أنه يختم له بالإيمان ، والكافر من سبق فى علم الله أنه كافر وأنه لا اعتبار بما كان قبل ذلك ، وعلى هذا يجعلون الاستثناء ، وهذا أحد قولى الناس من أصحاب أحمد وغيرهم ، وهو قول أبى الحسن وأصحابه .

ولكن أحمد وغيره من السلف لم يكن هذا مقصودهم ؛ وإنما مقصودهم أن الإيمان المطلق يتضمن فعل المأمورات ، فقوله أنا مؤمن كقوله أنا ولى الله ، وأنا مؤمن تقى ، وأنا من الأبرار ، ونحو ذلك ؛ وابن مسعود رضى الله عنه لم يكن يخفى عليه أن الجنة لا تكون إلا لمن مات مؤمنًا ، وأن الإنسان لا يعلم على ماذا يموت ، فإن ابن مسعود أجل قدرًا من هذا ، وإنما أراد : سلوه هل هو فى الجنة إن مات على هذه الحال ؟ كأنه قال سلوه أيكون من أهل الجنة على هذه الحال ؟ فلما قال : الله ورسوله أعلم ؛ قال : أفلا وكلت الأولى كما وكلت الثانية ؛ يقول : هذا التوقيف يدل على ألا تشهد لنفسك بفعل الواجبات وترك المحرمات ، فإنه من شهد لنفسه بذلك شهد لنفسه أنه من أهل الجنة إن مات على ذلك ، ولهذا صار الذين لا يرون الاستثناء لأجل الحال الحاضر بل للموافاة لا يقطعون بأن الله لا يقبل توبة تائب كما لا يقطعون بأن الله تعالى يعاقب مذنبًا ، فإنهم لو قطعوا بقبول توبته لزمهم ان يقطعوا له بالجنة وهم لا يقطعون لأحد من أهل القبلة لا بجنة ولا نار ؛ إلا من قطع له النص .

وإذا قيل الجنة هى لمن أتى التوبة النصوح من جميع السيئات ، قالوا : ولو مات على هذه التوبة لم نقطع له بالجنة وهم لا يستثنون فى الأحوال ، بل يجزمون بأن المؤمن تام الإيمان ، ولكن عندهم الإيمان عند الله هو ما يوافى به ، فمن قطعوا له بأنه مات مؤمنًا لا ذنب له قطعوا له بالجنة فلهذا لا يقطعون بقبول التوبة لئلا يلزمهم أن يقطعوا بالجنة ، وأما أئمة السلف فإنما لم يقطعوا بالجنة لأنهم لا يقطعون بأنه فعل المأمور وترك المحظور ، ولا أتى بالتوبة النصوح ؛ وإلا فهم يقطعون بأن من تاب توبة نصوحًا قبل الله توبته .

وإجماع الأئمة أن الاسم الواحد ينفى ويثبت بحسب الأحكام المتعلقة به ، فلا يجب إذا أثبت أو نفى فى حكم أن يكون كذلك فى سائر الأحكام وهذا فى كلام العرب وسائر الأمم ، لأن المعنى مفهوم ؛ مثال ذلك المنافقين قد يجعلون من المؤمنين فى موضع ؛ وفى موضع آخر يقال ما هم منهم ، قال الله تعالى :
﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ

الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُم فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُم كَالَّذِى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُم وكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب ، الآيات : ١٨ ، ١٩] فهنالك جعل هؤلاء المنافقين الخائفين من العدو الناكلين عن الجهاد ، الناهين لغيرهم ، الذامين للمؤمنين منهم ، وقال فى آية أخرى : ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُم وَمَا هُمْ مِنْكُم ولَٰكِنَّهُم قَومٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيهِ وهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [سورة التوبة ، الآيات : ٥٦ — ٥٧] وهؤلاء ذنبهم أخف ؛ فإنهم لم يؤذوا المؤمنين لا بنهى ولا سلق بألسنة حداد ، ولكن حلفوا بالله إنهم من المؤمنين فى الباطن بقلوبهم ؛ وإلا فقد علم المؤمنون أنهم منهم فى الظاهر ، فكذبهم الله وقال : ﴿ وَمَا هُمْ مِنْكُم ﴾ وهناك قال : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُم ﴾ فالخطاب لمن كان فى الظاهر مسلمًا مؤمنًا بأن منكم من هو بهذه الصفة ، وليس مؤمنًا بل أحبط الله عمله فهو منكم فى الظاهر لا الباطن .

ولهذا لما استؤذن النبى صلى الله عليه وسلم فى قتل بعض المنافقين قال : « لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه »[1] فإنهم من أصحابه فى الظاهر عند من لا يعرف حقائق الأمور ، وأصحابه الذين هم أصحابه ليس فيهم نفاق كالذين علَّموا سنته الناس وبلَّغوها إليهم وقاتلوا المرتدين بعد موته ، والذين بايعوه تحت الشجرة وأهل بدر وغيرهم ، بل الذين كانوا منافقين غمار من الناس .

وكذلك الأنساب مثل كون الإنسان أبًا لآخر أو أخاه يثبت فى بعض الأحكام دون بعض ؛ فإنه قد ثبت فى الصحيحين أنه لما اختصم إلى النبى صلى الله عليه وسلم.سعد بن أبى وقاص وعبد بن زمعة بن الأسود فى ابن وليدة زمعة ، وكان عتبة بن أبى وقاص قد فجر بها فى الجاهلية وولدت منه ولدًا ، فقال عتبة لأخيه

---

(١) أخرجه البخارى (حـ ٦ / ٣٥١٨) وغيره .

سعد : إذا قدمت مكة فانظر ابن وليدة زمعة فإنه ابنى فاختصم فيه هو وعبد بن زمعة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال سعد : يا رسول الله ابن أخى عتبة عهد إلَّى أخى عتبة فيه إذا قدمت مكة أنظر إلى ابن وليدة زمعة فإنه ابنى ، ألا ترى يا رسول الله شبهه بعتبة ؟ فقال عبد : يا رسول الله أخى وابن وليدة أبى ، ولد على فراش أبى ، فرأى النبى صلى الله عليه وسلم شبهًا بيِّنًا بعتبة فقال : « هو لك يا عبد بن زمعة ؛ الولد للفراش وللعاهر الحَجَر ، واحتجبى منه يا سودة »[1] لما رأى من شبهه البيِّن بعتبة فقد جعله النبى صلى الله عليه وسلم ابن زمعة لأنه ولد على فراشه ، وجعله أخًا لولده بقوله : « فهو لك يا عبد بن زمعة » وقد صارت سودة أخته يرثها وترثه ، لأنه ابن أبيها زمعة ولد على فراشه ، ومع هذا فأمرها النبى صلى الله عليه وسلم أن تحتجب منه لما رأى من شبهه البيِّن بعتبة ، فإنه قام فيه دليلان متعارضان : الفراش والشبه ، والنسب فى الظاهر لصاحب الفراش أقوى ، ولأنها أمر ظاهر مباح ، والفجور أمر باطن لا يعلم ويجب ستره لا إظهاره كما قال : « للعاهر الحَجَر » كما يقال بفيك الكثكث ، وبفيك الأثلب ، أى عليك أن تسكت عن إظهار الفجور ، فإن الله يبغض ذلك ، ولما كان احتجابها منه ممكنًا من غير ضرر أمرها بالاحتجاب لما ظهر من الدلالة على أنه ليس أخاها فى الباطن .

فتبين أن الاسم الواحد ينفى فى حكم ويثبت فى حكم ، فهو أخ فى الميراث وليس بأخ فى المحرمية ، وكذلك ولد الزنى عند بعض العلماء والملاعنة عند الجميع إلا من شذ ، ليس ولد فى الميراث ونحوه ، وهو ولد فى تحريم النكاح والمحرمية .

ولفظ النكاح وغيره فى الأمر يتناول الكامل وهو العقد والوطء كما فى قوله : ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٣] وقوله : ﴿ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٣٠] وفى النهى يعم الناقص والكامل ، فينهى عن العقد منفردًا وإن لم يكن وطء كقوله :

---

(١) أخرجه البخارى (حـ٥ / ٢٧٤٥) ، ومسلم (حـ٢ ــ رضاع / ٣٦) .

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٢٢] وهذا لأن الأمر مقصوده تحصيل المصلحة ، وتحصيل المصلحة إنما يكون بالدخول كما لو قال اشتر لى طعامًا ، فالمقصود ما لا يحصل إلا بالشراء والقبض ، والناهى مقصوده دفع المفسدة فيدفع كل جزء منه ؛ لأن وجوده مفسدة ، وكذلك النسب والميراث معلق بالكامل منه ، والتحريم معلق بأدنى سبب حتى الرضاع .

وكذلك كل ما يكون له مبتدأ وكمال ينفى تارة باعتبار انتفاء كماله ، ويثبت تارة باعتبار ثبوت مبدئه ، فلفظ الرجال يعم الذكور وإن كانوا صغارًا فى مثل قوله : ﴿ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١٧٦] ولا يعم الصغار فى مثل قوله : ﴿ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٧٥] فإن باب الهجرة والجهاد عمل يعمله القادرون عليه ، فلو اقتصر على ذكر المستضعفين من الرجال لظن أن الولدان غير داخلين لأنهم ليسوا من أهله وهم ضعفاء ، فذكرهم بالاسم الخاص ليتبين عذرهم فى ترك الهجرة ووجوب الجهاد ، وكذلك الإيمان له مبدأ وكمال وظاهر وباطن ، فإذا علقت به الأحكام الدنيوية من الحقوق والحدود كحقن الدم والمال والمواريث والعقوبات الدنيوية علقت بظاهره لا يمكن غير ذلك إذ تعليق ذلك بالباطن متعذر وإن قدر أحيانًا.فهو متعسر علمًا وقدرة ، فلا يعلم ذلك علمًا يثبت فى الظاهر ، ولا يمكن عقوبة من يعلم ذلك منه فى الباطن .

وبهذين المثلين كان النبى صلى الله عليه وسلم يمتنع عن عقوبة المنافقين ، فإن فيهم من لم يكن يعرفهم كما أخبر الله بذلك ، والذين كان يعرفهم لو عاقب بعضهم لغضب له قومه ، ولقال الناس إن محمدًا يقتل أصحابه ، فكان يحصل بسبب ذلك نفور عن الإسلام ، إذ لم يكن الذنب ظاهرًا يشترك الناس فى معرفته ، ولما همَّ بعقوبة من يتخلف عن الصلاة منعه من فى البيوت من النساء والذرية ، وأما مبدأه فيتعلق به خطاب الأمر والنهى فإذا قال الله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ

إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٦] ونحو ذلك فهو أمر فى الظاهر لكل من أظهره ، وهو خطاب من الباطن لكل من عرف من نفسه أنه مصدق للرسول وإن كان عاصيًا وإن كان لم يقم بالواجبات الباطنة والظاهرة ، وذلك أنه إن كان لفظ الذين آمنوا يتناولهم فلا كلام ، وإن كان لم يتناولهم فذلك لذنوبهم ، فلا تكون ذنوبهم مانعة من أمرهم بالحسنات التى إن فعلوها كانت سبب رحمتهم ، وإن تركوها كان أمرهم بها وعقوبتهم عليها عقوبة على ترك الإيمان والكافر يجب عليه أيضًا ، لكن لا يصح منه حتى يؤمن ، وكذلك المنافق المحض لا يصح منه فى الباطن حتى يؤمن .

وأما من كان معه أول الإيمان فهذا يصح منه ، لأن معه إقرارًا فى الباطن بوجوب ما أوجبه الرسول وتحريم ما حرمه ، وهذا سبب الصحة ، وأما كماله فيتعلق به خطاب الوعد بالجنة والنصرة والسلامة من النار ، فإن هذا الوعد إنما هو لمن فعل المأمور وترك المحظور ، ومن فعل بعضًا وترك بعضًا ، فيثاب على ما فعله ويعاقب على ما تركه ، فلا يدخل هذا فى اسم المؤمن المستحق للحمد والثناء ، دون الذم والعقاب ، ومن نفى عنه الرسول الإيمان فنفى الإيمان فى هذا الحكم لأنه ذكر ذلك على سبيل الوعيد ، والوعيد إنما يكون بنفى ما يقتضى الثواب ويدفع العقاب ، ولهذا ما فى الكتاب والسنة من نفى الإيمان عن أصحاب الذنوب فإنما هو فى خطاب الوعيد والذم ، لا فى خطاب الأمر والنهى ، ولا أحكام الدنيا .

واسم الإسلام والإيمان والإحسان هى أسماء ممدوحة مرغوب فيها لحسن العاقبة لأهلها ، فبيَّن النبى صلى الله عليه وسلم أن العاقبة الحسنة لمن اتصف بها على الوجه الذى بيَّنه ، ولهذا كان من نفى عنهم الإيمان أو الإيمان والإسلام جميعًا ، ولم يجعلهم كفارًا ، إنما نفى عنهم ذلك فى أحكام الآخرة ، وهو الثواب ، لم ينفه فى أحكام الدنيا ، لكن المعتزلة ظنت أنه إذا انتفى الاسم انتفت جميع أجزائه ، فلم يجعلوا معهم شيئًا من الإيمان والإسلام فجعلوهم مخلدين فى النار ، وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف ، ولو لم يكن معهم شىء من الإيمان

والإسلام لم يثبت فى حقهم شيء من أحكام المؤمنين والمسلمين لكن كانوا كالمنافقين ، وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع التفريق بين المنافق الذى يكذب الرسول فى الباطن ، وبين المؤمن المذنب ، فالمعتزلة سووا بين أهل الذنوب وبين المنافقين فى أحكام الدنيا والآخرة فى نفى الإسلام والإيمان عنهم ، بل قد يثبتونه للمنافق ظاهرًا وينفونه عن المذنب باطنًا وظاهرًا .

فإن قيل : فإذا كان كل مؤمن مسلمًا ، وليس كل مسلم مؤمنًا الإيمان الكامل كما دل عليه حديث جبريل ، وغيره من الأحاديث مع القرآن ، وكما ذكر ذلك عمن ذكر عنه من السلف ، لأن الإسلام الطاعات الظاهرة وهو الاستسلام والانقياد ، لأن الإسلام فى الأصل هو الاستسلام والانقياد ، وهذا هو الانقياد والطاعة ، والإيمان فيه معنى التصديق والطمأنينة ، وهذا قدر زائد ، فما تقولون فيمن فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه مخلصًا لله تعالى باطنًا وظاهرًا : أليس هذا مسلمًا باطنًا وظاهرًا وهو من أهل الجنة ، وإذا كان كذلك فالجنة لا يدخلها إلا نفس مؤمنة ، فهذا يجب أن يكون مؤمنًا .

قلنا : قد ذكرنا غير مرة أنه لابد أن يكون معه الإيمان الذى وجب عليه ، إذ لو لم يؤد الواجب لكان معرضًا للوعيد ؛ لكن قد يكون من الإيمان ما لا يجب عليه إما لكونه لم يخاطب به أو لكونه كان عاجزًا عنه ، وهذا أولى لأن الإيمان الموصوف فى حديث جبريل والإسلام لم يكونا واجبين فى أول الإسلام ، بل ولا واجبًا على من تقدم قبلنا من الأمم أتباع الأنبياء أهل الجنة مع أنهم مؤمنون مسلمون ، ومع أن الإسلام دين الله الذى لا يقبل دينًا غيره ؛ وهو دين الله فى الأولين والآخرين ، لأن الإسلام عبادة الله وحده لا شريك له بما أمر ، فقد تتنوع أوامره فى الشريعة الواحدة فضلًا عن الشرائع ، فيصير فى الإسلام بعض الإيمان بما يخرج عنه فى وقت آخر كالصلاة إلى الصخرة كان من الإسلام حين كان الله أمر به ، ثم خرج من الإسلام لما نهى الله عنه .

ومعلوم أن الخمس المذكورة فى حديث جبريل لم تجب فى أول الأمر ، بل الصيام والحج وفرائض الزكاة إنما وجبت بالمدينة ؛ والصلاة الخمس إنما وجبت

ليلة المعراج ، وكثير من الأحاديث ليس فيها ذكر الحج لتأخر وجوبه إلى سنة تسع أو عشر على أصح القولين ، ولما بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم كان من اتبعه وآمن بما جاء به مؤمنًا ومسلمًا ، وإذا مات كان من أهل الجنة ، ثم إنه بعد هذا زاد الإيمان والإسلام حتى قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٣] وكذلك الإيمان ، فإن هذا الإيمان المفصل الذى ذكره حديث جبريل لم يكن مأمورًا به فى أول الأمر لما أنزل الله سورة العلق والمدثر ، بل إنما جاء هذا فى السور المدنية كالبقرة والنساء ؛ وإذا كان كذلك لم يلزم أن يكون هذا الإيمان المفصل واجبًا على من تقدم قبلنا ، وإذا كان كذلك فقد يكون الرجل مسلمًا يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا ومعه الإيمان الذى فرض عليه وهو من أهل الجنة ، وليس معه هذا الإيمان المذكور فى حديث جبريل ، لكن هذا يقال معه ما أمر به من الإيمان والإسلام ، وقد يكون مسلمًا يعبد الله كما أمره ولا يعبد غيره ويخافه ويرجوه ، ولكن لم يخلص إلى قلبه أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ولا أن يكون الله ورسوله والجهاد فى سبيله أحب إليه من جميع أهله وماله ، وأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأن يخاف الله لا يخاف غيره ؛ وألا يتوكل إلا على الله ، وهذه كلها من الإيمان الواجب ؛ وليست من لوازم الإسلام ، فإن الإسلام هو الاستسلام وهو يتضمن الخضوع لله وحده والانقياد له والعبودية لله وحده ، وهذا قد يتضمن خوفه ورجاءه ، وأما طمأنينة القلب بمحبته وحده وأن يكون أحب إليه مما سواهما ، وبالتوكل عليه وحده ، وبأن يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه ؛ فهذه من حقائق الإيمان التى تختص به ، فمن لم يتصف بهذا لم يكن من المؤمنين حقًّا وإن كان مسلمًا ، وكذلك وجل قلبه إذا ذكر الله ، وكذلك زيادة الإيمان إذا تليت عليه آياته .

فإن قيل : ففوات هذا الإيمان من الذنوب أم لا ؟ قيل : إذا لم يبلغ الإنسان الخطاب الموجب لذلك لا يكون تركه من الذنوب إذا كان قادرًا على ذلك ، وكثير من الناس أو أكثرهم ليس عندهم هذه التفاصيل التى تدخل فى الإيمان

مع أنهم قائمون بالطاعة الواجبة فى الإسلام ، وإذا وقعت منهم ذنوب تابوا واستغفروا منها ؛ وحقائق الإيمان التى فى القلوب لا يعرفون وجوبها ؛ بل ولا أنها من الإيمان ؛ بل كثير ممن يعرفها منهم يظن أنها من النوافل المستحبة إن صدَّق بوجوبها .

فالإسلام يتناول من أظهر الإسلام وليس معه شيء من الإيمان ، وهو المنافق المحض ، ويتناول من أظهر الإسلام مع التصديق المجمل فى الباطن ؛ ولكن لم يفعل الواجب كله لا من هذا ولا هذا وهم الفساق يكون فى أحدهم شعبة نفاق ويتناول من أتى بالإسلام الواجب وما يلزمه من الإيمان ، ولم يأت بتمام الإيمان الواجب ، وهؤلاء ليسوا فسَّاقًا تاركون فريضة ظاهرة ، ولا مرتكبون محرمًا ظاهرًا ، لكن تركوا من حقائق الإيمان الواجبة علمًا وعملًا بالقلب يتبعه بعض الجوارح ما كانوا به مذمومين ، وهذا هو النفاق الذى كان يخافه السلف على نفوسهم ، فإن صاحبه قد يكون فيه شعبة نفاق ، وبعد هذا ما ميز الله به المقربين على الأبرار أصحاب اليمين من إيمان وتوابعه ، وذلك قد يكون من باب المستحبات ؛ وقد يكون أيضًا مما فضل به المؤمن إيمان وإسلام مما وجب عليه ولم يجب على غيره ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » وفى الحديث الآخر : « ليس وراء ذلك من الإيمان مثقال حبة خردل » فإن مراده أنه لم يبق بعد هذا الإنكار ما يدخل فى الإيمان حتى يفعله المؤمن ، بل الإنكار بالقلب آخر حدود الإيمان ، ليس مراده أن من لم ينكر ذلك لم يكن معه من الإيمان حبة خردل ، ولهذا قال : ليس وراء ذلك . فجعل المؤمنين ثلاث طبقات ، وكل منهم فعل الإيمان الذى يجب عليه ، لكن الأول لما كان أقدرهم كان الذى يجب عليه أكمل مما يجب على الثانى وكان ما يجب على الثانى أكمل مما يجب على الآخر ، وعلم بذلك أن الناس يتفاضلون فى الإيمان الواجب عليهم بحسب استطاعتهم مع بلوغ الخطاب إليهم كلهم .

* * *

فصل

الاستثناء فى الإيمان

وأما الاستثناء فى الإيمان بقول الرجل أنا مؤمن إن شاء الله ، فالناس فيه على ثلاثة أقوال ، منهم من يوجبه ، ومنهم من يحرمه ، ومنهم من يجوِّز الأمرين باعتبارين ، وهذا أصح الأقوال ، فالذين يحرمونه هم المرجئة والجهمية ونحوهم ممن يجعل الإيمان شيئًا واحدًا يعلمه الإنسان من نفسه كالتصديق بالرب ونحو ذلك مما فى قلبه ؛ فيقول أحدهم أنا أعلم أنى مؤمن كما أعلم أنى تكلمت بالشهادتين وكما أعلم أنى قرأت الفاتحة ، وكما أعلم أنى أحب رسول الله ؛ وأنى أبغض اليهود والنصارى ؛ فقولى أنا مؤمن كقولى أنا مسلم ، وكقولى تكلمت بالشهادتين ، وقرأت الفاتحة ، وكقولى أنا أبغض اليهود والنصارى ونحو ذلك من الأمور الحاضرة التى أنا أعلمها وأقطع بها ، وكما أنه لا يجوز أن يقال : أنا قرأت الفاتحة إن شاء الله ، وكذلك لا يقول : أنا مؤمن إن شاء الله ، لكن إذا كان يشك فى ذلك فيقول : فعلته إن شاء الله ، قالوا : فمن استثنى فى إيمانه فهو شاك فيهم وسموهم الشكاكة .

والذين أوجبوا الاستثناء لهم مأخذان :

أحدهما : أن الإيمان هو ما مات عليه الإنسان ، والإنسان إنما يكون عند الله مؤمنًا وكافرًا باعتبار الموافاة وما سبق فى علم الله أنه يكون عليه ، وما قبل ذلك لا عبرة به ، قالوا : والإيمان الذى يسبقه الكفر فيكون صاحبه كافرًا ليس بإيمان كالصلاة التى يفسدها صاحبها قبل الكمال ؛ وكالصيام الذى يفطر صاحبه قبل الغروب ، وصاحب هذا هو عند الله كافر لعلمه بما يموت عليه ، وكذلك قالوا فى الكفر ، وهذا المأخذ مأخذ كثير من المتأخرين من الكلابية وغيرهم ممن يريد أن ينصر ما اشتهر عن أهل السنة والحديث من قولهم : أنا مؤمن إن شاء الله ويريد ذلك مع أن الإيمان لا يتفاضل ؛ ولا يشك الإنسان فى الموجود منه ، وإنما

يشك فى المستقبل وانضم إلى ذلك أنهم يقولون محبة الله ورضاه وسخطه وبغضه قديم ، ثم هل ذلك هو الإرادة أم صفات أخر ؟ لهم فى ذلك قولان ، وأكثر قدمائهم يقولون : إن الرضا والسخط والغضب ونحو ذلك صفات ليست هى الإرادة ، كما أن السمع والبصر ليس هو العلم ، كذلك الولاية والعداوة ، هذه كلها صفات قديمة أزلية عند أبى محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب ومن اتبعه من المتكلمين ومن أتباع المذاهب من الحنبلية والشافعية والمالكية وغيرهم .

قالوا : والله يحب فى أزله من كان كافرًا إذا علم أنه يموت مؤمنًا فالصحابة ما زالوا محبوبين لله وإن كانوا قد عبدوا الأصنام مدة من الدهر ، وإبليس ما زال الله يبغضه وإن كان لم يكفر بعد . وهذا على أحد القولين لهم ، فالرضا والسخط يرجع إلى الإرادة ، والإرادة تطابق العلم ، فالمعنى ما زال الله يريد أن يثيب هؤلاء بعد إيمانهم ويعاقب إبليس بعد كفره ، وهذا معنى صحيح ، فإن الله يخلق كل ما علم أن سيخلقه ، وعلى قول من يثبتها صفات أخر يقول هو أيضًا حبه تابع لمن يريد أن يثيبه ، فكل من أراد إثابته فهو يحبه ؛ وكل من أراد عقوبته فإنه يبغضه ، وهذا تابع للعلم ، وهؤلاء عندهم لا يرضى عن أحد بعد أن كان ساخطًا عليه ، ولا يفرح بتوبة عبد بعد أن تاب عليه ، بل ما زال يفرح بتوبته والفرح عندهم إما الإرادة وإما الرضا ، والمعنى ما زال يريد إثابته أو يرضى عما يريد إثابته ، وكذلك لا يغضب عندهم يوم القيامة دون ما قبله ، بل غضبه قديم إما بمعنى الإرادة وإما بمعنى آخر .

فهؤلاء يقولون : إذا علم أن الإنسان يموت كافرًا لم يزل مريدًا لعقوبته ، فذاك الإيمان الذى كان معه باطل لا فائدة فيه ، بل وجوده كعدمه ، فليس هذا بمؤمن أصلا ، وإذا علم أنه يموت مؤمنًا لم يزل مريدًا لإثابته وذاك الكفر الذى فعله وجوده كعدمه ، فلم يكن هذا كافرًا عندهم أصلًا ، فهؤلاء يستثنون فى الإيمان بناء على هذا المأخذ ، وكذلك بعض محققيهم يستثنون فى الكفر مثل أبى منصور الناتريدى ؛ فإن ما ذكروه مطرد فيهما ، ولكن جماهير الأئمة على أنه لا يستثنى فى الكفر ، والاستثناء فيه بدعة لم يعرف عن أحد من السلف ، ولكن هو لازم لهم .

والذين فرقوا من هؤلاء قالوا : نستثنى فى الإيمان رغبة إلى الله فى أن يثبتنا عليه إلى الموت ، والكفر لا يرغب فيه أحد ، لكن يقال إذا كان قولك مؤمن كقولك فى الجنة ، فأنت تقول عن الكافر هو كافر ، ولا تقول هو فى النار إلا معلقًا بموته على الكفر ، فدل على أنه كافر فى الحال قطعًا ، وإن جاز أن يصير مؤمنًا كذلك المؤمن ، وسواء أخبر عن نفسه أو عن غيره ، فلو قيل عن يهودى أو نصرانى هذا كافر قال : إن شاء الله ، إذا لم يعلم أنه يموت كافرًا ؛ وعند هؤلاء لا يعلم أحدُ أحدًا مؤمنًا إلا إذا علم أنه يموت عليه ، وهذا القول قاله كثير من أهل الكلام أصحاب ابن كلاب ، ووافقهم على ذلك كثير من أتباع الأئمة ، لكن ليس هذا قول أحد من السلف لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ، ولا كان أحد من السلف الذين يستثنون فى الإيمان يعللون بهذا ، لا أحمد ولا من قبله .

ومأخذ هذا القول طرده طائفة ممن كانوا فى الأصل يستثنون فى الإيمان اتباعًا للسلف ، وكانوا قد أخذوا الاستثناء عن السلف ، وكان أهل الشام شديدين على المرجئة ، وكان محمد بن يوسف الفريابى صاحب الشورى مرابطًا بعسقلان لما كانت معمورة ، وكانت من خيار ثغور المسلمين ، ولهذا كان فيها فضائل لفضيلة الرباط فى سبيل الله ، وكانوا يستثنون فى الإيمان اتباعًا للسلف واستثنوا أيضًا فى الأعمال الصالحة كقول الرجل : صليت إن شاء الله ونحو ذلك بمعنى القبول لما فى ذلك من الآثار عن السلف ، ثم صار كثير من هؤلاء بأخرة يستثنون فى كل شىء ، فيقول : هذا ثوبى إن شاء الله ، وهذا حبل إن شاء الله ، فإذا قيل لأحدهم : هذا لاشك فيه ؛ قال : نعم لا شك فيه ؛ لكن إذا شاء الله أن يغيِّره غيَّره ، فيريدون بقولهم إن شاء الله جواز تغييره فى المستقبل ، وإن كان فى الحال لا شك فيه ، كأن الحقيقة عندهم التى لا يستثنى فيها ما لم تتبدل كما يقوله أولئك فى الإيمان إن الإيمان ما علم الله أن لا يتبدل حتى يموت صاحبه عليه .

لكن هذا القول قاله قوم من أهل العلم والدين باجتهاد ونظر ، وهؤلاء الذين يستثنون فى كل شىء تلقوا ذلك عن بعض أتباع شيخهم ، وشيخهم الذى

ينتسبون إليه يقال أبو عمرو عثمان بن مرزوق لم يكن ممن يرى هذا الاستثناء ، بل كان فى الاستثناء على طريقة من كان قبله ، ولكن أحدث ذلك بعض أصحابه بعده ، وكان شيخهم منتسبًا إلى الإمام أحمد ، وهو من أتباع عبد الوهاب بن الشيخ أبى الفرج ، وأبو الفرج من تلامذة القاضى أبى يعلى ، وهؤلاء كلهم وإن كانوا منتسبين إلى الإمام أحمد فهم يوافقون ابن كلاب على أصله الذى كان أحمد ينكره على الكلابية ، وأمر بهجر الحارث المحاسبى من أجله ، كما وافقه علىٰ أصله طائفة من أصحاب مالك والشافعى وأبى حنيفة كأبى المعالى الجوينى ، وأبى الوليد الباجى ، وأبى منصور الماتريدى وغيرهم ، وقول هؤلاء فى مسائل متعددة من مسائل الصفات وما يتعلق بها كمسألة القرآن هل هو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته ، أم القرآن لازم لذاته ، وقولهم فى الاستثناء مبنى على ذلك الأصل .

وكذلك بناه الأشعرى وأتباعه عليه ، لأن هؤلاء كلهم كلابية يقولون : إن الله لم يتكلم بمشيئته وقدرته ولا يرضى ولا يغضب على أحد بعد إيمانه وكفره ولا يفرح بتوبة التائب بعد توبته . ولهذا وافقوا السلف على أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، ثم قالوا إنه قديم لم يتكلم به بمشيئته وقدرته ، ثم اختلفوا بعد هذا فى القديم أهو معنى واحد أم حروف قديمة مع تعاقبها ، كما بسطت أقوالهم وأقوال غيرهم فى مواضع أخر .

وهذه الطائفة المتأخرة تنكر أن يقال قطعًا فى شيء من الأشياء مع غلوهم فى الاستثناء ، حتى صار هذا اللفظ منكرًا عندهم ، وإن قطعوا بالمعنى فيجزمون بأن محمدًا رسول الله وأن الله ربهم ؛ ولا يقولون قطعًا . وقد اجتمع بى طائفة منهم فأنكرت عليهم ذلك ، وامتنعت من فعل مطلوبهم حتى يقولوا قطعًا ، وأحضروا لى كتابًا فيه أحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يقول الرجل قطعًا ، وهى أحاديث موضوعة مختلقة قد افتراها بعض المتأخرين .

والمقصود هنا أن الاستثناء فى الإيمان لما علل بمثل تلك العلة طرد أقوام تلك العلة فى الأشياء التى لا يجوز الاستثناء فيها بإجماع المسلمين ، بناء على أن الأشياء الموجودة الآن إذا كانت فى علم الله تتبدل أحوالها فيستثنى فى صفاتها الموجودة

فى الحال ، ويقول هذا صغير إن شاء الله ، لأن الله قد يجعله كبيرًا ، ويقول هذا مجنون إن شاء الله ؛ لأن الله قد يجعله عاقلًا ، ويقول للمرتد هذا كافر إن شاء الله ، لإمكان أن يتوب وهؤلاء الذين استثنوا فى الإيمان بناء على هذا المأخذ ظنوا هذا قول السلف ، وهؤلاء وأمثالهم من أهل الكلام ينصرون ما ظهر من دين الإسلام كما ينصر ذلك المعتزلة والجهمية وغيرهم من المتكلمين ، فينصرون إثبات الصانع والنبوة والمعاد ونحو ذلك ، وينصرون مع ذلك ما ظهر من مذاهب أهل السنة والجماعة كما ينصر ذلك الكلابية والكرامية والأشعرية ونحوهم ، فينصرون أن القرآن كلام الله غير مخلوق وأن الله يُرى فى الآخرة وأن أهل القبلة لا يكفرون بالذنب ولا يخلدون فى النار ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم له شفاعة فى أهل الكبائر ، وأن فتنة القبر حق وعذاب القبر حق ، وحوض نبينا صلى الله عليه وسلم فى الآخرة حق ، وأمثال ذلك من الأقوال التى شاع أنها من أصول أهل السنة والجماعة . كما ينصرون خلافة الخلفاء الأربعة . وفضيلة أبى بكر وعمر ونحو ذلك .

وكثير من أهل الكلام فى كثير مما ينصره لا يكون عارفًا بحقيقة دين الإسلام فى ذلك ، ولا ما جاءت به السنة . ولا ما كان عليه السلف . فينصر ما ظهر من قولهم بغير المآخذ التى كانت مآخذهم فى الحقيقة ، بل بمآخذ أخر قد تلقاها عن غيرهم من أهل البدع . فيقع فى كلام هؤلاء من التناقض والاضطراب والخطأ ما ذم به السلف مثل هذا الكلام وأهله . فإن كلامهم فى ذم مثل هذا الكلام كثير . والكلام المذموم هو المخالف للكتاب والسنة ، وكل ما خالف الكتاب والسنة فهو باطل وكذب ، فهو مخالف للشرع والعقل : ﴿ وتَمَّتْ كلمةُ ربِّكَ صِدْقًا وعَدْلًا ﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ١١٥] فهؤلاء لما اشتهر عندهم عن أهل السنة أنهم يستثنون فى الإيمان ، ورأوا أن هذا لا يمكن إلا إذا جعل الإيمان هو ما يموت العبد عليه ، وهو ما يوافى به العبد ربه ، ظنوا أن الإيمان عند السلف هو هذا ، فصاروا يحكون هذا عن السلف وهذا القول لم يقل به أحد من السلف ، ولكن هؤلاء حكوه عنهم بحسب ظنهم لما رأوا أن قولهم لا يتوجه إلا

على هذا الأصل ، وهم يدعون أن ما نصروه من أصل جهم ى الإيمان هو قول المحققين والنظار من أصحاب الحديث ، ومثل هذا يوجد ى الإيمان كثيرًا فى مذاهب السلف التى خالفها بعض النظار وأظهر حجته فى ذلك و لم يعرف حقيقة قول السلف ، فيقول من عرف حجة هؤلاء دون السلف أو من يعظمهم لما يراه من تميزهم عليه ، هذا قول المحققين ، وقال المحققون ويكون ذلك من الأقوال الباطلة المخالفة للعقل مع الشرع ، وهذا كثيرًا ما يوجد فى كلام بعض المبتدعين وبعض الملحدين ، ومن آتاه الله علمًا وإيمانًا على أنه لا يكون عند المتأخرين من التحقيق إلا ما هو دون تحقيق السلف ، لا فى العلم ولا فى العمل ، ومن كان له خبرة بالنظريات والعقليات وبالعمليات علم أن مذهب الصحابة دائمًا أرجح من قول من بعدهم ، وأنه لا يبتدع أحد قولًا فى الإسلام إلا كان خطأ ، وكان الصواب قد سبق إليه من قبله .

قال أبو القاسم الأنصارى فيما حكاه عن أبى إسحاق الاسفرائينى ، لما ذكر قول أبى الحسن وأصحابه فى الإيمان وصحح أنه تصديق القلب قال : ومن أصحابنا من قال بالموافاة وشرط فى الإيمان الحقيقى أن يوافى ربه به ويختم عليه . ومنهم من لم يجعل ذلك شرطًا فيه فى الحال .

قال الأنصارى : لما ذكر أن معظم أئمة السلف كانوا يقولون الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح قال : الأكثرون من هؤلاء على القول بالموافاة . ومن قال بالموافاة فإنما يقوله فيمن لم يرد الخبر بأنه من أهل الجنة . وأما من ورد الخبر بأنه من أهل الجنة فإنه يقطع على إيمانه كالعشرة من الصحابة . ثم قال : والذى اختاره المحققون أن الإيمان هو التصديق . وقد ذكرنا اختلاف أقوالهم فى الموافاة ؛ وأن ذلك هل هو شرط فى صحة الإيمان وحقيقته فى الحال وكونه معتدًا عند الله ربه وفى حكمه ؟ فمن قال إن ذلك شرط فيه يستثنون فى الإطلاق فى الحال ، لا أنهم يشكون فى حقيقة التوحيد والمعرفة ، ولكنهم يقولون لا يدرى أى الإيمان الذى نحن مؤمنون به فى الحال هل هو معتد به عند الله على معنى أنا ننتفع به فى العاقبة ونجتنى من ثماره .

فإذا قيل لهم : أمؤمنون أنتم حقًا أو تقولون إن شاء الله أو تقولون نرجو ؟ فيقولون : نحن مؤمنون إن شاء الله ، يعنون بهذا الاستثناء تفويض الأمر فى العاقبة إلى الله سبحانه وتعالى ، وإنما يكون الإيمان إيمانًا معتدًا به فى حكم الله إذا كان ذلك علم الفوز وآية النجاة ، وإذا كان صاحبه والعياذ بالله فى حكم الله من الأشقياء يكون إيمانه الذى يحل به فى الحال عارية . قال ولا فرق عند الصائرين إلى هذا المذهب بين أن يقول أنا مؤمن من أهل الجنة قطعًا ، وبين أن يقول أنا مؤمن حقًا .

قلت : هذا إنما يجيء على قول من يجعل الإيمان متناولًا لأداء الواجبات وترك المحرمات ؛ فمن مات على هذا كان من أهل الجنة ، وأما على قول الجهمية والمرجئة هو القول الذى نصره هؤلاء الذين نصروا قول جهم فإنه يموت على الإيمان قطعًا ، ويكون كامل الإيمان عندهم ، وهو مع هذا عندهم من أهل الكبائر الذين يدخلون النار ، فلا يلزم إذا وافى الإيمان أن يكون من أهل الجنة ، وهذا اللازم لقولهم يدل على فساده ، لأن الله وعد المؤمنين بالجنة ، وكذلك قالوا لاسيما والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ٧٢] . قال فهؤلاء – يعنى القائلين بالموافاة جعلوا الثبات على هذا التصديق والإيمان الذى وصفناه إلى العاقبة والوفاء به فى المآل شرطًا فى الإيمان شرعًا لا لغة ولا عقلًا . قال : هذا مذهب سلف أصحاب الحديث والأكثرين ، قال وهو اختيار الإمام أبى بكر بن فورك ، وكان الإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة يغلو فيه ، وكان يقول : من قال أنا مؤمن حقًا فهو مبتدع .

وأما مذهب سلف أصحاب الحديث كابن مسعود وأصحابه ، والثورى وابن عيينة وأكثر علماء الكوفة ويحيى بن سعيد القطان فيما يرويه عن علماء أهل البصرة وأحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة ، فكانوا يستثنون فى الإيمان ، وهذا متواتر عنهم ، ولكن ليس فى هؤلاء من قال أنا أستثنى لأجل الموافاة ، وإن الإيمان إنما هو اسم لما يوافى به العبد ربه ، بل صرح أئمة هؤلاء بأن الاستثناء إنما هو لأن الإيمان يتضمن فعل الواجبات ، فلا يشهدون لأنفسهم بذلك ، كما لا

يشهدون لها بالبر والتقوى ، فإن ذلك مما لا يعلمونه وهو تزكية لأنفسهم بلا علم كما سنذكر أقوالهم إن شاء الله فى ذلك .

وأما الموافاة فما علمت أحدًا من السلف علل بها الاستثناء ولكن كثير من المتأخرين يعلل بها من أصحاب الحديث من أصحاب أحمد ومالك والشافعى وغيرهم كما يعلل بها نظارهم كأبى الحسن الأشعرى وأكثر أصحابه لكن ليس هذا قول أصحاب الحديث ، ثم قال :

فإن قال قائل : إذا قلتم إن الإيمان المأمور به فى الشريعة هو ما وصفتموه بشرائط ، وليس ذلك متلقى من اللغة فكيف يستقيم قولكم إن الإيمان لغوى ؟ قلنا : الإيمان هو التصديق لغة وشرعًا ، غير أن الشرع ضم إلى التصديق أوصافًا وشرائط مجموعها يصير مجزيًا مقبولًا كما قلنا فى الصلاة والصوم والحج ونحوها ، والصلاة فى اللغة هى الدعاء غير أن الشرع ضم إليها شرائط .

فيقال : هذا يناقض ما ذكروه فى مسمى الإيمان ، فإنهم لما زعموا أنه فى اللغة التصديق والشرع لم يغيره أوردوا على أنفسهم .

فإن قيل : أليس الصلاة والحج والزكاة معدولة عن اللغة مستعملة فى غير مذهب أهلها . قلنا قد اختلف العلماء فى ذلك ، والصحيح أنها مقررة على استعمال أهل اللغة ومبقاه على مقتضياتها وليست منقولة إلا أنها زيد فيها أمور ، فلو سلمنا للخصم كون هذه الألفاظ منقولة أو محمولة على وجه من المجاز بدليل مقطوع به ، فعليه إقامة الدليل على وجود ذلك فى الإيمان فإنه لا يجب إزالة ظواهر القرآن بسبب إزالة ظاهر منها .

فيقال : أنتم فى الاستثناء جعلتم الشرع زاد فيه وجعلتموه كالصلاة والزكاة مع أنه لا يمكن أحدًا أن يذكر من الشرع دليلًا على أن الإيمان لا يسمى به إلا الموافاة به ، وبتقدير ذلك ، فمعلوم أن دلالة الشرع على ضم الأعمال إليه أكثر وأشهر ، فكيف لم تدخل الأعمال فى مسماه شرعًا ؟ وقوله : لابد من دليل مقطوع به عنه جوابان :

أحدهما : النقض بالموافاة فإنه لا يقطع فيه .

الثانى : لا نسلم بل نحن نقطع بأن حب الله ورسوله ونحو ذلك داخل فى مسمى الإيمان فى كلام الله ورسوله أعظم مما نقطع ببعض أفعال الصلاة والصوم والحج كمسائل النزاع ، ثم أبو الحسن وابن فورك وغيرهما من القائلين بالموافاة ، وهم لا يجعلون الشرع ضم إليه شيئًا بل عندهم كل من سلبه الشرع اسم الإيمان ، فقد فُقد من قلبه التصديق ، قال : ومن أصحابنا من لم يجعل الموافاة على الإيمان شرطًا فى كونه إيمانًا حقيقيًا فى الحال ، وإن جعل ذلك شرطًا فى استحقاق الثواب عليه ، وهذا مذهب المعتزلة والكرامية ، وهو اختيار أبى إسحاق الإسفرائينى وكلام القاضى يدل عليه ، قال وهو اختيار شيخنا أبى المعالى فإنه قال : الإيمان ثابت فى الحال قطعًا لا شك فيه ، ولكن الإيمان الذى هو علم الفوز وآية النجاة إيمان الموافاة فاعتنى السلف به وقرنوه بالاستثناء ، ولم يقصدوا الشك فى الإيمان الناجز . قال : ومن صار إلى هذا يقول : الإيمان صفة يشتق منها اسم المؤمن ، وهو المعرفة والتصديق كما أن العالم يشتق من العلم ، فإذا عرفت ذلك من نفسى قطعت به كما قطعت بأنى عالم وعارف ومصدق ، فإن ورد فى المستقبل ما يزيله خرج إذ ذاك عن استحقاق هذا الوصف ، ولا يقال تبينًا أنه لم يكن إيمانًا مأمورًا به . بل كان إيمانًا مجزيًا فتغير وبطل . وليس كذلك قوله : أنا من أهل الجنة فإن ذلك مغيب عنه وهو مرجو ، قال : ومن صار إلى القول الأول يتمسك بأشياء منها أن يقال : الإيمان عبادة العمر . وهو كطاعة واحدة فيتوقف صحة أولها على سلامة آخره كما يقول فى الصلاة والصيام والحج ، قالوا : ولا شك أنه لا يسمى فى حال وليًا ولا سعيدًا ولا مرضيًا عند الله ، وكذلك الكافر لا يسمى فى الحال عدو الله ولا شقيًا إلا على معنى أنه تجرى عليه أحكام الأعداء فى الحال لإظهاره من نفسه علامتهم .

قلت : هذا الذى قالوه إنه لا شك فيه هو قول ابن كلاب والأشعرى وأصحابهم ومن وافقهم من أصحاب أحمد ومالك والشافعى وغيرهم ، وأما أكثر الناس فيقولون بل هو إذا كان كافرًا فهو عدو الله ، ثم إذا آمن واتقى صار وليًا

لله قال تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا لا تَتَّخِذُوْا عَدُوِّى وعدُوَّكُم أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم ﴾ إلى قوله : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُم وبيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُم مِنْهُم مَوَدَّةً واللَّهُ قَدِيرٌ واللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة الممتحنة ، الآيات : ١ - ٧] وكذلك كان ، فإن هؤلاء أهل مكة الذين كانوا يعادون الله ورسوله قبل الفتح آمَنَ أكثرهم وصاروا من أولياء الله ورسوله ، وابن كلاب وأتباعه بنوا ذلك على أن الولاية صفة قديمة لذات الله هى الإرادة والمحبة والرضا ونحو ذلك فمعناها إرادة ثابتة بعد الموت ، وهذا المعنى تابع لعلم الله ، فمن علم أنه يموت مؤمنًا لم يزل وليًا لله ، لأنه لم يزل الله مريدًا لإدخاله الجنة ، وكذلك العداوة .

وأما الجمهور فيقولون الولاية والعداوة وإن تضمنت محبة الله ورضاه وبغضه وسخطه فهو سبحانه يرضى عن الإنسان ويحبه بعد أن يؤمن ويعمل صالحًا ، وإنما يسخط عليه ويغضب بعد أن يكفر كما قال تعالى : ﴿ ذلكَ بأَنَّهُم اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وكَرِهُوا رِضْوَانَه ﴾ [سورة محمد ، الآية : ٢٨] فأخبر أن الأعمال أسخطته ، وكذلك قال : ﴿ فَلما آسفُونا انْتَقَمْنَا مِنْهُم ﴾ [سورة الزخرف ، الآية : ٥٥] قال المفسرون : أغضبونا ، وكذل قال الله تعالى : ﴿ وإنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُم ﴾ [سورة الزمر ، الآية : ٧] وفى الحديث الصحيح الذى فى البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى : « من عادى لى وليًّا فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرب إلَّى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ؛ ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه »[1] .

---

(١) أخرجه البخارى (حـ ١١ / ٦٥٠٢) .

فأخبر أنه لا يزال يتقرب إليه بالنوافل حتى يحبه ، ثم قال فإذا أحببته كنت كذا كنت كذا . وهذا بين فى أن حبه لعبده بعد أن يأتى بمحابه ، والقرآن قد دل على مثل ذلك قال تعالى : « قُلْ إنْ كُنتُم تُحِبُّونَ اللّهَ فاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُم الله ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٣١] فقوله : ﴿ يُحْبِبْكُم ﴾ جواب الأمر فى قوله فاتبعونى ، وهو بمنزلة الجزاء مع الشرط ولهذا جزم ، وهذا ثواب عملهم وهو اتباع الرسول فأثابهم على ذلك بأن أحبهم ؛ وجزاء الشرط وثواب العمل ومسبب السبب لا يكون إلا بعده لا قبله وهذا كقوله تعالى : ﴿ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [سورة غافر ، الآية : ٦٠] وقوله تعالى : ﴿ يا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِىَ اللَّهِ وآمنُوا بِهِ يغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُم ويُجِرْكُمْ من عَذَابٍ أليمٍ ﴾ [سورة الأحقاف ، الآية : ٣١] وقوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِح لَكُمْ أَعْمَالَكُم ويَغْفِرْ لكُم ذُنُوبَكُم ﴾ [سورة الأحزاب ، الآيتان : ٧٠ - ٧١] ومثل هذا كثير ، وكذلك قوله : ﴿ فَأَتِمُّوا إِلَيْهِم عَهْدَهُم إِلَى مُدَّتِهِم إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المتَّقِينَ ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ٤] وقوله : ﴿ لِمَ تقُولُونَ ما لا تفْعَلُونَ * كَبُر مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لَا تَفْعَلُونَ * إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فى سَبِيلِهِ صَفًّا كأنَّهم بُنْيانٌ مَرصُوصٌ ﴾ [سورة الصف ، الآيات : ٢ - ٤] وكانوا قد سألوه لو علمنا أى العمل أحب إلى الله لعملناه ، وقوله : ﴿ إنَّ الذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَر مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُم إذْ تُدْعَوْنَ إلَى الإيمانِ فتَكْفُرونَ ﴾ [سورة غافر ، الآية : ١٠] فهذا يدل على أن حبه ومقته جزاء لعملهم ، وأنه يحبهم إذا اتقوا وقاتلوا ولهذا رغبهم فى العمل بذلك كما يرغبهم بسائر ما يعدهم به ، وجزاء العمل بعد العمل ، وكذلك قوله : ﴿ إذْ تُدْعَوْنَ إلى الإيمانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ فإنه سبحانه يمقتهم إذ يدعون إلى الإيمان فيكفرون . ومثل هذا قوله : ﴿ لَقَدْ رَضِىَ اللَّهُ عنِ المؤْمِنِينَ إذْ يُبَايِعُونَكَ تحْتَ الشَّجَرةِ فَعَلِمَ ما فِى قلُوبِهِم فأنْزَلَ السَّكِينَةَ علَيْهِم وأثابَهُم فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [سورة الفتح ، الآية : ١٨] فقوله : ﴿ لَقَدْ رَضِىَ اللَّهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ إذ يُبَايِعُونَكَ ﴾ بيّن أنه رضى عنهم هذا الوقت فإن حرف (إذ) ظرف لما مضى من الزمان ؛ فعلم أنه ذاك الوقت رضى عنهم بسبب ذلك

العمل وأثابهم عليه ، والمسبب لا يكون قبل سببه ، والموقت بوقت لم يكن قبل وقته ؛ وإذا كان راضيًا عنهم من جهة ، فهذا الرضا الخاص الحاصل بالبيعة لم يكن إلا حينئذ كما ثبت فى الصحيح : « أنه يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة هل رضيتم فيقولون يا ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم ما هو أفضل من ذلك فيقولون يا ربنا وأى شىء أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدًا »[1] وهذا يدل على أنه فى ذلك الوقت حصل لهم هذا الرضوان الذى لا يتعقبه سخط أبدًا ، ودل على غيره من الرضوان قد يتعقبه سخط .

وفى الصحيحين فى حديث الشفاعة : « يقول كل من الرسل : إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله » وفى الصحاح عن النبى صلى الله عليه وسلم من غير وجه أنه قال : « لله أشد فرحًا بتوبة عبده من رجل أضل راحلته بأرض دوية مهلكة عليها طعامه وشرابه يطلبها فلم يجدها ، فاضطجع ينتظر الموت فلما استيقظ إذا دابته عليها طعامه وشرابه »[2] وفى رواية : « كيف تجدون فرحه بها ؟ قالوا : عظيمًا يا رسول الله ، قال : لله أشد فرحًا بتوبة عبده من هذا براحلته » وكذلك ضحكه إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر ، كلاهما يدخل الجنة ، وضحكه إلى الذى يدخل الجنة آخر الناس ويقول أتسخر بى وأنت رب العالمين فيقول : لا ولكنى على ما أشاء قادر ، وكل هذا فى الصحيح .

وفى دعاء القنوت : « تولنى فيمن توليت » والقديم لا يتصور طلبه وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ وَلِيِّىَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الكِتَابَ وهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ١٩٦] وقال : ﴿ واللَّهُ ولِىُّ المتَّقين ﴾ [سورة الجاثية ، الآية : ١٩] فهذا التولى لهم جزاء صلاحهم وتقواهم ومسبب عنهم

---

(١) أخرجه البخارى (حـ ١١ / ٦٥٤٩) ، ومسلم (حـ٤ ــ جنة / ٩) ، والترمذى (حـ٤ / ٢٥٥٥) .

(٢) مسلم (حـ٤ ــ توبة / ٣-٨) ، والترمذى (حـ٤ / ٢٤٩٨) ، وأحمد (حـ١ ص ٣٨٣) وغيرهم .

فلا يكون متقدمًا عليه وإن كان إنما صاروا صالحين ومتقين بمشيئته وقدرته وفضله وإحسانه ؛ لكن تعلق بكونهم متقين وصالحين ، فدل على أن هذا التولى هو بعد ذلك مثل كونه مع المتقين والصالحين بنصره وتأييده ؛ ليس ذلك قبل كونهم متقين وصالحين ، وهكذا الرحمة . قال صلى الله عليه وسلم : « الراحمون يرحمهم الرحمن بفضل رحمته . ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » قال الترمذى حديث صحيح ؛ وكذلك قوله : ﴿ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُم ﴾ [سورة الزمر ، الآية : ٧] علق الرضاء به تعليق الجزاء بالشرط والمسبب بالسبب ، والجزاء إنما يكون بعد الشرط ، وكذلك قوله : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [سورة الفتح ، الآية : ٢٧] يدل على أنه يشاء ذلك فيما بعد ، وكذلك قوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون ﴾ [سورة يس ، الآية : ٨٢] ﴿ فإذا ﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ، فدل على أنه إذا أراد كونه قال له كن فيكون ، وكذلك قوله : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ١٠٥] فبيّن فيه أنه سيرى ذلك فى المستقبل إذا عملوه .

والمأخذ الثانى فى الاستثناء : أن الإيمان المطلق يتضمن فعل ما أمر الله به عبده كله . وترك المحرمات كلها ؛ فإذا قال الرجل أنا مؤمن بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه بأنه من الأبرار المتقين القائمين بفعل جميع ما أمروا به ؛ وترك ما نهوا عنه ، فيكون من أولياء الله ، وهذا من تزكية الإنسان لنفسه ، وشهادته لنفسه بما لا يعلم ، ولو كانت الشهادة صحيحة لكان ينبغى له أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال ، ولا أحد يشهد لنفسه بالجنة ؛ فشهادته لنفسه بالإيمان شهادته لنفسه بالجنة إذا مات على هذه الحال ؛ وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون ، وإن جوزوا ترك الاستثناء بمعنى آخر كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

قال الخلال فى كتاب السنة : حدثنا سليمان بن الأشعث يعنى أبا داود السجستانى قال : سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل قال له رجل قيل لى : أمؤمن

أنت ؟ قلت : نعم ؛ هل على فى ذلك شيء ؟ هل الناس إلا مؤمن وكافر ؟ فغضب أحمد وقال هذا كلام الإرجاء ؛ قال الله تعالى : ﴿ وآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأمْرِ اللَّهِ ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ١٠٦] من هؤلاء ، ثم قال أحمد : أليس الإيمان قولًا وعملًا ؟ قال له الرجل بلى ، قال : فجئنا بالقول . قال : نعم . قال : فجئنا بالعمل . قال : لا . قال : فكيف تعيب أن يقول إن شاء الله ويستثنى .

قال أبو داود أخبرنى أحمد بن أبى شريح أن أحمد بن حنبل كتب إليه فى هذه المسألة أن الإيمان قول وعمل فجئنا بالقول ولم نجيء بالعمل فنحن نستثنى فى العمل . ذكر الخلال هذا الجواب من رواية الفضل بن زياد . وقال : زاد الفضل سمعت أبا عبد الله يقول : كان سليمان بن حرب يحمل هذا على التقبل . ويقول نحن نعمل ولا ندرى يتقبل منا أو لا .

قلت : والقبول متعلق بفعله كما أمر . فكل من اتقى الله فى عمله ففعله كما أمر فقد تقبل منه . لكن هو لا يجزم بالقبول لعدم جزمه بكمال الفعل كما قال تعالى : ﴿ والَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وقُلُوبُهُم وَجِلَةٌ ﴾ [سورة المؤمنون ، الآية : ٦٠] قالت عائشة : يا رسول الله أهو الرجل يزنى ويشرب الخمر ويخاف ؟ فقال : « لا يا بنت الصديق بل هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه » .

وروى الخلال عن أبى طالب قال سمعت أبا عبد الله يقول لا نجد بدًا من الاستثناء لأنهم إذا قالوا مؤمن فقد جاء بالقول ، فإنما الاستثناء بالعمل لا بالقول ، وعن إسحاق بن إبراهيم قال : سمعت أبا عبد الله يقول : اذهب إلى حديث ابن مسعود فى الاستثناء فى الإيمان أن الإيمان قول وعمل ، والعمل الفعل ، فقد جئنا بالقول ونخشى أن نكون فرطنا فى العمل ، فيعجبنى أن يستثنى فى الإيمان بقول أنا مؤمن إن شاء الله . قال وسمعت أبا عبد الله وسئل عن قول النبى صلى الله عليه وسلم : « وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » الاستثناء ههنا على أى شئ يقع ؟ قال : على البقاع ، لا يدرى أيدفن فى موضع الذى سلم عليه أم فى غيره .

وعن الميمونى أنه سأل أبا عبد الله عن قوله ورأيه فى مؤمن إن شاء الله قال :

أقول مؤمن إن شاء الله ، ومؤمن أرجو ، لأنه لا يدرى كيف البراءة للأعمال على ما افترض عليه أم لا ، ومثل هذا كثير فى كلام أحمد وأمثاله ، وهذا مطابق لما تقدم من أن المؤمن المطلق هو القائم بالواجبات المستحق للجنة إذا مات على ذلك ، وإن المفرط بترك المأمور أو فعل المحظور لا يطلق عليه أنه مؤمن وأن المؤمن المطلق هو البر التقى ولى الله ، فإذا قال أنا مؤمن قطعًا كان كقوله أنا بر تقى ولى الله قطعًا .

وقد كان أحمد وغيره من السلف مع هذا يكرهون مع هذا سؤال الرجل لغيره أمؤمن أنت ويكرهون الجواب ؛ لأن هذه بدعة أحدثها المرجئة ليحتجوا بها لقولهم ؛ فإن الرجل يعلم من نفسه أنه ليس بكافر ؛ بل يجد قلبه مصدقًا بما جاء به الرسول فيقول أنا مؤمن فيثبت أن الإيمان هو التصديق لأنك تجزم بأنك مؤمن ، ولا تجزم بأنك فعلت كل ما أمرت به ، فلما علم السلف مقصدهم صاروا يكرهون الجواب أو يفصلون فى الجواب ؛ وهذا لأن لفظ الإيمان فيه إطلاق وتقييد ، فكانوا يجيبون بالإيمان المقيد الذى لا يستلزم أنه شاهد فيه لنفسه بالكمال ، ولهذا كان الصحيح أنه يجوز أن يقال أنا مؤمن بلا استثناء إذا أراد ذلك ، لكن ينبغى أن يقرن كلامه بما يبين أنه لم يرد الإيمان المطلق الكامل ، ولهذا كان أحمد يكره أن يجيب على المطلق بلا استثناء يقدمه .

وقال المروزى : قيل لأبى عبد الله نقول نحن المؤمنون ؟ فقال نقول نحن المسلمون ، وقال أيضًا : قلت لأبى عبد الله نقول إنا مؤمنون ؟ قال ولكن نقول إنا مسلمون ؛ ومع هذا فلم ينكر على من ترك الاستثناء إذا لم يكن قصد المرجئة أن الإيمان مجرد القول ، بل تركه لما يعلم أن فى قلبه إيمانًا وإن كان لا يجزم بكمال إيمانه . قال الخلال : أخبرنى أحمد بن أصرم المزنى أن أبا عبد الله قيل له : إذا سألنى الرجل فقال أمؤمن أنت ؟ قال : سؤالك إياى بدعة لا يشك فى إيمانه أو قال لا نشك فى إيماننا ، قال المزنى وحفظى أن أبا عبد الله قال أقول كما قال طاوس : آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله .

قال الخلال : أخبرنى حرب بن إسماعيل وأبو داود قال أبو داود : سمعت أحمد

قال سمعت سفيان ، يعنى ابن عيينة ، يقول إذا سئل أمؤمن أنت ؟ لم يجب ويقول سؤالك إياى بدعة ولا أشك فى إيمانى ، وقال إن قال إن شاء الله ليس يكره ولا يداخل الشك ، فقد أخبر عن أحمد قال لا نشك فى إيماننًا ، وأن السائل لا يشك فى إيمان المسئول ، وهذا أبلغ ، وهو إنما يجزم بأنه مقر مصدق بما جاء به الرسول لا يجزم بأنه قائم بالواجبات .

فعلم أن أحمد وغيره من السلف كانوا يجزمون ولا يشكون فى وجود ما فى القلب من الإيمان فى هذه الحال ، ويجعلون الاستثناء عائدًا إلى الإيمان المطلق المتضمن فعل المأمور ، ويحتجون أيضًا بجواز الاستثناء فيما لا يشك فيه ، وهذا مأخذ ثان وإن كنا لا نشك فيما فى قلوبنا من الإيمان ، فالاستثناء فيما يعلم وجوده قد جاءت به السنة لما فيه من الحكمة .

وعن محمد بن المحسن بن هارون قال : سألت أبا عبد الله عن الاستثناء فى الإيمان ، فقال : نعم ، الاستثناء على غير شك مخافة واحتياطًا للعمل ، وقد استثنى ابن مسعود وغيره وهو مذهب الثورى . قال الله تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ [سورة الفتح ، الآية : ٢٧] وقال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « إنى لأرجو أن أكون أتقاكم لله » وقال فى الميت : « وعليه يبعث إن شاء الله » فقد بين أحمد أنه يستثنى مخافة واحتياطًا للعمل ، فإنه يخاف ألا يكون قد كمل المأمور به فيحتاط بالاستثناء وقال على غير معنى شك ، يعنى من غير شك مما يعلمه الإنسان من نفسه ، وإلا فهو يشك فى تكميل العمل الذى خاف ألا يكون كمله ، فيخاف من نقصه ولا يشك فى أصله .

قال الخلال : وأخبرنى محمد بن أبى هارون أن جيش بن سندى حدثهم فى هذه المسألة قال أبو عبد الله : قول النبى صلى الله عليه وسلم حين وقف على المقابر فقال : « وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » وقد نعيت إليه نفسه وعلم أنه صائر إلى الموت ، وفى قصة صاحب القبر : « عليه حييت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله » وفى قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إنى اختبأت دعوتى وهى نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئا » وفى مسألة الرجل الذى قال للنبى

صلى الله عليه وسلم أحدنا يصبح جنبًا يصوم ؟ فقال إنى أفعل ذلك ثم أصوم فقال : إنك لست مثلنا أنت قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال والله إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله ، وهذا كثير وأشباهه على اليقين .

قال : ودخل عليه شيخ فسأله عن الإيمان فقال له : قول وعمل يزيد وينقص ، فقال له : أقول مؤمن إن شاء الله ؟ قال : نعم . فقال له : إنهم يقولون لى إنك شاك ؛ قال : بئس ما قالوا ، ثم خرج فقال : ردوه ، فقال : أليس يقولون الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ، قال : نعم . قال : هؤلاء يستثنون ، قال له : كيف يا أبا عبد الله ؟ قال : قل لهم زعمتم أن الإيمان قول وعمل ، فالقول قد أتيتم به والعمل لم تأتوا به ، فهذا الاستثناء لهذا العمل ، قيل له يستثنى فى الإيمان ؟ قال نعم ، أقول أنا مؤمن إن شاء الله ، استثنى على اليقين لا على الشك ، ثم قال : وقال الله : ﴿ لتدْخُلُنَّ المسْجِدَ الحرامَ إنْ شاءَ الله آمنِينَ ﴾ [سورة الفتح ، الآية : ٢٧] فقد أخبر الله تعالى أنهم داخلون المسجد الحرام .

فقد بين أحمد فى كلامه أنه يستثنى مع تيقنه بما هو الآن موجود فيه ، يقوله بلسانه وقلبه لا يشك فى ذلك ، وبستثنى لكون العمل من الإيمان ؛ وهو لا يتيقن أنه أكمله بل يشك فى ذلك ، فنفى الشك وأثبت اليقين فيما يتيقنه من نفسه ، وأثبت الشك فيما لا يعلم وجوده ، وبين أن الاستثناء مستحب لهذا الثانى الذى لا يعلم هل أتى به أو لا ، وهو جائز أيضا لما يتيقنه ، فلو استثنى لنفس الموجود فى قلبه جاز كقول النبى صلى الله عليه وسلم : « والله إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله » وهذا أمر موجود فى الحال ليس بمستقبل ، وهو كونه أخشانا ، فإنه لا يرجو أن يصير أخشانا لله بل هو يرجو أن يكون حين هذا القول أخشانا لله ، كما يرجو المؤمن إذا عمل عملا أن يكون الله تقبله منه ، ويخاف ألا يكون تقبله منه ، كما قال تعالى : ﴿ والذينَ يؤْتُونَ ما آتَوا وقُلُوبُهم وَجِلَةٌ أنهم إلى ربِّهم راجِعُون ﴾ [سورة المؤمنون ، الآية : ٦٠] وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه » والقبول هو أمر حاضر أو ماض وهو يرجوه ويخافه ، وذلك أن ما له عاقبة

مستقبلة محمودة أو مذمومة والإنسان يجوز وجوده وعدمه يقال إنه يرجوه وإنه يخافه ، فتعلق الرجاء والخوف بالحاضر والماضى لأن عاقبته المطلوبة والمكروهة مستقبلة ، فهو يرجو أن يكون الله يقبل عمله فيثيبه عليه فيرحمه فى المستقبل ، ويخاف ألا يكون يقبله فيحرم ثوابه كما يخاف أن يكون الله قد سخط عليه فى معصيته فيعاقبه عليها .

وإذا كان الإنسان يسعى فيما يطلبه كتاجر أو بريد أرسله فى حاجته يقضيها فى بعض الأوقات فإذا مضى ذلك الوقت يقول أرجو أن يكون فلان قد قضى ذلك الأمر ، وقضاؤه ماض ، لكن ما يحصل لهذا من الفرح والسرور وغير ذلك من مقاصده مستقبل ، ويقول الإنسان فى الوقت الذى جرت عادة الحاج بدخولهم إلى مكة أرجو أن يكونوا دخلوا ويقول فى سرية بعثت إلى الكفار : نرجو أن يكون الله قد نصر المؤمنين وغنمهم ، ويقال فى نيل مصر عند وقت ارتفاعه : نرجو أن يكون قد صعد النيل ، كما يقول الحاضر فى مصر مثل هذا الوقت : نرجو أن يكون النيل هذا العام نيلا مرتفعًا ، ويقال لمن له أرض يحب أن تمطر : إذا مطرت بعض النواحي أرجو أن يكون المطر عامًّا ، وأرجو أن يكون قد مطرت الأرض الفلانية وذلك لأن المرجو هو ما يفرح بوجوده ويسره .

وهذا يتعلق بالعلم ، والعلم بذلك مستقبل ، فإذا علم أن المسلمين انتصروا والحاج قد دخلوا أو المطر قد نزل ، فرح بذلك وحصل به مقاصد أخر له ، وإذا كان الأمر بخلاف ذلك لم يحصل ذلك المحبوب المطلوب ، فيقول أرجو وأخاف ، لأن المحبوب والمكروه متعلق بالعلم بذلك وهو مستقبل ، وكذلك المطلوب بالإيمان من السعادة والنجاة هو أمر مستقبل فيستثنى فى الحاضر بذلك . لأن المطلوب به مستقبل ، ثم كل مطلوب مستقبل تعلق بمشيئة الله وإن جزم بوجوده لأنه لا يكون مستقبل إلا بمشيئة الله .

فقولنا يكون هذا إن شاء الله حق ، فإنه لا يكون إلا إن شاء الله ، والشك واللفظ ليس فيه إلا التعليق ، وليس من ضرورة التعليق الشك ، بل هذا بحسب علم المتكلم ، فتارة يكون شاكًا وتارة لا يكون شاكًا ، فلما كان الشك يصحبه كثيرًا لعدم علم الإنسان بالعواقب ظن الظان أن الشك داخل فى معناها ، وليس

كذلك ، فقوله : ﴿ لتدْخُلنَّ المسْجِدَ الحرامَ إنْ شاءَ اللَّهُ ﴾ لا يتصور فيه شك من الله ؛ بل ولا من رسوله المخاطب والمؤمنين ، ولهذا قال ثعلب : هذا استثناء من الله وقد علمه ، والخلق يستثنون فيما لا يعلمون . وقال أبو عبيدة وابن قتيبة : إنَّ إنْ بمعنى إذ أى إذ شاء الله ، ومقصودهم بهذا تحقيق الفعل بإن كما يتحقق مع إذ وإلاّ فإذ ظرف توقيت و (إنْ) حرف تعليق .

فإن قيل : فالعرب تقول إذا احمر البسر فائتنى ولا تقول إن احمر البسر ؟

قيل : لأن المقصود هنا توقيت الإتيان بحين احمراره ، فأتوا بالظرف المحقق . ولفظ إن لا يدل على توقيت بل هى تعليق محض تقتضى ارتباط الفعل الثانى بالأول ونظير ما نحن فيه أن يقولوا البسر يحمر ويطيب إن شاء الله ، وهذا حق ، فهذا نظير ذلك .

فإن قيل : فطائفة من الناس فروا من هذا المعنى وجعلوا الاستثناء لأمر مشكوك فيه ، فقال الزجاج : لتدخلن المسجد الحرام أى أمركم الله به ، وقيل الاستثناء يعود إلى الأمن والخوف أى لتدخلنه آمنين ، فأما الدخول فلا شك فيه ، وقيل لتدخلن جميعكم أو بعضكم لأنه علم أن بعضكم يموت ، فالاستثناء لأنهم لم يدخلوا جميعهم .

قيل : كل هذه الأقوال وقع أصحابها فيما فروا منه ؛ مع خروجهم عن مدلول القرآن فحرفوه تحريفًا لم ينتفعوا به ، فإن قول من قال : أى أمركم الله به هو سبحانه قد علم هل يأمرهم أو لا يأمرهم ، فعلمه بأنه سيأمرهم بدخوله كعلمه بأن سيدخلوا ، فعلقوا الاستثناء بما لم يدل عليه اللفظ ، وعلم الله متعلق بالمظهر والمضمر جميعا ، وكذلك أمنهم وخوفهم هو يعلم أنهم يدخلون آمنين أو خائفين وقد أخبر أنهم يدخلون آمنين مع علمه بأنهم يدخلون آمنين ، فكلاهما لم يكن فيه شك عند الله بل ولا عند رسوله ، وقول من قال جميعهم أو بعضهم ، يقال المعلق بالمشيئة دخول من أريد باللفظ ، فإن كان أراد الجميع فالجميع لابد أن يدخلوه . وإن أريد الأكثر كان دخولهم هو المعلق بالمشيئة ، وما لم يرد لا يجوز

أن يعلق بإن ، وإنما علق بإن ما سيكون وكان هذا وعدًا مجزوما به ، ولهذا لما قال عمر للنبى صلى الله عليه وسلم عام الحديبية : ألم تكن تحدثنا أنا نأتى البيت ونطوف به ؟ قال : بلى أقلت لك إنك تأتيه هذا العام ؟ قال : قال فإنك آتيه ومطوف به .

فإن قيل : لِمَ لمْ يعلق غير هذا من مواعيد القرآن ؟

قيل : لأن هذه الآية نزلت بعد مرجع النبى صلى الله عليه وسلم من الحديبية وكانوا قد اعتمروا ذلك العام واجتهدوا فى الدخول فصدهم المشركون فرجعوا وبهم من الألم ما لا يعلمه إلا الله ، فكانوا منتظرين لتحقيق هذا الوعد ذلك العام إذ كان النبى صلى الله عليه وسلم وعدهم وعدًا مطلقا ، وقد روى أنه رأى فى المنام قائلا يقول : ﴿ لتدْخُلنَّ المسْجِد الحرامَ إنْ شاءَ الله ﴾ فأصبح فحدث الناس برؤياه وأمرهم بالخروج إلى العمرة فلم تحصل لهم العمرة ذلك العام فنزلت هذه الآية ووعده لهم بما وعدهم به الرسول من الأمر الذى كانوا يظنون حصوله ذلك العام ، وكان قول إن شاء الله هنا تحقيقا لدخوله وأن الله يحقق ذلك لكم كما يقول الرجل فيما عزم على أن يفعله لا محالة ، والله لأفعلن كذا إن شاء الله لا يقولها لشك فى إرادته وعزمه بل تحقيقا لعزمه وإرادته فإنه يخاف إذا لم يقل (إن شاء الله) أن ينقض عزمه ولا يحصل ما طلبه كما فى الصحيحين أن سليمان عليه السلام قال : « والله لأطوفن الليلة على مائة امرأة كل منهن تأتى بفارس يقاتل فى سبيل الله » فقال له صاحبه : قل إن شاء الله فلم يقل ، فلم تحمل منهن إلا امرأة جاءت بشق رجل ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانًا أجمعون »[1] فهو إذا قال إن شاء الله لم يكن لشك فى طلبه وإرادته ، بل لتحقيق الله ذلك له ، إذ الأمور لا تحصل إلا بمشيئة الله ، فإذا تألّى العبد عليه من غير تعليق بمشيئته لم يحصل مراده ، فإنه من تألّى على الله يكذبه ، ولهذا يروى : لا أتممت لمقدر أمرًا .

---

(١) البخارى (حـ٦ / ٢٨١٩) ، وأحمد (حـ٢ ص ٢٢٩) .

وقيل لبعضهم : بماذا عرفت ربك ؟ قال : بفسخ العزائم ونقض الهمم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [سورة الكهف ، الآيتان : ٢٣ ، ٢٤] فإن قوله : ﴿ لأفعلن ﴾ فيه معنى الطلب والخبر ، وطلبه جازم وأما كون مطلوبه يقع ، فلهذا يكون إن شاءه ، وطلبه للفعل يجب أن يكون من الله بحوله وقوته ، ففي الطلب عليه أن يطلب من الله ، وفي الخبر لا يخبر إلا بما علمه الله ، فإذا جزم بلا تعليق كان كالمتألي على الله فيكذبه الله ، فالمسلم في الأمر الذي هو عازم عليه ومريد له وطالب له طلبًا لا تردد فيه ، يقول إن شاء الله ، لتحقيق مطلوبه وحصول ما أقسم عليه لكونه لا يكون إلا بمشيئة الله ، لا لتردد في إرادته ، والرب تعالى مريد لإنجاز ما وعدهم به إرادة جازمة لا مشوبة فيها وما شاء فعل ، فإنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ليس كالعبد الذي يريد ما لا يكون ، ويكون ما لا يريد .

فقوله سبحانه : ﴿ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ تحقق أن عدتكم به يكون لا محالة بمشيئتي وإرادتي ، فإن ما شئت كان وما لم أشأ لم يكن ، فكان الاستثناء هنا لقصد التحقيق لكونهم لم يحصل لهم مطلوبهم الذي وعدوا به ذلك العام ، وأما سائر ما وعدوا به فلم يكن كذلك .

ولهذا تنازع الفقهاء فيمن أراد باستثنائه في اليمين في هذا المعنى : هل يكون مستثنيًا به أو تلزمه الكفارة إذا حنث بخلاف من ترددت إرادته فإنه يكون مستثنيًا بلا نزاع ، والصحيح أنه يكون في الجميع مستثنيًا لعموم المشيئة ولأن الرجل وإن كانت إرادته للمخلوق به جازمة فقد علقه بمشيئة الله ، فهو يجزم بإرادته له ، لا يجزم بحصول مراده ، ولا هو أيضًا مريد له بتقدير ألا يكون فإن هذا تمييز لا إرادة فهو إنما التزمه إذا شاء الله . فإذا لم يشأه لم يلتزمه بيمينه ، ولا حلف أنه يكون ، وإن كانت إرادته له جازمة ، فليس كلما أريد التزم باليمين فلا كفارة عليه .

وقد تبين بما ذكرناه أن قول القائل : (إن شاء الله) يكون مع كمال إرادته في حصول المطلوب ، وهو يقولها لتحقيق المطلوب لاستعانته بالله في ذلك لا

شك فى الإرادة ، هذا فيما يحلف عليه ويريده كقوله تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ فإنه خبر عما أراد الله كونه وهو عالم بأن يكون ، وقد علقه بقوله : ﴿ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ فكذلك ما يخبر به الإنسان عن مستقبل أمره مما هو جازم بإرادته وجازم بوقوعه فيقول فيه إن شاء الله لتحقيق وقوعه ، لا للشك لا فى إرادته ولا فى العلم بوقوعه .

لهذا يذكر الاستثناء عند كمال الرغبة فى المعلق وقوة إرادة الإنسان له ، فتبقى خواطر الخوف تعارض الرجاء فيقول : إن شاء الله لتحقيق رجائه مع علمه بأن سيكون ، كما يسأل الله ويدعوه الأمر الذى قد علم أنه يكون ، كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر قد أخبرهم بمصارع المشركين ثم هو بعد هذا يدخل إلى العريش يستغيث به ويقول : « اللهم أنجز لى ما وعدتنى »[1] لأن العلم بما يقدره لا ينافى أن يكون قدره بأسباب ، والدعاء من أعظم أسبابه ، كذلك رجاء رحمة الله وخوف عذابه من أعظم الأسباب فى النجاة من عذابه وحصول رحمته .

والاستثناء بالمشيئة يحصل فى الخبر المحض ، وفى الخبر الذى معه طلب ، فالأول إذا حلف على جملة خبرية لا يقصد به حضًّا ولا منعًا بل تصديقًا أو تكذيبًا ، كقوله : والله ليكونن كذا إن شاء الله أو لا يكون كذا . والمستثنى قد يكون عالمًا بأن هذا يكون أو لا يكون كما فى قوله : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ﴾ فإن هذا جواب غير محذوف .

والثانى : ما فيه الطلب كقوله : والله لأفعلن كذا أو لا أفعله إن شاء الله ، فالصيغة صيغة خبر ضمنها الطلب ولم يقل : والله إنى لمريد هذا ولا عازم عليه ، بل قال : والله ليكونن ، فإذا لم يكن قد حدث لوقوع الأمر بخلاف ما حلف عليه فحنث فإذا قال : (إن شاء الله) فإنما حلف عليه بتقدير أن يشاء الله لا مطلقًا .

ولهذا ذهب كثير من الفقهاء إلى أنه متى لم يوجد المحلوف عليه حنث ، أو

---

(١) أخرجه الترمذى (جـ ٥ / ٣٠٨١) .

متى وجد المحلوف عليه انه لا يفعله حنث سواء كان ناسيًا أو مخطئًا أو جاهلا فإنهم لحظوا أن هذا فى معنى الخبر ، فإذا وجد بخلاف مخبره فقد حنث ، وقال الآخرون : بل هذا مقصوده الحض والمنع كالأمر والنهى ، ومتى نهى الإنسان عن شيء ففعله ناسيًا أو مخطئًا لم يكن مخالفًا ، فكذلك هذا .

قال الأولون : فقد يكون فى معنى التصديق والتكذيب كقوله : والله ليقعن المطر أو لا يقع وهذا خبر محض ، ليس فيه حض ولا منع ، ولو حلف على اعتقاده فكان الأمر بخلاف ما حلف عليه حنث ، وبهذا يظهر الفرق بين الحلف على الماضى والحلف على المستقبل فإن اليمين على الماضى غير منعقدة فإذا أخطأ فيها لم يلزمه كفارة كالغموس ، بخلاف المستقبل ، وليس عليه أن يستثنى فى المستقبل إذا كان فعله . قال تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [سورة التغابن ، الآية : ٧] وكذلك قوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [سورة سبأ ، الآية : ٣] كما أمره أن يقسم على الحاضر فى قوله : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أحق هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ [سورة يونس ، الآية : ٥٣] وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكما عدلًا وإمامًا مقسِطًا »[1] وقال : « والذى نفسى بيده لا تذهب الدنيا حتى يأتى على الناس يوم لا يدرى القاتل فيما قَتَلَ ولا المقتولُ فِيما قُتِل » وقال : « هلك كسرى أو ليهلكن كسرى ثم لا يكون كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله »[2] وكلاهما فى الصحيح .

فأقسم صلوات الله وسلامه عليه على المستقبل فى مواضع كثيرة بلا استثناء ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد والشيخان والترمذى وابن ماجه وغيرهم من حديث أبى هريرة .

(٢) أخرجه البخارى (حـ٦ / ٣٠٢٧) ، ومسلم (حـ٤ ــ فتن / ٧٥) ، والترمذى (حـ٤ / ٢٢١٦) ، وأحمد (حـ ٢ ص ٢٣٣) .

الفهـرس

الموضوع		الصفحة
	المقدمة	٥
فصل :	التفريق بين الإسلام والإيمان	٦
	معنى المؤمن والمسلم والمهاجر	٨
	رأى الحسن البصري	٨
	اقتران الإيمان بالإسلام والعمل	١٣
	الأعمال مع نفي الإيمان	١٣
	العلم نوعان	٢١
	خشوع القلب والجسد	٢٦
فصل :	الاختلاف في بعض الأحاديث	٢٩
	حب الأنصار	٣٥
	التمايز بين خطاب المؤمن والكافر	٣٨
	النفاق والكفر	٤٥
فصل :	لفظ الصالح والشهيد	٤٨
فصل :	المعصية المطلقة هي الفسق والكفر	٥٠
فصل :	ظلم النفس المطلق يشمل الذنوب	٥٣
فصل :	الصلاح والفساد	٧٠
فصل :	دلالة الإيمان على العمل	٧٣
فصل :	الاستثناء في الإيمان	٩٨
فصل :	حجة مَنْ نَصَر الجهمية	١٢٤
فصل :	الإيمان المطلق مستلزم للأعمال	١٢٧
فصل :	اقتران الإيمان بالإسلام والعمل الصالح	١٢٩

رقم الإيـــــداع ٥٤٨٢ / ٩٣

الترقيم الدولى : I.S.B.N : 977 - 5227 - 34 - 8